استرداد عمر

من السيرة إلى المسيرة

د. أحمد خيري العمري

استرداد عمر

من السيرة إلى المسيرة

د. أحمد خيري العمري

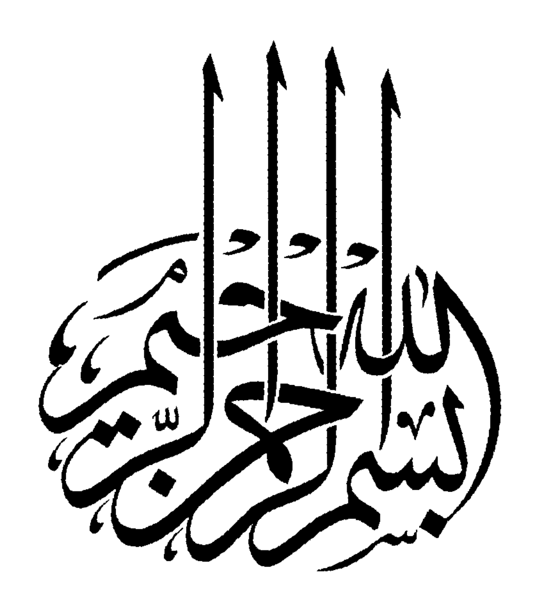
ح أحمد خيري العمري، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمري، أحمد خيري
استرداد عمر من السيرة إلى المسيرة / أحمد خيري العمري
ـ جدة، ١٤٣٤هـ
٤٤٩ ص، ١٦,٤ X ٢٣,٨ سم
ردمك: ٢ - ١٦٣٦ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ ـ عمر بن الخطاب بن نفيل، ت ٢٣ هـ
أ العنوان
ديوي ٢٣٩,٩ ١٤٣٤/٢٣٠٣
رقم الإيداع: ١٤٣٤/٢٣٠٣
ردمك: ٢ - ١٦٣٦ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

تصميم: ربا نبيل الحاج حسين.

مسؤول النشر في السعودية:
يوسف غريب - ٠٥٠٦٦١٨٠٥٦

مسؤول التوزيع خارج السعودية
غياث هواري ٠٠٢٠١٠١٤٧٨١٥٥١



إقرار

إنِّي رَأَيتُ أَنَّهُ لاَ يَكْتُب أَحَدٌ كِتَاباً فِي يَومِهِ إلاّ قالَ فِي غدِهِ، لَو غيِّرَ هَذا لَكَانَ أَحْسَن، وَلَو زِيدَ هَذا لَكَانَ يُسْتَحسَن، وَلَو قُدِّمَ هَذا لَكَان أَفْضَل، وَلَو تُركَ هَذا لَكَانَ أَجْمَل، وَهَذا مِن أَعْظَمِ العِبَرِ، وهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اِستِيلاَءِ النُقصِ عَلَى جُملَةِ البَشَر..

عماد الدين الأصفهانيّ

أقول: صحيحٌ مع كلِّ ما نكتبه.

وصحيحٌ أكثر عندما نكتب عن عمالقةٍ، الفرق أننا لا نرغب في أن نترك شيئاً مما كتبنا.. بل نريد أن نزيد لأننا كلما بحثنا في مناجمهم وجدنا المزيد من الكنوز غير المكتشفة..

لكن لا بدَّ مما ليس منه بدٌّ.

@iAbubader

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى والدي رحمه اللّٰه..

إلى هاجس العدالة العمريَّة الذي سكنه، وأرداه مشلولاً ذات مرَّةٍ، يوم وقّع، وهو القاضي، على أوّل حكم إعدامٍ في حياته المهنيَّة، في قضيَّةٍ جنائيَّةٍ لم تكن من نوع القضايا التي ينظر فيها عادةً.

لم يكن والدي يريد أن يوقّع على حكم الإعدام. لا أعرف إن لم يكن مطمئنّاً أو كان يبحث عن شبهةٍ ليدرأ بها الحكم.. وكانت كلُّ حيثيّات القضية تشير إلى الحكم بالإعدام.

ظلَّ يؤجِّل التوقيع لأشهرٍ.

ثمَّ وقّع!

وخلال شهرٍ أُصيب بجلطةٍ دماغيَّةٍ كان من نتائجها شللٌ نصفيٌّ أفقده القدرة على النطق.

لم يتم تنفيذ الحكم بسبب عفو عام صدر آنذاك.

لكن والدي بقي حبيساً لهذا الشلل ثلاثاً وعشرين عاماً.. إلى أن توفِّي..

ربَّما كان ذلك قد أفقدني جزءاً كبيراً من دوره كأب..

ولكن عندما أفكِّر: هذا الهاجس العمريّ، باهظ الثمن.. هو أعظم ما يمكن أن يحصله ولدٌ من أبيه.. وهو ممّا يستحقُّ أن يورَّث، مهما كانت نتائجه..

ويستحقُّ أن أورِّثه لأبنائي..

لوالدي وهاجسه المشلِّ الأكثر فاعلية من كل الهواجس، ولكلِّ من يعي أنَّ الحياة الحقيقيَّة هي في هواجس "عمريَّةٍ" كهذه..

أهدي هذا الكتاب..

على أعتاب نهضة عمرية..
يسترد جوهرها كاتب مبدع

لم أقرأ من قبل شرحاً توصيفياً لطريق النهضة مثلما قرأت للدكتور أحمد خيري العمري في مجمل كتبه السابقة. بدءاً من أفضل ما قرأت عن الصلاة (كيمياء الصلاة ـ بأجزائه الخمسة)، وكتابه الفذ الذي أبحر فيه ببراعة باحثاً عن طريق النهضة.. ليهدينا (البوصلة القرآنية)، وصولاً إلى (الفردوس المستعار والفردوس المستعاد)، ثم روايته الشيقة بالغة الإبداع (ألواح ودسر).

وها هو يعزز مسيرة فكر النهضة بهذا الكتاب الفريد الذي يتعرض لسيرة عمر رضي الله عنه بأسلوبٍ غير مسبوقٍ ومثيرٍ للإعجاب كونه لا يتحدَّث عن استرداد عمر بن الخطاب - الشخص.. وإنما يتحدَّث عن استرداد عمر – المعاني، القيم، العبقريُّ الذي ليس هناك من يفري فريه..

وكما أكد الكتاب: نستردُّه من أن يتحوَّل لمجرد حكايةٍ.. مجرَّد قصَّةٍ.. مجرَّد تاريخٍ مضى وانتهى يطيب لنا أن نتذكَّره بين الحين والآخر.

نستردُّه من أن يكون وسيلةً لاستدرار الدمع على العدل الذي كان.. الأمَّة التي كانت. نسترد فهم عمر لكتاب الله وسنَّة رسوله. كتاب الله وسنَّة رسوله وهما يصنعاننا.. وهما يعيدان تشكيلنا.. وهما يضعاننا بمواجهة أنفسنا كما يجب أن تكون.

وهذا ما فعله الكتاب والسنَّة بعمر.. أعادا تشكيله.. فصار يرى من خلالهما ويتنفَّس من خلالهما ويبني ويهدم ويصول ويجول من خلالهما. عمر – الإنسان الذي جمع بين الفهم والتطبيق وأعاد تشكيل العالم.

لقد نفذ كاتبنا الكبير إلى عمق المقاصد، وجوهر الفهم العمري للقرآن، في وقت يكاد الإسلام يصير مجرَّد شعائر مفرغةٍ منفصلةٍ عن أيَّة وظيفةٍ اجتماعيَّةٍ، وكلُّ شيءٍ يجد تبريراً وشرعنةً وتمريراً عبر الفتاوى والآراء الفقهيَّة. وهو ما جعلنا أكثر احتياجاً إلى فهم عمر، الذي كانت حياته صلاةً، وصلاته حياةً.

وفي عصر انتشر فيه الظلم، أصبحنا نحتاج عمر، رمز العدل الحقيقيِّ، النابع من شريعة من لا يظلم أحداً.

وإذ يجد المركز الطبي الدولي نفسه متفقاً في الهدف والرسالة مع مبادرة (القرآن من أجل أمة قائمة) المظلة الرسمية الراعية لأعمال الدكتور العمري، فإنه يستشعر مسؤوليته تجاه دعم فقه النهضة القرآني ويطمح في أن تكون مخرجات مثل هذه

@iAbubader

المبادرات رواحل لإعمال الفكر وإذكاء القلب والمساهمة في تشكيل جيل من الشباب المفكر والباحث القرآني وإثراء الأعمال ذات المرجعية القرآنية في التأصيل لفكر وفقه النهضة المستند لمنظومة قيم القرآن العظيم.

كما نستشعر مسؤوليتنا في المحافظة على التجدد المستمر لأعمال الدكتور أحمد خيري العمري لننقلب على تكلس مفاهيمنا، ونخرج ذلك العملاق الرابض في أعماقنا.. الذي يكاد يقتله الانتظار..

انتظار أن تبدأ حياتك حقاً، حياتك كما أرادها الله أن تكون.

ونتفق مع كاتبنا أن أهم فصلٍ في سيرة عمر، هو الفصل الذي لم يُكتب بعد، لكن نأمل أن يكتبه كل منا في حياته.. فصل انتقال عمر من السيرة إلى مسيرة كل واحدٍ منا في حياته.. فصل استردادنا لعمر.

ونأمل أن تكون هذه هي البداية.

د. وليد أحمد فتيحي

رئيس مجلس الإدارة - الرئيس التنفيذي

المركز الطبي الدولي - جدة

مقدّمةٌ ما..

لم يكن في ذهني أن أكتب عنه.. على الأقل ليس في هذه المرحلة.

كان دوماً موجوداً معي، منذ طفولتي، لكنّ استحضار ما كان موجوداً دوما معك على الورق أمرٌ أصعب بكثيرٍ ممّا قد يبدو للوهلة الأولى.

أقول لم يكن في ذهني أن أكتب عن عمر.

لكنّ هاتفاً ما، جاءني بعد منتصف الليل، ذات ليلةٍ، جعلني أقرّر أن أفعل.

كنت أعرف سلفاً أنّي لن أوفيه حقّاً.

لكنّي كنت أعرف أيضاً أنّ الأمر يستحقّ المحاولة.

****

الاتّصال الذي جاء في الثانية والنصف بعد منتصف الليل، جاء من الدكتور عمرو خالد.

لم يكن لي سابق علاقةٍ "شخصيّةٍ" معه.. كان هناك اتّصالٌ "ودّيٌّ" واحدٌ سابقٌ بيننا قبل شهرٍ من هذا.. لكن هذا كلُّ شيءٍ.

قال الأستاذ عمرو ببساطةٍ إنّه بصدد تقديم برنامجٍ عن "عمر بن الخطاب". تحديداً عن كونه صانع حضارة، في رمضان، وطلب منّي المشاركة في تقديم المادّة لهذا البرنامج.

لو أنّ (عمرو) طلب مني المشاركة في برنامجٍ عن أيّ موضوعٍ آخر، أو سيرة أيّ شخصٍ آخر، لربّما تردّدتُ، ولربّما أيضاً رفضت.

لكن عمر!..

قلت للأستاذ عمرو: أمسكتَ بي من يدي التي توجعني.

لم يكن هناك أيُّ مجالٍ للتردّد، مع شخصٍ كان عدوّاً "للتردّد" مثل عمر.

وكان أن كتبتُ كتاباً عن عمر..

اطّلع عليه الأستاذ عمرو بالتدريج.. واستفاد منه (نسبيّاً) في البرنامج الذي عُرِضَ فعلاً في رمضان اللاحق.. لكنّ الكتاب - في صيغته النهائيّة - يختلف جذريّاً عن

البرنامج، مضموناً وأسلوباً.. بل إنَّ بعض المفاصل قد تتناقض، ولا إشكال في هذا في رأيي.. وكنت أتوقّعه منذ البداية، فليس بالضرورة أن يلتزم الأستاذ عمرو – وله رؤيته الخاصّة - بما أطرحه من أفكارٍ.

الآن أقول: كان ذلك الهاتف مجرَّد قدرٍ.. لم يكن البرنامج إلا حجَّةً.. من أجل أن أكتب هذا الكتاب.

وعليَّ أن أعترف أنَّ الاربعين يوماً التالية، التي أنجزت فيها الصيغة الأولى للكتاب، كانت من أشدِّ الأيام خصوبةً وثراءً بالنسبة لي.. كان عمر أوسع من أن يُغطَّى بأربعين يوماً، لكنِّي أبحرت في سيرته، في كلِّ ذكرٍ له في كتب الحديث.. ووجدت كنوزاً لا تُقدَّر بثمنٍ، في إبحاري هذا.

دون أيِّ مبالغةٍ: جعلني التفاعل المكثَّف مع منجزات عمر، مع حياته الحافلة "أسير وأكلِّم نفسي"..

حرفيَّاً.

****

عندما قلت "يدي التي توجعني" كنت أقصد الكلمة حرفيَّاً أيضاً.

عمر كان دوماً نقطة ضعفي.

شخصٌ بقوَّة عمر، يجعلك عارياً أمام نفسك.. يجعلك تتحسَّس نقاط ضعفك.. يجعلك أكثر قرباً منها.. وأكثر معرفةً بها، وبالتالي أكثر قدرةً على التخلُّص منها.. تحويلها إلى نقاط قوةٍ.

شخصٌ مرَّ بالتغيُّر الجذريِّ - القاطع الذي مرَّ به عمر، يقول لك إنَّ كلَّ تغيُّراتك تكاد تكون سراباً بالمقارنة.

شخصٌ حاسمٌ وحازمٌ وقاطعٌ وساطعٌ مثل عمر، يجعلك تكتشف كم أنت متردِّدٌ وحائرٌ وضائعٌ في وساوس سخيفةٍ.. كم أنت بعيدٌ عن كلِّ ما كانه.

نعم..

كان عمر نقطة ضعفي..

نقطة ضعفي التي تجعلني أحاول أن أستكشف نقاط قوتي.

دوماً كان عمر معي، بطريقةٍ أو بأخرى.

كنت أخبّئه.. مثل صديقٍ سريٍّ.

وجاء ذلك الهاتف، بعد منتصف الليل، ليقول لي: لقد آن الأوان.. لكي تُخرِج عمر من داخلك.. لكي يطّلع عليه الآخرون.

جاءني الهاتف ليقول ما لم يقله الأستاذ عمرو خالد بالضبط..

جاء ليقول: أن تكف عن احتكار عمر لنفسك.

فليتعرّف إليه الآخرون.

****

لا يمكن أبداً أن أنكر أنّ نسب الأسرة كان له بدايةً أثرٌ كبيرٌ في هذه العلاقة.. (لو أنكرت، من سيصدقني؟!)..

منذ أن وعيت، كان عمر جزءاً من هذا الوعي.

كان بالتأكيد جزءاً من وعي الأسرة بذاتها.. من تقديرها لذاتها..

لا أذكر أوّل مرّةٍ عرفت بالأمر.. لكنّه يبدو لي كما لو أنّي عرفته منذ أن عرفت اسمي.. كما لو أنّه كان دوماً موجوداً هناك.. وكان موجوداً فعلاً هناك ما دام موجوداً في اسم العائلة، وفي شجرة النسب الموثّقة والتي تحدّد بدقّة الأجداد وصولاً إلى عاصم بن عمر بن الخطاب.

كنت "دودة كتبٍ" حقيقيّة منذ أن تعلّمت الأبجديّة.. وكان لا بدّ للكتب التي تتحدّث عن عمر بن الخطاب أن تكون طعاماً شهيّاً لهذه الدودة.. لا أزال أذكر الخانة في الطرف العلويّ على اليسار من مكتبتي، كانت كلُّها عن عمر.

قرأت "عبقرية عمر" للعقّاد وأنا في الثامنة من العمر.. لا أعتقد أنّي فهمت منه شيئاً آنذاك.

لكن لم يطل بي الأمر، حتى اكتشفت حجم الهوّة الموجودة بين سلوك بعض أفراد الأسرة – الفخورين وحتى المتعالين بانتسابهم لعمر - وبين كلّ ما جعل من عمر (عمر) الذي نعرفه.. بعبارةٍ أخرى: الإسلام.

@iAbubader

لم يطل الأمر أكثر، حتى اكتشفتُ أنَّ هذه الهوَّة موجودةٌ على نحوٍ أكبر، بين الأمَّة التي تفخر بأبي بكرٍ وعمر وكلِّ الصحابة، وبين واقعها البعيد عن الإسلام الذي آمن به الصحابة.

منذ ذلك الوقت، صار عمر صديقاً سريَّاً جدَّاً..

يمكن أن نقول إنَّ فهم أسباب تلك الهوَّة، ومن ثمَّ محاولة جسرها، هو الهدف في كلِّ ما أكتب.. تقريباً..

هذا الكتاب، هو محاولةٌ أخرى في ذلك.

حياة عمر كلُّها، كانت جسراً بين الواقع وبين ما يجب أن يكون.

عمر كان صانعاً للجسور..

بين النص والعالم كما يريده منزِّل هذا النصِّ أن يكون..

ومنه، نستفيد.. أن كنَّا نريد مثل هذه الجسور حقَّاً.

لماذا عمر؟!

@iAbubader

لماذا عمر؟!

صحيح.

لماذا عمر، دوناً عن الجميع؟

لن أقول إنّي أنوي كتابة سلسلةٍ من سير الصحابة.

أكتب عن عمر فحسب، ولا أرى أنّي سأكتب عن سواه، رضوان الله عليهم أجمعين. (على الأقلّ لا أرى ذلك الآن)..

لماذا؟

ليس لأسبابٍ شخصيَّةٍ حتماً.. ولا حتى طائفية.

بل لأنّي أرى أنَّ عمر، هو مدخلنا إلى ما يجب أن نصل له.

بالضبط: **فهم عمر للقرآن، وللسنَّة النبويَّة.. هو ما أقصده بمدخلنا.**

ما الذي يجب أن نصل له؟.. النهضة، الحضارة العادلة على قيم وأسس الإسلام، العالم كما يجب أن يكون، والذي يوصلنا إلى الآخرة كما نشتهي.

الطريق إلى الآخرة يمرُّ بالدنيا حتماً.

وما سنقوم به في الدنيا..

هو ما سيحدِّد موقعنا في الآخرة.

وفي هذه المرحلة من تاريخنا، نحتاج فهماً مثل فهم عمر للقرآن والسنَّة، كي نخرج

من دركنا الذي نحن فيه.. نحو النهضة والحضارة كما يجب أن تكون..

ربَّما في مراحل أخرى لاحقة يمكن لنا أن نلتزم بفهمٍ مختلفٍ للقرآن والسنَّة..

لكن في مفترق الطرق الذي نمرُّ فيه الآن.. في الوضع الذي تجتمع فيه الغيوم والعواصف حتى تكاد تنعدم الرؤية معها، ويبدو كلُّ منزلقٍ كما لو كان خياراً بالنسبة للبعض.

في هذه المرحلة: الفهم العمريُّ، للقرآن والسنَّة، الفهم الحاسم، فصل الخطاب، هو ما أؤمن أنَّنا نحتاجه..

بالضبط أؤمن أنَّه سيكون قادراً على أن يثبِّت أسساً وأركاناً للبناء الجديد..

اختيار الألوان وتفاصيل الغرف ونوع البلاط، أمرٌ يمكن أن نختلف فيه لاحقاً..

وأن تتعدَّد فيه الاختيارات.

****

لماذا عمر؟

لأنَّ مذهبه هو ما نحتاجه اليوم بشدَّة.

أكثر من أيِّ شيءٍ آخر.. دون أن يلغي هذا وجود مذاهب أخرى.

المذهب العمريَّ في فهم الكتاب والسنة، في تطبيقهما، في استخدامها كأدوات بناءٍ للإنسان الذي يصنع الحضارة.. هو ما نحتاجه أكثر من أيِّ شيءٍ.

للأسف لم يجد هذا المذهب من يؤصِّله.

وجدت المذاهب الفقهيَّة من يؤصِّلها، ويتمذهب بها.

ولم يجد المذهب العمريُّ في فهم النصوص وتطبيقها من أجل البناء النهضويِّ والحضاريِّ، لم يجد من يؤصِّله.

لا أتحدَّث هنا عن تطبيقاتٍ فقهيَّةٍ محدَّدةٍ أخذ بها عمر.

بل عن طريقته في قراءة العالم من حوله عبر النصوص القرآنية، وبالتالي مساهمته في بناء هذا العالم بحسب هذه النصوص.

في غمرة ما انشغلنا فيه، انشغلنا عن المذهب العمريّ في النهوض والحضارة..

ولقد آن الأوان.

****

ول ديورانت مفكّرٌ أمريكيٌّ كتب قصّة الحضارة في أحد عشر مجلداً، أكثر من عشرة آلاف صفحةٍ، وأكثر من أربعة ملايين كلمةٍ.

عمر اختصر كلَّ ذلك بحياته هو، قدَّم قصّة الحضارة بتنقُّلاتها ومراحلها المتعدِّدة، قدَّمها على نحوٍ عمليٍّ، فكانت حياته هي الطبعة العمليَّة من قصَّة الحضارة، بنسختها الإسلاميَّة المشرقة.

****

أرنولد توينبي كتب عن الحضارة ومفهومها ونشوئها.. عمر لم يكتب عن الحضارة، بل كتبها، كتب الحضارة وتحوُّلاتها على أرض الواقع.

سيرة عمر، هي بطريقةٍ ما قصَّة الحضارة وتحوُّلاتها.. لو قرأنا سيرة عمر لوجدنا أنفسنا نقرأ خلاصة ما كتبه ابن خلدون وتوينبي وول ديرانت.. بالإضافة إلى جوانب أخرى لم يكتبها هؤلاء، وكتبها عمر بنفسه تطبيقاً مباشراً.

تمرُّ الحضارة بمراحل عديدة قبل أن تنشأ، يكون هناك أوّلاً طور البداوة، ومن ثمَّ تنشأ فيكون هناك طور التغلُّب والقوَّة، وطور الازدهار، ثمَّ طور الترف، وأخيراً طور التدهور والانهيار.

عمر انتقل مع من انتقل من المسلمين من طور الجاهليَّة (البداوة) إلى أطوار الإسلام، الإسلام المكّي، ومن ثمَّ الإسلام المدنيّ، وساهم في طور القوَّة والتغلُّب، **ووصل الإسلام في عهده إلى أعلى نقطةٍ في طور القوَّة، ودخل في طور الازدهار.**

كما كان عمر محذِّراً من الترف، لأنه كان واعياً أنَّه مدخلٌ لطور الانهيار.

سيرة عمر هي كلُّ ذلك وأكثر.

****

لا بدَّ أن يكون هناك حكمةٌ في أن تكون الحضارة **قد ارتفع بناؤها على يدي عمر، وليس على يدي الرسول عليه الصلاة والسلام..**

نعم، هناك حكمةٌ أكيدةٌ..

لو أنَّ هذه الحضارة ارتفعت على يديه عليه الصلاة والسلام، وبوجوده الشخصيِّ، لكنَّا تصوَّرنا جميعاً أنَّها أشبه بالمعجزة، أنَّها ارتبطت به، وبالتالي لا يمكن لنا أن نواصل بناءها أو إعادة بنائها أو استلهامها..

لكنَّه عمر، هذا الشخص الذي كان جزءاً من معجزة الإسلام المستمرَّة، معجزة أن يتغيَّر الإنسان عندما يتفاعل مع القرآن.. عمر الذي كان مشركاً وكان ضدَّ الإسلام، ولكنه "تغيَّر" ليصير عموداً من أعمدة البناء الإسلامي.

أن تكون الحضارة قد ارتفعت على يديه، فيه رسالةٌ كبيرةٌ، لك شخصيّاً..

ما دام عمر قد انتقل من الكفر إلى الإسلام، إلى أعلى مراتبه، ما دام قد انتقل من العمل ضدَّ المسلمين إلى العمل الأقصى للحضارة الإسلاميَّة، فإنَّ ذلك يمكن أن يحدث لك أيضا..

يمكن لمعجزتك أن تحدث أيضاً، ما دام سببها موجوداً، القرآن الذي تفاعل عمر معه فتغيَّر كلُّ شيءٍ فيه..

يمكن لمعجزتك أن تحدث أيضاً، فتساهم في بناء الحضارة، بل أن تسترجع طريقها الذي ضللنا عنه..

لو أنَّ الطريق كان قد قضي علي يديه عليه الصلاة والسلام، لوجد الشيطان في ذلك تثبيطاً لك.. كان سيقول لك: إنَّه الرسول!.. بالتأكيد كان سينجح في ذلك!.. لكن أنت!.. ما الذي يمكنك أن تفعله؟!..

لكنَّه عمر، شاءت حكمة الله أن تعرف أن بإمكانك الكثير..

لو أتحت للقرآن أن يفعل بك ما فعله بعمر!

****

علينا أيضا أن نتنبَّه هنا إلى أنَّ عمر ككلِّ الشخصيات العملاقة في التاريخ، كان شخصاً "مثيراً لمشاعر مختلفة"..

هناك مزيجٌ من مشاعر الودِّ والحبِّ والاحترام له.. كما هناك الكثير من الحقد والكره!..

وهذا طبيعيٌّ جدّاً..

نحن نحبُّه، و"هم" يكرهونه!..

نحن نحبُّه لأنَّه رمزٌ لعزَّة الإسلام.. رمزٌّ لقوَّته واستواء عوده وبنائه.. لأنَّه دليلنا على أنَّه يمكن فعلاً تطبيق الإسلام، لأنه ردُّنا عليهم في كون الإسلام مجرَّد نظريَّةٍ غير قابلةٍ للتطبيق.. لأنَّه ردُّنا عليهم في كونه مجرَّد تجربةٍ تاريخيَّةٍ ارتبطت بعهد النبوَّة..

نحبُّه لأنَّه رمز العدل، رمز المساواة، رمز الدولة التي يشعر الجميع فيها بالاطمئنان..

وهم يكرهونه، لأنَّه كان كلَّ ذلك أيضاً..

الأسباب نفسها التي تجعلنا نحبُّه، تجعلهم يكرهونه..

لأنَّهم لا يريدون للإسلام أن يكون قويّاً عزيزاً. ربَّما لا يريدون "إلغاءه" تماماً.. لكنَّهم يريدون حتماً أن يكون ضعيفاً، ذليلاً، مهمَّشاً..

هم يريدون إسلام شعائر فحسب.. إسلاماً على الرفِّ..

ليس هذا فقط..

ربَّما كانوا يكرهونه لأنَّه قاد نهاية دولتهم وإمبراطوريَّتهم، فكان كرهه لهم جزءاً من حقدٍ تاريخيٍّ قديمٍ ومتجدِّدٍ حتى دون أن يدرك الورثة المعاصرون ذلك..

يكرهونه لأنَّه من أقام عدل الإسلام على أنقاض ظلمهم وعنجهيِّتهم وتعاليهم..

يكرهونه حتماً..

ونحبُّه حتماً!

@iAbubader

بين يدَي سيرة عمر

ليس هناك الكثير مما ثبت عن عمر ما قبل الإسلام. لذا فلم أرَ من الضروريّ التوقّف عند مناطق مجهولةٍ والبناء على ما تراكم من مرويّاتٍ لم تثبت وإن وجدت في كتب السير.. على سبيل المثال يتداول كثيراً أن عمر كان قد تولى "السفارة" في قريشٍ قبل الإسلام.. لم أجد شخصيّاً شيئاً يسند هذا، بل وجدت أنّه لو كان الأمر كذلك لوظّفه الرسول عليه الصلاة والسلام في أمور السفارات بين القبائل، وهو ما لم يحدث، والصحيح أنّ بني عدي، البطن الذي ينتمي له عمر، كان قد أوكل لها مهمّة السفارة عندما وزّعت المهام على بطون قريشٍ في التسوية المعروفة لبني أبناء عبد مناف وأبناء عبد الدار، فاخذت البطون المهمّة مهامّ الحجابة والسقاية والرفادة واللواء ورياسة دار الندوة (وهي المهامُّ التي كانت سبب النزاع أصلاً) بينما أخذت البطون الأقلُّ أهميّةً مناصب "تشريفيّة".. ومن ضمنها منصب "السفارة" الذي أخذته بنو عديّ.

قلّة المعلومات الموثّقة المسندة عن الفترة المكيّة المبكّرة أو ما قبلها لا تخصُّ عمر وحده، بل إنّ الفترة المكيّة المبكّرة كلّها لم يصحّ ويثبت عنها الكثير لأنّ رواة الأحاديث الأساسيين (ابن عمر، وابن عباس، وأبو هريرة، والسيدة عائشة) كانوا إمّا صغاراً جدّاً في تلك المرحلة، أو لم يكونوا قد ولدوا بعد.. وعندما بدأ جمع الأحاديث كان أغلب مَن كان واعياً لتلك الفترة المبكّرة وما قبلها من الجاهليّة، قد توفّي، أو استشهد.

ما أودُّ أن أثبته هنا، هو أنّ ما كتبته لم يركّز على صفات عمر الجسميّة، أو عمره، أو مولده ونسبه ونشأته التي لم تثبت.

كتبت عن عمر الآخر، الذي ثبت بأكثر من مجرّد السند الصحيح، بالسند الصحيح وبالواقع المجرّد.. عمر الذي غيّر العالم..

@iAbubader

هذا هو عمر الذي يعنيني..

وهو عمر الذي سيجدي أن نتعرَّف إليه، في مرحلتنا التاريخيَّة هذه.

****

في منهجيَّة البحث التزمتُ بما يلي:

أيَّة واقعةٍ تاريخيَّةٍ وُجِد فيها عمر، وكان فيها حديثٌ للرسول عليه الصلاة والسلام، أو حضورٌ له لم آخذ فيها إلا بالأحاديث الصحيحة.

الحوادث التاريخيَّة الأخرى، خاصَّةً مرحلة ما بعد وفاة الرسول، لم يكن من الممكن تطبيق نفس المعايير عليها.. فأسانيد الروايات التاريخيَّة مختلفةٌ، ومعايير قبولها ليست واضحةً من ناحية الصِّحَّة والضَّعف حتى الآن. وأرى شخصيا أنها يجب أن تدقق ولكن بمعايير مختلفة عن سند الحديث النبوي.

لكنِّي لم آخذ بروايةٍ دون وجود سندٍ تاريخيٍّ يمكن مراجعته. وتعمدت مراجعة كل سند لرواية "فيها إشكالية ما " - أي بتعارضها مع سواها - واستبعدت تماما ما ضعف منها حتى لو كان مشتهرا على الألسنة.

الخُطَب والقليل جداًّ من المقولات، تمَّ أخذها دون سندٍ، لورودها في المصادر دون سندٍ.

@iAbubader

عن المخاض العمريّ

نولد عدّة مراتٍ..

مرَّةً عندما نلج هذه الدنيا من بطون أمّهاتنا..

ومرَّةً عندما نجد أنفسنا في هذه الدنيا، نجد موقعنا الحقيقيَّ من الإعراب..

ومرَّةً عندما نستطيع أن نترك أثراً فيها..

بعض الناس يكتفون بالولادة الأولى.. الولادة البيولوجيَّة.. يعيشون ولكن لا يحيون حقاً.. يتنفسُّون.. يأكلون.. ينامون.. يتكاثرون.. ولكن لا يحيون.

والبعض لا يكتفي أبداً، بل يولد عدَّة مرَّاتٍ في حياته..

ويكون لولاداته تلك أثرٌ في ولادة عالمٍ جديدٍ..

ولادة حضارةٍ جديدةٍ.. لعالمٍ جديدٍ أفضل.

****

عمر بن الخطاب كان من أولئك الذين لم يكتفوا بولادةٍ واحدةٍ..

بل حاولوا دوماً أن يولدوا باستمرار..

وتركت ولاداته المتعدِّدة، أكثر من مجرَّد بصمةٍ على العالم.. بل تركت "العالم" وهو غنيٌّ بحضارةٍ جديدةٍ.. حضارةٍ كانت علامةً فارقةً بين الحضارات الإنسانيَّة، حضارةٍ قامت على مبادئ قرآنيَّةٍ ستبقى رصيداً لحضارةٍ نؤمن أنَّها تملك مقوِّماتٍ تجعلها تقوم من جديد.. (ليس تلقائيَّاً!.. ليس من دون عملٍ!)..

@iAbubader

لا نعرف الكثير عن اليوم الذي وُلد فيه عمر بن الخطاب بيولوجيّاً.. كان يوماً عاديّاً على الأغلب.. لم يتمكّن أحدٌ من تحديده.. ليس من "عيد ميلادٍ" لعمر بن الخطاب - للأسف!- (لعلّه سيهزُّ درته الشهيرة لو سمع بهذا الأسف!)

لكنّنا نعرف الكثير عن يوم ولادته الآخر..

يوم قرّر ابن الخطاب أن يولد بنفسه..

يوم أسلم. فكان إسلامه بمثابة زلزالٍ في مكة..

زلزال سيثبت لاحقاً أنّه ليس ككل الزلازل..

الزلازل الجيولوجيّة، تُهدِّم فقط..

أمّا الزلزال العمريّ..

فقد ساهم في «الهدم».. ومن ثمَّ في «البناء».. ساهم في الإطاحة بقواعد المجتمع الجاهليّ الرخوة..

لكنّه.. ساهم لاحقاً في تقديم أساساتٍ وقواعد جديدةً لحضارةٍ أخرى.

****

يخطئ من يتصوّر أنّ إسلام عمر في اللحظة التي أسلم فيها كان وليد اللحظة.. وليد انفعالٍ عاطفيٍّ قويٍّ بآياتٍ قرآنيةٍ اطّلع عليها للمرّة الأولى عندما كان عند أخته فاطمة. كما سنرى لاحقاً بالتفصيل.

قد يحدث هذا «الانفعال» القويُّ عند البعض. ويؤدّي إلى تغيير حياتهم إلى الأبد..

لكن ليس عمر!..

كما مع كلِّ الولادات كانت هناك فترة مخاضٍ سبقت تلك الولادة.. فترةٌ من التردُّد والحيرة التي **نغّصت** على «عمر» حياته..

نغّصت عليه واحدةً من أهمّ صفاته الشخصيّة.. جعلته يشعر بالتناقض معها، مع نفسه.... علماً أنّها صفته الأهمُّ والأكثر تميُّزا في شخصيّته..

ربّما كانت تلك هي الصفة المفتاحيّة لفهم عمر. وفهم أثره. وفهم دوره الكبير في كلّ ما سيحدث لاحقاً..

أيّة صفةٍ تلك؟ فعمر لديه الكثير من الصفات.. عن أيِّها أتحدَّث الآن؟

ربَّما كانت الصفة الأساسيَّة التي استثمرها **عمر لاحقاً في كلِّ ما فعله في سجلِّ إنجازاته..** ربَّما كانت الصفة التي جعلته عليه الصلاة والسلام يرى في «عمر» ما سيكون **نصراً فارقاً وعزّاً للإسلام..** سيكون **منعطفاً** في تاريخ الإسلام..(تخيل أيَّ شيءٍ عظيمٍ أن تكون أنت منعطفاً في تاريخ فكرةٍ أو عقيدةٍ عندما تعتنقها).

فقد صحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: (**اللهم أعزَّ الإسلام بأحبِّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهلٍ أو بعمر بن الخطاب**).[1]

وقد أثبت التاريخ - على نحوٍ بيِّنٍ - أيَّ الرجلين كان أحبَّ إلى الله..

لكن ما هذه الصفة يا تُرى؟

ولماذا نقول: إنَّ هذه الصفة جعلته يتناقض مع نفسه في فترة المخاض التي سبقت إعلان ولادته.. عفواً إعلان إسلامه؟

لا بدَّ أنَّها **صفةٌ ما تشابه شيئاً كان موجوداً في أبي جهل..**
وهذا كلُّه يجعلنا نتنبَّه إلى شيءٍ مهمٍّ جداً في موضوع الصفات البشريَّة، وموضوع استثمار هذه الصفات واستعمالها..
الكثير من الصفات البشريَّة **تكون محايدةً.. ليست شرّاً أو خيراً محضاً، بل هي ممَّا يمكن أن يستخدم في الاتجاهين..** أن يُستثمر في الإعمار.. وأن يُستخدم في الهدم..
مثلها مثل الكثير من الموارد والثروات في باطن الأرض.. يمكن لليورانيوم المخزون في باطن الأرض أن يُستثمر لصالح البشريَّة وازدهارها ورقيِّها..
ويمكن له أن يكون وسيلة اندحارها وانتحارها..
الكهرباء يمكن أن يُستخدم لإنارة الطرق وتيسير حياة الناس..
ويمكن أن يُستخدم في التعذيب في أقبية المخابرات..
لا يمكن لوم اليورانيوم أو الكهرباء على أيٍّ من ذلك..
العبرة في الاستخدام..
كذلك بعض الصفات البشريَّة.. **الصفة نفسها يمكن استخدامها على نحوٍ إيجابيٍّ إلى الحدِّ الأقصى ونحوٍ سلبيٍّ إلى الحدِّ الأقصى أيضاً..**
كان هناك شيء ما في عمر..

@iAbubader

وشـيء ما في أبي جـهل..

وهذا الشـيء شـخَّصه الرسـول الكـريم عليـه الصلاة والسـلام، وأدرك أنَّه يمكـن أن يكـون كـنزاً عظيماً فيما لو كـان مع الإسـلام..

فما هو هذا المشـترك بين أبي جـهلٍ - عمرو بن هشـام - وبين عمر بن الخطاب؟

الشـيء الذي أودى بالأوَّل في قعر جهنم..

وأوصل الثاني إلى البشـارة بالجنة؟

****

يمكـن القول بسـهولةٍ: إنَّ أبا جهل وعمر بن الخطاب كانا معا «شـديدين».. قويين..

لكن هل عدمت قريشٌ أشـخاصاً «أقوياء» غير العمرين؟

بالطبع لا.. لا يمكـن لمجتمعٍ بشـريٍّ مهما كانت درجة رقيِّه أو تخلُّفه إلاَّ أن يحتوي على أشـخاصٍ أقوياء.. (بتفاوتٍ في مقدار هذه القوَّة)..

لكن هناك ما هو فوق القوَّة والشـدَّة.. ممَّا كان يمكـن أن يكـون الإسـلام يحتاجه لكـي يعز..

وكـذلك أية عقيدة..

****

لو بحثنا عن ذكـر أبي جهلٍ في الأخبار الواردة في كـتب المتون لوجدنا العجب.. لا من شـدَّته على المسـلمين فحسـب.. **بل في تكـريسـه نفسـه ووقته وماله لمحاربتهم، ومحاولته ردَّهم إلى شـركـهم..**

عشرات الأخبار الواردة:

أبو جهلٍ يتعرَّض للنبيِّ هنا، يتعرَّض له هناك، يشـتم هنا، يرفث هناك، يعذِّب سـميَّة ويقتلها بيديه قتلةً شـنيعةً، بل يذهب لعند المحتضرين في وفاتهم كـي يحضُّهم على التمسّـك بدين آبائهم.. كـما فعل مع أبي طالبٍ..

كان أبو جهلٍ «متمسِّـكاً» جداً بكـفره.. مات وهو كـذلك.

لقد وقف يوم بدرٍ ليستفتح المعركة بقوله: اللهمَّ أيُّنا كان أفجر لك، وأقطع للرَّحم، فأحِنه اليوم (أي أهلكه)..[٢]

بل إنَّه عند احتضاره لم يجد ما يتأسَّف عليه غير أنَّ من قتله كان فلاحاً، وهو القرشـيُّ العريق الذي يعدُّ الفلاحة مهنةً حقيرةً! فقال: فلو غير أكّارٍ قتلني..![٣]

والأكّار هو: الفلاح في لسـان العرب.

لقد قتل وهو مؤمنٌ بكـفره..

---

٢ مصنف عبد الرزاق في مصنفه ٩٧٢٥.

٣ متفق عليه البخاري (٣٩٦٢ و٣٩٦٣ و ٤٠٢٠) ومسـلم (١٨٠٠).

كرّس حياته من أجل الباطل، ومات من أجله..!
ولعلّه لن يعرف الندم إلا في جهنم..

****

هذه الصفة.. صفة الثبات على ما يؤمن به المرء، وتكريسه كلَّ وقته، وجهده له.. والإيمان بالفكرة إلى الحدِّ الأقصى دون هوادة.. دون تردُّدٍ.. دون مساومةٍ.. هي الصفة التي اشترك بها عمر مع عمرو بن هشام.
كان ذلك واضحاً في شدَّته في مقاومة «الدِّين الجديد».. كان مؤمناً للحدِّ الأقصى بما آمن به آباؤه.. لم يكن من أثرياء مكة الذين خافوا على تجارتهم - مثلاً - من أن تخسر بسبب الدِّين الجديد الذي سيزيح أوثان العرب..
كان عداؤه للإسلام نابعاً من موقف..
كان «مسألة مبدأ»..
مبدأ باطل.. نعم.
لكنَّه جعله محوراً لحياته..
إنَّها تلك الصفة التي تجعل الإنسان ملتصقاً بفكرته التصاقه بظلِّه، بل التصاقه بأوردته بشرايينه..
إنَّها اعتناق الفكرة حتى تتنفَّسها.. حتى تسبح في كرياتك الحمراء والبيضاء.. حتى تراها في كلِّ شيءٍ.. تتحدث عنها لكلِّ من تراه.. تعادي فيها، وتحبُّ فيها.. ترى العالم من خلالها..
لا يهمُّك أن تقولها في وجه من يعاديها.. لا يهمُّك من يعاديك بسببها.. لا يهمُّك ما يقولون.. وما يرون فيك.. لا يهمُّك غير ما قد آمنت به حدَّ النخاع..
إنَّها أن تتَّخذها «قضيةً» إلى أقصى ما تحتمله الكلمة من قضية..
كان عمر من هذا النوع.
وأيَّة دعوةٍ تحتاج إلى أشخاصٍ يحملون هذه الصفة بالذات؛ لأنَّها بهذه الصفة ستبدأ عمليَّة التحوُّل من «الفكرة».. من النظرية.. إلى التطبيق.
هل قلت أيَّة دعوة؟
نعم..
لكن هذه الصفة في أشخاصٍ قلائل.. ميَّزين جداً.. تتجاوز مسألة «الدعوة» **لتصل إلى الحضارة ذاتها.. إلى الوعاء الثقافيِّ العامِّ الذي يشمل سلوكيَّات الناس، وطرق تفكيرهم، ونمط حياتهم، حتى ما يمارسونه على نحوٍ تلقائيٍّ لأنَّهم رضعوه من مجتمعاتهم دون تنظيرٍ أو دروس علمٍ..**
كلُّ حضارةٍ لكي تنشأ لكي تقوم تحتاج أشخاصاً يحملون هذه الصفة.. صفة

@iAbubader

إيمانٍ مطلقٍ بما يؤمنون به.. يعكسون إيمانهم في كلِّ تفصيلٍ من تفصيلات الحياة، يرون الحياةَ كلَّها سلسلة من المرايا المتقابلة التي تعكس ما «يؤمنون به»..
كلُّ حضارة لكي تنشأ.. عليها أن تجد أشخاصاً يؤمنون بها إلى النخاع دون أيِّ مجالٍ لهزيمةٍ نفسيَّةٍ حضاريَّةٍ تجاه الحضارات الأخرى.
وقد كان عمر يحمل هذه الصفة.. صفة الإيمان بالقضيَّة حتى النخاع..
ولقد «ميَّزها» عليه الصلاة والسلام فيه.. وعرف أيَّ عزٍّ سيكون للإسلام.. خاصَّةً في تلك المرحلة الحرجة إذا ما انضمَّت هذه الصفة للإسلام.. إذا ما اعتنق عمر الإسلام..
****

إنَّها تلك الصفة التي جعلته لاحقاً يقول شيئا خارقاً كهذا:
إنِّي لأكره نفسي على الجماع رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبِّح الله.[4]

****

ولهذا..
ومنذ اليوم الأول لولادته الجديدة تصرّف عمر بهذه الصفة.. فكان كالزلزال..
كان أول من جهر بالإسلام !.[5]
(قال عمر له عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله إنِّي لا أدع مجلساً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام، فأتى المسجد وفيه بطون قريش متحلِّقة، فجعل يعلن الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله)[6]...
وسنرى هذا الموقف في كلِّ محطَّات حياته، موقف «ألسنا على الحقِّ؟»..«أليسوا على الباطل؟»..

كانت هذه هي الصفة.. **الإيمان حدَّ الحدِّ الأقصى.. الإيمان حدَّ «الهوس» - إن جاز التعبير - بالفكرة.. هي ما جعلته يحدث فرقاً كبيراً منذ اليوم الأول لدخوله الإسلام حتى صار فاروقاً بين الحقِّ والباطل..**
فلنتذكَّر..
هذه الصفة مثل الكهرباء، ومثل اليورانيوم..
يمكن أن تُستخدم في الحقِّ والخير..
ويمكن أن تُستخدم في الباطل والشر..
ونحن نرى اليوم بعضاً من أصحاب الباطل لديهم هذه الصفة أيضاً.. يؤمنون بالباطل إلى الحدِّ الأقصى من الإيمان.. يكرِّسون حياتهم له.. يكون قضيَّتهم..

٤ سنن البيهقي الكبرى ١٣٢٣٨.
٥ المعجم الكبير للطبراني ١٠٧٣١ وذكره الألباني في صحيح السيرة.
٦ الطبراني في (الأوسط) ١٣٤٧ وذكره الالباني في صحيح السيرة النبوية.

لن يغيِّر ذلك من بطلان ما يؤمنون به..
لديهم تلك الصفة التي اشترك فيها عمر بن الخطاب وأبو جهل!..
كلُّ ما في الأمر أنَّهم اختاروا - ولو مرحليّاً - أن يكونوا أحد العمرين..
ليس أحبَّ العمرين إلى الله.. كما هو واضح.

****

إنني أزعم هنا أنَّ هذه الصفة بالذات.. هذا الثبات على مبدأٍ ما.. كان سبباً في تحوُّلات عمر.. في مخاضه الجليل..

في تردُّده، وحيرته التي انفجرت لاحقاً لتنير سماء مكة - ومن ثمَّ سماء العالم - بشهادة لا إله إلا الله..
هل يكون الثبات سبباً في التحوُّل؟..
نعم.. يكون الأشخاص الذين يمتلكون هذه الصفة **يقدِّرون** جداً من يمتلكها مثلهم حتى لو كانوا ثابتين على أشياء مختلفةٍ، لكنَّهم يقدِّرون في داخلهم الثبات على المبدأ.. خاصَّةً عندما يكتشفون أنَّه ثباتٌ حقيقيٌّ..
وكان عمر يرى ذلك في المسلمين الأوائل الذين كان يشارك في اضطهادهم.. كان يعرف أولئك القوم.. يعرفهم منذ نعومة أظفاره، وكان يراهم أشخاصاً عاديين.. على الأقلِّ ليس فيهم ذلك الثبات الذي يعرفه عن نفسه..
ثمَّ جاءت تلك العقيدة الجديدة، ذلك الدين الجديد.. **فأخرجهم ليس فقط من دين آبائهم، بل من كونهم «عاديِّين»..**
جعلهم ثابتين على «المبدأ».. على نحوٍ شديد الصلابة.. رغم كلِّ ما كانوا يتعرَّضون له من أذى..
وكان ذلك يستفزّ عمر بلا شكّ.
أيَّة عقيدةٍ هذه التي تمدُّ أصحابها بهذا الثبات!.. وهو يعرف معنى الثبات.. معنى ألاَّ تهتمَّ لشيءٍ إلا ما - ومَن - تؤمن به فحسب..
شيئاً فشيئاً.. كان ذلك لا يستفزّه فحسب..
بل يزيده حيرةً..
وتردُّداً..
توتراً..
ربَّما لم يكن يكشف عن ذلك..
لكنَّه كان يعاني من ذلك.. وليس «عمر» من يتساهل مع الحيرة والتردُّد عندما تغزو رأسه..

إنَّه رجل الحسم والقطع النهائي.. التراجع ليس في معجمه..
ولكن فجأة..
ها هو التردُّد.. ها هي الحيرة..
وزاد ذلك ربَّما من شدَّته مع المسلمين..
ولكنَّ ثباتهم زاد من حيرته..
وهكذا دخلنا في حلقةٍ مفرغةٍ لا يمكن لحاسمٍ مثل ابن الخطاب أن يتحمَّلها..
لا يمكن له إلاَّ أن يكسرها.

****

من أخبار تلك المرحلة التي وصلتنا، والتي تؤكِّد مروره بمرحلةٍ من الصراع الداخليِّ، الذي كان بمثابة المخاض الممهِّد للولادة، ذلك الخبر الذي روته أمُّ عبد الله بنت أبي حثمة قالت:

(والله إنَّا لنترحّل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر (زوجها) في بعض حاجتنا إذ أقبل عمر، فوقف وهو على شركه فقالت: وكنَّا نلقى منه أذى لنا وشدَّةً علينا
قالت: فقال: إنَّه للانطلاق يا أمَّ عبد الله؟
قلت: نعم والله لنخرجنَّ في أرضٍ من أرض الله - إذ آذيتمونا وقهرتمونا - حتى يجعل الله لنا مخرجاً.
قالت: فقال: صَحِبَكُم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا.
قالت: فجاء عامر بحاجتنا تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا؟
قال: أطمِعتِ في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم .
قال: لا يسلم الذي رأيتِ حتى يسلم حمار الخطَّاب!).[7]
****

تخيَّلوا ذلك..
رآهم يرحلون.. ثابتين على مبدئهم.. على الدين الجديد..
لم يشمت.. لم يعدَّ هجرتهم نصره وهزيمتهم.. لم يحاول أن يمنعهم حتى..
فقط..
"صَحِبَكُمُ الله".. وذهب..!

---

٧ المعجم الكبير للطبراني ٢٠٥٧٠ وأخرجه الألباني في صحيح السيرة النبوية.

خلف تلك الكلمات المقتضبة كان هناك زلزالٌ في الداخل.. كان هناك بركانٌ يتهيَّأ للانفجار.. تلمحه بين السطور في هاتين الكلمتين المقتضبتين..

صَحِبَكُمُ الله..!

وذهب..!

(هل ذهب حقاً..!

لا.. يذهب أمثالنا.. ويبقى أمثال عمر!).

****

كان مخاضاً مؤلماً بلا شك.. مثل كل المخاضات.. لكن لا تنتهي كل المخاضات بما حدث مع عمر.. لا تنتهي كل المخاضات بتغيير العالم.

أن تولد من جديد،
على صفحات القرآن..

في كلِّ خطوةٍ من حياتنا يوجد مفترق طرقٍ ما.. يؤدِّي إلى عدَّة طرقٍ.. علينا أن نختار فيما بينها.. كلُّ طريقٍ يؤدِّي إلى جهةٍ مختلفةٍ، قد تكون عين الصواب، وقد تكون الخطأ بعينه..

في كلِّ خطوةٍ ثمّة مفترق طرقٍ يتيح لك أن تراجع خيارك السابق.. وأن تؤكِّده..

أن تختار خيارك مجدداً..

أو أن تنقضه..

في كلِّ خطوةٍ من الخطوات في حياتنا.. هناك مفترق طرقٍ، فقط لو انتبهنا لوجوده..

لا توجد "علامةٌ" تقول: هذا مفترق طرقٍ أمامك..

لذا فإنَّ البعض لا ينتبه.. يستمرُّ في المضيِّ في طريقه دون أن يأخذ قراراً.. دون أن ينتبه إلى وجود الخيار[8]..

يستمرُّ في الخوض مع الخائضين..

في كلِّ خطوةٍ من حياتنا ثمّة مفترق طرقٍ يتيح لك أن تختار الطريق الصواب، الطريق الذي يجعلك تكون كما أراد لك خالقك أن تكون..

لكن كلَّما أوغلت في الخوض سيكون الرجوع صعباً..

سيكون تمييز وجود "مفترق الطرق" أصلاً صعباً..

---

٨ على كل إنسان أن يتلمس بنفسه مواضع مفترق الطرق في حياته وأن ينتبه لخطورة الخيار الخاطئ أو اللاخيار.

مرَّ عمر أثناء فترة تردُّده وحيرته التي أشرنا إليها بمفترقات طرقٍ حادَّةٍ.. لم يمرَّ عليها بالخوض مع الخائضين، باللامبالاة، بل مرَّ بها بصخبٍ.. كانت شدَّته وقسوته على أتباع الدين الجديد تدلُّ على شدَّة تمسُّكه بخياره الخاطئ.. وربَّما تعكس أيضاً، حيرته وشكَّه في صواب خياره..

مفترق طريقٍ، تلو آخر.. وكان كلُّ مفترق طرقٍ بالنسبة لعمر صراعاً داخليًّاً شديد الوطأة..

ولم يعد عمر يحتمل ذلك..

في يوم ولادته الموعودة، تقلَّد سيفه، وقرَّر أن يحسم الأمر.[9]

****

(عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً من بني زهرة لقي عمر قبل أن يسلم وهو متقلّد بالسيف فقال: إلى أين تعمد؟ قال: أريد أن أقتل محمداً!).[10]

لم يعد يحتمل.. قرَّر أن يحسم أمره بقتله عليه الصلاة والسلام.. أليس هو من جاء بتلك الدعوة الجديدة التي عرَّفتْه بالحيرة والتردُّد والشكِّ، وهو الذي لم يعرف أيّاً من هذه في حياته..

كان يريد أن يقطع كلَّ ذلك بقتل محمدٍ..

لم يدرِ أنَّه في ذلك اليوم سيقتل أحدهم فعلاً..

لكن ليس محمداً عليه الصلاة والسلام!..

بل سيقتل عمر بن الخطاب القديم.. عمر بن الخطاب بنسخته الجاهليَّة.. وسيولد عمر جديد.. عمر سيترك أثراً في العالم أجمع.. ستحفر كلماته على جدران المؤسسات العالمية، وعلى ضمير الإنسانيَّة قبلها.. وسيُعَدُّ رجلاً من عظماء التاريخ الذين ساهموا في صنع الحضارة الإنسانيَّة..

عمر القديم، الذي قتل ذلك اليوم كان "مقدَّرا" و "محترماً" بحدودٍ ضمن نطاق بيئته..

لكنَّ عمر الذي سيولد على جثة عمر بن الخطاب القديم، سيكون له شأنٌ آخر تماماً..

---

٩ يوم ميلاد عمر الحقيقي كان يوم إسلامه.

١٠ المستدرك على الصحيحين ١٨٩٧.

ذلك السيف الذي تقلّده عمر ليقتل محمداً، سيقتل عمر به.. عمر القديم، وسيقطع به كلّ ما يشدُّه إلى عالم الجاهليّة وقيمها.. بل سيقطع به الحبل السريَّ في الولادة الجديدة..

سيكون "السيف" موجوداً دوماً عند عمر بن الخطاب "الجديد"، على نحوٍ ماديٍّ مباشر، وعلى نحوٍ معنويٍّ، لكن هذه المرَّة ليكون بالمرصاد لكلٍّ من يتربَّص به عليه الصلاة والسلام.. سنسمعه يقول مراراً للرسول الكريم: دعني أضرب عنق هذا المنافق.

سيكون سيفه جاهزاً دوماً، حتى لو لم يستخدمه، لكنَّ السيف هنا كان مثالاً "لسلطة القانون".. لهيبته.. أكثر مما كان يمثِّل "السلاح".. وسيتمثل لاحقاً في "درته" الشهيرة التي سنقف معها مطوَّلاً..

فلنتذكَّر، أنَّه تقلّد سيفه ليقتله عليه الصلاة والسلام في ذلك اليوم المشهود.. يوم "ميلاد" عمر.

****

(قال: أفلا أدلُّك على العجب يا عمر! إن ختنك سعيداً وأختك قد صَبَوَا وتركا دينهما الذي هما عليه..).[11]

كانت تلك طعنةً في صميم كبرياء عمر!..

كان قد حدس بوجود شيءٍ ما قد اختلف في أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد، لأنَّها كانت قد امتنعت عن أكل اللحم الذي يذبحه.. لكن أن يكون هذا على لسان الناس!..

(قال: فمشى عمر إليهم ذامراً حتى إذا دنا من الباب قال: وكان عندهما رجلٌ يقال له: خبّاب يقرئهما سورة طه، فلمَّا سمع خبَّاب بحسِّ عمر دخل تحت سريرٍ لهما، فدخل عمر فقال: ما هذه الهينمة التي رأيتها عندكما؟)[12]

قال الهينمة.. والهينمة في لسان العرب الكلام الخفيّ، غير البيِّن.. وعمر يريد أن يفهم، يريد كلاماً واضحاً يُخرجه مما هو فيه.. يريد "بيِّنةً" تدلُّه على الطريق الصواب في مفترق الطرق الذي هو فيه.

(قلت: يا عدوَّة نفسها.. أصبوت؟).[13]

عدوَّة نفسها!..

[11] المستدرك على الصحيحين ١٨٩٧

[12] المستدرك على الصحيحين ١٨٩٧.

[13] المستدرك على الصحيحين ١٩٩٩.

كأنَّ عمر يتحدَّث عن نفسه.. أو عن قيمةٍ شديدة الالتصاق بكلِّ ما سيكونه لاحقاً.. بالنسبة لعمر الذي كان على وشك الموت. **كان الخروج عن قيم المجتمع يمثِّل بالنسبة له (عداء للنفس)، والالتصاق بهذه القيم يمثِّل "التصالح مع النفس".**

هذا الفهم سيرثه عمر "الجديد" الذي سنشهد ولادته بعد قليلٍ من عمر "الجاهليّ" الذي سيُقتل الآن.. سيأخذه معه إلى قيم الإسلام، وسيكون معه دوماً.

أن تكون عدواً لنفسك، هو أن تنفصل عن وعائك القيميّ الاجتماعيّ.. أن تعيش على "غير هدى".. دون الالتزام بمنهجٍ واضحٍ محدَّدٍ يمثل الكل.. يمثل المجتمع، كما يمثلك.. أن تكون "ممثِّلا" لقيم المجتمع.. وأن يعبِّر مجتمعك عنك.

وعلى العكس من هذا، في الطرف الآخر من المعادلة، فإنَّ التصالح مع النفس سيكون بالنسبة لعمر هو عبر التماهي والذوبان في القيم السائدة.

سيصعِّد عمر الجديد هذا الفهم لاحقاً.. لن يكون "الصلح مع النفس" هو الالتصاق بقيمٍ اجتماعيّةٍ سائدةٍ وعابرة تمثّل قيم القبيلة أو العشيرة أو قيم البداوة.. **"الصلح مع النفس" سيكون عبر تمثل القيم التي خُلِقنا من أجلها، القيم التي جاء بها القرآن.**

لن يكون الصلح مع النفس هنا، لغرض الراحة النفسية، لأجل التكيُّف مع ما حولنا، بل سيكون ممراً أكيداً نحو تشييد الحضارة التي تحمل هذه القيم.

الصلح مع النفس سيكون وسيلة لجعل النفس حجراً لبناء هذه الحضارة.. سيكون وسيلة لجعلنا نكون ما خُلِقنا لنكونه.

الصلح مع النفس هو "الوضع الطبيعيُّ" عندما توضع "النفس" في سياقها المناسب، أي في ظروفٍ وشروطٍ تزدهر فيها هذه النفس، ومن أدرى بأيِّ الشروط الأكثر مناسبة لهذه النفس من خالقها..؟

قال لأخته: يا عدوّة نفسها!.

ولكنَّه ربَّما كان يقصد نفسه.. لم يكن واثقاً - وهو في مخاض الحيرة والتردُّد - إن كان لا يزال متصالحاً مع نفسه أم أنّ نفسه قد عادته.

(... قال لهما: لعلّكما صبوتما وتركتما دينكما الذي أنتما عليه.. فقال له ختنه سعيد بن زيد: يا عمر أرأيت إن كان الحقُّ في غير دينك؟).[١٤]

---

١٤ المستدرك على الصحيحين ٦٨٩٧.

سؤالٌ منطقيٌّ: أرأيت ذلك؟!.. ماذا لو كان هناك احتمالٌ، مجرَّد احتمالٍ لذلك.

(... فأقبل على ختنه فوطئه وطأً شديداً قال: فدفعته أخته عن زوجها، فضرب وجهها، فأدمى وجهها، فقالت وهي غضبى: يا عمر أرأيت إن كان الحقُّ في غير دينك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله).[15]

(فبَكَتِ المرأة، وقالت لِي: يا ابْنَ الخَطَّابِ، اصْنعْ ما كُنت صَانِعاً فَقَدْ أسْلَمت، فَذهبْت فَجَلَسْت).[16]

ها هو ثباتهم يستفزُّه مجدَّداً.. اصنع ما كنت صانعاً!.. افعل كلَّ ما تستطيع.. بأقصى ما تستطيع.. لقد أسلمنا.

أيُّ شيءٍ جعلهم هكذا؟!.. سأل عمر نفسه.. لا بدَّ أنَّه هذا الذي كانوا يقرؤونه عندما دخل.. لا بدَّ أنَّه ما جاء به محمد.. فليره إذن.

(... قال عمر: أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرؤه قال: وكان عمر يقرأ الكتب، فقالت أخته: إنَّك رجس، وإنَّه لا يمسُّه إلا المطهَّرون، فقم فاغتسل).[17]

(.. ففعل عمر..).[18]

ها هو يُبدي تنازلاً، وها هي تبدو أعلى من أن تقبل تنازله دون أن تُجبره على تنازلٍ أكبر.. أن تجعله يرضخ لكونه "رجس".. وأنّه لن يمسّ القرآن ما لم يغتسل..

طعنةٌ أخرى في صميم كبريائه.. هذه المرة يتقبّلها.. لم يبقَ لديه ما يفعله.. عليه أن يحسم الأمر..

ذهب ليغتسل..

هل كانت فاطمة تستدرجه بذكاءٍ؟

أم أنَّه كان يستدرج نفسه؟..

ها هو الماء المنهمر يهدِّئ من غضبه..

ها هو يغسل أدرانه كما لو كان يتهيَّأ لحياةٍ جديدةٍ.. مجرَّد قبوله بأن يغتسل قبل أن يمسَّ القرآن كان إقراراً ضمنيّاً منه بأنَّه "رجس"، وأنَّ هذا القرآن الذي سيمسُّه الآن أرقى وأنقى.. وأنَّ عليه أن يرتقي لكي يتمكّن فقط من الاطِّلاع عليه..

---

١٥ المستدرك على الصحيحين ١٩٩٧.
١٦ مسند البزار ٢٧٩.
١٧ المستدرك على الصحيحين ١٩٩٨.
١٨ كنز العمال ٣٥٨٨٨.

ها هو يخلع أدرانه ليدخل عالم القرآن..

(... قال: ثم أخذ الكتاب فقرأ "طه" حتى انتهى إلى: "إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري").[١٩]

لم يعد شيءٌ كما كان أبداً بعد هذه الآيات من سورة طه..

آيةٌ تلو آيةٍ.. شهدت طلقات ولادة عمر الجديد..

أمّا عمر القديم.. فقد مات أثناء ولادة عمر الجديد..

حياة عمر الجديد كانت تستلزم موت عمر الجاهليّ القديم.

****

ماذا قالت سورة «طه» لعمر؟

ماذا قرأ فيها؟..

وكيف حسمت أمره على النحو الذي حدث؟..

في سورة «طه» قرأ عمر كلَّ ما كان يحتاجه ليجهِز على تردُّده.. ليقطع به شكوكه، ويرحل إلى يقينه..

خاطبته السورة كما لو كانت تتحدَّث عنه شخصيّاً، وعلى نحوٍ حميمٍ..

(ما أنزلنا عَلَيك القرآن لِتشقى) (طه: ٢).

وكان الشقاء رفيقه الشخصيَّ منذ أن فارقته طمأنينة ثباته، بل ربَّما قبل ذلك بكثير، ولكن ها هو القرآن يقول: إنَّه لم ينزل لذلك.. ليس هذا فقط، بل كلُّ أتباع الدين الجديد كانوا يرون صنوفاً من الأذى من مشركي مكة ممَّا يمكن بسهولة أن يقال عنه إنَّه «شقاء».. لكن ها هو كتابهم يخاطبهم بأنَّ هذا ليس ما أُنزل من أجله.. كما لو أنه يُعيد تعريف الشقاء والسعادة بالنسبة لهم.. كما لو أنَّه يقول **لهم: إنَّ الشقاء الحقيقيَّ هو أن تكون بعيداً عن نفسك - عدوّاً لها! - وأنَّ السعادة هي أن تنسجم مع نفسك، ومع ما أراد لها خالقها أن تكون، ولو حاربها كلُّ من حولها..**

(إلَّا تَذكِرة لِمَن يخشى) (طه: ٣)

---

١٩ دلائل النبوة للبيهقي ٥١٩.

لمن يخشى!.. هل يستحقُّ أن يكون هو ضمن هؤلاء.. إنهم فئةٌ أخرى.. فئةٌ يجدها ثابتةً رغم كلِّ ما ينالها من الأذى.. يؤلمه جداً أنهم يبدون أقوى منه رغم شدّته وبأسه وما عُرِف عن قوّته..

(تنزيلًا مِّمَّن خلَق الأرضَ والسَّماوَاتِ العلا . الرَّحمن على العرشِ استوى. له ما في السَّماوات وما فِي الأرضِ وما بينهما وما تحت الثرى) (طه: ٤-٦).

تتحدَّث الآيات بحسمٍ قاطعٍ... بيقينٍ لا يقبل الحلول الوسط.. التذكرة تنزيلٌ ممَّن خلق الأرض والسموات العلا. الرَّحمن على العرش استوى!.. أيُّ بيانٍ ساطعٍ سيكون هذا لمن مزّقه التردُّد والحيرة..؟!

العرش!.. عرش السموات والأرض استوى عليه الرَّحمن!.. فماذا فعلت أصنام مكة وأوثانها؟!..

لم تتسوَّل الآيات - حاشاها - إيمانه بربّ العالمين. **بل تحدثت عنه من منطق العلوّ والهيمنة والقوة.. وهو المنطق الوحيد الذي يمكن أن يؤثر في مثل عمر..**

(وإِن تجْهر بِالقوْلِ فإِنه يعلَم السِّرَّ وأخفى. اللَّه لا إِلهَ إِلَّا هوَ له الأَسْماء الحُسنى) (طه: ٧- ٨).

تنكأ الآياتُ جراحَه التي أخفاها.. كان يجهر بموقفٍ صريحٍ معادٍ للدعوة الجديدة.. وقلبه يتمزّق بالحيرة سرًّا.. وها هي الآيات تفضحه وتفضح شكوكه.. لعلّه تلفَّت يميناً ويساراً ليرى إن كانت فاطمة وسعيد قد أدركا ما يجول في خاطره.

(وهل أتاكَ حَدِيث موسَى . إذ رأى نارا فقال لِأهلِهِ امكثوا إني انست ناراً لعلِّي آتيكم مِنها بقبس أو أجِدُ عَلى النارِ هدًى . فلمَّا أتاها نودِيَ ياموسَى . إِني أنا ربُّك فاخلع نعليك إِنَّك بالوادِ المقدَّسِ طوى) (طه: ٩-١٢).

وجد نفسه هنا في هذه الآيات..

كما لو أنَّه في موقفٍ مشابهٍ..

كما لو كان يدخل عالماً جديداً يشبه هذا الوادي المقدس طوى..

لقد اغتسل قبل قليل.. قبل أن يمسَّ القرآن.. كما لو كان يخلع نعليه قبل أن يدخل هذا العالم..

عمر بن الخطاب الجديد كما سيعرفه العالم، سيكون مسكوناً تماماً بهذه الآيات التي أسلم عندما تفاعل معها.. سيبقى عمر - بطريقةٍ ما - **يرى في «العالم»**

وادياً مقدَّساً عليه أن يخلع نعليه.. أن يتخلَّص من أدرانه قبل أن يدخله.. كلُّ ما في التجارب الحضاريَّة الأخرى تعامل معها عمر على هذا الأساس.
بالنسبة لعمر الجديد الذي ولد عند تلك الآيات بين «طه» و «فاخلع نعليك» سيكون العالم كلُّه ميداناً للتعبُّد.. **وادياً مقدَّساً عليك دوماً أن تتطهَّر من كلِّ ما يعكِّر قداسته قبل دخوله..** الأرض كلُّها ستكون وادياً مقدَّساً للتعُّبد.. **لكن ليس التعبُّد بالشعائر فحسب، بل بإحقاق الحقِّ، ونشر العدل.. بأن تكون ما يريده الله منك أن تكون.**
تلك الآيات حفرت في عمر أخاديده المميزة، وجعلت منه ذاك العملاق الذي ساهم في تصحيح مسار التاريخ.

****

لقد تعامل عمر مع كلِّ شيءٍ بمنطق موسى نفسه مع «النار.. إما أن: آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدى..
إما نار يستفاد منها بقبسٍ ينير الدرب..
أو يجد الموعظة والهدى من فشل واحتراق تلك التجارب الحضارية..
كلُّ تفاعله الحضاريِّ مع المكوِّنات الحضاريَّة: الأدوات، والمؤسسات التي أنتجتها الحضارات الأخرى، كان محكوماً بهذا المثال..

(وأنا اخترتك فاستمع لما يوحَى) (طه: ١٣).
يشنِّف عمر أذنيه.. يفتح عينيه على اتِّساعهما.. تتوهّج كلُّ حواسِّه لتعرف ما سيقال.. ما سيوحى..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّه لا إِلَه إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاة لِذِكْرِي) (طه: ١٤).

وكيف لا يقف عندها ليقول: دلُّوني على محمد..

لقد حسم أمره..

يريد أن يعلنها.. يريد أن يتخلَّص من العبء بإعلان إسلامه بين يديه عليه الصلاة والسلام..

دلُوني على محمد..!

خرج متقلِّدا سيفه ليقتله..!

@iAbubader

والآن.. يريد أن يولد من جديدٍ بين يديه الشريفتين..!

(فلمّا سمع خبّاب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشِر يا عمر، فإنّي أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الخميس: « اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمرو بن هشام»).[20]

لم يكن قد قال «الشهادتين» بعد.. وجاءه من يخبره بما يشير أنّه لن يكون مجرّد فردٍ آخر..

جاءه من يخبره أنّه سيحمل مسؤوليّةً كبيرةً، وأنّ «عزّ الإسلام» سيكون جزءاً من هذه المسؤوليّة..

لم يكن قد قال الشهادتين بعد!..

دلُّوني على محمَّدٍ..

(وكان عليه الصلاة والسلام في داره التي في أصل الصفا).[21]

وذهب إليه عمر..

عمر الذي ولد للتوّ..

ذهب إلى «أصل الصفا».. ليعلن إسلامه هناك!

****

حدثت ولادته في عشر آياتٍ من القرآن من سورة طه تحديداً..

تركت فيه الآيات الكريمة أكثر بكثيرٍ من مجرّد الانفعال العاطفيّ القويّ.. تركت فيه ما سيحدِّد مساره في صنع الحضارة، وما سيحدِّد علاقته مع التجارب الحضاريّة الأخرى.. ورؤيته للعالم..

كلُّ ولادةٍ تحدث عبر القرآن يمكنها أن تُحدِث ذلك الأثر في مولودها..

كلُّ آيةٍ في القرآن مؤهَّلةٌ لتُحدِثَ ولادةً لكلِّ واحدٍ منَّا..

---

٢٠ دلائل النبوة ٥١٩
٢١ دلائل النبوة ٥١٩

كلُّ آيةٍ مؤهَّلةٌ لتترك فينا ما يجعلنا نترك بصمةً على هذا العالم الذي يحتاج إلى الكثير من «البصمات» لإصلاحه..

الآيات معدَّة لإحداث هذا التغيير فينا..

بقي أن نكون نحن مستعدين لتقبُّل التغيير..

الآيات، الكثير منها، تنتظرنا، لنولد من جديدٍ.. على أطرافها..

كما ولِد عمر.

ربيع «عمر» الآخر..

بعض الناس الحياة بالنسبة لهم «وجهة نظر»... يعتنقون وجهة النظر هذه أو تلك، ولا يرون مشكلةً في التخلّي عنها لاحقاً لصالح وجهة نظرٍ أخرى رأوا أنها أكثر وجاهةً لاحقاً..

بعض الناس يرون كلَّ ما في هذه الحياة أنَّه ليس أكثر من «وجهة نظرٍ» يُمكِن أن تكون عابرةً حتى لو لم يغيِّروا شيئاً فيها..

وجهة النظر تعني ببساطةٍ أنَّ ما تعتقده يعتمد على موقعك.. يحدِّد اتجاه النظر.. يحدِّده موقعك، وهذا يعني أنَّ الأمر سيتغيَّر لو أنَّك غيَّرت موقعك.. ويعني أيضاً أنَّ ما يعتنقه الآخرون من آراء لا علاقة له بالصواب أو الخطأ.. فقط بموقعهم الذي حدَّد وجهة نظرهم تلك..

عندما تكون الحياة وجهة نظر.. فإنَّ لا شيء فيها يستحقُّ حقاً أن يكون قضيَّةً.. أن يكون عقيدةً.. أن يكون أمراً تموت وتحيا من أجله..

إنَّها وجهة نظر فحسب..

****

لكنَّ أناساً آخرين - نسأل الله أن يجعلنا منهم - الحياة بالنسبة لهم قضيَّة.. الحياة بالنسبة لهم موقف.. لا يعتنقون «وجهات» النظر، بل يعتنقون ما يؤمنون أنَّه «الصواب»، وأنَّ مصدر هذا الصواب ليس موقع هذا الشخص أو ذاك ممّن يكونون عابرين في الزمان والمكان، بل مصدره مَن يكون متعالياً عن كلِّ ذلك.. عن كلِّ مسافةٍ.. أو زمانٍ.. أو مكانٍ..

@iAbubader

الحياة بالنسبة لهؤلاء فرصةٌ لا تعوَّض لإثبات للآخرين - ممَّن لا يؤمنون بما آمنوا به – بالصواب. بالحق.. الحياة فرصة يسحبونهم فيها.. من حالة اللا لون ولا طعم ولا رائحة.. إلى اللون الصواب، والطعم الصواب، والرائحة الصواب..

عمر بن الخطاب من هؤلاء.

الحياة بالنسبة له موقفٌ.. قضيَّةٌ..

كما لو أنَّه كان يبحث عن هذه القضيَّة طيلة حياته..

وعندما وجدها وجد نفسه فيها.. أمسك بتلابيبها.. تعلَّق بها كما يتعلق مختنقٌ بشهيقه الأخير..

دلُّوني على محمد..!

****

في الطريق إلى محمد لا بدَّ أنَّ عمر كان يفكِّر فيما سيحدث.. لقد كان قد حسم أمره، لكنّه أراد أن يُعلن هذا الحسم أمامه عليه الصلاة والسلام..

وجهاً لوجه..

(تخيَّل كم سيكون رائعاً لو تمكّنَّا من ذلك، من أن نعلن «الشهادة» أمامه عليه الصلاة والسلام.. لن نستطيع أن نقولها إلا بمنتهى الصدق حينذاك.. لا يمكن أن نقولها من باب التعوُّد.. من باب أنَّنا وجدنا آباءنا عليها.. لأنَّها ستكون مثل شهادة زورٍ.. ومهما حاولت.. لن يمكنك أن تشهد الزور أمام الرسول الكريم).

لقد وجد عمر نفسه الحقيقيّة... لا بدّ أنه كان خجلاً من شدَّته وقسوته مع الفئة التي سيعلن انضمامه لها، ولا ريب أنَّ هذه الشدَّة جعلته يتَّخذ قراراً أن «يعوِّض».. أن يقدِّم لما اعتنقه «تعويضاً» عمّا فعل سابقاً.. ولعلَّ هذا الإحساس «المرير» سيبقى في عمر إلى آخر حياته، لكنه سيستثمره على نحوٍ إيجابيٍّ.. سيكون جزءاً أساسيًّاً من محاسبته المريرة المتطرِّفة لنفسه ولأهل بيته، وهي المحاسبة التي ستكون جزءاً أساسياً من «التفوُّق والتميُّز» العمريِّ، والذي ساهم أيضاً في صنعه للحضارة وإسهامه بها.. وهو ما سنتطرّق له لاحقاً بتفصيلٍ أكبر..

كان ما قاله له خبَّاب عن دعاء الرسول الكريم لله عزَّ وجلَّ بأن يُعزَّ الإسلام بأحد العمرين هو أو عمرو بن هشام الذي يُعرف أكثر اليوم بأبي جهل... كان بمثابة «طاقةٍ»

إضافيَّةٍ تُضاف إلى عروقه.. ولعلّه فكّر في السبب الذي جعل دعاء الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يكون موجَّهاً لواحدٍ منهما تحديداً.. هو وعمرو بن هشام.

لكنَّه كان قد حسم هذا الأمر أيضاً..

لقد قرَّر أن تكون حياته تحقيقاً لدعاء الرسول..

قرَّر أن تُكرَّس حياته لعزِّ الإسلام..

****

(جئت حتى قرعت الباب فقال: من هذا؟ فقلت: عمر بن الخطاب وقد علموا شدتي على رسول الله صلى الله عليه و سلم ولم يعلموا بلإسلامي فما اجترأ أحد منهم أن يفتح لي حتى قال لهم رسول الله افتحوا له فإن يرد الله به خيرا يهده قال: ففتح لي الباب فأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم : أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بمجامع قميصي ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله قال: فكبر المسلمون تكبيرة سمعت في طرق مكة..).[٢٢]

تخيَّلوا أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بمجامع قميصه، وجذبه إليه.. ليقول له: «أسلم»!..

كم يبيِّن ذلك حرقته عليه الصلاة والسلام على إسلام عمر!.

كم يبيِّن ذلك استشعاره عليه الصلاة والسلام لا بحاجة عمر إلى الإسلام فحسب، بل بحاجة الإسلام أيضا إلى أشخاصٍ يملكون صفاتٍ مثل التي يملكها عمر.. يعتنقون الشيء ليكون قضيَّة حياتهم كلِّها، لا كوجهة نظر..

ثم أخذ بمجاميع قميصي، ثم جذبني إليه.. أسلم..!

موقفٌ هائل.. يكاد يأخذ بمجامع كلِّ ما نلبس..! يكاد يجذبنا.. يهزّنا بعنف.. أسلموا..

هل سنقول: إننا مسلمون أصلاً.. وإننا وُلِدنا كذلك – والحمد لله!

نعم.. هذه هي المشكلة.. نحن مسلمون بالوراثة.. لسنا مسلمين كما يريدنا عليه الصلاة والسلام..

---

٢٢ مسند البزار ٢٧٩.

كيف يريدنا؟.. يريدنا كما أراد من عمر أن يكون.. كما صار عمر..

إسلامه كان عزاً للإسلام..!

مَن منّا يمكن أن يكون إسلامه عزاً للإسلام؟..

مَن منّا يرفض أن يكون مجرّد «عدد» إضافيٍّ.. «كمالة عدد».. ويريد أن يستحقّ تلك الجذبة التي جذبها عليه الصلاة والسلام لعمر عندما قال له: أسلم ..!

****

ونطق الشهادة!..

أشهد أن لا إله إلا الله..

وأن محمداً عبده ورسوله..

وارتفع التكبير، رغم التخفي.. الله أكبر..

وسيرتفع التكبير أكثر فأكثر، لا عبر الحناجر فحسب، بل أثراً وتأثراً وقناعةً واقتناعاً.. عبر إسلام هذا الرجل..

سيجعل عمر من كلّ سيرته وسيلة ليؤمن الناس حقاً وفعلاً بأن الله أكبر.

****

منذ اللحظة الأولى لإسلامه قرّر عمر أن يُحدِث فرقاً.. أن يُحدِث عزاً.. أن يجهر بالإسلام، بعدما كان سراً يُخفيه أصحابه وإن تسربت منه إشارات..

(قال: يا رسول الله إني لا أدع مجلساً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام فأتى المسجد وفيه بطون قريش متحلّقة، فجعل يعلن الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)[٢٣]

انطلق عمر ليجهر بالشهادة في شوارع مكة ومجالسها..

كان عمر بهذا هو مشعل أول ربيع عربيٍّ!.. لكنه كان ربيعاً يتجاوز أمر العرب إلى الإنسانيّة جمعاء، وإن اتّخذ من مكّة وشوارعها موقعاً..

في ذلك الربيع، قام عمر بالجهر بكلمة الحقّ، لكنها لم تكن ردّ فعلٍ «ضدّ ظلمٍ» محدَّدٍ.. بل كلمة حقٍّ تتعالى عن ردود الأفعال.. **بل كانت أكثر من مجرّد «كلمة**

---

٢٣ المعجم الأوسط للطبراني ١٣٤٧ وذكره الالباني في صحيح السيرة.

حقٍّ».. بل كانت رؤيةٌ كاملةٌ لعالمٍ جديدٍ.. طريقةٌ جديدةٌ في النظر إلى العالم.. إلى كلِّ ما فيه..كانت ثورة حقيقية.. أعمق بكثير من مجرد «إسقاط نظام»..

الشهادة التي تدخل بها الإسلام هي إقرارك بأنَّك ترى العالم.. تشاهده - أليست شهادة؟!- كما يريد له خالقه أن يكون..

أنت تقول عبر الشهادتين: إنك تشهد أن لا إله إلا الله.. ليس هناك من قوةٍ يمكن أن تسيطر أو تهيمن على مقاليد عقلك وقلبك ورؤيتك إلا من خلقك..

لا يحكمك غيره.. لا تأتمر إلا بما يأمرك به.. ولا تقبل بسواه «حَكَماً» فيما يقابلك، ويُعرَض عليك..

وأنت تشهد أيضاً - كتتمّةٍ لازمةٍ لا بدَّ منها - أنَّ هذه الرؤية لن تكون إلا من خلال ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام..

هذه الشهادة هي رؤيةٌ للعالم كما يجب أن يكون..

رؤيةٌ لدورك في هذا العالم.. رؤيةٌ للعلاقات بين كلِّ الأشياء..

ليست مجرَّد جملةٍ من مقطعين.. بل رؤية متكاملة..

تلك الشهادة التي كان عمر أوّل من جهر بها في ربيع مكة.. كانت بمثابة الحجر الأساس للحضارة التي سيكون لعمر الحصّة الأعظم في بنائها وتشييدها.

****

لكلِّ حضارةٍ حجر أساسٍ.. يكون مثل «الشفرة السريَّة، الكود» الخاصّ بها.. قد يكون مثلاً شعار: «ألمانيا فوق الجميع» أو «الحريَّة الشخصيّة» أو «الربح أولاً».. كلُّ هذه أحجارٌ أساسيَّةٌ لحضاراتٍ مختلفةٍ تبني كلٌّ منها على **تبني على حجر أساسها الخاصِّ قيمها ومبادئها.**

الحضارة التي ساهم بصنعها عمر حضارة الإسلام، كان لها حجرها الأساس الذي تستند عليه كلُّ قيمها وأركانها ومبادئها ومنطلقاتها وأهدافها..

وهذا الحجر الأساس، حجر الحضارة الأوّل.. هو بطاقة دخول الإسلام..

الشهادتان..

كانتا حتى تلك اللحظة سرِّيَّتين، تُقالان خفيةً في أزقة مكة وبيوتاتها..

ثمّ جاء عمر..!

****

منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها عمر الإسلام هذا الدخول المبين.. استشعر المسلمون الفرق الذي يمكن أن يُحدِثه دخول شخصٍ يملك صفاته في الإسلام.

(عن عَبْدِ اللَّهِ بنِ مسْعُودٍ - رضي الله عنه - قالَ: ما زِلْنا أَعِزَّةً مُنْذ أسْلَم عُمرُ).[24]

وكان يقول أيضاً:

(إن كان إسلام عمر لفتحاً، وهجرته لنصراً، وإمارته رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى دعونا فصلينا).[25]

وأيضا:

(والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر).[26]

****

قد يُطرح سؤالٌ هنا..

هل يمكن أن يكون عمر أقوى من الرسول عليه الصلاة والسلام؟.. ألم يكن من الممكن عليه الصلاة والسلام أن يصلي عند الكعبة مع المسلمين متحديّاً مشركي مكة؟..

هل كان يجب أن ينتظر المسلمون عمر كي يحدث ذلك؟

العبرة هنا أنّه كان على أحدٍ غير الرسول عليه الصلاة والسلام أن يفعل ذلك.

لو أنّه فعلها عليه الصلاة والسلام لما حصل الدرس للجميع..

درس أنّهم قادرون على الفعل.. **أنّ الإسلام يستخرج منهم أفضل ما فيهم، بل يستخرج منهم ما لم يتخيلوا وجوده فيهم..**

لو أنّ الرسول قام بذلك.. لما كان هناك "عمر"..

وحضارة الإسلام، لا يُمكن أن يبنيها فرد.. حتى لو كان هو عليه الصلاة والسلام..

يمكن لبعض الأفراد فيها أن يكونوا عمالقة، وأن يسهموا أكثر من غيرهم في رفع بنائها، وأن يكون ذلك بمثابة تحفيزٍ لهم على أن يتعملقوا.. كلٌّ في مجاله، بما يُسهِم في "الحضارة"..

وهكذا كان لا بدّ للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أن لا يفعل كلّ شيءٍ بنفسه.. لكي يتيح المجال لولادة العمالقة..

وكان عمر مثالاً حيّاً، عمليّاً على ذلك.

****

كان استشعار المسلمين الفوريّ للعزة بدخول عمر الإسلام، مثالاً على ما يمكن أن يمنحه الثبات على الحقّ، والجهر به بقوّة، والتمسُّك به بقوّة لأيّة فكرةٍ أو عقيدةٍ..

إنّه يُخرجها فوراً من كونها مجرّد فكرةٍ، لتصير بشراً يتمثّلونها..

والعزّة في لسان العرب هي: عكس «الذلّ»..

---

٢٤ صحيح البخاري ٣٨٦٣.

٢٥ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٤٤١٠ وذكره الالباني في صحيح السيرة.

٢٦ المستدرك على الصحيحين ٤٤٨٧.

وقد كان عمر بقوّته، بجهره بالحقِّ، بجرأته الشديدة عكساً للذلِّ في كلِّ شيءٍ..
فكيف يمكن لهم إلا أن يشعروا بالعزَّة منذ «أسلم عمر»..؟!
وكيف لا يكون إسلامه فتحاً؟!.. وهجرته نصراً؟!.. وإمارته رحمةً..؟!

****

لا يُمكنني هنا أن أترك دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام لربِّه أن يُعِزَّ الإسلام بأحبِّ العمرين إليه، وشعور المسلمين بالعزَّة منذ إسلام عمر وربط كل ذلك بمعنى يراودني عن **علاقة العزَّة بالحضارة..**
الحضارة، بطريقةٍ ما، هي مظهرٌ من مظاهر العزَّة..
العزَّة هي الغلبة، وهي عكس الذلّ..
والحضارة، في مظاهرها وتجلّيّاتها العديدة تكون «غلبة»..
وتكون عكس الذلّ..
الغلبة لا تعني فقط التفوُّق العسكريّ.. (وإن كانت تشمل ذلك حتماً)..
ولكنَّها تعني التفوّق في كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة..
في العلم.. في العدل.. في العدالة الاجتماعيَّة.. في الأدب.. في السلوك..
في الاقتراب من القيم المؤسِّسة لهذه الحضارة، من حجرها الأساس، وعدم الانحراف عنها..
في أن تكون «نموذجاً» جاذباً يجعل الناس يعتنقون «حجرها الأساس» وقيمها حتى دون أن يشعروا بذلك..
كلُّ هذه عزَّة..
وكلُّ هذه يجب أن توجد في «الحضارة»..
وربَّما هذا يجعلنا نفهم دعاء الرسول بأن يُعِزّ الإسلام بعمر..
وأن نفهم ما قاله المسلمون عن استشعارهم العزَّة بمجرَّد دخوله الإسلام..
وأن نستحضر ما سيحقِّقه عمر لاحقاً من منجزاتٍ رفعت حضارة الإسلام وأعزَّتها
ألم يكن البيهقي محقَّاً عندما جعل من دعاء الرسول دلالةً من دلائل نبوّته عليه الصلاة والسلام؟
لو أنَّ عمر أسلم فحسب.. لكان أمر إسلامه محتملاً..
لكنه كان علامةً فارقةً..
كان إسلامه عزاً للإسلام.

وحتى لا نعطي صورةً خياليَّةً عن رجلٍ لا يحتاج أصلاً إلى الخيال لتزيين صورته، لأنَّها رائعةٌ ومبهرةٌ أصلاً.. علينا أن نتذكَّر هنا أنَّ مواجهته لكفَّار قريشٍ في يوم الجهر بالإسلام لم تكن محض شجاعةٍ وثباتٍ على المبدأ دون **تخطيطٍ يستثمر في الموجود.**
كان عمر بن الخطاب يعرف أنَّ قريشاً يُمكِنها أن تقتله، وأنَّه على بأسه يُمكِن أن يُقتَل إذا تجمَّعوا عليه، كما كادوا أن يفعلوا فعلاً.
لذا فقد عمد إلى أن يجد له خطَّ حمايةٍ من القتل على الأقلِّ، وليس من الأذى.
فقد عمد إلى أحد حلفاء بني عدي، وهو العاص بن وائل ليجيره من القتل[٢٧]..
وهكذا كان عمر يستفزُّ مشركي مكة، ويزلزلهم بجهره بالإسلام، وهو يعرف أنَّ تعرُّضه للقتل كان سيعرِّض قواعد المجتمع المكيِّ للزلزلة!..
ستكون هذه الصفة ثابتةً دوماً عنده، وهو يُشيد الحضارة.. خطوةً خطوةً.. سيذهب دوماً لتجارب الآخرين.. سيأخذ منها قبساً عندما يجد أنَّ الاقتباس ينفعه، وسيتركه عندما يجد أن الضرر أكبر..
ما دام لم يتنازل عن شيءٍ مقابل إجارة «العاص» له، فلن يتردَّد..

****

ربيع عمر الذي تدفَّق في شوارع مكة، انتظر عقوداً قبل أن يحين موسم حصاده..
ولم يكن موسماً واحداً..
بل مواسم متعاقبةً، متطاولةً.. موسماً يسلِّم موسماً آخر..
ولم تقتصر مواسم الحصاد على مكة فقط..
بل امتدَّت لتشمل قارَّات العالم القديم..
بل لتشمل العالم كلَّه..
كان ذلك هو ربيع عمر الآخر..
أمَّا موسم الحصاد فله وقفةٌ أخرى.

---
٢٧ صحيح البخاري ٣٨٦٤

عمر يختار قالبه

خُلِقنا من طين..

ونبقى كذلك من عدّة جوانب..

لكنّ جوانب الطين فينا لن تكون من ذلك الطين الذي تعوّدنا عليه..

بل ستكون من نوعٍ خاصٍّ منه، نعرفه أيضاً، واستعملناه صغاراً، وربما لا نزال نشتريه لأولادنا..

إنّه الطين الملوّن..

الطين الصناعيّ..

يبقى جزءٌ من شخصيّاتنا كالطين..

الصناعيِّ تحديداً..

****

نولد ومعنا مقدراتٌ معيّنةٌ، مواهب فطريّةٌ لم نبذل جهداً في الحصول عليها، بعضٌ من الصفات التي يمكن أن تكون غير متوفِّرةٍ عند البعض الذين يملكون بدورهم صفاتٍ أخرى..

نكتسب بعد ولادتنا مهاراتٍ وخبراتٍ من محيطنا، بعضها ينمو من صفات ومواهب كانت موجودةً ولكنّها خافتةٌ أصلاً.. وبعضها يستثمر ما هو موجودٌ أصلاً.. وبعضها الآخر يضيف – بالتدريب والصقل – ما لم يكن موجوداً في الأصل.

كلُّ هذه الصفات، بمعزلٍ عن كونها فطريَّةً أو مكتسبةً.. **كلُّها توضع** في قالبٍ معيَّنٍ من القوالب المتوفِّرة من حولنا، بعبارةٍ أخرى: نوضع نحن، بما فينا من صفات، في أحد القوالب الجاهزة من حولنا.

على مَن يعود الفعل في «**نوضع**».. ليس على «نحن» بالضرورة.. ليس علينا.. كثيراً ما نوضع داخل قوالب لم نخترها حقاً.. بل اختارها المجتمع من حولنا، بل ربما جعلنا نتصور أننا نختارها.. زوَّر رغبتنا بالتدريج، وجعلنا نقتنع أنّ قالب «الطبيب» أو «المهندس» أو «رجل الأعمال» هو الأنسب لنا، أو الأنسب لما نملكه من صفاتٍ.

كم من متفوِّقٍ وئدت رغباته الحقيقيَّة تحت قوالب المجتمع البرّاقة.. ربَّما يكون نجح فعلاً بما أوتي من مواهب .. لكنَّ روحه الحقيقيَّة كانت لا تريد بريقاً اجتماعيَّاً عابراً.. بل تريد نوراً يزيدها سطوعاً.

قوالب المجتمع التي تقسر طيننا الصناعيَّ على التقولب فيها هي فخٌّ متقنٌ أحياناً للتخلُّص من أعظم وأنبل ما فينا.. بالضبط لتدجين أعظم وأنبل ما فينا.. يمكن لبعض قدراتك ومواهبك أن تساهم في تغيير المجتمع، في جعله أفضل، لكنّ ذلك لن يكون بالضرورة عملاً مناسباً للبريق الاجتماعيِّ، لن يؤمِّن بالضرورة متطلَّبات الرفاهية.. بالمقابل فإنَّ المجتمع بكثيرٍ من مؤسَّساته المستفيدة من بقائه كما هو قد يروِّج لقوالب معيَّنةٍ، يدفن فيها الموهوبون مواهبَهم، مقابل أن يحصلوا على متاعٍ زائلٍ، والكثير من الاحترام الزائف.

يمكن لشخصٍ يملك موهبة القيادة أن يقنع بقالبٍ ضيِّقٍ، فيقود مؤسَّسةً ربحيَّةً، بدلاً من أن يتَّسع حجم طموحه **إلى قالبٍ يقود فيه مجتمعه وأمَّته..**

ويمكن لمن يملك موهبة القبول أن يقنع بقالبٍ سطحيٍّ يستخدم موهبته في التسويق والترويج لما هو زائلٌ.. بدلاً من أن يستثمرها في نشر بذور الوعي والإيمان والعمل..

ويمكن لمن يملك ذكاءً وقّاداً أن يقنع بمهنةٍ توفِّر له متطلباتٍ لم تكن يوماً ضروريَّةً، بدلاً من أن يستخدم ذكاءه هذا في توفير متطلَّباتٍ حقيقيَّةٍ..

إنَّها قوالب موجودةٌ..

ونحن من طينٍ صناعيٍّ..

نتكيَّف من خلالها.. نتشكّل كما يريد القالب.. وشيئاً فشيئاً.. يصير ذلك القالب كما لو أنَّه خُلِق لنا، أو أنَّنا خُلِقنا له..

مجرَّد تعوُّد.

وعندما تملك الوعي والإرادة، فإنَّك تختار «القالب» الذي تكون فيه ما أرادك الله أن تكون.. القالب الذي تزدهر فيه صفاتك التي شاء الله أن تكون فيك.. ويكون فيه ما تحارب الصفات التي شاء عزَّ وجلَّ أن يختبرك بها..

لكلٍّ منَّا قالبه «الأنسب» الذي يمكننا من خلاله أن نكون ما أرادنا الله أن نكونه..

****

وأين تجد قالبك الأنسب هذا؟..

ستجده عند من خلقك..

هو الأعلم بما يناسبك، وما لا يناسبك..

عندما يكون لديك جهازٌ كهربائيٌّ يحمل علامة تجارية معيَّنةٍ، فإنَّك تراجع «كتيِّب الاستعمال» الذي يخصُّ الشركة المنتجة.. لن تذهب حتماً إلى شركةٍ أخرى.. ولن تذهب حتماً إلى كتيِّب استعمالٍ يخصُّ جهازاً آخر..

منطق!..

****

ووجد عمر بن الخطاب ما يمكن أن يتشكَّل طينه من خلاله..

ولم يكن يشبه ما سيفكِّر أغلبنا فيه!..

****

لسنا متأكِّدين من شيءٍ، إلاَّ أنَّ تلك الآيات كانت مثل القالب الذي احتوى الطين العمريَّ بكلِّ ما فيه من قدراتٍ وصفاتٍ.. كان ذلك القالب، هو البيئة التي أثمرت فيها صفات عمر ليتشكَّل عملاقاً ساهم في صنع أعظم حضارةٍ عرفتها البشريَّة..

لم يُخبرنا عمر بسندٍ أو حديثٍ عن تأثُّره بتلك الآيات تحديداً..

لكن كلُّ سيرته، كلُّ ما في حياته، ينقل لنا أنَّه قد «وشِم» بتلك الآيات، أنَّها قد «شكَّلته».. قد وضعته في قالبها العملاق، وجعلته بالتدريج.. يصبح عملاقاً ليكون على مقاسها..

@iAbubader

عن أيَّة آياتٍ نتحدَّث..

عن آياتٍ في سورةٍ، كان سبب نزولها مرتبطاً بإسلامه رضي الله عنه..

سورة «ص»..

****

نقل القرطبي والنيسابوري هذه الواقعة عن سبب النزول لسورة ص:

(لمَّا أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه شقَّ على قريشٍ إسلامه، فاجتمعوا إلى أبي طالب، وقالوا: اقض بيننا وبين ابن أخيك!

فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء، فلا تمِل كلَّ الميل على قومك.

قال: «وماذا يسألونني» قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتعطونني كلمةً واحدةً وتملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم». فقال أبو جهل: لله أبوك لنعطينكها وعشر أمثالها.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « قولوا لا إله إلا الله». فنفروا من ذلك وقاموا، فقالوا: « أجعل الآلهة إلهاً واحداً». فكيف يسع الخلق كلَّهم إلهٌ واحدٌ.

فأنزل الله فيهم هذه الآيات: «ص والقرآنِ ذِي الذكرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُنذِرٌ مِنْهُم وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُم أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُم إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُم فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُم خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُم قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢)» (ص: ١- ١٢). [1]

كانت تلك هي الآيات الأولى من سورة «ص»..

قريشٌ تزلزلت بإسلام عمر، أدركت أنَّ الأمر قد بدأ يخرج عن السيطرة، وصارت تبحث عن وسيلةٍ لاحتواء الدين الجديد، للتعايش معه بدلاً من أن يأتي وقتٌ لا تجد فيه مكاناً لها بتمدُّده..

@iAbubader

العرض واضحٌ. دعنا وشأننا، ندعك وشأنك..

والجواب أوضح: الحجر الأساس للدين الجديد، للحضارة الجديدة التي ستُبنى على هذا الحجر، يتناقض مع تعايشٍ من هذا النوع..

«لا إله إلا الله» في جوهرها تحتوي بوضوح - لا يمكن المساومة معه - على «نفيٍّ» لكلِّ إمكانيَّة مساومةٍ عليها..

هذه الـ «لا».. تُسمَّى: «لا النافية للجنس»

إنَّها «تنفي» كلَّ إلهٍ دون الله..

تنفي كلَّ ما يُمكن أن يزيح هذه الـــ «لا»..

أو يقنِّعها.. أو يؤجِّلها.. أو يجعلها «نعم» مغلَّفة.. أو «لا» خجولة..

****

لا ريب أنَّ عمر بن الخطاب كان يتفاعل مع كلِّ ذلك بشدَّةٍ..

فالسورة، أو مقدَّمتها على الأقلِّ، نزلت وسط تداعيات إسلامه..

ورئيس فريق التفاوض، كان عمرو بن هشام، الـ «عمر» الآخر الذي دعا الرسول أن يعزَّ الإسلام بواحدٍ منهما..

والموقف النبويُّ الصارم الحاسم..

ثم الآيات..

كلُّ ذلك كان لا بدَّ قد جعل عمر ينفتح إلى الحدِّ الأقصى مع الآيات..

وهناك، وهو في أقصى حالات تفاعله، ستكون **هناك آيات معيَّنة.. لا يمكن أن يمرَّ عليها من هو مثل عمر، دون أن تجعله يستخرج منها، ومن نفسه، كنوزاً لم تخطر يوماً على بال أحد..**

****

«وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ

وفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) وهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ واهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً ولِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقَلِيلٌ مَا هُمْ وظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وخَرَّ رَاكِعًا وأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ(٢٦)». (ص: ١٧- ٢٦).

ها هو الطين العمريُّ، يصبُّ في القالب الذي تقدِّمه سورة «ص»..

السورة التي نزلت «بسبب» تداعيات إسلام عمر..

فكيف لا يقف عمر الذي يريد أن يعوّض شدَّته السابقة.. الذي يريد أن يثبت مصداقيَّة ظنِّ الرسول الكريم به، كيف لا يقف أمام ذلك القالب، ويحاول أن يصبَّ نفسه فيه..؟!

****

فلننتبه هنا إلى أنَّ سياق الآيات لم يقل عن سيدنا داود إنه نبيٌّ!.

ونحن نعرف أنَّه نبيٌّ..

لكنَّنا نعرف، كما يعرف عمر بن الخطاب جيداً **أنَّ النبوة ليست قالباً يمكِننا أن نصبَّ أنفسنا فيه.. ليست شيئاً يمكِن أن نحاوله..**

لكنَّ السياق القرآني يُجنبنا كلَّ حرجٍ.. فهو يتحدَّث عن داود دون أيَّة إشارةٍ إلى نبوَّته، كما لو أنَّه يمنح المزيد من التشجيع لِمَن يمتلك المؤهِّلات والقدرات على أن يسلك الدرب دون تردُّدٍ أو وجلٍ.

سيِّدنا داود في هذه الآيات، هو عبد لله، وهو أيضا ذو الأيدي..

هو يمتلك يدين فقط، مثلنا جميعاً، لكنه يستخدمهما أقصى استخدام.. فإذا بها تبدو كما لو كانت «أيدٍ»..

وهذا يعني أنَّه في أقصى الممكن من الفاعليَّة.. في حالة نشاطٍ دائمٍ دؤوبٍ.. يدٌ هنا ويدٌ هناك..

ماذا عن تسخير الجبال والطير؟.. لم يكن هذا قطّ من مستلزمات النبوّة، ومحمدٌ النبيُّ، بل خاتم الأنبياء، عليه صلاة الله وسلامه، والذي تنزَّلت عليه هذه الآيات تحديداً لم يكن يمتلك «تسخير» الجبال له، ولم يكن ذلك قدحاً في نبوّته.

إنَّما التسخير يأتي لمن يفهم أسرار الاستخدام.. لمن يستطيع أن يستثمر الوسائل، ويضعها في سياقٍ مناسبٍ للإفادة منها.. سواءٌ كانت دابَّةً.. أو طيوراً.. أو رياحاً.. أو جبالاً.. أو أيَّ معدنٍ أو ثروةٍ خامٍّ من ثروات باطن الأرض وظاهرها.

ثم تأتي «**الحكمة**» لتكون عاملاً يشدُّ المُلك ويقوِّيه، كما لو أنَّ الملك يؤدِّي بطبيعته إلى فقدان التوازن الذي لن يُستعاد إلا بالحكمة، كي يشدَّ ويقوى.

وتكون الحكمة هنا رديفةً لفصل الخطاب.. وفصل الخطاب هو الحسم الذي يعرفه عمر، ونعرفه عنه.. إنَّه الثبات الذي لا يقبل المساومة.. وكونه يأتي مع الحكمة هنا تذكيرٌ لنا بأنَّ «الحكمة» لا تعني دوماً ما يُشاع عنها من كونها ليونةً ومرونةً تصل حدَّ تضييع الثوابت.

لا.. الحكمة مع فصل الخطاب هي التوازن الذي يتمسَّك بالثوابت، ولا يقبل حتى فكرة التفاوض عليها، فصل الخطاب يعني ببساطة وجود أمورٍ فيها «حقٌّ» واحدٌ، حقيقةٌ واحدةٌ، خطابٌ واحدٌ، أمورٌ لا تخضع للآراء أو وجهات النظر أو «النسبيَّة».. وهو أمرٌ بالغ الأهميَّة في مرحلتنا الحاليَّة حيث تتعرّض الكثير من الثوابت للتقزيم والتمييع.

فصل الخطاب، خطوطٌ حمراء نحفظ بها هويّتنا وثوابتنا ومرجعيَّتنا.. وعزَّتنا.

ثمَّ تأتي **حادثة الخصمين والنعاج لتثير مسألة العدالة الاجتماعيَّة** وتقليص الهوَّة بين الفقراء والأغنياء.

تقول لعمر: إن هذه العدالة هي صلب هذا الدين، وكان عمر قد جرَّب في طفولته شظف العيش وقسوته، وعرف تماماً ما معنى أن يستأثر الملأ بكلِّ شيءٍ، وأن يأخذ الفقراء الفتات الذي بالكاد يمنحهم كفافهم.

في كلِّ حياته ستكون هذه **المحطَّات شديدة الوضوح** في سيرته الشخصيَّة، وغير الشخصيَّة، سيرته وهو يبني الحضارة.. لكن مع أشخاصٍ مثل عمر لا فرق هناك ولا مسافة بين الشخصيِّ وغير الشخصيّ، وهذا ما يجعلهم «عظماء» و «مؤثِّرين» في

محيطهم الذي حولهم والعالم الذي يعيشون فيه.

لو أبقينا هذه الآيات في ذهننا ونحن نتابع حياة عمر، ابتداءً من هذه اللحظة، وهو لا يزال في مكة قبل الهجرة **لوجدناه «يتمثّلها «حرفاً حرفاً.. لو استطعنا إجراء تحليل حامضٍ نوويٍّ» DNA " لكلِّ فعلٍ أنجزه الخطاب، لوجدنا هذه الآيات في سورة "ص" التي نزلت بعد تداعيات زلزال ولادته كعمر جديدٍ في مكة.**

"ذا الأيد"! كان داود ذا أيدٍ..
وعمر كان ذا أيدٍ أيضاً، قائمة منجزاته تبدو أحياناً كالخرافة!..

من الصعوبة جداً أن تصدِّق أنَّ زعيماً تاريخيّاً قدَّم كلَّ ما قدَّمه عمر في تسع سنواتٍ فقط من حُكمه.. لكنَّ عمر لم يكن أسطورةً، ولم يكن شخصاً خارقاً، بل كان شخصاً اختار أن يضع "طينه" في قالب عبوديَّةٍ عملاقةٍ، قالب داود "ذا الأيد".

التسخير؟ سنرى عمر يحلِّق في أسرار الاستخدام، سنراه وهو يبني السدود، يشقُّ القنوات، يحفر الأنهار.

الحكمة وفصل الخطاب؟ من الصعب أن نجد موقفاً واحداً لعمر لا تتجلَّى فيه هذه الصفة.. من الصعب أن نجد قائداً عبر التاريخ كان أقرب منه إلى الحكمة وفصل الخطاب - التمسُّك بالثوابت -.

كلُّ الساسة في العالم يعدُّون السياسة هي "فنّ الممكن"، وهم يعبِّرون بذلك عن تغييرهم المستمرِّ لما يطالبون به.. أمَّا عمر فهو صاحب" **فصل الخطاب**".. صاحب الثبات على المبدأ عندما يكون التنازل عنه "هزيمةً" حتى لو انتصرتَ بمعايير خصومك، فالانتصار يجب أن يكون بمعايير مبادئك وقيمك حتى يكون نصراً حقيقيّاً.

لكن ما وجه المقارنة بين ساسة "فنِّ الممكن" وبين عمر؟

لا مقارنة.. نظلمهم إذ نضعهم في أيَّة مقارنةٍ.

قد تكون السياسة هي فنُّ الممكن.

لكنَّ الحضارة هي فنُّ الإيمان بأنَّه يمكنك أن تبني على ثوابتك بناءً شامخاً عزيزاً.

وعمر، لم يكن رجل سياسةٍ **إلاَّ بقدر ما لا يتعارض ذلك مع كونه رجل حضارةٍ..**

وكان ذلك في أحيانٍ كثيرةٍ لا يتعارض..

@iAbubader

بل سيرته تثبت أنَّ رجل السياسة في داخله قد انتفع جداً من رجل الحضارة... وأنَّه قدَّم وجهاً حضاريّاً لسياسةٍ شرعيَّةٍ بوجهٍ حضاريٍّ.

****

العدالة الاجتماعيَّة!

وحدها هذه يمكن أن تستغرق مجلداتٍ في سيرة عمر!.. هل نتكلَّم على أكياس الدقيق التي يحملها على ظهره أو على محاسبته لعماله.. أو على بائعة اللبن؟

كلٌّ منها محطاتٌ مضيئةٌ في سيرته. وفي كلٍّ منها تجد تلك الآيات التي صبَّ عمر نفسه في قالبها.

****

(يا دَاوودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى...) (ص: ٢٦).

علم عمر أنَّ هذا هو الحدُّ الأقصى لما يمكن لإنسان أن يكونه.. بعد مقام النبوَّة الذي لا تنافس فيه..

اختار هذا..

وعرف أنَّ الدرب إليه يجب أن يمرَّ بالحكم بالحقِّ. وبعدم اتِّباع الهوى..

صار عمر "خليفةً في الأرض" قبل أن يبايعه أحدٌ بفترةٍ طويلةٍ..

صار خليفةً. بمعنى أن تكون كلُّ أفعاله محكومةً بالحقِّ. أن تكون رؤيته لما حوله محكومةً بالحقِّ..

وأن يكون في صراعٍ حادٍّ مع الهوى..

وهذا ما نجح فيه عمر حتى قبل أن تكون إمارته للمؤمنين أمراً مطروحاً. بل حتى قبل وفاته عليه الصلاة والسلام وهذا ما قاده إلى أن يكون **الخليفة**. ربَّما الأكثر شهرةً وتأثيراً.. **بين كلِّ خلفاء الإسلام..**

بل بين كلِّ زعماء الإنسانيَّة وقادتها ومصلحيها عبر التاريخ.

عندما نختار لحياتنا مسارها، فإننا نختار دون وعيٍّ منّا قالباً ذُكِر بطريقةٍ أو بأخرى في القرآن الكريم..

البعض يختار قالب الخوض مع الخائضين..

والبعض يختار قالب "أبي جهل".. قالب "أسفل السافلين"..

البعض يكون مذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك.. يختار قالب "المنافقين"..

البعض يختار قالب "المخلَّفين"..

البعض يختار قالب "الدوابّ".. قالب "الأنعام" بل أضلّ سبيلاً..

قالب "ياليتني كنت تراباً".

والبعض مثل عمر، يختار القالب الذي خلقنا لأجله..

قالب "خليفة في الأرض"..

@iAbubader

مفتاح عمر: الإيجابيّة..

السؤال هو: ماذا تختار أنت؟

لا نعرف الكثير عن عمر بن الخطاب في الفترة المكيَّة التي تلت إسلامه، وسبقت هجرته..

كانت هناك ستُّ سنواتٍ فصلت بين الحدثين، ولا نعرف الكثير عنها، ليس فقط عن عمر، بل عن عموم الصحابة والمرحلة بتفاصيلها.. ذلك لأنَّ من تفرَّغ لرواية الحديث لاحقاً لم يكن موجوداً في تلك المرحلة، أو كان صغيراً ليدرك تفاصيلها.

لكنَّنا واثقون أنَّ تلك الفترة كانت خصبةً وغنيَّةً جداً بما سيكون له دورٌ مهمٌّ في بناء عمر بن الخطَّاب الذي سيساهم في بناء الحضارة..

لا بدَّ أنَّ عمر كان في تلك الفترة يتفاعل مع القرآن..

أو هل نقول: يُعاد تشكيله بالقرآن؟

****

هذه التفاعلات "العمريَّة" مع القرآن توضِّح لنا الكثير عن مفاتيح فهمه للقرآن، وكيف جعل هذا الفهم أداةً لبناء الحضارة الإسلاميَّة.. كيف تحوَّل هذا الفهم ليكون مفاتيح للنهضة والحضارة.

الحضارة لا يمكن أن تُبنى فقط بمعولٍ وحجرٍ وأدوات بناءٍ تقليديٍّ..

الحضارة بُنيت أولاً بفهمٍ مثل **الفهم العمريِّ للقرآن**.. عبارة "القرآن حمّال أوجه" ليست صحيحةً بإطلاقها، وحتى لو صحَّت، فنحن نعرف أنَّ الوجه الذي يجب أن نأخذه هو الوجه الذي كان سيأخذه عليه الصلاة والسلام.

@iAbubader

كيف سنعرف هذا الوجه؟

لا يحتاج هذا إلى الكثير من التفكير، ولا يحتاج أيضاً إلى أن نعرف ماذا قال عليه الصلاة والسلام عن كلِّ آيةٍ من آيات القرآن الكريم..

نحتاج فقط أن نرى مجمل سيرته.. مجمل حياته، لنفهم أيَّ وجهٍ كان سيأخذ عليه الصلاة والسلام..

إنَّه الوجه الإيجابيُّ دوماً.. وجه الفاعليَّة.. وجه بناء الحضارة.

هذا هو فهم الصحابة، فهم الجيل الأول الذي حقَّق أعظم نقلةٍ حضاريَّةٍ في أقصر وقتٍ شهده التاريخ..

كلُّ وجهٍ يشي بغير هذا الوجه الإيجابيِّ سيكون **ليس "ما أنا عليه وأصحابي"..**

القرآن يدعو إلى العمل.. إلى الإيجابيَّة..

إن لم يكن هناك عملٌ به، فلِمَ أُنزل أصلاً؟

هكذا تفاعل عمر مع كلِّ آيةٍ..

لا بدَّ أن يكون هناك عملٌ بها..

لا بدَّ أنَّها مفتاحٌ ما..

مفتاحٌ لبناءٍ.. مفتاحٌ لهدمٍ.. مفتاحٌ لطريقٍ.. مفتاحٌ لسلاسل وأغلالٍ تقيِّدك، وتمنعك من العمل..

في كلِّ آيةٍ، ثمَّة مفتاح ما.. يقول لك.. استخدمني..

كان هذا هو مفتاح عمر الأهمّ في تعامله مع القرآن.. أن يفهمه على نحوٍ "إيجابيٍّ".. أن يعدَّ أنَّ هذا هو السبب الأوَّل لنزوله.. وأنَّ أيَّة قراءةٍ تعطِّله عن العمل، ولو لاحقاً، ستكون قراءةً خاطئةً ومنعزلةً عن سياقٍ ما أُنزل من أجله القرآن بكلِّيَّته.

لكن هل وصلنا شيءٌ من عمر بخصوص هذا الفهم الإيجابيِّ؟

نعم، لقد حدَّد عمر بنفسه هذا..

(عن الباهلي أن عمر قام في الناس خطيباً مدخله في الشام بالجابية فقال:

تعلّموا القرآن تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله).[29]

(أخبرنا معمر عن قتادة أنّ عمر بن الخطاب قال: إنّ مثل من قرأ القرآن ولم يتعلّم الفريضة كمثل رجل لبس برنساً لا وجه له، قال: وقال عمر: تعلّموا بالنضال، وتحدّثوا بالفريضة).[30]

العمل بالقرآن هو الأساس في فهمه..

البرنس هو الثوب الذي يغطّي الرأس كجزءٍ من الثوب نفسه، فلا معنى فيه - لا يكون برنساً - إذا انتزع منه رأسه، فما فائدة تعلُّمك للقرآن إن لم يجعلك هذا تعمل بما افترضه الله عليك؟

والنضال هو التسابق بالرمي، فالتعلُّم عبر القرآن ، كان مثل ميدان سباقٍ للرمي، وكان الهدف هو دوماً: **العمل به!**

هذا المفتاح العمريُّ في فهم القرآن، سيشمل كلَّ تفاعلاته مع القرآن التي كانت مستمرَّةً حتماً كلَّ يومٍ، والتي لم تصلنا كلُّها مع شديد الأسف..

لكن ما وصلنا منها، يكفي لمنحنا إشاراتٍ كافيةً لفهم نمط هذا التفاعل العمريِّ مع كتاب الله جلَّ وعلا..

وهو نمطٌ من فهم القرآن يجعل من الإنسان نفسه «حضارةً» متنقِّلةً، وبالتالي يجعله يصنع الحضارة..

نمطٌ لا نستطيع اليوم أن نقول « إنّنا نملكه»..

وإلاَّ ما كنّا وصلنا إلى ما وصلنا إليه بين الأمم!

****

فلنرصد بعضاً من هذه التفاعلات العمريّة، ولنأمل أن يصلنا من تفاعلها بعض القبس..

فلنأمل أن نستردَّ عمر!

---

٢٩ جامع الأحاديث ٢٨٧٧٣
٣٠ مصنف عبد الرزاق ٢١٠٠٩

@iAbubader

(عن ابن جريج، بلغني أنَّ عمر بن الخطاب قال في قصة بني إسرائيل: إن بني إسرائيل قد مضوا، وإنّكم أنتم تعنون بهذا الحديث...)[٣١]

بنو إسرائيل مضوا، وأنتم المقصودون بكلِّ إشارةٍ إلى بني إسرائيل في القرآن الكريم!

هكذا فَهِمَ رضي الله عنه كلَّ سياقٍ قرآنيٍّ ذكر بني إسرائيل..

نحن المقصودون..

نحن المعنيّون بكلِّ ما توجَّه إلى بني إسرائيل..

القرآن ليس كتاب تاريخ.. ليس كتاب حكايات..

على العكس..

إنَّه كتاب حاضر.. حاضر مستمر.

وهو كتاب مستقبلٍ أيضاً.. ليس للتنجيم والعياذ بالله..

ولكنَّه كتابٌ لصناعة المستقبل..

كتابٌ يعلِّمُك كيف تصنع المستقبل، وعندما يحدِّثك عن بني إسرائيل في هذا المنزلق، أو ذلك المنعطف، فإنَّه إنَّما يقصد **أن تتجنَّب ما حدث معهم في تاريخهم.. في طريق دربك إلى مستقبلك..**

عندما يحدِّثك مثلاً، عن البقرة التي أمرهم الله عزَّ وجلَّ بذبحها، فذبحوها، وما كادوا يفعلون، من كثرة أسئلتهم وتنطُّعهم، فإنه لا يقصد عزَّ وجلَّ تسليتنا عبر ذكر مثالب الأقوام السابقة.. بل يريد منَّا أن نتنبَّه إلى **عدم التلهِّي بالتفاصيل الصغيرة التي نشغل أنفسنا بها عن المقصد الأساسيِّ..**

وهذا يحدث كثيراً.. أن تأخذنا تفاصيل الفرعيّات وخلافنا واختلافنا عليها لتبعدنا عن المقصد من العبادة مثلاً أو من الأمر التشريعيِّ..

التفاعل العمريُّ مع القرآن كان يمنع حصول انحرافاتٍ في الفهم من هذا النوع.. فكلُّ حديثٍ عن بني إسرائيل كان يعنينا نحن..

أما هم فقد مضوا..

---

٣١ تفسير الطبري، سورة البقرة آية ٨٥

وإذا لم نفهم هذا، فسنمضي نحن أيضاً!..

وقد حدث فعلاً، وكان هذا من أسباب أنّنا مضينا فعلاً.. (حتى الآن على الأقل!)..

ولعلَّ في الفهم العمريِّ ما يرجِعُنا إلى الدرب، درب بناء الحضارة..

لعلَّ استرداد عمر..

يجعلنا نستردُّ مكانتنا.. ونخرج من مكانة بني إسرائيل.

****

(عن أنس ان عمر بن الخطاب قال لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر قلت أي جمع هذا فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم وبيده السيف مصلتا وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر..).[٣٢]

الآية نزلت في مكة..

(أَكُفَّارُكُم خَيرٌ مِنْ أُولَئِكُم أَم لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ. أَم يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرٌ. سَيُهزَمُ الجَمعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (القمر: ٤٣-٤٥).

لم يعرف عمر من هو **الجمع الذي سيهزَم ويولُّون الدبر..**

بقي يحملها معه.. يريد أن يفهمها.. يريد أن يتخيَّلها.. يريد أن يكون جزءاً من «صيرورتها».. من «تحقُّقها»..

لم **يعدَّها** مجرَّد آيةٍ للتلاوة، أو للبركة..

بل **عدَّها** جزءاً ممَّا يجب أن يتحقَّق ويصير..

كيف؟

بأن يعمل على ذلك..

في مكة كان الجمع القرشيُّ في عزِّه وشوكته.. وكان التأويل يبدو بعيداً..

«لا أدري أيَّ جمع»..

لكن عدم معرفته بأيِّ جمعٍ لم يجعله يكفُّ عن العمل والاتِّباع..

إلى أن وصل بدراً.

كان يحمل الآية في صدره طيلة تلك السنين.. أيُّ جمعٍ سيهزَم ويولُّون الدبر؟

وفي بدر.. عرف تأويلها.. ورأى الجمع يهزَم.. ورآهم يولُّون الدبر..

---

٣٢ المعجم الأوسط للطبراني ٣٨٢٩.

@iAbubader

وهل تعتقدون أنَّه توقّف عن استحضارها، مرَّةً تلو الأخرى؟
هل تعتقدون أنَّه لم يرَ **تأويلها في القادسية؟.. واليرموك؟..**

هل تعتقدون أنَّه لم يكن قد وضعها في حساباته وهو يجهِّز جيوش الفتح التي ستحارب الفرس والروم..
شخصيّاً أعتقد أنَّها كانت من أولويّاته!..
وأنَّه رآها تتحقَّق.. مرَّةً، تلو مرَّةٍ..

ماذا نستخلص هنا من هذا المفتاح العمريِّ للقرآن في هذه الحالة؟

نفهم أنَّه يأخذ الآيات معه إلى المستقبل.. يجعل الآيات «محرّكاً» يقوده إلى هذا المستقبل، ويساهم في صُنعه.. يجعل إيمانه بأنَّ الجمع سيهزم وسيلةً لهزيمة هذا الجمع.. وسيلةً لجعله يولِّي الدُّبر..

كان عمر **يقرأ العالم حوله من خلال هذا القرآن، فإذا رأى اختلافاً بين الاثنين، علم أنَّه من واجبه أن يلغي هذا الفرق..** أن يجعل العالم مطابقاً لما أراده الله.. أن يكون كما يريده الله... وهذا الفهم للقرآن الذي يجمع بين الاثنين هو بالتأكيد مفتاحٌ عمريٌّ من مفاتيح البناء الحضاريِّ الذي أنجزه عمر.

****

فلنتذكَّر هنا، أنَّ هزيمة الجمع وتوليتهم الدبر، لا يشترط أبداً **أن تكون في مواجهاتٍ عسكريةٍ فحسب، حتى لو اتَّخذت هذا الشكل في بعض الأوقات..**

سيهزم الجمع، ويولُّون الدُّبُر يمكن أن تكون في أيَّة منافسةٍ ومواجهةٍ حضاريَّةٍ بين ثقافتين.. يمكن أن تكون في مستوى التعليم، في العدالة الاجتماعيَّة.. في الخدمات الصحيَّة، في التماسك الاجتماعيِّ، في مستوى الصحَّة النفسيَّة.. في انخفاض معدلات الجريمة.. في قلة معدلات الهجرة..

كلُّ هذه مواجهاتٌ مهمَّةٌ.. فَهِمَها عمر ووعاها، **لقد هَزِم الفرس والروم في ساحات المعارك.. لكنَّ المواجهة الحضاريَّة لم تنتهِ.. كان حريصاً جداً أن تكون الحياة التي يقدِّمها «الإسلام» - عبر حضارة الإسلام - هي أفضل وأكثر عدالةً وتماسكاً وانسجاماً مع فطرة الإنسان.**

@iAbubader

وكان عمر يعرف، وهو الذي وُلِد وتشكّل بالقرآن - أنّ هذا النوع من المواجهة - هو ما يجعل المهزومين الذين ولّوا الدُّبر يلتفتون لاحقاً.. ويعترفون على الأقلّ بينهم وبين أنفسهم .. أنّ ما قدّمه الإسلام أفضل.. وربّما يكون ذلك سبباً في دخولهم فيه..

لأنّه هزمهم، لا في معركةٍ لن يقلّل أحدٌ من أهميّتها..

ولكنْ في المواجهة الحضاريّة أيضاً..

لأنّه كان يعي أنّ المعركة ونتائجها ستكون عابرةً، لو لم يرافقها نصرٌ في المواجهات الأخرى.

****

«كنتم خير أمّةٍ أُخرجت للناس» قال: قال عمر بن الخطاب: لو شاء الله تعالى لقال: «أنتم» فكنّا كلُّنا، ولكن قال: كنتم في خاصّة أصحاب محمد، ومن صَنَعَ صنيعهم، كانوا خير أمّةٍ أخرجت للناس).[٣٣]

(وعن قتادة قال: ذُكِر لنا أنّ عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية «كنتم خير أمّةٍ أُخرِجَت للناس... الآية» ثم قال: يا أيُّها الناس من سرّه أن يكون من تلكم الآية فليؤدّ شرط الله منها!).[٣٤]

في التفاعل العمريّ مع هذه الآية نراه يحاول جاهداً أن **يمنع الناس من الاتّكال السلبيّ على ثناءٍ ما قد وردهم في كتاب الله عزّ وجلّ..**

يغار عمر على كتاب الله وآياته من فهمٍ «يحرفه» عن مقصده، من وجهٍ يُخرجُه عن وجهه الذي آمن به الرسول والجيل الأول من الصحابة.. وهو يعي تماماً أنّ مقصد الآيات ليس هذا الفهم السلبيّ الذي قد يأخذ الثناء لينام بعدها دون أن يفعل شيئاً..

يعلم أنّ أمّةً سابقةً قد أخذتِ الثناء على هذا النحو، فظلمت نفسها، وظلمت الثناء الذي وُجّه لها عندما حبست نفسها في زاويةٍ ضيّقةٍ جعلها تشعر بالتعالي على بقيّة خلق الله، وشيئاً فشيئاً تحوّلت.. تحوّل تعاليها إلى عنصريّةٍ بغيضةٍ، ومن ثمّ تحوّلت عنصريّتها إلى عبادةٍ للذّات..

---

٣٣ تفسير ابن ابي حاتم ٤٠١٨.
٣٤ جامع الأحاديث، مسند عمر ٢٩٩٨٤.

هذا ما يحدث عندما تسقط في فخّ التصديق النرجسيّ «المطلق» الذي يتجاوز أنّ جملة الثناء الإلهيّ كانت مشروطةً، وأنّها أيضاً وضِعت بصيغة الماضي، أي إنّها أنزِلت لتستفزّك كي تتمسّك بشروط الخيريّة، وتشعر أنّها تكاد تتفلّت منك دوماً، وتصير جزءاً من الماضي كي يزيد تمسُّكك بها، وتطبيقك لشروطها..

عمر هنا لا يستعمل مفتاحه الإيجابيّ فقط، بل هو يضع حصانةً ضدَّ الفهم السلبيّ المحتمل الكامن الذي يستميل الناس في فتور همّتهم، فيعمدون إلى الأخذ به، يبرّرون به تقاعسهم وتخاذلهم... ويتصوّرون في الوقت ذاته أنّهم لا يخالفون أمر الله..

لكنّ درّة عمر، وفهمه الإيجابيّ، يقفان بالمرصاد لأيّ فهمٍ سلبيٍّ **حتى قبل أن يحدث!**

****

(عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال: «أتيت النبيَّ صلَّى الله عليه وسلم ومعي نفرٌ من قومي، فقال: «أبشروا و بشّروا من وراءكم أنّه من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً دخل الجنّة»، فخرجنا من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم نبشّر الناس، فاستقبلنا عمر بن الخطاب، فرجع بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ردّكم؟ قالوا: عمر، قال: لِم رددتهم يا عمر؟» فقال عمر: إذاً يتّكل الناس، قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم»).[٣٥]

يفهم عمر دهاليز النفس البشريّة جيداً... يعرف أنّهم قد «يتّكلون».. يعرف أنَّ بشارةً مثل هذه يجب أن **تفهم ضمن حزمة نصوصٍ كاملةٍ متكاملةٍ، لا بالمفرّق الذي يسهّل الاتّكال والتواكل..**

فلنلاحظ أنّه عليه الصلاة والسلام قد سكت عندما قال عمر ما قال..

والسكوت علامة الرضا!

ولا أستبعد شخصيّاً أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام قد تعمّد أن يختبر فهم الصحابة بهذه البشارة.. فهو أخبر بالنفس البشريّة من عمر حتماً..

ولم يخيّب عمر ظنّه!

ولا يعني هذا أنّ البشارة غير صحيحة، حاشا وكلا، ولكن يعني ضرورة فهمها دوماً ضمن «الحزمة الكاملة»

لمنع الفهم السلبيّ من التسرُّب!..

٣٥ السلسلة الصحيحة، الألباني ٧١٢، مسند أحمد ١٩٧٠٤

(عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال أنَّه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:
«فأنبتنا فيها حبّاً * وعنبا وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلباً * وفاكهة وأبّاً»
قال: فكلُّ هذا قد عرفناه فما الأبُّ؟..
ثم نقض عصاً كانت في يده فقال: هذا لعَمرُ الله التكلُّف..
اتّبعوا ما تبيَّن لكم من هذا الكتاب).[٣٦]

لم يقف عمر عند كلمةٍ لم يعرف معناها، وهو العربيُّ القرشيُّ، ليضيع في دهاليزها والبحث عن مدلولاتها..
المعنى «العامُّ» من السِّياق واضحٌ..
فلِمَ الوقوف عند التفاصيل - المجهولة -؟..
بالنسبة لعمر.. **المفتاح هو أن تتَّبع ما «تبيَّن».. والاتِّباع هو أن تعمل.. هذا هو المعيار الذي يعتمده عمر مفتاحاً لأبواب الحضارة.. أيُّ فهمٍ سيضيِّع فرصة العمل والتأصيل له، ويفقِد «التحفيز» على العمل، فلا داعي له..**
عمر يَعدُّه «تكلُّفاً»..

****

التفاعل العمريّ الإيجابي نفسه كان مع أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام..
فعندما كان يشعر أنَّ فهماً سلبيّاً ما يأخذ حديث الرسول عليه الصلاة والسلام من معناه إلى زاويةٍ أخرى، كان يسرع ليصحِّح النصاب ويعيد للأمور عافيتها..
(عن أبي الأسود الديلي قال: انطلقت أنا وزرعة بن ضمرة الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلقينا عبد الله بن عمرو فقال: يوشك أن لا يبقى في أرض العجم من العرب إلا قتيل أو أسير يحكم في دمه فقال زرعة: أيظهر المشركون على الإسلام؟ فقال: ممَّن أنت؟ قال: من بني عامر بن صعصعة فقال: لا تقوم الساعة حتى تدافع نساء بني عامر على ذي الخلصة وثن كان يسمَّى في الجاهلية قال: فذكرنا لعمر بن الخطاب قول عبد الله بن عمرو فقال عمر: ثلاث مرار عبد الله بن عمرو أعلم بما يقول. فخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الجمعة فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورين حتى يأتي أمر الله.
قال: فذكرنا قول عمر لعبد الله بن عمرو فقال: صدق نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا كان ذلك كالذي قلت).[٣٧]

---
٣٦ المستدرك على الصحيحين٣٨٩٧ وقال الذهبي صحيح على شرط البخاري ومسلم.
٣٧ المستدرك على الصحيحين ٨٦٥٣

عندما شعر أنَّ هناك جزءاً من أحاديث الفتن، يمكن أن يقود لنوعٍ من السلبيَّة التي توحي بغير ما قصد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في مجمل السياقات..
أسرع ليذكِّر بالمعنى الإيجابيِّ الذي يجب أن نتمسَّك به.. ليستمرَّ العمل..
ستكون هناك طائفةٌ من الأمَّة منصورين دوماً..
هل تنضمُّ إليهم؟
أم تفضِّل أن تنوح وتبكي لأنَّ نسوة بني عامر سيتدافعن على ذي الخلصة؟

****

الأمر العمليُّ الإيجابيُّ نفسه نجده عند عمر عندما يجد من يحاول أن يدقّق في تفاصيل فقهيَّة.. قد يقصد من التدقيق تحرِّي الحلال.. ولكنَّها قد تؤدِّي إلى تعطيل العمل..
(عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ حَاطِبٍ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ فِي رَكْبٍ فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ حَتَّى وَرَدُوا حَوْضًا فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِصَاحِبِ الْحَوْضِ: يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ هَلْ تَرِدُ حَوْضَكَ السِّبَاعُ؟
فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ لاَ تُخْبِرْنَا فَإِنَّا نَرِدُ عَلَى السِّبَاعِ وَتَرِدُ عَلَيْنَا).[٣٨]
بهذا الوضوح.
يا صاحب الحوض لا تخبرنا!
لا نريد أن نعلم.
لم نأتِ سياحةً.. بل لدينا ما يجب إنجازه.. ونحن نرد على السباع والسباع ترد علينا!!

أروع ما يُمكِنُ التقاطه من مفاتيحَ وتفاعلاتٍ عمريَّةٍ مع القرآن هو ذلك التفاعل الذي حدث مع آيات سورة الواقعة..
قوله تعالى:«ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ»..
(قال عروة بن رويم: لمَّا أنزل الله تعالى: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ» بكى عمر، وقال: يا رسول الله آمنَّا بك وصدَّقناك، ومع هذا كلِّه من ينجو منَّا قليل. فأنزل الله تعالى: «لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ* ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ». فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر فقال: يا عمر بن الخطاب قد أنزل الله فيما قلت. فجعل ثلَّةً من الأولين وثلَّةً من الآخرين. فقال عمر: رضينا عن ربِّنا وتصديق نبيِّنا).[٣٩]
بكى عمر..!

---
٣٨ سنن البيهقي ١٢٢٦
٣٩ أسباب النزول سورة الواقعة ص ٢٧٠

@iAbubader

السابقون السابقون، المرتبة الأولى، سيكون فيها «ثُلَّةٌ» من الأولين..
وقليلٌ من الآخِرين..
بكى عمر..
لم يبكِ لانعدام فرصه في أن يكون ضمن القلَّة مثلاً.. كان يُمكِن أن يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له ربَّه ليكون من تلك القلَّة، بل إنَّه حصل فعلاً على منزلةٍ عاليةٍ عبر دخوله في قائمة العشرة المبشَّرة..
لكنَّ عمر لم يبكِ على نفسه.
لم يبكِ على «الفرد»..
فمَن يحاول أن يبني حضارةً وأمَّةً، بينما هو يتشكَّل بالقرآن، **لا يمكِن أن يقف عند حدود ذاتيَّته.. عند حدود تجاه الشخصيَّة «هو»..**
حسابات باني الحضارة، **تركِّز على المجموع، تعلم أنَّ الحضارة لا تنشأ وتنمو في جيلٍ واحدٍ أو جيلين**، لذا فإنَّ خبر أنَّ الأجيال اللاحقة ستكون منزوعة الخير والفضل لن يكون خبراً جيداً بالنسبة له.
كان عمر يعي أنَّ الدرب طويلٌ.. وأنَّ من سيأتي لاحقاً عليه أن يتحمَّل المسؤوليَّة، وإلا فإنَّ البناء لن يرتفع.
حسابات باني الحضارة، لا ترتفع فقط عن الـ «أنا».. نحو الـ «نحن»..
بل هي ترتفع حتى عن الـ«نحن» المحصورة في زمان ضيِّق..
لتصل إلى كلِّ الأجيال اللاحقة..

****

ويذكِّرنا هذا المفتاح العمريُّ في التعامل مع القرآن، بموقفٍ لاحقٍ في فترة خلافته رضي الله عنه..
فعندما طالبه الصحابة بتقسيم الأراضي المفتوحة عليهم، فكَّر عمر بمن سيأتي لاحقاً من المسلمين.. ماذا سيترك لهم؟!
(عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْلَا آخِرُ الْمُسْلِمِينَ مَا فُتِحَتْ قَرْيَةٌ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ أَهْلِهَا كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ).[٤٠]

****

من بعيد، كان ينظر لمن سيأتي لاحقاً..
من بعيد كان يريد أن يكونوا معاً على الدرب..

---
٤٠ صحيح البخاري ١٨٨٥٤

كان يمهِّد لهم الدرب.. ويريد أن يستمرُّوا فيه..
بكى من احتماليَّة ألاَّ ينالوا فضلاً، بعد أن أخذ السابقون الفضل كلَّه، إلاَّ «القلَّة من الآخرين»..
لكن نزل خبر السماء ليؤكِّد لعمر أنَّ هذا ليس كلَّ شيء..
وأنَّ في الأمر متَّسعاً..
لمن سيأتي لاحقاً..
لنا، أيضاً، إن سرنا على الدرب..
بكى عمر من أجلنا أيضاً، لكي يترك لنا فرصة أن نكون ضمن «ثلَّة من الآخرين»..
فهل نحن منهم؟
هل سنسير على درب البناء، أم أننا نتَّكل على هذا النصِّ، ونتكلَّف عند هذا النص، فقط لكي نبرِّر القعود..
السؤال عامٌّ جداً..
والجواب شخصيٌّ جداً..
يُمكِن لكلٍّ منَّا أن يردَّ عليه، بينه وبين نفسه..

@iAbubader

موسم الهجرة إلى الحضارة

لا يزال الناس يهاجرون من بلدانهم، يحزمون حقائبهم، ويتركون أوطانهم، يتوجَّهون إلى بلدان أخرى بحثاً عن ملجأ أكثر أمناً، أو حياةٍ أكثر رفاهةً، أو بضماناتٍ أكثر..

لا يزال الناس يفعلون ذلك.. ملايين منهم كلَّ سنة..

هي هجرة..

ولكنَّها لا تُشبه تلك الهجرة التي قام بها الرسول الكريم وقبله صحابته رضوان الله عليهم من مكة إلى المدينة.. إلاَّ بالاسم فقط.

كلُّ التشابه بين الهجرتين هو تشابه أسماء فقط.

ليس فقط لأنَّ هجرة أغلب الناس هي هجرةٌ لأسبابٍ تتعلَّق بظروف الحياة الماديَّة، بينما هجرته عليه الصلاة والسلام كانت من أجل عقيدةٍ وفكرةٍ..

ولكن لأنَّ الهجرات المعاصرة تكون غالباً للاستفادة من ثمرات «حضاراتٍ» أخرى، حضاراتٍ تَعِبَ فيها مِن روّادها وبُناتها الأوائل الآباء المؤسِّسون كما يسمُّونهم.

لا يعني هذا أنَّ مَن يهاجر اليوم إلى هذه الحضارات لا يقدِّم لها خبرته وشبابه - وفيهما ضمان ديمومتها - مقابل ما تقدِّمه من خدماتٍ وضماناتٍ وأمنٍ.

لكن!

«الهجرة» في موروثنا كان لها معنى آخر مغايرٌ.. غير ما يحدث اليوم..

لا أن تتمتَّع بثمارٍ جاهزةٍ لحضارات الآخرين..

بل أن تُهاجر لكي تصنع حضارتك بنفسك!..

@iAbubader

ثلاث رواياتٍ عن عمر في الهجرة، قد تبدو للوهلة الأولى متعارضةً.. ولكن عند النظر إليها من زاوية تكامل بعضها مع بعض، نرى كلاً منها يقدِّم جانباً مهمّاً من الهجرة، ومن شخصيَّة عمر، ومن فهمه للهجرة..

****

(عن عليّ بن أبي طالب قال: ما علمت أحداً هاجر إلاَّ مختفيّاً إلاَّ عمر بن الخطاب، فإنَّه لمَّا همَّ بالهجرة تقلَّد سيفه، وتنكَّب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، وأتى الكعبة وأشراف قريش في فنائها، فطاف سبعاً ثمَّ صلَّى ركعتين عند المقام، ثم أتى حلقهم واحدةً واحدةً فقال: شاهت الوجوه من أراد أن تثكله أمُّه، ويؤتم ولده، وترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي فما تبعه منهم أحدٌ).[41]

من الواضح هنا أنَّ أغلب المهاجرين هاجروا سرّاً..

لكنَّ عمر لم يحتمل ذلك..

لم يشأ أن يعتقد أحدٌ من مشركي مكة أنَّه يهرب منهم سرّاً... ما كان ليفعلها وهو كافرٌ، ما كان ليرضاها على نفسه وهو كافرٌ.. أفيرضاها الآن وقد زاده الإسلام عزَّةً ومنعةً وقوَّةً؟.

لا والله..

لا يفعل..

ليس من أجل عزَّة "نفسه" فقط..

بل من أجل عزَّة الإسلام، سيرميها في وجوههم، سيرمي هذا التحدِّي السافر أمام كفَّار مكة، كي لا يعتقد أحدٌ منهم ولو لوهلةٍ أنَّ الإسلام ضعيفٌ.. كي لا يتصوَّروا أنَّ الإسلام يفرُّ من المواجهة..

شاهت الوجوه!..

أي قبحت!..

وها هو يتحدَّاهم؟

---

٤١ ابن عساكر ٣١٤٠٨، كنز العمال ٣٥٧٩٦

مَنْ منكم يريد أن تترمَّل زوجته، وتثكل أمُّه وييتَّم أولاده؟.. إذاً فليتبعني وراء هذا الوادي!..

أنا مهاجرٌ، وسيفي وأسهمي بيدي.. ومَنْ يُزعجه ذلك فلعلَّ تيتُّم أولاده، وترمُّل زوجته، وثُكْل أمه يزعجه أكثر.

****

ليس هذا فقط...

لعلَّ عمر تذكَّر أمَّ عبد الله بنت أبي حثمة، يوم كانت تجهِّز رحلها للهجرة إلى الحبشة..

يوم رقَّ قلبه لها، وطمعت هي بإسلامه، وقال لها زوجها - فيما لا يعرفه عمر! - أنَّ حمار الخطاب سيُسلم قبل عمر!..

لعلَّه تذكَّر هجرة الحبشة، وخروج المسلمين يومئذٍ، وأراد أن يرسم خطَّاً فاصلاً تماماً بين الخروجين.. بين الهجرتين.

لقد فهم عمر **أنَّ الهجرة إلى يثرب مختلفةٌ تماماً عن الهجرة إلى الحبشة.. كانت الهجرة إلى الحبشة أقرب إلى اللجوء الإنسانيِّ، هجرة مستضعفين في الأرض يريدون الحماية والجوار ممَّن كان أقرب إلى المسلمين من غيره..**

وفَهِمَ عمر أنَّ هذه الهجرة التي على وشك أن تحدث هي من نوعٍ مغاير تماماً... **ليست هجرة مستضعفين في الأرض، وها هو يتقلَّد سيفه وأسهمه ليقول لهم ذلك.. ليست هجرة لجوءٍ إنسانيٍّ، بل هجرة بناء مجتمعٍ بديلٍ.. هجرة الخطوة الأولى نحو الحضارة البديلة التي ستغيِّر التاريخ..**

ما كان سيرضى أن يهاجر كمستضعفٍ..

وقد طاف بالكعبة سبعاً، ثمَّ صلَّى ركعتين..

وأعلن بعدها **انتهاء مرحلة الاستضعاف على نحوٍ حاسمٍ (كانت قد بدأت نهايتها مع إسلامه!)..**

وبدء مرحلة التمكين..

هل كان يُمكِن أن يكون هناك مَنْ هو أكثر تأهيلاً من عمر ليعلن ذلك بالذات؟!

لكن لعلَّ هناك شيئاً آخر في هذه الحادثة نفهمه عندما نركّز فيها، في تفاصيلها..

لقد رأى عمر في بداية الأمر، بل حتى قبل بدايته **ما ستؤول له النهايات..**

وتلك هي الحكمة، **أن ترى ومنذ البداية ما يعجز عن إدراكه الآخرون إلا بالتدريج..** وربّما يكونون قد عارضوك أوّل الأمر عندما طرحت رؤيتك.. لكنّهم سيجدون أنفسهم بالتدريج، ومع الوقت، يفهمون ما كنت قد فهمته مبكراً، عبر نظرةٍ ثاقبةٍ، ترى شموليّة الأمر وتكامليّته..

ما الذي أقصده هنا؟

كانت الدعوة في مكة "سلميّةً" في عمومها... **لم تكن استسلاميّةً كما قد يفهم البعض، لكنّها كانت "سلميّةً" في الجمل.. ولم تخلُ من مدافعةٍ بالقوة منذ أن أسلم حمزة، وأعزَّ الله الإسلام بإسلام عمر.. فقد "قاتل" عمر المشركين كي يصلي المسلمون في الكعبة.. لم يكن قتالاً بالسلاح، لكنّه لم يكن "سلميّاً"..**

رغم ذلك، فقد كان مجمل الدعوة في مكة سلميّة الطابع ويعني ذلك عدم استخدامٍ للسلاح..

أدرك عمر عشيّة الهجرة أنَّ **السلميّة قد استنفدت فرصها..**

وأنَّ المرحلة القادمة ستكون مختلفةً..

أدرك عمر أنَّ الدرب إلى الحضارة، إلى المجتمع البديل وثقافته وسلوكيّاته، سيمرُّ بمراحل عديدةٍ، كما تمرُّ الدروب أحياناً بالجبال الصخريّة، وأحياناً بالرمال المتحرّكة، فإنَّ الدرب إلى الحضارة يمرُّ كذلك بأنواعٍ مختلفةٍ، والإصرار على نوعٍ واحدٍ سيقود إلى الدوران في دائرةٍ مغلقةٍ..

فلننتبه هنا، إلى أنّ عمر تقلّد سيفه، ولم يستخدمه، كان بإمكانه أن ينفّذ عمليّة اغتيالٍ لمن شاء من صناديد قريش..

لكنّه لم يفعل..

كان فهمه للقوّة مختلفاً عن ذلك، وسيتعزّز ذلك لاحقاً بما سينزل من القرآن في الأمر.. سيكون الإعداد للقوّة والتأهّب جزءاً من عمليّة ردعٍ مهمّةٍ جدّاً للعدوّ.

(وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ). (الأنفال ٦٠).

الإعداد، قد يوفّر الاستخدام..

والتخاذل عن ذلك، قد يغري على العدوان!..

وهكذا فإنَّ عمر قد لوَّح بسيفه مهدِّداً، ليوصل رسالةً واضحةً مفادها أنَّ الإسلام قد بدأ مرحلةً جديدةً..

لكنَّه لم يستخدم السلاح..

ليس في هذه النقطة، على الأقلّ..

****

الرواية الثانية التي تُنقَل على لسان عمر نفسه، قد توحي بشيءٍ آخر.. لكنَّها في الحقيقة تصف الهجرة في مفصلٍ آخر..

(عَنِ ابْنِ عمر عَنْ عُمَرَ بن الخطاب قال: لما اجتمعنا للهجرة اعتدتُ أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاصي الميضاة ميضاة بني غفار فوق سرف، وقلنا أيُّكم لم يصبح عندها فقد احتبس فلينطلق صاحباه. فحُبس عنا هشام بن العاص، فلمّا قدمنا المدينة، فنزلنا في بني عَمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا المدينة، فكلَّماه فقالا له: إن أمَّك نذرت أن لا تمَسَّ رأسها بمشطٍ حتى تراك، فرقَّ لها، فقلت له: يا عيَّاش إنَّه والله إن يريدك القوم إلا عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد أذى أمَّك القمل لقد امتشطت، ولو قد اشتدَّ عليها حرُّ مكة أحسبه قال: لاستظلَّت، فقال: إنَّ لي هناك مالاً، فآخذه قال: قلت: والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالاً فلك نصف مالي ولا تذهب معها قال: فأبى عليٌّ إلاَّ أن يخرج معهما، فقلت له لما أبى عليّ: أما إذ فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريبٌ فانجُ عليها، فخرج معهما عليها حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال أبو جهل بن هشام: والله لقد استبطأت بعيري هذا أفلا تحملني على ناقتك هذه قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحوَّل عليها، فلما استووا بالأرض عديا عليه، وأوثقاه، ثمَّ أدخلاه مكة، وفتناه، فافتتن قال: وكنَّا نقول والله لاَ يقبل الله ممَّن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا تُقبل توبة قومٍ عرفوا الله، ثمَّ رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ أصابهم، قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلمَّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله فيهم وفي قولنا لهم وقولهم لأنفسهم: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر

الذنوب جميعا» إلى قوله: «وأنتم لا تشعرون»، قال عمر: فكتبتها في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاصي، قال هشام: فلم أزل أقرؤها بذي طوى أصعد بها فيه حتى فهمتها قال: ألقي في نفسي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة..).[٤٢]

****

وجه التناقض الظاهريّ بين الروايتين هنا هو أنّ عمر يبدو هنا كما لو كان يهاجر سرّاً، بينما بدا في الرواية الأولى أنّه يُعلنها على الملأ..

لكن هذا مجرَّد جزءٍ من القصَّة..

فالحقيقة، أنَّ عمر لم يتَّفق فقط مع هذين الرجلين..

ففي صحيح البخاري أنّه ذهب في عشرين رجلاً..!

(يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أبي مكتوم، وكانوا يقرئون الناس، فقدم بلال، وسعد، وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين نفراً من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيءٍ فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم).[٤٣]

عشرون رجلاً!!..

لا تناقض..

في الرواية الثانية هو يتحدَّث عن اتِّفاقه مع عيّاش بن أبي ربيعة، ويركِّز عليه بسبب كلِّ ما حدث من تفاصيل لاحقةٍ من محاولة فتنته عن دينه، وليس عمر مضطرّاً أن يتحدَّث عن تفاصيل اتِّفاقه مع عشرين شخصاً!..

لكن ما شأن الرواية الأولى.. الجهر بالهجرة؟!

أرى شخصيّاً أنَّ هذا الجهر كان وسيلةً – بالإضافة لكلِّ ما سبق – للتغطية على العشرين شخصاً الذين كانوا سيهاجرون مع عمر.

---

٤٢ مسند البزار – مسند عمر بن الخطاب ١٥٥

٤٣ البخاري ٣٧١٠

ما كان يُمكِن لعشرين شخصاً أن يهاجروا خفيةً في اليوم نفسه.. كان الأمر سينكشف حتماً.. وكان يمكن لذلك أن يؤدِّي إلى إجهاض خطَّة الهجرة..
كان لا بدَّ لشيءٍ ما أن يشغل مشركي مكة عن الانتباه لتحركاتٍ «مثيرةٍ للشكِّ» لا بدَّ أنَّها كانت ستحدث عندما يتأهَّب العشرون شخصاً للخروج..
وهل كان يمكن أن يكون ذلك إلاَّ **بقنبلةٍ جانبيَّةٍ تلفت انتباه المشركين**، وتُشتِّتهم عن كلِّ ما كان يدور؟!..

وألقى عمر قنبلةً دخانيَّةً عليهم!.. شغلهم بها عن العشرين صحابيَّاً الذين ربَّما كانوا سيتعرَّضون للإيذاء لو انكشف أمرهم..
أمَّا هو، فمَن أراد أن تثكله أمُّه، فليلقني وراء هذا الوادي.

****

لكنَّ محنة عيَّاش وفتنته تكشف لنا عن جانبٍ شديد الحميميَّة من شخصيَّة عمر.. جانبٍ شديد الحساسيَّة، كما لو أنَّ خلف هذا العملاق قلباً مليئاً بالحبِّ والودِّ.. (لعلَّ كلُّ العمالقة كذلك، في جانبٍ من جوانب شخصيَّاتهم)..
عمر يتمسَّك بعيَّاش خوفاً عليه من الفتنة.. يحاوره، يسخِّف له تهديدات أمِّه وما تقول أنَّها ستفعله بنفسها، يعرض عليه نصف ماله، نصف ماله من أجل أن يبقى مسلمٌ واحدٌ دون أن يُفتتن..!!

هل هذه هي الأخوَّة؟.. هل هذا هو الحبُّ في الله؟.. هل يختلط ذلك بشعور عمر بالمسؤوليَّة والتحدِّي الشخصيَّين **لأنَّ عيَّاشاً هو شقيق أبي جهل لأمِّه؟.. ولأنَّ إسلامه كان بلا شكٍّ ضربةٌ لأبي جهل.. ولأنَّ افتتانه كان بمثابة ردِّ اعتبارٍ لا يريده عمر أن يحدث..**

القصَّة مؤثِّرةٌ بلا شكٍّ.. واستمرار مراسلة عمر لعيَّاش رغم كلِّ ما حدث، يعكس جانباً إنسانيَّاً شديد الغنى من جوانب حسِّه بالمسؤوليَّة..

لكنَّه أيضاً، لا بدَّ أن استفاد من أنَّ عياشاً إنَّما أُتي من تغليبه العاطفة، ومن ضعفه العاطفيِّ تجاه والدته..

سيكون هذا مثالاً لعمر..

عليه أن يحيِّد ذلك دوماً، عليه أن يترك عواطفه.. أن يجعلها منزوعة التأثير كلَّما اقتربت من زمام المبادرة والقرار..

@iAbubader

سنرى ذلك جليّاً في تعامله مع أفراد أسرته..

وسنراه لو ركّزنا أكثر.. في تعامله مع نفسه..

كان قد حسم أمره، وسيطر على عواطفه، حتى تجاه نفسه..

(عن عبد الله بن هشام أبي عقيل عن جدّه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو آخذٌ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: والله يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلا نفسي، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك، قال عمر: فأنت الآن والله أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر).[٤٤]
الآن يا عمر..
لقد تمكّن من أن يبلغ هذه الدرجة من السيطرة على عواطفه..
أن يعاملها كما يعامل أحدنا مفاتيح المذياع.. يضغط زرّاً هنا، فيسكت المذياع، أو زرّاً هناك فيصدح صوته عالياً..
صعبةٌ جدّاً..
لكن أظنُّها جزءاً من متطلّبات أن تكون عملاقاً..
أن تحيد كلَّ عواطفك عندما تتعارض ولو لشعرةٍ مع قضيّتك..
بعبارةٍ أخرى..
أن تجيِّر كلَّ عواطفك.. لقضيّتك.

****

بعد سنواتٍ، ليست كثيرةً جدّاً بحساب التاريخ، سبعة عشرَ عاماً فقط، كان العالم قد تغيّر كثيراً..
ومثلما أعلن عمر على الملأ في مكة أنَّ مرحلة الاستضعاف قد انتهت.. وأنَّ مرحلة التمكين قد بدأت بالبزوغ، فإنه قرّر أن يجعل ذلك رسميّاً.. بعد سبعة عشر عاماً من وقوع الحدث..
عمر بن الخطاب، كان أوّل من استخدم التقويم الهجريَّ.. كتقويمٍ رسميٍّ للدولة الإسلاميّة، للحضارة التي كانت تمرُّ في نشوئها المضيء..
كان بإمكانه أن يختار فتح مكّة مثلاً..
أو مولده عليه الصلاة والسلام..
أو البعثة..

٤٤ مسند الإمام أحمد، ٢٢٥٥٦ وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح

لكن ليس عمر. ليس عمر بمفاتيح الحضارة التي يملكها في فقهه ورؤيته!..
عمر يختار الهجرة. الهجرة التي كانت حدثاً فاصلاً بين الفكرة والتطبيق. بين النظريَّة والممارسة العمليَّة. كلُّ ما كان قبل الهجرة في مكة كان مهمَّاً جدَّاً. وقد ساهم حتماً في الإعداد والتمهيد للهجرة وما بعدها..
لكنَّ الهجرة كانت هي المحكّ لكلِّ ما سبق.. كانت هي الامتحان.. كانت مرحلة النزول إلى الواقع لتغييره مباشرةً..
التصميم قد يكون مبدعاً ومتقناً على الورق..
ولكنَّ التحدِّي هو أن يكون البناء كذلك..
أن يعلو.. أن يتمَّ.. أن يصمد..
أن يؤدِّي الغرض منه..
لذلك اختار الهجرة بدايةً لعهدٍ جديدٍ للإنسانيَّة.. كما لو كان يذكِّرنا - رضي الله عنه - كلَّما استخدمنا التقويم. أي كلَّ يومٍ! أنَّ الحضارة ومنجزاتها لا تكون إلاَّ عبر هجرةٍ ما..
قد لا يُشترط أن تكون هجرةً من مكان وجودك.. لكنَّها هجرةٌ مستمرَّةٌ نحو قيمٍ يجب أن يقام عليها هذا المجتمع.. لكي يصبح أقوى.. كي تثمر حضارته.. كي تزدهر..
كان هذا التقويم يومها. بمثابة إعلانٍ للعالم أجمع لا للملأ المكيِّ (فحسب) كما حدث غداة الهجرة. أنَّ عهد حضارة الإسلام قد بدأ.. وأنَّه سيسود..
وإن كان هناك حضارةٌ أخرى لا يعجبها. فلتحاول أن تلاقي حضارة الإسلام.. بمنجزاتها..
وراء هذا الوادي..

****

سؤالٌ سريعٌ.. وجوابٌ أسرع..
في أيَّة سنةٍ نحن الآن؟!
......
نعم..
على الأغلب الجواب يكون في التقويم الذي اختاره البابا غريغور الثالث عشر..
وليس في التقويم الذي اختاره بن الخطاب!
ليس الحلُّ أن نذكِّر أنفسنا دوماً بالتقويم الهجريِّ أو أن نضعه جنباً إلى جنبٍ مع التقويم الغريغوري..
الحلُّ هو ما فعله عمر..
أن تنجز.. أن تنتج حضارةً.. حضارةً قوامها القيم التي هاجر من أجلها الرسول وصحبه الكرام. وحقَّقوا خلال سنين أعظمَ قفزةٍ حضاريَّةٍ في التاريخ..

أن تكون معتزّاً بما تنتجه دون أدنى شعورٍ بالهزيمة.. أن تكون واثقاً أنّ الجمع «الحضاريّ» سيُهزم وسيولّون الدُّبر.. من معركة الحضارة.. لا من معركة السلاح بالضرورة.. لأنّ قيمك أقوى.. لأنّها أنسب للإنسان.. بغضّ النظر عن لونه وعرقه ومكان وجوده..

يومها، العالم كلّه سيستخدم التقويم الذي اختاره عمر..

ومَن يظنّ أنّ ذلك مستحيلٌ..

فعمر ينتظره وراء ذلك الوادي.

الإخلاص في العمل، الخلاص في العمل

حديثٌ مشهورٌ يعرفه الجميع... يكاد يكون من أساسيَّات ديننا وفهمنا له.. يندر أن يخلو منه حديث عن دين أو فقه أو أيِّ عمل..

هذا الحديث المهمُّ، رواه صحابيٌّ واحدٌ فقط..

..هذه ليست مسابقةً، ولن نطلب منكم أن تتَّصلوا برقمٍ معيَّنٍ للجواب الصحيح..

الحديث الذي نعرفه جميعاً هو: **« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ ».**[٤٥]

والصحابيُّ الوحيد الذي روى الحديث هو.. عمر!

****

ما الذي يعنيه هذا؟

هل هناك من مغزى محدَّدٍ في أن يكون عمر وحده مَن نقل لنا هذا الحديث المهمَّ والأساسيَّ في فهمنا لديننا؟!

يعني ببساطة، أنَّه عليه الصلاة والسلام، **قاله وهو في حوارٍ مع عمر..**

أو أنَّ عمر قد سأله عليه الصلاة والسلام أسئلةً محدَّدةً عن العمل والدافع له..

فكان هذا الجواب النبويّ البليغ.. الذي شكَّل مفصلاً من مفاصل فهمنا للعمل.. وتحديداً لمفهوم الإخلاص في العمل..

---

٤٥ صحيح البخاري ٥٤ ، ٢٥٢٩ ، ٣٨٩٨ ، ٥٠٧٠ ، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣

لكنَّ السؤال هو:

ما الذي دفع عمر للسؤال؟

لا بدَّ أنَّه رأى شيئاً ما من السلوكيَّات التي دفعته للسؤال والاستفسار..

عمر كان يرصد سلوك الأفراد من حوله، ويحلِّل أفعالهم على الدوام، ليس بدافع التسلية وتمضية الوقت.. بل لكي يفهم أكثر.. **لكي يحوّل فهمه إلى جزءٍ من التسخير، لكي يتمكَّن من التغيير.. من المساهمة فيه..**

كلُّ صاحب مشروعٍ عليه أن يفهم "علم نفس" العاملين معه في مشروعه، بطريقةٍ أو بأخرى..

ولا بدَّ أنَّه وجد في المدينة سلوكاً جديداً لم يكن له وجودٌ في مكة من قبل..

في مكة كانت الخنادق واضحةٌ..كان التصنيف شديد الوضوح.

مؤمنون، كفّار..

وربَّما بعض المحايدين، كما في كلِّ المواقف..

كانت الأمور واضحةً، الفواصل بين الفرق واضحةٌ.. وليس من مصلحة أيٍّ أحدٍ أن تتداخل الحدود..

لكن في المدينة، ظهرت فئةٌ جديدةٌ، فئةٌ لن تقلَّ خطراً عن الكفار، بل قد تزيد، فئةٌ تعمل عمل المؤمنين وتُضمر الشرَّ لهم..

المنافقون..

وكان عمر يريد معرفة المزيد عن الدوافع البشريَّة في العمل..

الفهم قوَّةٌ دوماً، وعمر لن يترك فرصةً للفهم تُفلت منه..

وجاء الحديث الشريف ليضع نقاطاً على حروف التساؤلات العمريَّة.

****

اهتمام عمر بالدوافع الإنسانيَّة يرجع في حقيقته إلى اهتمامه بالعمل..

لقد أدرك جيِّداً أنَّ الإسلام قد دخل مرحلة التطبيق العمليّ.. وأنَّ أعمال الناس قد تختلط في دوافعها، وأنَّ **من يريد أن يستثمر العمل في الإنجاز فعليه أن يفرِّق بين دوافع العمل والعمل نفسه ونتائجه..**

الهجرة مثلاً، في المثال الذي ضربه النبيُّ عليه الصلاة والسلام، هي عملٌ "صوابٌ" بالمطلق.. عملٌ لا يُمكن إلاَّ أن يصبَّ في مصلحة الإسلام والدعوة، وقد نال "المهاجرون" جملةً وتفصيلاً المرتبة العليا في الثناء..

لكن هذا بالمقياس الدنيويِّ للعمل.. بمقاييس نتائجه المباشرة على أرض الواقع، أي إضعاف معسكر المشركين، وانضمام فردٍ جديدٍ إلى معسكر المسلمين..

ماذا لو أنَّ دوافعه لم تكن خالصةً لله؟

ماذا لو كان قد "وضع حساباته" بأنَّ هذا الدين الجديد سينتصر على مشركي مكة وكفَّارها، وأنَّه من الأفضل له أن ينضمَّ إليهم ؟!.. وأنَّ ذلك قد يضمن له مكانةً مناسبةً لما يريد!

ماذا لو أنَّ قلبه قد تعلَّق بامرأةٍ مؤمنةٍ.. **وكانت هجرته من أجل أن يتقرَّب إليها؟..**

يحدث هذا، وهذه هي الأمثلة التي طُرِحت في حديثه عليه الصلاة والسلام..

لكن هذا لن يستوجب أيَّ موقفٍ دنيويٍّ تجاه هذا الشخص.. لا يمكن لنا أن نحدِّد أيَّ حكمٍ تجاهه، ما دام **"عمله" صواباً.. دافعه أو نيَّته ليست من شأننا، وليس من واجبنا أن نبحث في دوافعه أو ننقِّب في نيَّته، طالما كان "العمل" صواباً وغير مخالفٍ لأمرٍ شرعيٍّ..**

الله خالق الخلق، والعليم بما في الصدور.. هو من سيحاسبه، ولن يحدث ذلك إلاَّ لاحقاً.. يوم نُحاسَب جميعاً.

****

لكن ماذا لو كان الدافع "سيِّئاً"..؟ يُضمر الشرَّ للمسلمين..

الحديث لم يتطرَّق لمَن يُضمر الشرَّ للمسلمين!.. بل تحدَّث عن دوافع شخصيَّة.. عن دوافع فيها لهوى النفس النصيب الأكبر.

لكن ماذا عن من "يعمل" عمل المؤمنين.. وهو يضمر الشرَّ لهم..

ماذا عن من يتظاهر بأنَّه مؤمنٌ.. وقلبه مليءٌ بالكفر.. وهو ينوي أن يهدم في بناء المسلمين؟

ماذا عن من يعمل "أعمال" المؤمنين..

وهو يريد أن يحطِّم أعمالهم؟!

هؤلاء شغلوا ذهن عمر كثيراً..

كان من الواضح أنَّه قلقٌ منهم. شخصٌ "واضحٌ" مثل عمر، لا يعرف المناورة أو المساومة في الحقِّ، هؤلاء يشكِّلون بالنسبة له مصدر قلقٍ حتميٍّ..

كان يعي أنَّهم - لوجودهم في الداخل- يشكِّلون خطراً أكبر من العدوِّ الخارجيِّ، لأنَّ العدوَّ الخارجيَّ واضحٌ، مثل كفَّار مكة... الحذر منهم طبيعيٌّ وتلقائيٌّ..

لكن هؤلاء كانوا: (**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**). (المنافقون ٤).
هؤلاء كانوا مندسِّين.. متخفِّين..

وكان هذا هو خطرهم.. لأنَّه لا يمكن التنبُّه لهم بسهولة..

وكان عمر يريدُ أن يعرف..

لم يكن يتصوَّر إمكانيَّة أن يسير الركب دون أن يكون هناك وسيلةٌ لتشخيص هؤلاء، كي يرصدهم.. كي يأمن الركب شرَّهم.

****

النيات التي تغيب في الصُّدور، تظهر لها امتدادات على السطح..

لذلك فإنَّ عمر، وإن كان لا يستطيع أن يجزم بنفاق فلانٍ، **فإنه يستطيع أن يكوِّن فكرةً مجملةً عن شخصٍ ما قد يكون منافقاً، وذلك بأفعالٍ متكرِّرةٍ تفضح علانيَّة ما يخفيه الرجل في سرِّه..**

لم يكن عمر يمتلك أشعَّةً تخترق قلوب الناس ليعرف صدقهم أو نفاقهم، لكنَّه كان يقرأ القرآن ويعيه جيِّداً، وكان يعلم أنَّ القرآن عندما يحذِّر من المنافقين، ويحدِّد صفاتهم، أو عندما يقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: "آية المنافق ثلاث..

الحديث" **فإنّما يفعل ذلك لكي نطابق بين هذه الصفات، وبين ما يتّصف به الناس في سلوكياتهم..**

لا لكي نصنّف أحداً أو نتّهمه بالنفاق، فذلك أمرٌ يختصّ به مَن يعلم ما في الصدور.. ولكن للحذر والحيطة من عملٍ يتربّص شرّاً بالمسلمين..

لا يُمكِن لأحدٍ أن يُطلق حكماً قاطعاً حول هذا الأمر.. لكن يُمكِنه أن يراقب، ويدرس الأمر، خاصّةً عند تكراره..

وعندما يكون صاحب أمرٍ أو حكمٍ، **أن يحذر جداً من هؤلاء.**

****

وهكذا فإنّ مشكلة عمر مع المنافقين كانت من ثلاثة جوانب..

الجانب الأول: يتمثّل في كونهم خطراً كامناً يشكّل ما يشبه **الخلايا النائمة** التي قد تضرب وتنتشر في أيّ وقتٍ..

الجانب الثاني: شخصيٌّ، **يتعلّق بمشكلته في عدم فهمه لهم.. في عدم استيعابه لقدرتهم على التلوّن والتذبذب.. كما سيكون لأيّ شخصٍ في وضوح عمر وصراحته، مشكلة في فهم مجرّد إمكانيّة التلوّن هذه.**

الجانب الثالث: صار لاحقاً، أو زادت أهميّته لاحقاً، **عندما صار عمر قريباً من مصادر القرار، ثمّ صار هو مصدر القرار الرئيسيّ في فترة خلافته.. خاصّةً عندما توسّعت الدولة..**

كيف يُمكن له، وهو يُعيّن عمّاله **أن يتأكّد أنّه لا يختار إحدى الخلايا النائمة.. ليجعلها عاملاً على مالٍ أو حسبةٍ أو ولايةٍ؟!**

****

كان عقل عمر الذي تشبّع بآيات القرآن وأحاديثه عليه الصلاة والسلام، يعمل طيلة الوقت في تحليل سلوكيّات من حوله ورصدهم، لا لمراقبتهم.. **ولكن للحذر على الجبهة الداخليّة من مخاطرهم وشرورهم..**

في مرّتين، قال عمر جملة: "لأضربنّ عنق هذا المنافق" مستأذناً الرسول في أن يقتل من تأكّد لعمر نفاقه..

@iAbubader

المرَّة الأولى كانت في حادثةٍ حصلت بعد غزوة بني المصطلق..

(عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ - رضي الله عنهما - قَالَ كُنَّا فِي غَزَاةٍ - قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً فِي جَيْشٍ - فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ». فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - «دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»).[٤٦]

كان عمر هنا مصيباً في تشخيصه، صحيحٌ أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام لم يوافقه على قتله، لكن **وافقه ضمناً على التشخيص**..

المرة الثانية حدثت عشيَّة فتح مكة، عندما أرسل حاطب بن أبي بلتعة لمشركي مكة يخبرهم بعزم الرسول على التوجُّه إليهم، متعذِّرا بكونه حليفاً لقريشٍ، وليس قرشيَّاً أصيلاً، ويريد أن يحافِظ على أمواله فيهم..

(... فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ: « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا قَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »).[٤٧]

لم يوفَّق عمر في التشخيص هذه المرَّة..

ما الفرق؟ علماً أنَّ ما فعله حاطب كان يبدو كخيانةٍ عظمى في لغتنا المعاصرة..

الفرق أنَّه لا يمكن الحكم بالنفاق من موقفٍ واحدٍ فقط.. الأمر مع عبد الله بن أُبي كان متكرِّراً، كان يمثِّل نمطاً سلوكيَّاً يسهل رصده.. أمَّا مع حاطب، فقد كانت حالةً واحدةً، لكنَّها على ضخامتها وخطورتها لا تكفي للحكم على مجمل حياة شخصٍ..

من يومها، وعمر يُخضِع كلَّ ما يُمكنه إخضاعه من سلوكيَّات شخصٍ ما للمراقبة والتحليل قبل أن يُصدر حُكماً عليه، حتى لو لم يُعلن هذا الحكم إلاَّ بينه وبين نفسه..

---

٤٦ صحيح البخاري ٤٩٠٥
٤٧ صحيح البخاري ٤٢٧٤

ولعل قصة عمر مع حذيفة بن اليمان الذي اؤتمن على أسماء المنافقين من قبل الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، تدل، ضمن ما تدل، على رغبته الشديدة، في مطابقة نتائج دراسته للشخصيات، مع ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام من أسماء لحذيفة..

(فلما توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته إذا مات رجل يظن أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فاقتاده إلى الصلاة عليه فإن مشى معه حذيفة صلى عليه وإن انتزع حذيفة يده فأبى أن يمشي معه انصرف عمر معه فأبى أن يصلي عليه وأمر عمر رضي الله عنه أن يصلى عليه).[٤٨]
كان يريد أن يطابق المعطيات التي عنده.

مع معطيات الوحي ، التي اؤتمن عليها حذيفة.

****

وهكذا فإنَّ عمر تجاوز تماماً ما يُمكن أن يخدع الكثيرين في تقيّيم الأشخاص، من كثرة صلاةٍ وتعبُّدٍ.. دراسته المستمرَّة للأشخاص وسلوكيَّاتهم **علَّمته أنه لا يوجد رابط حقيقيّ بين الأمرين إلاَّ عندما يكون الشخص صادقاً**، ولأنَّ الصدق أمرٌ لا يُمكن معرفته، ولا حتى بأجهزة الأشعَّة، **فقد كان عمر يبحث عن آثار الصدق فيما هو مرئيٌّ من سلوك شخصٍ ما، لا في ركعاته أو سجداته..**

(عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ دَلافٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لا تَنْظُرُوا إِلَى صَلاةِ أَحَدٍ وَلا إِلَى صِيَامِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى مَنْ إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ أَدَّى، وَإِذَا أَشْفَى وَرِعَ).[٤٨]

هل يعني هذا أنَّ علينا أن لا نكترث للصلاة أو العبادات في تقيّيمنا للأشخاص؟

لا قطعاً..

الحكم العمريّ يكون مؤلَّفاً من "غربالين" متداخلين.. لا يمكن التخلِّي عن الأول.. وسنكون في مشكلةٍ كبيرةٍ إن تخلَّينا عن الثاني..

الغربال الأول: **لا يبقي إلاَّ من يؤدِّي الشعائر..** ويتسرَّب منه كلُّ من يتكاسل أو يتهاون في أدائها، لن نُطلق أحكاماً على هؤلاء الآن، لكنَّ الغربال العمريَّ في التقييم لن يبقيهم حتماً..

---
٤٨ سنن البيهقي ١٦٦٢٢
٤٨ سنن البيهقي ١٣٠٦٨

الغربال الثاني: **ينتقي من مؤدّي الشعائر** يتتبَّع أثر هذه الشعائر على سلوكهم في حياتهم اليوميّة، هل يصدقون في تعاملاتهم؟.. هل يؤدُّون أماناتهم؟

إن كان الجواب نعم، فقد صدقتْ شعائرهم إذاً، **أثمرت سلوكاً إيجابيّاً يدلُّ على صدقها، وصدقهم فيها..**

سيقول لنا من يقول: ماذا **عن أشخاصٍ نعرف أنَّ سلوكيّاتهم "ممتازةٌ" وهم أفضل من المتديّنين.. ولكن ينقصهم فقط صلاة!.. أو حجاب... إلخ.**

لو سمعهم عمر!...

الغربال العمريُّ يتحدَّث عن **أشخاصٍ ينتمون لمنظومةٍ حضاريّةٍ واحدةٍ هي المنظومة الإسلاميّة، والمنظومة الحضاريّة تملك سلوكيّاتٍ ومفاهيم وثوابت يشترك فيها كلُّ من ينتمي لهذه المنظومة..**

الصلاة، بل كلُّ الأركان الخمسة، هي **جزءٌ من بديهيّات هذه المنظومة..**

أيُّ حديثٍ عن أشخاصٍ لا يؤمنون بهذا، هو حديثٌ عن أشخاصٍ خارج هذه المنظومة الحضاريّة، ربَّما هم جيّدون بمعايير حضاراتٍ أخرى، **ربَّما ينضمّون لاحقاً للمنظومة الإسلاميّة..**

لكن أيُّ حديثٍ عن "لا ينقصهم إلاَّ الصلاة" يعبِّر عن فهمٍ اجتزائيٍّ شديد السلبيّة، الصلاة وكلُّ الأركان الأخرى هي جزءٌ من منظومةٍ متكاملةٍ، ولا يُمكن لأحدٍ ما أن تنقصه الصلاة فقط.. **لأنَّ هذا يعني أنَّ بقيّة العناصر لم تُفهم كما يجب، حتى وإن بدا غير ذلك..**

يشبه الأمر أن نقول عن شخصٍ ما: إنَّه حصل على شهادة الدكتوراه..

رغم أنَّه لم يتعلَّم الأبجديّة أصلاً.

****

لماذا كان عمر مشغولاً بكلِّ ذلك؟ بالعمل وبالصدق فيه أو بعدم الصدق؟

لأنَّه كان يؤمن بالعمل!

كان يؤمن بأنَّ **الإخلاص في العمل سيبقى أمراً فرديّاً لا يمكن تحديده..**

لكن "الخلاص" هو في العمل.. الانهماك في العمل.. المهمُّ أن يكون صواباً..

هذا ما آمن به عمر، الحضارة لن تقوم إلاّ على العمل.. الكثير من العمل..

المشروع الحضاريّ، عندما يبدأ في الارتفاع، على القائمين عليه الانتباه لدوافع مَن يعمل على رفعه..

لكن عليهم الانتباه أيضاً إلى أنّ صوابيّة العمل ستكون بالتدريج أهمّ من الدوافع..

كلّما كبر المشروع وتمدّد، لم يكن من المنطقيّ دراسة الدوافع بشكلٍ شخصيٍّ..

لكن ما يهمُّ هو العمل، كونه صواباً، أن يكون منتجاً، أن يكون منصبّاً داخل المنظومة الحضاريّة الإسلاميّة..

وأن تكون هناك رقابةٌ دائمةٌ.. طاغيةٌ مهيمنةٌ على كلّ المناصب العليا، وهي الرقابة التي ستترك أثرها الايجابيّ حتى على الوظائف الأدنى.

****

ولعلّ موقفه النهائيّ من هذا سيلخّص فيما قاله بوضوح بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام..

(عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُتْبَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - يَقُولُ: إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ).[٥٠]

انقطع الوحي..

لن نعرف منكم غير ما يظهر منكم..

ولن يظهر منكم غير عملكم، سلوكيّاتكم..

وعلى هذا سيكون الحساب.. ستكون المحاسبة..

---

٥٠ صحيح البخاري ٢٦٤١

@iAbubader

الحضارة "شدت".. والركب سار.. والنفاق لن يبقى في القلب. **بل سيظهر سلوكاً عمليّاً متراكماً لا يمكن أن يخطئه مراقبٌ حتى لو لم يقل إنَّ هذا منافقٌ بالتحديد..**

وهكذا تعامل عمر مع عمَّاله وولاته في مشروعه الحضاريّ..

المهمُّ هو صواب العمل. بوجود غربالين دقيقين.. غربال الثوابت العامة. وغربال السلوك المتراكم..

هل كان أحدهم يريد الشهرة؟ هل يريد أحدهم الدنيا؟ (هل سنستغرب ذلك؟ لِمَ لا والصحابة أنفسهم كان فيهم من أراد الدنيا ولو بشكلٍ عابرٍ. (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة). (آل عمران: ١٥٢).

هذه ليست مشكلة عمر. **طالما أنَّ دافع هذا الشخص لم يؤثّر على «صواب عمله»..**

هكذا تُبنى الحضارات..

****

ولو أنَّ عمر عرف كيف يتعامل البعض منّا مع الحديث الشريف الذي نقله لنا. لرأينا منه ما لن يسرُّنا..

حديث إنَّما الأعمال بالنيات عومل عند البعض ليكون **وسيلةً لتبرير عدم العمل..**

لماذا لم تعمل ما كنت وعدت بفعله؟

كنت ذاهباً لفعل ذلك فعلاً.. ولكن وجدت في طريقي... إلخ. إنما الأعمال بالنيات..

عفواً..

نقطة نظامٍ..

إنما الأعمال بالنيّات..

الأعمال. والأعمال الصواب حصراً.. بالنيّات..

وليس التوقّف عن العمل بالنيّات..

@iAbubader

ليس أن تكون عاطلاً عن عملٍ ما يجب عمله، ثم تقول: الأعمال بالنيَّات..

أنا قلت نقطة نظام..

بالنسبة لعمر أؤكد لكم، لن يكتفي بذلك..

@iAbubader

كلُّ الحكاية في "نظام التشغيل"!

عندما تقوم بتنزيل نظام تشغيلٍ جديدٍ على حاسوبك، فإنَّ كلَّ ما سيدخل الحاسوب من ملفَّاتٍ ووثائق، سيتمُّ التعامل معه من قِبَل نظام التشغيل الجديد.. ولن تحتاج إلى أن تقوم بتنصيب النظام في كلِّ مرَّةٍ تضيف فيها ملفَّاً..

الحاسوب، عبر نظام التشغيل الجديد، سيقوم بما يلزم على نحوٍ تلقائيٍّ..

وعندما تقوم بتدريس أحد أولادك أو إخوتك الصغار، وتعلِّمه كيف يحلُّ مسألةً رياضيَّةً، فإنَّك على الأغلب تعلِّمه طريقة الحلِّ، وسيتمكَّن هو لاحقاً من حلِّ الكثير من المسائل الرياضيَّة بالطريقة نفسها، أو بتحويرٍ بسيطٍ دون أن تضطرَّ إلى إعادة الشرح في كلِّ مرَّة.

"السوفت وير" في الحاسوب، والتفكير "الرياضيّ" في العقل البشريِّ، يتمكَّن من أن يواجه مستجدّات، ويتعامل معها، بالأسلوب نفسه الذي بُرمِج عليه دون أن يُضطرَّ لإعادة كلِّ شيءٍ منذ البداية!

****

عقل عمر بن الخطاب تعامل مع القرآن، كما لو كان "نظاماً للتشغيل"..

أعاد برمجة عقله، بل قام بمسح كلِّ شيءٍ، كلِّ شيءٍ سابقٍ للقرآن، وقام بتنصيب القرآن نظاماً واحداً للتشغيل، وحذف كلَّ ما يُمكن أن يتعارض مع نظام التشغيل هذا أو يشوِّش عليه..

ربَّما كان هذا هو ما يجب أن يحدث مع الجميع..

@iAbubader

وربَّما لم يكن عمر وحده قد قام بهذا من الجيل الأول..

ربَّما حدث ذلك، بطريقةٍ أو بأخرى..

لكنَّ العقل العمريَّ كان أوّل من حصل على شهادة الخبرة!

كيف؟

عندما حصل ما يُعرف الآن، بموافقات عمر بن الخطاب للقرآن.

موافقات عمر بن الخطاب للقرآن، هي ما أشار به عمر على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في أمرٍ عامٍّ أحياناً بطلبٍ من الرسول مباشرةً، كما كانت عادته في استشارة أصحابه.. وأحياناً دون أن يطلب! يذهب عمر ليقول شيئا يعتقد أنَّه الصواب.. وقد يكون "رأي عمر" مخالفاً لما يراه عليه الصلاة والسلام، أو ما يراه بقيَّة الصحابة..

ثم يأتي خبر السماء، بوحي منزلٍ، بآياتٍ قرآنيَّةٍ صريحةٍ يوافق فيها رأي عمر، الذي ربَّما كان يبدو بعيداً عن الأخذ به، لحظة قاله..

كيف كان يحدث ذلك؟

هل كان لعمر "مجسَّات استشعارٍ" مثلاً؟

هل كان يمتلك وسيلةً للتجسُّس على الوحي قبل حدوثه أصلاً؟!

لا. قطعاً.

الأمر أبسط وأعقد من كلِّ ذلك في آنٍ واحدٍ.

أبسط لأنَّ عمر لم يمتلك أيَّة صفةٍ "خارقةٍ" قادمةٍ من وراء الطبيعة، صفةٍ تجعل منه "سوبر مان" قادماً من كوكبٍ آخر، وقادراً على التلصُّص على الوحي مثلاً..

وأعقد، لأنَّ ما فعله عمر دون أن يمتلك صفةً خارقةً يقول لنا ضمناً أشياء كثيرةً جدّاً عن فهمه، وعن فهمنا، والمسافة الشاسعة بين الاثنين.

ما الذي فعله عمر بالضبط؟

باختصار: عمر قام بتشغيل نظام التشغيل القرآنيّ!..

قام بتفعيله!

كلُّ ما حدث، كان مجرَّد تفاصيل نتجت عن هذا التفعيل..

أين كان موقع التفعيل؟

في موقع التنصيب نفسه..

العقل العمريّ!

الموافقات العمريَّة للقرآن متعدِّدة، البعض منها حدَّدها عمر بنفسه، وصنَّفها بل وأسماها شخصيَّاً بالموافقات، والبعض منها عُلِم عنها عبر أسباب النزول..

ويتراوح عدد هذه الموافقات ، بين ثلاثٍ - كما حدَد عمر في حديث صحيح - وعشرين موافقة!..

وذلك عندما تُجمع الموافقات المعنويَّة التي لم يكن فيها الموقف مباشراً، وما كان عمر يسأل عنه مراراً وتكراراً..

النتيجة أنّ الموافقات العمريَّة، وهي أمرٌ مفروغٌ منه من ناحية الصحة، **تُظهر لنا أنَّ العقل البشريَّ عندما يلتزم بنظام تشغيلٍ محدَّدٍ يمكن له أن يبدع إلى أقصى حدود الإبداع..**

يخاف كثيرون من العقل.. مِن ترك العنان له.. يتحدَّثون عن تقديم العقل على النقل.. عن التعارض بينهما.

صحيح، كلُّ هذا صحيح.. كلُّ هذه المخاوف في مكانها.. لكن عندما يكون هذا العقل "يُشغَّل" بنظام تشغيلٍ مخالفٍ.. نظام تشغيلٍ ينتمي لمنظومةٍ كتابيَّة - حضاريَّة مختلفة.. أو نظام تشغيلٍ ينتمي لمنظومة أهواءٍ شخصيَّة.

عندما يكون نظام التشغيل قرآنيَّاً، فإنَّ المخاوف من ذلك لا معنى لها.

على العكس، الضمانة الوحيدة لفهم النصِّ فهماً صحيحاً فاعلاً في أن نعطي النصَّ الدينيَّ حقَّه، نُمكِّنه هو من أن نتعامل معه، نقرؤه عبر عقلٍ تشكَّل بالنصوص..

عقلٍ بنظام تشغيلٍ قرآنيٍّ!

(عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَنَزَلَتْ: "وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى" وَآيَةُ الْحِجَابِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ، فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ،

فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ، وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ).[51]

سنقف عند هذه الموافقات فقط، ونتلمّس أثر نظام التشغيل بالفهم الحضاريّ العمريّ، دون المضيّ إلى ما هو أكثر، إلى العشرين مثلاً..

ولعلّنا لو رأينا عمر لقلنا له لو أنه رأف قليلاً بالأقزام.

****

مقام إبراهيم!

(عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه مرَّ بمقام إبراهيم فقال: يا رسول الله، أليس نقوم مقام خليل ربِّنا؟ قال: "بلى". قال: أفلا نتَّخذه مصلًّى؟ فلم يلبث إلا يسيرًا حتى نزلت: "وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى").[52]

قد يبدو الحدث بسيطاً.
لكنّ الأمر يضمّ في ثناياه - لو دقّقنا فيه - عمقاً كبيراً.. وهو يكشف عن فهمٍ استثنائيٍّ، فهمٍ حضاريٍّ حمله ابن الخطّاب..
هذا الفهم، كان يستمدُّ عمقه من عمق التاريخ السحيق، تاريخ إبراهيم، ويصله مباشرةً بالتجربة الإسلاميَّة التي كانت وقتها وليدةً ومعاصرةً..
عمر كان يؤمن أنّ المسلمين يقومون مقام إبراهيم.. في تحطيم الأوثان.. في استخدام العقل.. في بناء حضارة "لا إله إلا الله" بمعزلٍ عن أيّة ثوابت من حضاراتٍ ومنظوماتٍ مختلفة.. ولذلك فقد ربط بين "المقام" و "بين ما قام به إبراهيم".. وما يجب أن يقوم به أتباع ابراهيم وورثته.
الفهم العمريُّ كان لا يكتفي بالمعرفة النظريَّة لذلك، بل يبحث عن الرموز الشعائريَّة التي تكرِّس ذلك الشعور بالامتداد التاريخيّ.
بعبارةٍ أخرى..
كلُّنا نعرف أنّ دعوته عليه الصلاة والسلام كانت امتداداً لدعوة إبراهيم، بل لدعوة كلِّ الأنبياء..
لكنّ عمر، وهو يحمل معه همّ تحويل الفكرة إلى عمل، كان **يريد تكريساً عمليّاً شعائريّاً لهذه المعرفة..**

---

٥١ صحيح البخاري ٤٠٢
٥٢ تفسير ابن كثير-سورة البقرة آية ١٢٥

لذا، ها هو يقترح اتِّخاذ مقام إبراهيم مصلَّى..
أن نصلِّي في مقام إبراهيم..
وجاء الوحي موافقاً لما اقترحه عمر.

الأمر ليس مجرَّد مكانٍ للصلاة..
لو كان كذلك.. لما استوجب وحياً يعضده..
الأمر هو مكاننا من العالم..
مكاننا من الإعراب..
مكاننا من تلك الرحلة الإبراهيميَّة التي تركت أثرها على الحضارة الإنسانيَّة بأسرها..
الآية التي سبقت كلَّ ذلك كانت تقول:
"وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ". (البقرة: ١٢٤).

جاعلك للناس إماماً؟..

وقعت الكلمة في الذهن العمريِّ موقعاً مختلفاً، موقع مَن يرى في رحلة إبراهيم بين حضارات عصره ورفضه لها بحثاً عن "الحضارة البديلة"، الحضارة البديلة التي بذر بذرتها في وادٍ غير ذي زرعٍ كي يجعلها خالصةً لله..

وكان عمر يعي تماماً أنَّ ذلك الدرب الذي بدأه إبراهيم منذ تلك الليلة التي أرسى فيها دعائم التفكير العقليِّ، وانطلق يحطِّم الأوثان الجاثمة في الرؤوس، ذلك الدرب قد وصل الآن، ومع بعثته عليه الصلاة والسلام إلى **مرحلة البدء الفعليِّ بتكوين الحضارة البديلة وبنائها..**

أليس نقوم مقام إبراهيم؟ ألم يكن هو الإمام في تلك الرحلة؟ ونحن اليوم نقوم مقامه؟

بلى..

فلِمَ لا نتَّخذ مقامه مصلَّى؟

ولعلَّ عمر نظر إلى تلك الرحلة المجيدة، إلى ما قام به إبراهيم في التنقُّل بين حضارات بلاد الرافدين والشام ومصر، وهي أعظم حضارات عصره..

لعلَّه نظر، وقال: إنَّ ذلك الدرب الذي مرَّ به إبراهيم، قبل أن يضع البذرة في مكة، لعلَّه

قال في نفسه: إنَّ ذلك الدرب يجب أن يُعاد السير فيه مجدداً، ولكن بالاتِّجاه المعاكس، اتِّجاه بناء الحضارة البديلة ونشر قيمها، وليس اتِّجاه البحث عنها.

هل سيكون غريباً بعد هذا كلِّه أنَّ الفتوحات في عهد عمر قد غطَّت سير الرحلة الإبراهيميَّة كلِّها؟..

العراق، الشام، مصر..

أفلا نتَّخذ مقام إبراهيم مصلَّى؟

نعم..

وكلُّ الأرض التي سار عليها إبراهيم، ستكون مصلَّى أيضاً..

****

وإذا كانت الموافقة الأولى تمنحنا لمحةً عن الفهم الحضاريِّ - التاريخيِّ لنظام التشغيل القرآنيِّ الذي فعله عمر، فإنَّ الموافقة الثانية المتعلِّقة بحجاب أمَّهات المؤمنين كانت تعبِّر عن فهم الحضارة من ناحية كونها سلوكاً عملياً، ومن ناحية "عمليَّة" نظام التشغيل هذا وواقعيَّته، وبُعده عن التنطُّع المضيِّع للوقت والجهد..

والقصَّة باختصار هي أنَّ عمر قال:

(يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنَّ نساءك يدخل عليهن البرُّ والفاجر فلو أمرتهنَّ أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب).[53]

الحكاية واضحةٌ.. الناس تدخل على الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن أو ذاك، والناس فيهم البرُّ وفيهم الفاجر، وفي البيت زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام، وعمر يراقب الأمر.. نظام تشغيله القرآنيِّ يبحث عن حلٍّ..

هل يُمكن أن نلغي فجور الناس؟

تلك أفكارٌ طيِّبةٌ، ولكنَّها غير واقعيَّةٍ.. مضيِّعةٌ للوقت، ولن تؤدِّي إلى نتيجة.. سيكون أمراً عظيماً لو أنَّ الجميع صاروا أبراراً، لكنَّه لن يحدث..

إذاً هل نمنع دخول الناس إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام؟..

---

٥٣ مسند أحمد، مسند عمر بن الخطاب، ١٥٧ وصححه شعيب الأرناؤوط

نظام التشغيل القرآنيّ يجعلك عمليّاً وواقعيّاً..

لن تضيّع وقتك وجهدك في جعل الناس كلّهم أبراراً وملائكةً، ولن تجعل الناس يكفّون عن مراجعة الرسول لشؤونهم..

الحلّ؟

لو أمرتهنَّ أن يحتجبن يا رسول الله؟!

وهكذا كان!

****

ما علاقة هذا بالحضارة؟!

علاقته صميمةٌ وأساسيَّةٌ..

فالحضارة سلوكٌ وقيمٌ وعاداتٌ وأعرافٌ قبل أن تكون منتجاتٍ وانتصاراتٍ وتطاولاً في البنيان.

إنها قيمٌ تشجّع على التماسك الاجتماعيّ، وسدودٌ تمنع الانحراف..

وسواءٌ أعجبَ هذا البعض أم لم يعجبه..

هناك فصلٌ بين الجنسين في قيمنا الحضارية.. ليس فصلاً مطلقاً بالتأكيد.. ولكنْ هناك تعاملٌ بحدودٍ وضوابط..

وهذه أيضاً حضارةٌ.

****

فما بال الموافقة الثالثة؟

(وبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - بَعْضَ نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ قُلْتُ: إِنِ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ - صلى الله عليه وسلم - خَيْرًا مِنْكُنَّ. حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - مَا

بعض نِسَاءِهِ حَتَّى تَعِظَهُنَّ أنت، فَأنزَلَ اللَّهُ "عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أن يبدِّلَهُ أزوَاجًا خَيرًا مِنكُنَّ مُسلِمَاتٍ"... الآيَة).[54]

القَّصة عاديَّةٌ يمكن أن تحدث في كلِّ بيتٍ وكلِّ زمنٍ..

لكنَّ مكانة النبيِّ عليه الصلاة والسلام الاجتماعيَّة عقَّدت القصة وزادت من التأزُّم.. وصار المتصيِّدون يحاولون زيادة الأزمة عبر إطلاق الإشاعات..

نظام التشغيل القرآنيّ الفاعل في عقل عمر، حيَّد هذه التفاصيل المتعلِّقة بمكانة الرسول الاجتماعيَّة.. وجد أنَّها صارت معوقاً للدعوة.. **والعلاقات الإنسانيَّة مهمَّةٌ حتماً، لكنَّها ليست هدفاً بحدِّ ذاته، إنَّها مهمَّةٌ بقدر مساهمتها للوصول للغاية والهدف، وعندما تصير عائقاً ومعرقلاً فإنَّ هناك وسائل شرعيةٌ مقنَّنةٌ يمكن لها أن تزيح هذا العائق..**

منتهى التجرُّد..

وكان نظام التشغيل عند عمر متجرِّداً من حقيقة أنَّ ابنته حفصة كانت مشمولةً بالتهديد بالطلاق!

منتهى التجرُّد أيضاً، فعلاقته الإنسانيَّة بابنته مهمَّةٌ..

لكنها ليست أهمَّ من القضيَّة التي يحملها..

هكذا هم من يبنون نهضة الأمَّة وحضارتها..

****

قد يقول قائل: لكنَّ نظام التشغيل هذا تفعَّل عند عمر، ولم يتفعَّل عند الرسول الكريم الذي تنزَّل عليه الوحي؟

قطعاً الأمر ليس كذلك..

لكن من حكمة الأمور أن يكون هناك من يتمكَّن من الصحابة، من البشر الذين لم يتنزَّل عليهم وحيٌ مَن يقوم بذلك، مَن يتمكَّن من فهم ما يجب أن يقوله الوحي.. كي نفهم نحن أنَّ الأمر يستلزم أن نتمثَّل نظام التشغيل، ونلتزم بحدوده

٥٤ صحيح البخاري ٤٤٨٣

وضوابطه، **أن يتشكّل عقلنا بالقرآن**، كي نتمكّن بعدها من مواجهة ما يواجهنا دون خوفٍ من تناقضٍ مزعومٍ بين العقل والنصّ..

كي نتمكّن أن نستعمل عقلنا ليكون وسيلةً لبناء حضارةٍ مبنيَّةٍ على أسسٍ قرآنيَّةٍ..

ونزلت: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين) إلى آخر الآية. فقال عمر: تبارك الله أحسن الخالقين. فأنزلت: (فتبارك الله أحسن الخالقين).[55]

نزلت الآيات في سورة "المؤمنون"..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ...).

تراه وقف هنا، عمر بن الخطاب، وتذكّر قصّة حياته، منذ أن كان نطفةً، إلى أن صار رجلاً تهابه مكّة..

لعلّه وقف هنا وتذكّر شيئاً..

تذكّر أنَّ خلقه لم يكتمل حقّاً هناك..

وأنَّ ذروته لم تكن يوم "كسونا العظام لحماً"..

بل يوم أنشأناه خلقاً آخر..

يوم أسلم..

يوم وجد قالبه..

يوم ولد من جديد..

لم يتغيّر شيءٌ ماديّ في عظامه أو لحمه أو أيٍّ من مواصفاته الظاهريّة..

لكنّه "خلق من جديد"..

خلقاً آخر..

55 المعجم الكبير للطبراني ١٢٠٧٨ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٤٤٣١

ليس بالأبعاد الماديَّة.. ليس بظاهر الأشياء..

ولكن بأعمق الأعماق.. بما هو أقوى من كلِّ الأبعاد الظاهرة..

لقد صار إنساناً جديداً..

إنساناً وجد أخيراً دوره الذي خُلِق من أجله..

أن يكون خليفةً..

أن ينطلق في آفاق الاستخلاف لينفِّذ ذلك..

لعلَّه تأمَّل في كلِّ ذلك..

نظرةً إلى الخلف..

ونظرةً إلى الأفق..

ثم قال: "تبارك الله أحسن الخالقين"..

فكان أن نزل القرآن موافقاً..

ربَّما..

****

ولعلَّ كلَّ ما سبق من موافقات ومن سواها، هي التي جعلته عليه الصلاة والسلام يقول عن عمر:

(لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُم مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ)[٥٦]..

وقال أيضاً:

(" لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر بن الخطاب"..!)[٥٧]..

لكنَّه لم يكن..

---

٥٦ صحيح البخاري ٣٦٨٩

٥٧ الترمذي ٢٩٠٩ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٢٧

بل كان بشراً مثلنا، بشراً تمكّن من أن يجعل القرآن نظام تشغيله.

****

القصَّة في النهاية قصَّة "نظام تشغيل"..

فما هو النظام الذي اخترناه لأنفسنا؟

هل هو نظام تشغيلٍ لحضارةٍ أخرى تبدو اليوم منتصرةً وكاسحةً مكتسحةً، دون أن يعني ذلك قطّ أنّها على حقٍّ؟

هل هو نظام تشغيلٍ يجدِّد نفسه كلَّ يومٍ بصرعةٍ تلو الأخرى لكي يتغلَّب على خوائه وفقره؟

هل هو نظام تشغيلٍ يعتمد فقط على إطلاق العنان لأهوائك؟..

أم أنَّ نظام تشغيلك قد صدئ وصار خارج وقت الصلاحيَّة؟..

أم هو مثل الذي كان عند عمر، وجعله يكون ما كان؟

القصَّة كلُّها في النهاية قصَّة "نظام تشغيل"..

ليس سهلاً قطّ أن تبدِّل نظام تشغيلك الذي تعوَّدت عليه، وتكيَّفتْ أجهزتك عليه.. ليس يسيراً أن تقوم بعمليَّة إبدال..

لكن، أحياناً لا بدَّ ممَّا ليس منه بدٌّ.

والله المستعان..

@iAbubader

ما لم يقله "عمر" في الخمر!

قصَّتنا ومعاصينا قصَّةٌ معقَّدةٌ جدّاً..

بعضنا يسترها.. ويحملها معه كوشمٍ خفيٍّ طيلة حياته..

وبعضنا لا يبالي بالستر.. يجهر بها..

بعضنا يستسلم لها إن سرّاً أو جهراً..

وبعضنا يبقى يقاومها، يخسر معركةً تلو أخرى، ويبقى يعتقد أنَّه لم يخسر الحرب.

ويظلُّ يؤجِّل الحسم حتى تنفد كلُّ الفرص..

بعضنا يُهزَم، بعضنا يُقدِّم خطوةً ويؤخِّر أخرى..

البعض يدخل في ملحمةٍ مريرةٍ في صراعه مع نفسه..

بعضنا يُهزَم..

وبعضنا ينتصر، ويكون انتصاره كالفتح المبين..

وحده عمر بن الخطاب، كانت ملحمته مختلفةً..

لقد بدأ صراعه الداخليّ مع المعصية قبل أن تكون معصيةً!..

قبل أن ينزل الوحي معلناً تحريمها!..

@iAbubader

كان عمر في الجاهليَّة فيما يرويه عن نفسه من محتسي الخمر..

(وإنِّي كنت لأشرب الناس لها في الجاهليَّة...).[58]

(وكُنت صَاحِبَ خمرٍ فِي الجَاهِلِيةِ أحِبّها وأسَرّ بِهَا، وكَانَ لنَا مَجْلِسٌ (في) قرَيْشٍ بِالحَزْوَرَةِ عِنْدَ دُورِ آلِ عُمَر بْنِ عَبْدِ بْنِ عِمرَانَ المَخْزُومِيّ، قَالَ فَخَرَجْت لَيْلَةً أرِيدُ جُلَسَائِي أولَئِكَ فِي مَجْلِسِهِم ذَلِكَ قَالَ فَجِئتهم فَلَم أجِدْ فِيهِ مِنْهُم أحَدًا. قَالَ فَقُلْت: لَو أنّي جِئت فُلانًا الخَمّارَ وكَانَ بِمَكّةَ يَبِيعُ الخَمرَ لَعَلّي أجِدُ عِنْدَهُ خَمرًا فَأشْرَبَ مِنْهَا. قَالَ فَخَرَجْت فَجِئْته فَلَم أجِدْهُ...).[59]

لم يكن في ذلك ما يعيب عمر أو يشينه، فقد كان ذلك سائداً عند العرب، ولكنَّ النصَّ الذي يرويه عن نفسه يفصح عن كونه ليس فقط شارباً للخمر، بل متقصِّياً لها.. ولجلساتها..

ومرَّةً أخرى لا يشينه هذا، وأغلب من نعرفهم من الصحابة ممَّن كانوا في سنِّ الشباب والكهولة قبل البعثة كانوا يشربون الخمر..

كما نشرب العصير أو المشروبات المنبِّهة نحن اليوم، على سبيل المثال.

****

ثم أسلم عمر..

ولا يوجد ما يدلُّ على أنَّه كفَّ عن شرب الخمر..

ولِمَ سيكون قد فعل والخمر لم تُحَرَّم إلا في السنة الثالثة للهجرة، بعد موقعة أحد تحديداً؟

أي بعد تسع سنواتٍ من إسلام عمر..

قد نستهول اليوم أنَّ بعض الصحابة كانوا يشربون الخمر طيلة هذه المدَّة، لكنَّه استغرابٌ ينقصه الذكاء..

الخمر لم تكن قد حُرِّمت بعد.

---

٥٨ سنن البيهقي الكبرى ٢٠٧٣٧
٥٩ الروض الأنف ١١٩

أسلم عمر، ولم يكفَّ عن شرب ما لم يكن محرماً بعد..

لكن شيئاً فشيئاً، **والآيات القرآنيَّة تُشكِّل عقله، نمط تفكيره، تُشكِّل وجدانه، شيئاً فشيئاً، بدأ يجد تناقضاً بين الأمرين..**

بين هذا الذي يتشكَّل بالتدريج..

وبين الخمر..

صحيحٌ أنَّه لم يكن قد حُرِّم بعد..

لكنَّ شيئاً ما لم يكن متناسقاً بينهما..

شيءٌ ما، في قلب عمر، في عقله، **كان ينبض بالرفض للخمر..**

رغم احتسائه لها، لكنَّ قطراتها كانت تدخل أحشاءه، وتتناقض مع عمر الجديد الذي كان يتشكَّل..

كيف؟

الخمر مجرَّد سائلٍ.. مجرَّد شرابٍ، كيف يُمكن لشرابٍ أن يُحدث تناقضاً أو اضطراباً؟

ما الذي جعل عمر يشعر بذلك، ما دامت الخمر لم تُحَرَّم بعد؟

ألا يتمنَّى الكثير منَّا أن تُحَلَّل المعاصي لينهل منها كما يشاء؟

ألا يعمد البعض لذلك التبرير أو تلك الحيلة ليريح ضميره، بينما هو يمارس تلك المعصية بمسميَّات مختلفة؟

ألا يفعل البعض المعصية وهو يدخلها بنيَّة أن الله سيغفر له لأنَّه غفورٌ رحيمٌ؟

ما بال عمر إذاً؟

ما باله يعقِّد كلَّ شيء!

لماذا ينغِّص على نفسه شراباً كان يحبُّه، ولم يكن قد حُرِّم بعد؟

نعم..

أمثالنا يقولون هذا..

أما عمر..

فقد كان يجد أنَّ الخمر «تتناقض» مع ما فهمه من الإسلام.

****

منذ أن اعتنق عمر الإسلام، وهو يعي تماماً أنَّه يتطلَّب أن تكون في حالة انضباطٍ، في حالة حضورٍ، في حالة مسؤوليَّةٍ عن كلِّ ما يفعله.

الإسلام، يعني أن تستسلم لله، لأوامره.. أن تنزع كلَّ سلطةٍ غير سلطة الله عليك.

وكانت الخمر تتناقض مع كلِّ ذلك، حتى لو لم تكن قد حُرِّمت بعد..

كانت تعطِّل دور الرقابة، وتجعل الشخص الذي يعاقرها غير مسؤولٍ عمَّا يفعله..

كانت الخمر تتجاوز منح السلطة لشخص مَن يحتسيها.. دون الله.. إلى منحها **لجزءٍ خفيٍّ من هذا الشخص، جزءٍ لا يظهر عادةً في الظروف الاعتياديَّة**، وقد يسلك سلوكاً مشيناً، سلوكاً يخجل منه هذا الشخص لاحقاً..

كانت الخمر تُظهر أسوأ ما في باطن الإنسان..

وكان الإسلام يظهر أفضل ما فيه، يستخرج منه كنوزه الخفيَّة التي لم يعلم قطّ بوجودها..

الإسلام - كما فهمه عمر - **يتعلَّق بالسيطرة**.. كلُّ شيءٍ في نفس الإنسان المسلم يكون تحت السيطرة .. كلُّ شيءٍ يكون خاضعاً لمن خلقه.. لما أمره به..

و - رغم أنَّها لم تُحرَّم بعد - تُسقِط هذه السيطرة..

تجعل هذا الإنسان «**خارج السيطرة**»..

خارج سيطرته على نفسه!..

فكيف يمكن لهذا أن يستقيم؟!

ولكن الأكثر والأشدَّ من هذا كان يرتبط بما فهم عمر أنَّه أساسٌ في مخاطبة القرآن للمسلمين..

كان القرآن قد نزل دوماً **لقومٍ «يعقلون».. لأشخاصٍ عقولهم تعمل باستمرار، لأشخاصٍ عقولهم تتكوَّن بالقرآن**، ويعاد تشكيلها وتركيبها بالتواصل المستمرّ مع الوحي.. وبعدما تتكوَّن كما يريد لها خالقها أن تكون، فإنها كانت تتفاعل مع العالم من حولها، وقد حملت «عدَّةً» مختلفةً.

لكن «الخمر» كانت تعرقل المعادلة بأسرها..

كانت تعطِّل العقل كلَّه..

تشكُّله بالقرآن، وتفاعله مع العالم..

وبدا كلُّ ذلك لعمر متناقضاً بعضه مع بعض..

متناقضاً مع أنَّ الخمر لم تُحَرَّم بعد!

****

لِم لم ينتهِ فحسب إذا كان الأمر كذلك؟!

ببساطةٍ لم يقدر!..

لم يستطع أن ينتهِ!..

عمر القويُّ، شديد البأس، الذي تحدَّى صناديد قريش، الذي كان أوَّل من جهر بالإسلام، وجد نفسه مكبَّلاً، ليس أمام الخمر، بل أمام نفسه، أمام وحش العادة الذي يجعل من المرء عدوَّ نفسه..

عدوَّ نفسه!..

تذكرون؟.. يوم قال لأخته فاطمة: أصبأت يا عدوَّة نفسها؟..

ها هو يكتشف أنَّ الدين الذي جعله يولد من جديد يكشف له عن أعداء كامنين داخل نفسه.. أعداء متربِّصين.. ليسوا صريحين واضحين بعد.. ما دام الخمر لم تُحَرَّم بعد..

لكنَّه بدأ يشعر بأنَّ هناك عدوّاً له في نفسه.

الكثيرون منّا يسقطون في فخِّ تعوُّد المعاصي بلا سابق تصميمٍ أو تصوُّرٍ..

غداً سأكفُّ عن ذلك..

هذه مرحلةٌ عابرةٌ..

هذه أشياء صغيرةٌ..

لكنَّ خيوط التعوُّد تمسي حبالاً غليظةً.. تشدُّنا كالأغلال من أعناقنا..

قد يبقى ذلك التعوُّد سريَّاً، قد تبقى تلك الخطايا لا يعلمها إلا الله..

وتبقى نظرة الناس إليك، كما تحرص على أن ينظروا إليك.. قويَّاً، محترماً..

لكن في لحظاتٍ معيَّنةٍ، حادَّةٍ وحرجةٍ، عندما ستنظر لنفسك في مرآة الصدق، عندما ستكون قد خلعت أقنعة القوَّة والتظاهر بها، هل ستحترم نفسك؟

لقد جعلت من نفسك عدوَّها..

لقد تعوَّدت ذلك..

وصارت نفسك أقوى خصومك!

****

لكن عمر، لم يكن قد وصل لهذه المرحلة..

الخمر لم تكن محرَّمة بعد أصلاً..

وهو، عمر، ما كان سيسمح لنفسه أن تصل لهذا الحدِّ.. كان قد حدس إمكانيَّة ذلك، عرف خطورة هذا العدوَّ الكامن وحجمه، وكان يريد أن «يضرب عنقه».. كان يريد أن يحسم الأمر حتى قبل أن يبدأ..

في صراعه المرير مع «التعوُّد»، مع العادة، مع معصيةٍ لم تكن قد أصبحت معصيةً بعد، وإن كان قد فهم بعقله الذي يعمل بنظام تشغيلٍ قرآنيٍّ أنَّها مخالفةٌ لكلِّ ما فهمه من القرآن..

في هذا الصراع عرف عمر أنَّ الوسيلة الوحيدة - بالنسبة له - للتغلُّب على «نفسه»، الوسيلة الوحيدة التي يستطيع من خلالها أن يضرب عنق هذه العادة والتعوُّد هي

أن يكون هناك نصٌّ صريحٌ، نصٌّ حادٌّ مثل الشفرة، يمكّن عمر من أن يذبح هذا العدوّ..

أغلب الناس، لو عرفوا أنّهم يفعلون معصيةً ما، وهي لم تصبح معصيةً بعد، فإنّهم سيدعون الله أن لا تصبح معصيةً!.. أن يؤجّل ذلك..

لكن عمرا!.. يريد الحسم..

يريد البيان الشافي..

وكان يعلم أنّ الكثيرين لن «ينتهوا» ما لم يكن هناك هذا البيان الشافي..

وكان يدرك في الوقت نفسه أنّ مجتمعا قد ولد للتوّ، حضارةٌ بدأت تنشأ للتوّ، تحتاج إلى أن تحدّد موقفها النهائيّ من كلّ ما يعطّل العقل..

وهكذا فإنّ كلّ ما نعرفه عن «التدرُّج» في تحريم الخمر كان تدرُّجاً يمرُّ عبر التفاعل العمريّ، ويتدرّج معه للوصول إلى البيان الشافي..

(قال عمر: اللهمّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً.. فنزلت الآية التي في البقرة..
«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ». (البقرة: ٢١٩).
فدُعي عمر فقُرئت عليه..
فقال عمر: اللهمّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً..
فنزلت الآية التي في النساء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» (النساء: ٤٢)
فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادى: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، فدُعي عمر، فقرئت عليه فقال: اللهمّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة:
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ». (المائدة: ٩٠-٩١).
فدُعي عمر، فقرئت عليه، فلمّا بلغ «فهل أنتم منتهون) قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا).[٦٠]

٦٠ الترمذي ٣٢٥٥ وصححه الألباني

هذا هو الحديث الصحيح الذي يروي لنا عن التدرُّج في تحريم الخمر. يروي لنا أيضاً جانباً من صراع عمر مع ما عدَّه مرضاً، ودعا الله أن يرسل الشفاء عبر «البيان» الواضح الذي لا يترك مجالاً للتسلُّل..

لم يطلب منه تعالى أن يشفيه.. لم يرد لشفائه أن يكون فرديًّا. طلب «البيان الشافي».. البيان الذي يتجاوز حسم قرار شخصٍ مثله إلى أن يكون حسماً لمجتمعٍ كاملٍ.. حسماً لحضارةٍ كاملةٍ سيكون هذا الأمر من «حدودها» و «ثوابتها».. بل من علاماتها التي تميِّزها عن بقيَّة الحضارات..

كان التدرُّج القرآنيُّ أمثولةً عن الحكمة في الحسم.

وكان الإلحاح العمريُّ على البيان الشافي أمثولةً عن تعامل عمر، عن ملحمته الداخليَّة التي رأى من خلالها أنَّ الأمَّة تحتاج إلى بيانٍ قاطعٍ واحدٍ وصريحٍ كي تتخلَّص من مرضٍ متربِّصٍ بنهضتها وبقيامها..

ثلاث مرات.. اللهمَّ أنزل لنا في الخمر بياناً شافياً..

ولعلَّه كان قد حسم أمره منذ الآية الأولى التي قرَّرت أنَّ في الخمر: «إثماً كبيراً» ..لكنَّ ذلك العملاق الخبير في خبر النفوس البشريَّة كان يعلم أنَّ بعض البشر سيتسلَّلون من هنا وهناك.. وكان يعلم أنَّ الله يعلم ذلك. لكن لعلَّ الله بحكمته يريد اختبار هؤلاء..

ثمَّ جاءت: «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى». **وكان عمر في حالة صلاةٍ دائمةٍ، ولكنَّه كان يعلم أن ليس كلُّ المسلمين كذلك..**

اللهمَّ أنزل لنا في الخمر بياناً شافياً..

ونزلت: «فاجتنبوه» اذهبوا إلى الجنب الآخر.. اذهبوا إلى الضفَّة الأخرى ابتعاداً عنها.. فهل أنتم منتهون؟..

وأدرك عمر أنَّ هذا هو الحدُّ القاطع الشافي.. هذا هو ما يريد.. ولكن بالتدرج الإلهيِّ.. بالحكمة الإلهيَّة..

انتهينا انتهينا..

قال عمر..

سيبقى هناك من يلفُّ ويدور..

لكنَّ هؤلاء لم يحسب لهم عمر حساباً..

كان يعلم أنَّهم سيفعلون ذلك بكلِّ الأحوال.

لكنَّ صراع عمر مع «عادةٍ» له، قبل أن تكون معصيةً، أخذ منحىً آخر عندما تصاعد البناء الحضاريُّ خصوصاً مع اتِّساع الدولة الإسلاميَّة..

لقد رأى في الخمر عدوّاً كامناً لا يمكن التساهل معه، شأنه شأن الفرس والروم والمنافقين والمرتدّين..

الخمر، في عهد اتّساع الدولة وانتشار الفتوحات كانت ستقوّض البناء الحضاريّ وهو لا يزال في أول انطلاقه، كانت الخمر ستلهي الناس عن البناء، عن الجهاد، عن الاستمرار فيه، كان النصر السريع سيسهل للبعض أن «يروّح» عن نفسه بالخمر.. بالعبث..

وكان موقفه حاسماً كما يليق بمَن يريد لنهضة الأمّة أن تستند على القيم الثابتة.. لم يتساهل، لم يقل إنّهم تعبوا ولهم أن «يرتاحوا» قليلاً.. لم يغضّ النظر، بل زاد من عقوبة الحدِّ!..

وكان واضحاً في أنّ ما عرفه العرب من الخمر لا يعني أنّ هذا هو كلُّ الخمر، فالخمر ما «خامر العقل»..

(خطبنا عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليه و سلم، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد فإنّ الخمر نزل تحريمها يوم نزل وهي من خمس: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر: ما خامر العقل).[61]

(وعن عمر بن الخطاب ذكر أن عبيد الله وأصحابه شربوا بالشام شراباً وأنا سائل عنه فإن كان مسكرا جلدتهم ولا حدَّ في ما يَشرب إلا في الخمر فصحَّ أنَّ المسكر خمر).[62]

لن يسمح عمر بفقهه الثاقب، بنظام تشغيله القرآنيّ أن يسمح لأيِّ شيءٍ مهما بدا مصدره مختلفاً عن مصادر الخمر عند العرب أن **يخامر عقول المسلمين**، أن يغيِّبها..

لن يسمح من يريد بناء الحضارة لشيءٍ أن يجعل العقل المسلم عاطلاً، مغيَّباً..

كان العقل بالنسبة له خطّاً أحمر، لا يجوز لأحدٍ أن يمسّه..

فماذا سيبقى من المسلم، لو سلبوا منه عقله؟!

****

وهل نحتاج إلى أن نقول: إن عمر كان سيقف بحزمٍ ماثلٍ تجاه كلِّ ما سيُغيِّب العقل المسلم.. سواءٌ كان شراباً.. أو استنشاقاً.. أو حقناً؟!

وإنّه كان سيقف أيضا بحزمٍ تجاه كلِّ تغييبٍ، سواءٌ أكان عبر وسائل إعلامٍ معاصرةٍ، أم أيِّ شكلٍ آخر..؟!

حتى لو لم يكن اسمها «خمراً»..

كلُّ من يستخدم نظام التشغيل القرآنيِّ، سيكون حاسماً مثل عمر..

---

61 ابن حبان ٥٣٥٨ وصححه الأرناؤوط

62 الاستذكار في فقهاء الأمصار، ج ٩، ص ١٩

@iAbubader

وفي الملحمة العمريّة الخاصّة بالخمر فصلٌ آخر حزينٌ، ولكنه مليءٌ بالعزّة.. مليءٌ بالصدق..

فقد روي عن عمر بن الخطاب أنَّ ابنه عبد الرحمن لمّا شرب الخمر بمصر، وذهب أخوه إلى أمير مصر عمرو بن العاص ليجلده الحدَّ جلده الحدَّ سرّاً، وكان الناس يُجلَدون علانيةً، فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو يُنكر عليه ذلك، ولم يعتدَّ عمر بذلك الجلد حتى أرسل إلى ابنه فأقدمه المدينة فجلده الحدَّ علانيةً، ولم يرَ الوجوب سقط بالحدِّ الأول.[٦٣]

لا بدَّ أنَّ الأمر كان مؤلماً جدّاً لعمر..

أن يشرب ابنه الخمر..

وأن يُقام عليه الحدُّ سرّاً!..

طعنةٌ مزدوجةٌ..

مرةً لأنَّ ابنه يشرب الخمر..

ومرةً أنْ يقام الحدُّ سرّاً، كما لو أنَّ عمر يرضى أن يعامل ابنه معاملةً خاصّةً..

أرسل ليُقام عليه الحدُّ علناً في المدينة..

تعالوا يا أهل المدينة..

ابن الخليفة يقام عليه الحدُّ، لأنه شرب الخمر..

لا تساهل مع أيٍّ كان..

لا محاباة..

قال الله: فهل أنتم منتهون..

وقد انتهينا..

وها هو الحدُّ يقام..

قيل: إنَّ عبد الرحمن كان مريضاً من السفر، وإنَّ الحدَّ قتله..

قيل أيضاً: إنَّه مات بعد فترة.. وإن إقامة الحدِّ لا علاقة لها بوفاته..

أيّاً كان..

كان ذلك محزناً.. ولكن صادقاً ومليئاً بالعزّة..

لم يكن ممكناً لعمر أن يؤجّل الحدَّ.. فذلك سيسرِّب شعوراً أنَّه قد تساهل مع ابنه في حدٍّ من الحدود.. وماذا لو كان مريضاً؟.. ماذا لو مات قبل أن يُقام عليه الحدُّ!!..

---

٦٣ سنن البيهقي ١٧٩٥٣

لا..
لن يحدث..
ليس مع عمر.

****

عندما يكون الإسلام قضيَّتك حقاً، ليس كشعاراتٍ ترِّددها أو كتبٍ تقرؤها ومحاضراتٍ ترتادها..

فإنَّه يصل لهذه الدرجة..
درجة أنك تفضِّل «القضيَّة» على ولدك حرفيَّاً..
وحدهم القادرون على هذا التفضيل يستطيعون أن يصنعوا الحضارة..
وحدهم مؤهَّلون للقضيَّة.

@iAbubader

بل هو الفتح يا عمر!

عظم ما في ديننا أنَّ مَن حملوه لم يكونوا معصومين..

كانوا بشراً مثلنا..

كانوا يخطئون، يغضبون، يسامحون، يغفرون..

لم يكونوا ملائكةً على الأرض وكانوا أيضاً يعترفون بأخطائهم..

يعترفون بها كي يتعلَّموا منها..

وكي نتعلَّم منهم أنْ لا عصمة لأحدٍ، وأنَّ الخطأ طبيعةٌ بشريَّةٌ، وأنَّ الرجوع عن الخطأ أهمُّ بكثيرٍ من عدم الوقوع فيه..

نعم..

أولئك الذين حملوا أعظم رسالةٍ في التاريخ، كانوا بشراً مثلنا..

وهذا هو أعظم ما فيهم..

ومن أعظم ما في ديننا.

****

لكن لماذا نقول إنَّ هذا من أعظم ما في ديننا؟

ببساطة، لأنَّهم لو كانوا معصومين - بالجملة - فلن نستطيع أن نقتدي بهم!

@iAbubader

لا يمكنك أن تقتدي بشخصٍ وُلِد وهو لا يملك القابليَّة على الخطأ.. وُلِد كاملاً بلا نقصٍ.. ببساطةٍ هذا الشخص – على فرض وجوده - لم يبذل جهداً في الوصول إلى كماله.. وبذلك فإنَّه لا معنى في الاقتداء به..

على العكس، فإن من «عمل على إصلاح نفسه» للوصول إلى مرتبةٍ إنسانيَّةٍ عليا، حتى ولو نال «العصمة» لاحقاً، كما الأنبياء والرسل بعد الوحي، يمكن أن يكون موضع اقتدائك.. يمكنك أن «تعمل على نفسك» أيضاً للارتقاء إلى مرتبةٍ أعلى من واقعك.. تبذل جهداً وعينك على ما فعله، وتجد العون من الله لأنَّك تعين نفسك.

****

أولئك الرجال والنسوة الذين حملوا أعظم رسالةٍ، كانوا بشراً إذاً..

وكانوا يعترفون بأخطائهم بمنتهى الصدق، كلُّ ما نسمعه ونتداوله اليوم عن «الشفافيَّة» هو مجرَّد جزءٍ صغيرٍ من صدقهم في الاعتراف، وعدم تحرُّجهم من أخطائهم والإقرار بها، لا للتصالح معها والتأقلم مع استمرارها، كما هو الحال في الحضارة الغربيَّة المعاصرة، بل للخروج منها..

أولئك كانوا يقتحمون مشاكلهم لغرض حلِّها، وكانوا يؤمنون أنَّ نجاحهم في حلِّها مرتهنٌ بصدقهم، لذا كانوا يقرُّون بها دونما مكابرةٍ أو خجلٍ..

لم يكونوا معصومين، كانوا بشراً..

وهذا أعظم وأنبل ما فيهم.. وأعظم ما في ديننا.

****

خطأ عمر الذي أقرَّ به دونما أيَّة محاولةٍ لإخفائه، كان نابعاً من مصدرٍ «غير متوقَّع» للخطأ..

غالباً تكون أخطاؤنا نابعةً من شهواتنا، من أهوائنا..

لكن خطأ عمر كان في إصراره على الحقِّ..!!

لقد أصرَّ على الحقِّ لدرجة أنَّه أخطأ..!

ليت كلَّ الأخطاء تكون هكذا..

@iAbubader

(عن عِكْرِمَةَ، أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - «لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ». قَالَ مَعْمَرٌ قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ هَاتِ ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا ، فَدَعَا النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - الْكَاتِبَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِى مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ وَاللَّهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلاَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»).[٦٤]

صُدِم عمر.. أنتنازل عن اسم الرَّحمن؟!..
ونكتب باسمك اللهمَّ، كما يكتب كفَّار مكة؟!

(... ثُمَّ قَالَ «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» . فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلاَ قَاتَلْنَاكَ ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - «وَاللَّهِ إِنِّى لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِى . اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»..).[٦٥]

أولاً الرَّحمن..!
والآن رسالته عليه الصلاة والسلام..!
كانت الأرض تدور بعمر.. وربَّما ببقيَّة المسلمين..
ما الذي يحدث بالضبط؟

(... قَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - «عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ». فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللَّهِ لاَ تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ وَعَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ، إِلاَّ رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. قَالَ الْمُسْلِمُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». قَالَ فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - « فَأَجِزْهُ لِى». قَالَ مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ. قَالَ «بَلَى، فَافْعَلْ». قَالَ مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ مِكْرَزٌ بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ أَىْ مَعْشَرَ

---

٦٤ صحيح البخاري ٢٧٣٢ و ٢٧٣١
٦٥ صحيح البخاري ٢٧٣٢ و ٢٧٣١

الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ).[16]

الأمر شديد..

ها هو مسلمٌ جديدٌ يدخل الإسلام ويترك الكفر، يفِرُّ منه كما يفِرُّ المرء من النار..

وها هو العهد الذي يبرم توًّا تبدأ مواثيقه.. بتسليم هذا المسلم الجديد لقومه..

(فقال عمرُ بنُ الخطاب: فوالله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ..)[17]،

فأتيت نبيَّ الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت:

ألست نبيَّ الله حقًّا؟

قال: بلى، قلت: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟

قال: بلى، قلت: فلم نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِيننا إذاً؟

قال: إِني رسولُ الله، ولست أعصيه، وهو ناصري.

قلت: أوَ ليس كنت تحدِّثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: بلى. قال: فأخبرتك أنك تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطَّوِّف به.

قال : فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيَّ الله حقًّا؟

قال: بلى،

قلت: ألسنا على الحق، وعدُّونا على الباطل؟

قال: بلى، قلت: فلم نُعْطِي الدَّنيةَ في دِيننا إذاً؟

قال: أيُّها الرجل، إِنَّهُ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -، وليس يعصي ربَّه، وهو ناصِرُهُ، فاسْتَمسِكْ بِغَرزِه، فو اللهِ إِنَّهُ على الحقِّ.

قلت: أوليس كان يحدِّثنا: أنَّا سنأتي البيتَ ونطوفُ بهِ؟

قال: بلى. أفأخبرك أنه يأتيه العام؟

قلت: لا. قال: فإنَّك آتيه ومطَّوِّف به؟

قال عمرُ: فَعَمِلْتُ لذلك أعمالاً «يعني في نقض الوثيقة»...).[18]

يقولها بكل صدق.

ألسنا على الحقِّ؟!

أليسوا على الباطل؟!

ألست نبيَّ الله..؟!

لِمَ نعطي الدنيَّة في ديننا؟!

---

[16] صحيح البخاري ٢٧٣١ و ٢٧٣٢

[17] ابن حبان ٤٩٦٣

[18] صحيح البخاري ٢٧٣١ و ٢٧٣٢

لم ينفِ أنَّ الموقف هزَّه حتَّى الشَّكّ..
ولم ينفِ أنَّه حاول أن يحرِّض على نقض الوثيقة..

يقولها بكلِّ صدقٍ.. دونما محاولةٍ للتغطية..
لقد آمن بالحقِّ
بصواب القضيَّة.. لهذه الدرجة.. لدرجة الشكِّ..
ألسنا على الحقِّ؟
أليسوا على الباطل؟
دارت الدنيا بعمر.. أن يشكَّ مَن هو مثل عمر؟!.. دارت الدنيا، وضاقت عليه، عالمه لا يتعايش مع الشكِّ.. والشكُّ الصادم يجتاحه الآن بلا هوادةٍ..
ماذا كان مصدر شكِّه؟
مصدر شكه هو يقينه..
يقينه بعزَّة الإسلام!..
إيمانه بأنَّ الإسلام قويٌّ، وأنَّه ليس بحاجةٍ إلى مساومةٍ أو مداهنةٍ، كما فهم هو بنود الوثيقة..

(... قال فلمَّا فرغ من قضية الكتاب، قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه: قوموا فانحروا، ثم احْلِقوا، قال: فو الله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلمَّا لم يقُم منهم أحد دخل على أمِّ سَلَمةَ، فذكر لها ما لقيَ من الناس، قالتْ أمُّ سلمةَ: يا نبيَّ الله، أتُحِبُّ ذلك؟ اخرج، ولا تكلِّم أحداً منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حَالِقَكَ فيحلقك، فخرج فلم يكلِّم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحرَ بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلمَّا رأوا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحْلِقُ بعضاً، حتى كادَ بعضُهم يقتُلُ بعضاً غمَّاً).[٦٩]

لم يكن عمر وحده إذاً مصدوماً.. لم يزلزله وحده الموقف..

الجميع كانوا يشعرون بالشيء ذاته.. الجميع كانوا مختنقين بما حدث..

لكنَّ عمر وحده كان يتكلَّم..

(... قال فنزل القرآن «إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» على محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيَّاه، فقال: يا رسول الله أو فتحٌ هو؟ قال: نعم. قال: فطابت نفسه...).[٧٠]

٦٩ صحيح البخاري ٢٧٣١ و ٢٧٣٢
٧٠ صحيح مسلم ٤٧٣٣

تخيَّلوا أنَّه عليه الصلاة والسلام، وبعد كلِّ ما جرى من عمر، أرسل إليه بالذات، ليقرئه ما نزل من القرآن..

كما لو أنَّه عليه الصلاة والسلام، أراد أن يطَّلع عمر أولاً على تلك الآيات.. كما لو أنَّها نزلت من أجله.. **كما لو أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يكن غاضباً، بل كان فخوراً بطريقةٍ ما، بثبات عمر على الحقِّ.. بصدقه في التعبير عنه، حتى وإن كان قد أخطأ..**

نزلت السورة..

وأرسل الرسول إلى عمر..

«إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً»..

وفهم عمر، فهم فجأةً اللغز الذي كان قد زلزله، وجعله يشكُّ للمرة الأولى منذ أسلم..

«أو فتحٌ هو يا رسول الله ؟»..

وأجاب عليه الصلاة والسلام:

نعم.. إنَّه الفتح..

****

الفرق هو أنَّ عمر أولاً، اعتقد أنَّ الأمر هو مثل بدر، مثل أحد.. مثل أيَّة غزوةٍ أخرى..

كانوا سيذهبون معتمرين.. إلى مكة.. وقريشٌ تحاول منعهم.. وسيتصدَّون لها..

كان عمر يعتقد أنَّها معركةٌ «أخرى» بين الطرفين..

وبقياسات المعركة «المجرَّدة»، كانت التنازلات غير منطقيَّة.. وكان عمر سيكون محقّاً بالتأكيد.. أنَّها مجرَّد معركةٍ أخرى، بدرٌ وأحدٌ والأحزاب.. نحن على الحقِّ، وهم على الباطل.. قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ولا سواء.. ورسول الله بيننا..

فلم إذاً نعطي الدنيَّة في ديننا؟.

لكنَّ عمر كان ينظر إلى «المعركة».. إلى التكتيك..

الخطأ الذي وقع فيه عمر بن الخطاب، كان أنَّه لم يتنبه إلى أنَّ المرحلة المفصليَّة التي **تمرُّ بها الدعوة من مرحلة التمكين إلى أفقٍ جديدٍ هو الفتح..**

لم يعد الأمر هنا متعلِّقاً بانتصارٍ في معركة، بتعرُّضٍ لقافلةٍ، بمواجهة التحدِّي بتحدٍّ مقابل، بالصمود أمامهم عندما يتجمَّعون لاستئصاله، كما حدث في المعارك السابقة.

لقد تجاوز الإسلام كلَّ ذلك، وقد شهد عمر انتقالاته من الضَّعف إلى العزَّة داخل مرحلة الاستضعاف، يوم أسلم عمر.

من الاستضعاف إلى التمكين، يوم هاجر جهراً متحديّاً صناديد قريش وراء الوادي..

وها هو يدخل مرحلة الفتح.

لكنَّ عمر لم ينتبه إلاَّ لحظة نزول الآية..

إنَّه الفتح إذاً..

نعم، يستحقُّ الأمر ذلك.. يستحقُّ كلَّ ما حدث..

****

الفرق بين الانتصار في الغزوات ما قبل الحديبية وبين «الفتح».. هو أنَّ الانتصار في تلك الغزوات كان يوفِّر ما يجب توفيره لحماية الدولة الناشئة والمجتمع الوليد..

بعد فترةٍ، لن يعود لهذا الأولويَّة نفسها..

لكنَّ الفتح، مرحلةٌ أخرى..

مادام مشركو مكة قد قبلوا بالتفاوض، حتى لو كانوا قد رفضوا أن يضعوا اسم الرحمن، أو يُقرّوا بنبوّته عليه الصلاة والسلام، فهذا **يعني أنَّهم أقرُّوا بكونه «نِدّاً»..**

أمام كلِّ العرب في جزيرة العرب، لم يعد محمَّدٌ ذلك المتمرِّد الصابئ الخارج عن قانون العرب، بل صار نِدّاً لقريش، تربطه بها وثيقةٌ تعترف بقوَّة كيانه ووجوده، وكان لهذا معنىً عند قبائل الجزيرة قد يوازي - إن لم يكن يفوق - معنى أيِّ انتصارٍ في معركةٍ بين الطرفين..

وكان ذلك خطوةٌ لا بدَّ منها للدخول في الفتح..

@iAbubader

كان لا بدَّ من ألاَّ يستمرَّ اقتران الأمر بالقوَّة العسكريَّة فحسب..

بل بالاعتراف بالكيان - الندّ..

صحيحٌ أنَّ القوَّة العسكريَّة كانت مهمَّةً للوصول إلى هذه المرحلة..

لكن يجب ألاَّ يكون ذلك كلَّ شيءٍ..

الفتح، لا يُمكن أن يكون عسكريَّاً فقط..

الفتح، فتح!

****

الحرب كرٌّ وفرٌّ.. يومٌ لك ويومٌ عليك.. تنتصر في معركةٍ واثنتين، ولا يعني هذا انتصارك في الحرب.

الفتح مختلفٌ.. الفتح نصرٌ حاسمٌ..

لكن ليس في الحرب فحسب.. بل في معنى المواجهة ككل.. في جوهرها..

الفتح ليس أن تفتح أبواب المدن وأسوارها المحصَّنة، فحسب..

بل أن تفتح عقول الناس وقلوبهم ..

يحدث ذلك أيضا بالقوَّة العسكريَّة أحياناً، فثقافة المنتصر جاذبةٌ، والمغلوب يتبع الغالب غالباً.. لكن الأهم من ذلك أن تكون ثقافة المنتصر تستحقُّ الانتصار، أن يشعر المغلوب بعد فترةٍ أنَّه انتصر أيضاً يوم انهزم أمامها..

الفتح، يشمل كلَّ ذلك..

ويوم الحديبية، كان الإسلام قد وصل لهذه النقطة.. نقطة التمهيد.. الفتح..

خطأ عمر كان أنَّه لم يرَ ذلك.. لم يره أحدٌ من الصحابة أيضا، فكلُّهم وجموا، لكن عمر.. تعرفون ماذا فعل..

لم يدعها عمر «تمرَّ» بطلبٍ للمغفرة فحسب، بل فَهِمَ تماماً خطأه.. فَهِمَ أنَّه وقف في مكانٍ ما، زاويةٍ معيَّنٍ، وشاهد ما كان يحدث من خلاله.. @iAbubader

تلك كانت زاوية المدينة، زاوية الدفاع عن التجربة الوليدة.. زاوية التمكين بما يكفي للدفاع والمواجهة فحسب.. زاوية الدولة..

لكنَّ مرحلة الفتح كانت تتطلَّب أن تقف في **مكانٍ أبعد قليلاً كي ترى أوضح، كي ترى أبعد، كي تطلَّ على مآلات الأمور..**

مرحلة الفتح، كانت تتطلَّب أن ترفع بصرك نحو الأعلى قليلاً.. لأنَّ الحضارة لا يمكِن أن تُرَى إن طأطأتَ رأسك..

ارفع رأسك يا عمر.. لكي ترى الصورة كاملةً..

لا تفاصيل صغيرة منها، أو بعض جوانبها..

أهو الفتح يا رسول الله؟..

نعم!

درس الحديبية، وموقف عمر من الوثيقة آنذاك، الذي لا يُمكِن إلاَّ الإقرارُ أنَّه كان مخطئاً فيه، جعل عمر يفهم الفتح على نحوٍ أعمق ممَّا لو كان قد قبِلَ أمرها دون ممانعةٍ..

فَهِمَ عمر الفتح حقّاً، كونه أكبر بكثيرٍ من مجرَّد نصرٍ عسكريٍّ بين طرفين، فَهِمَ البُعد الحضاريَّ الأبعد للنصر، البُعد الأدوم الذي لا ينفي القوَّة ولكنَّه يحتويها، كما يحتوي أشياء أخرى كثيرة..

هل يمكِن ألاَّ نرى أثر ذلك الدرس في كلِّ فتوحات عمر، وهي الفتوحات الأكثر حسماً وتأثيراً في مسار الحضارة الإسلاميَّة..

وهل يمكِن أن نغفل أثر ذلك في حقيقةٍ تاريخيَّةٍ، مفادها أنَّه رضي الله عنه بكل قوَّته وشدَّته، كان يميل إلى أن تُفتح البلدان صُلحاً، وليس عنوةً؟

يحدث كثيراً أن نخطئ لأنَّنا نُصِرُّ على الصواب.. لأنَّه يكون صواباً في مرحلةٍ محدَّدةٍ..

المسألة ليست في تعدُّد وجهات النظر، وتعدُّد زوايا الرؤية إلى ما لا نهاية، بل في تتالي المراحل، واحدةٍ تلو أخرى.. في تلاحم الآفاق.. أفقٍ أعلى من أفقٍ..

ربَّما سيصعب عليك أن تُميِّز عند الانتقال من مرحلةٍ إلى أخرى..

@iAbubader

لكنَّ نسبة الخطأ ستكون أقلَّ كلَّما كنت تنظر إلى الأفق الأعلى.. إلى البُعد الحضاريِّ

لكن لا تنسَ أن تنظر أيضا إلى الأرض..

****

شيءٌ أخير..

كلِّي ثقةٌ أنَّ عمر أشرق وجهه، عندما قرأ تلك الآيات..

أشرق وجهه بنور الفتح المبين..

الذي سيُشرق على العالم لاحقاً..

رغم الحزن، لا وقت للدّموع..

بعض حقائق الحياة، تكون بديهيَّةً وقاطعةً، ولا يمكن لاثنين أن يتجادلا فيها..لا سبيل لإنكارها..

رغم ذلك، فالكثيرون منَّا، وربَّما الغالبيَّة العظمى منَّا، يتهرَّبون من مواجهة هذه الحقائق.. يحاولون أن يتجاهلوها.. يغضُّون النظر عنها.. أو على الأقلِّ يؤجِّلونها..

بعض هذه الحقائق تكون مهمَّةً جدَّاً وعندما نتمادى في تأجيل المواجهة فأن هذا يؤدي إلى عواقب وخيمةٌ..

مثل ماذا؟

مثل الموت..

لا يُمكن لأحدٍ أن يجادل في كونه الحقيقة الوحيدة التي لم تجد من ينكرها..

رغم ذلك، فالكثيرون يعيشون حياتهم كما لو كان الموت لن يأتي..

وهذا له عواقب وخيمةٌ كما تعلمون.

****

عمر لم ينسَ الموت يوماً، ولم يتجاهله أو يؤجِّل مواجهته..

لم ينسَ موته هو، بل كان حاضراً معه في كلِّ عمله..

لكنَّه نسي أنَّ الموت قد يأتي لأحبَّائه قبل أن يأتيه هو..

@iAbubader

كلُّنا لدينا شيءٌ كهذا..

قد يكون الموت وما بعده خاصَّةً حاضراً في وجداننا، في دوافعنا للعمل.. قد نتذكَّره دوماً، وعلى نحوٍ يوميٍّ..

لكنَّه موتنا الشخصيُّ، موتنا «نحن»..

أمَّا موت أحبَّائنا، فنحن نحاول أن نتجنَّب التفكير فيه.. نريدهم أن يموتوا بعدنا، كي لا نتألَّم لفراقهم.. إنَّها وسيلة دفاعٍ لا إراديَّة يعمد لها الإنسان كي يتجنَّب الألم أو احتماليَّته..

****

عمر كان مثلنا جميعاً من هذه الناحية.

تفكيره بالموت الشخصيِّ لم يكن مثلنا، كان أكثر كَمَّاً ومختلفاً نوعاً، أكثر إيجابيَّةً ودافعيَّةً للعمل..

لكنَّه كان مثلنا في تجنُّبه التفكير بموت أحبابه..

خلف هذا العملاق الشاهق العزَّة والقوَّة، كان هناك قلبٌ يشبه قلب طفلٍ لا يُريد أن يفكِّر ولو مجرَّد تفكيرٍ، أنَّ أمَّه قد تفارقه..

لم يكن عمر يريد أن يُفكِّر، ولو للحظةٍ، أنَّه قد يفارق حبيباً له.

لا.

ليس ابنه عبد الله ، أو أيٍّ من أبنائه.

ولا بناته، ولا حتَّى حفصة أمِّ المؤمنين..

حبيبه الذي لم يكن يفارقه، هو حبيبه الذي تمكَّن من أن يجعل حبَّه مقدَّماً حتى على حبِّ نفسه..

إنَّه محمَّدٌ عليه الصَّلاة والسَّلام.

بالنسبة لعمر، كان الوحي النازل على محمَّدٍ هو محور حياته.

به يرى العالم.. به يتفاعل.. ومن خلاله يتفاعل مع كلِّ ما حوله..

كان الوحي هو محرِّكه وبوصلته وخارطته في آنٍ واحدٍ..

وكان يتلقَّف الوحي، يتتبَّعه إذا اضطرَّ أن يغيب عن المدينة ولو ليومٍ..

(قال: كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أميَّة بن زيد وهم من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل أنا، فإذا نزلت جئته بما حدَّث من خبر ذلك اليوم من وحيٍ أو غيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك..).[٧١]

هكذا كان عمر يتعامل مع الوحي..

يتلقَّفه، كما يتنفَّس أيٌّ منَّا الهواء..

ولم يكن محمَّدٌ عليه الصَّلاة والسَّلام مجرَّد «معبِّرٍ» لهذا الوحي.. بل كان أيضاً يمثِّل شخصيَّةً إنسانيَّةً تُطبِّق هذا الوحي وتوضِّحه.. كان يمثِّل امتداداً بشريّاً للوحي الإلهيِّ..

فهل يُعقَل أن يأتي في باله أنَّ ذلك كلَّه يُمكن أن ينتهي..

سيكون هذا مرعباً، كما لو أنَّك تستيقظ لتجد نفسك في عالمٍ أجرد خلا من البشر ومن كلِّ ما يدلُّ على وجودهم..

كما لو أنَّك تستيقظ لتجد أنَّ الشمس لن تشرق أبداً، وأنَّ النهار لن يطلع بعد اليوم..

لا.

لن يحدث هذا.

كان عمر يعرف ضمناً أنَّ موته عليه الصلاة والسلام حقٌّ، وأنَّ الوحي خاطبه «إنَّك ميِّتٌ وإنَّهم ميِّتون»..

لكنَّ آليَّة الدِّفاع عن النفس التي نملكها جميعاً، كانت تجعل عمر يغضُّ النظر على نحوٍ غير واعٍ، فقط ليتجنَّب التفكير في إمكانيَّة موته عليه الصَّلاة والسَّلام..

ليتجنَّب التفكير في فكرة أنَّه قد يستيقظ ذات يومٍ، ولا يجده هناك..

---

٧١ صحيح البخاري ٤٨٩٥

@iAbubader

لكنَّ الموت ليس حقّاً فقط.

إنَّه حقيقة..!

وها هو الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يمرض..

وها هو المرض يشتدُّ عليه..

لكنَّ عمر يرفض التفكير بما قد يحصل بعدها..

سبق للرَّسول الكريم أن مرض قبل ذلك.. سبق أن اشتدَّ عليه المرض، ثمَّ عاد وتماثل للشِّفاء، وذهب في الغزوات، ونزل عليه الوحي.

هذه مثل تلك..

لا شيء سيحدث.. الرسول باقٍ معنا.. لا بدَّ أنَّه باقٍ..

لكنَّ الرسول لا يبدو أنَّه يتماثل للشفاء..

وعمر لا يبدو أنَّه يفهم ما الذي يحدث..

إنَّه مُصِرٌّ على «الإنكار».. لا يريد أن يُصدِّق أنَّ الرسول قد يغادر..

وها هو عليه الصلاة والسلام يقول ما قد يُفهم منه أنَّه راحلٌ.. يريد أن يقول شيئاً ممَّا قد يقوله أيُّ محتضرٍ.. توصيةً عامَّةً لن تخرج بكلِّ حالٍ من الأحوال عن كلِّ ما وصَّى به طيلة حياته.. ولكن كما لو أنَّه يريد أن يُفهمهم بالتدريج، أنَّه راحلٌ حقّاً..

انتفض عمر كما سينتفض أيُّ محبٍّ عندما يستمع لمحبِّه وهو يقول إنه مغادرٌ دون عودة.

كما ستفعل أنت أو أنا أو أيُّ شخصٍ سويٍّ عندما تقول له والدته في مرضها إنها تشعر بدنوِّ الأجل.. ستقول لها: «بعد الشر.. حسّك في الدنيا».. أيَّ شيءٍ من هذا القبيل.. لن تدعها حتَّى تكمل جملتها.. وسيكون هذا من أجلك، لا تريد أن تواجه موتها، على الأقلِّ ليس قبل حصوله فعلاً.

(عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا حُضِرَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ وَفِى الْبَيْتِ رِجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - قَالَ «لَمَّ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ» . قَالَ عُمَرُ إِنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمُ الْقُرْآنُ ، فَحَسْبُنَا كِتَابُ

اللّٰه . وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَاخْتَصَمُوا . فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ قَرِّبُوا يَكْتُبْ لَكُمْ رَسُولُ اللّٰه - صلى الله عليه وسلم - كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ . فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغَطَ وَالاِخْتِلاَفَ عِنْدَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ «قُومُوا عَنِّى». قَالَ عُبَيْدُ اللّٰهِ فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللّٰه - صلى الله عليه وسلم - وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنِ اخْتِلاَفِهِمْ وَلَغَطِهِمْ).[72]

(عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا اشْتَدَّ بِالنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - وَجَعُهُ قَالَ «ائْتُونِى بِكِتَابٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ». قَالَ عُمَرُ إِنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللّٰهِ حَسْبُنَا فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ. قَالَ « قُومُوا عَنِّى، وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدِى التَّنَازُعُ ». فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللّٰهِ - صلى الله عليه وسلم - وَبَيْنَ كِتَابِهِ).[73]

موقف عمر - التلقائي - كان واضحا جدا.

وكل منا سيفعله عندما يتعامل مع شخص يعتبر وجوده ضروري ومحوري في حياته.

لم يكونوا يتعاملون مع الرسول عليه الصلاة والسلام كما لو كان مديراً عاماً عليه أن يزودهم بالخطة في حال غيابه..

كانوا يتعاملون معه كالهواء. لا يتخيلون اختفاءه. لا يتخيلون أن يرحل. لأنه أمر خارج التخيل.

منذ أن خرج من الغار، وهو - عبر الوحي الذي يتنزل - مثل الهواء الذي يستنشقون.. فماذا سيحدث لو قيل لك أن الهواء على وشك الرحيل؟

لن تصدق.

هذا ما فعله عمر.

الرسول على فراش المرض. ويقول شيئا قد يفهم منه أنه راحل.

أين ترحل يا رسول الله؟!. لا تقلها. ماذا سنفعل إن كنت لست معنا؟

في إحدى روايات الحدث الجلل، عمر يقول بوضوحٍ في السياق نفسه:

---

٧٢ صحيح البخاري ٧٣٦٦

٧٣ صحيح البخاري ١١٤

(عن ابن عباس: أنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال في مرضه الذي مات فيه: ائتوني بدواةٍ وصحيفةٍ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبدا! فقال عمر بن الخطاب: من لفلانة وفلانة - مدائن الروم؟ - إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بميت حتى نفتتحها، ولو مات لانتظرناه كما انتظرت بنو إسرائيل موسى!).[٧٤]

عمر يذكر أسماء مدنٍ! مدنٍ روميَّة! يحدِّدها بالاسم! **يقول من لها إذاً؟ من سيفتتحها إذاً؟..**

إنَّه يريده عليه الصلاة والسلام أن يكون قائداً للفتح كلِّه..

إنَّه يرفض مجرَّد التفكير في وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

لذا يقول: غلبه الوجع.

وجعٌ عابر.. تصوَّر أنَّه وجعٌ عابرٌ يقول فيه المرء تحت ضغط الألم ما يفهم منه أنَّه راحلٌ..

لكنَّ عمر، يرفض الفكرة.. يرفض مجرَّد التفكير فيها..

لن تموت يا رسول الله.

****

انتفض عمر حبَّاً للرسول، لكن لكلِّ شيءٍ ضريبته..

ما فعله عمر أثناء صنعه للحضارة القائمة على قيم الإسلام، هو أنَّه حطَّم حضاراتٍ أخرى قائمةً على قيم الكفر والطغيان.. فلول الحضارة الكسرويَّة تحديداً لم ينسوا قط لعمر صنيعه هذا..

تحطيم هذه الحضارة «الكسرويَّة» له ضريبته، فكان لا بدَّ ممَّن ينتمون لتلك الحضارات الأخرى أن يبحثوا عن مطعنٍ عليه..

فلم يجدوا غير حبِّه للرسول.. **غير رفضه لفكرة أنَّه سيرحل..**

افترضوا أنَّ الرسول كان يريد أن يوصي بالخلافة، وأنَّ عمر منعه..

كما لو أنَّ الحادثة لم تحدث أمام الجميع، والجميع كان من ضمنهم مَن يدَّعي هؤلاء أنَّه الشخص الذي كان يريد عليه الصلاة والسلام أن يوصي له..

---

٧٤ الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٢ ص ٢٤٤

كما لو أنَّ عمر سيُمكنه أصلاً أن يفعل ذلك، بفرض أنَّه أراد ذلك..

الطعن هنا ليس بعمر فقط كما قد يبدو للوهلة الأولى..

بل بالرَّسول الكريم الذي أخَّر الوصية، ولم يستطع أن يقولها لاحقاً، بزعمهم..

وبالصحابيِّ الجليل الذي يدَّعون أنَّ الرسول كان سيوصي له، لأنَّه سكت عن ذلك وهو يحدِّث أمامه.. علماً أنَّه قد بويع بعدها للخلافة، ولم يُذكَر قطّ أنّ عمر منع الرَّسول الكريم من التوصية له..

وبكلِّ المحيطين بالرسول الكريم في مرضه الأخير.. كلُّهم كانوا شهوداً على منع عمر للرسول من التوصية بحسب ما يزعمون..

بعبارةٍ أخرى: **الطعن بالجميع..**

وكيف لا.. وهذا «الجمع» هو الذي بنى تلك الحضارة التي حطَّمت حضارتهم؟

****

لكن لماذا يُفهم من ظاهر قول ابن عباس، في الحديث الذي رواه البخاري، ما يمكن أن يسهِّل على فلول كسرى أن يجدوا مطعناً افتراضياً على عمر؟

نتعامل مع الأمر حاليَّاً بحساسيَّةٍ بالغةٍ، وننسى أنَّ ابن عباس قد شهد الواقعة وهو ابن الثانية عشرة أو أقلَّ.. أي أنَّه مجرَّد طفلٍ، رغم أنَّه كان طفلاً واعداً حتماً.. وأنَّه رجع واستذكرها بأثرٍ رجعيٍّ مختلطةٍ بما «فُهِم منها» وقتها، وما حدث من فتنةٍ لاحقاً..

لكن هذا الحدث، يحتاج إلى وعي شخصٍ أسنّ ممَّن هو في الثانية عشرة، بالضبط ليتفهَّم موقف عمر.. الرافض لفكرة - مجرَّد فكرة - أن يموت الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام..

ابن عباس نقل مشاعره التي أحسَّ بها وهو طفلٌ، وقد اختلطت وتراكم عليها ما حدث بعد الفتنة، التي تلت وفاة عمر أصلاً بسنين.. والتي لم يرد قط في أسباب حدوثها، وصيَّةٌ مفترضةٌ، لم تكتب ولم يوصَ بها، من قِبَل الرسول الكريم على فراش موته..

الحديث صحيح.

الواقعة صحيحة.

عمر قال ما قال فعلاً.

لكنَّ الدافع في القول لم يكن من أجل منع تلك الوصية..

وابن عباس كان طفلاً، وهو غير معصومٍ في تفسيره للواقعة الصحيحة..

****

حتى في تلك اللحظات المفعمة بالخوف ممَّا يحدث، وبالإنكار لما قد يحصل، كان عمر يفكِّر في الحضارة.. في الدرب إليها، الذي لا يزال طويلاً، شاقاً، وعراً..

لم يتخيَّل أنَّهم يمكن أن يكملوا الدرب من دونه عليه الصَّلاة والسَّلام..

لكنَّه كان يتشبَّث به كما سيفعل كلٌّ منَّا لو وُضِع في موقفٍ مماثل..

يريد أن يكون الصحابة كلُّهم رفاقاً على ذلك الدَّرب..

لكن عليه الصلاة والسلام خُيِّر..

فاختار «الرفيق الأعلى».

****

جاءت لحظة الحقيقة..

وانتفض عمر غير مصدِّق..

(... فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه و سلم.. وليبعثنَّه الله فليقطعنَّ أيدي رجالٍ وأرجلهم).[٧٥]

(وقال المغيرة: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عمر. قال: كذبت والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يموت حتَّى يأمر بقتل المنافقين، بل أنت تحوسك فتنة!).[٧٦]

كان المنافقون قد بدؤوا يتداولون الخبر وهم لا يُخفون شماتتهم، وكان عمر لا يزال غير مصدِّقٍ! أكلُّ هذا يحدث صدقاً؟

---

٧٥ صحيح البخاري ٣٦٦٧
٧٦ رقم ١٣٣٣ ج٣ ص ٩٩١ مسند إسحق بن راهويه

(فجاء أبو بكر «كان بالسنحة، عالية من عوالي المدينة» فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبّله قال: بأبي أنت وأمي.. طبت حيّاً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقنّك الله الموتتين أبداً.. ثم خرج فقال «لعمر الذي كان يقسم أنّ الرسول لم يمت، ويهدّد بأنّه سيعود ليقطع أيدي وأرجل من يقول ذلك»: أيُّها الحالف على رسلك).[77]

(وفي قول: أربع على نفسك، أي تمالك نفسك).[78]

(فحمد الله أبو بكر، وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمّداً صلى الله عليه وسلم فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت، وقال «إنك ميّت وإنّهم ميّتون». وقال «وما محمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خلتْ من قبله الرُّسل أفإنْ مات أو قتِل انقلبتم على أعقابكم ومنْ ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ اللهَ شيئاً وسيجزي الله الشاكرين».[79]

فلما تكلّم أبو بكرٍ جلس عمر)!

جلس..!

كان واقفاً.. وجلس..

أجلسته الكلمة..

من كان يعبد محمّداً.. فإنّ محمّداً قد مات..

قد مات..

قد مات..

ظلّت الكلمة تتردّد في أذن عمر، وجاءت الآيات كالصفعة على وجهه.. كان في حالة إنكار.. والصفعة أيقظته.. أعادته إلى أرض الواقع.

أجلسته على الأرض..

كما لو أنّه يسمعها للمرّة الأولى.. كما لو أنّه لم يكن يعرفها عن ظهر قلبٍ..

إذاً لقد مات؟

إذاً لن يكون هناك ليقول لهم ما يفعلون.. لن يكون هناك ليفعل ما سيفعلون.. لن يكون هناك ليحمل لهم وحي السماء.. ولن يكون هناك ليطبّق هذا الوحي ويجسّده.

لقد مات.

م. ا. ت..

يا للحقيقة المهولة..

يا للحقيقة المهولة..

---

٧٧ صحيح البخاري ٣٦٧٧
٧٨ مصنف ابن أبي شيبة ٣٧٠٢١
٧٩ صحيح البخاري ٣٤٦٧

فنشج الناس يبكون..[80]

لا. ليس هذا وقت البكاء حتى لو كنَّا نبكي.. ليس هذا وقت الحزن حتى لو كنَّا في منتهى الحزن... لا بدَّ أن يكون هناك ما نفعله..
مات الرسول، ولكنَّ الله لا يموت.
الدعوة لا تموت.
الإسلام لا يموت.
وما بناه الرسول، ذلك الدَّرب الذي شقَّه، يجب أن لا يموت..
أيقظت الفكرة عمر.. جمعت كلَّ حواسِّه..
تذكَّر مدائن الرُّوم..
تذكَّر هاتين المدينتين اللتين ذكرهما هو للرسول على فراش موته..
تذكَّر الفرس، وإيوان كسرى..
وتذكَّر المنافقين المتربِّصين!..
كلُّ ذلك جعل عمر في لحظاتٍ ينتقل من حالة الحزن والفجيعة.. إلى الوعي والترقُّب والعمل..
كلُّ ما حصل من انتصاراتٍ للأمَّة لاحقاً، كلُّ المنجزات الحضاريَّة العظيمة التي توالت عبر العصور، كلُّها تعود إلى ما فعله أبو بكرٍ وعمر في تلك الساعات القليلة..
رباطة جأش أبي بكر، وجملته الحاسمة التي ذكَّرت الناس بحقيقة نسوها لحظة المصاب الجلل.. والآيات التي صُفِعَ بها.. رباطة الجأش هذه، هي التي شدَّت عمر..
حَسْمُ عمر، وسرعةُ اتخاذه القرار لاحقاً في السقيفة، أكمل موقف العبور.. عبور مرحلة الخطر..

ما الذي حصل في السقيفة؟

****

لا يمكن اتِّهام نيَّة أحدٍ، فهؤلاء كانوا من الذين بايعوا تحت الشجرة..
لكنَّ هول الموقف يجعل الأمور مشوَّشةً..
اجتمع الأنصار منفردين في السقيفة عند سعد بن عبادة.
كان ذلك مقلقاً، لِمَ الأنصار وحدهم؟!..
دخل أبو بكرٍ وعمر، كان من الواضح أن استقطاباً للأنصار يحصل هنا.
لم يكن هذا صحياً في هذه المرحلة تحديدا، وكان نذيراً أنَّه لو حصل ذلك فإنَّه يقضي

---

٨٠ صحيح البخاري ٣٤٦٧

على واحدةٍ من أهمِّ مقوِّمات الدولة الناشئة.. كانت **أغلب قبائل العرب حديثة عهدٍ بالإسلام، وكان جزءٌ من ولائها الجديد يعود إلى قرشيَّة محمَّد..** انفراط ذلك مبكِّراً وعلى نحوٍ مفاجئٍ، وقبل أن يعرف هؤلاء الإسلام حقَّاً كان سيؤدِّي إلى خلعهم للولاء (حدث ذلك فعلاً رغم بقاء قريش في السدَّة، لكنه كان سيحدث أكبر لو أنَّ الأمر انتهى للأنصار).. مجرَّد "التفرُّق" في ذلك كان سيترك أثراً مفرِّقاً، وسيجعل بعض حديثي العهد بالإسلام يتركونه..

لا.. هذا الأمر في المهاجرين من قريش.. **لا عصبيَّة ولا قبليَّة..** ولا انتقاصٌ من قدر الأنصار ودورهم، ولكن لأنَّ **مصلحة "الدولة" في هذه المرحلة تتطلَّب ذلك..**

والدولة هي وعاء الحضارة.. لو ضيَّعنا الدولة فإنَّ كلَّ القيم الحضاريَّة ستتفلت ، ولن نجد ما يلمُّ شملها.. على الأقلِّ في هذه المرحلة المبكرِّة من نشوء الحضارة..

(..ذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر وكان عمر يقول والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاما قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس).[81]

أراد عمر أن يقول شيئاً، لكنَّ أبا بكر قال له ما معناه: اسكت!.. فسكت!.. كان أبو بكرٍ يخشى أن يكون عمر لا يزال في "مرحلةٍ" غير مناسبة للموقف! ويقول عمر إنَّه كان قد حضّر كلاماً، فوجد أنَّه لا يخرج عن كلام أبي بكر إلا أنَّ أبا بكر قاله على نحوٍ أفضل!..

(قال أبو بكر: **نَحْنُ الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ.**

قَالَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ أَبَدًا مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا وَلَكِنَّا الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ.. هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ)..[82]

هنا تدخَّل عمر ليكون حاسماً واضحاً.. لن ينفع في هذه المرحلة الدقيقة أن تكون هناك خياراتٌ كثيرةٌ.. أن يكون هناك مَن يقول عمر، وهناك من يقول أبا عبيدة، أو سعداً..

يجب أن يكون هناك فصل خطاب.. قرارٌ نهائيٌّ يحسم الأمر كي يكون هناك خطابٌ.. تصرَّف عمر هنا بحنكةٍ تدلُّ على خبرته بعلم نفس الجماهير، تدلُّ على أن نظام التشغيل القرآنيّ الذي يستعمله قد مكّنه من أن يسخِّر القوانين والسنن لتكون طوعه.. كما مع داود في سورة "ص" التي كانت القالب الذي اختاره عمر..

---

٨١ صحيح البخاري ٣٤٦٧
٨٢ صحيح البخاري ٣٦٦٨

علم نفس الجماهير، يقول إنَّ الجماهير عندما تكون متردِّدةً في خيارٍ ما تجاه موقفٍ ما، فإنَّ أيَّ شخصٍ يتقدَّم أولاً - ليعلن موقفه بحسمٍ سيجعل الباقين يأخذون موقفه، ويحسمون تردُّدهم باتجاه موقفه حتى لو كانوا يميلون أصلا لموقفٍ مضادٍّ..

(فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ خَيْرُنَا وَسَيِّدُنَا وَأَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ...).[83]

حسم الناس أمرهم.. حتى أولئك الذين كانوا قد تجمَّعوا حول سعد بن عبادة.

لو أنَّ التردُّد دام أكثر قليلاً لتغيَّر كلُّ شيءٍ.. لافتتن الناس.. ولربَّما كان تغيَّر وجه العالم.. لكنْ حَسْمُ عمر وقبله رباطة جأش أبي بكر، جنَّب الأمَّة كلَّها ذلك كلَّه.

****

كان الفراق موجعاً.. مصاباً جللاً..

لكن لا بدَّ من مواصلة الطريق..

محمَّد مات..

لكنَّ الله لا يموت..

وما أمرنا به، لا يموت.

---

٨٣ صحيح البخاري ٣٦٦٨

الشيخان: تكامل لا تطابق..

التنافس بين الأشخاص أمرٌ طبيعيٌّ في النفس البشريَّة، وهو أمرٌ يشكِّل جزءاً بديهيّاً من الدوافع البشريَّة للعمل والإبداع.. طالما كانت طرق التنافس شرعيَّةً، ولا تصطدم بقيمٍ أو مبادئ..

طول مدة التنافس، خاصَّةً عندما يكون التنافس بالخير، يصنع بين المتنافسين رابطةً إضافيَّةً غير رابطة الخير الذي يؤمنون به ويعملون لأجله.. رابطةً خاصَّةً، بالتدريج، ينظر كلٌّ منهما للآخر كما لو أنَّه ينظر إلى محرِّكٍ إضافيٍّ للعمل عنده.. يصير وجوده مهمّاً بالنسبة إليه، يصير جزءاً من ذاته، بطريقةٍ أو بأخرى..

ليس هذا فقط.. بل كثيرا ما يصير وجود المنافسين وسيلةً للتعلُّم، تراقبه، فتتعلَّم من أخطائه وهفواته، ومن مهاراته ودقَّته.. ويتعلَّم هو أيضاً منك.

في أحيانٍ نادرة، يتجاوز المتنافسون بالخير مسألة "السبق".. مسألة "مَن الأول".. يتجاوزون أشخاصهم وفرديَّتهم تماماً نحو أفقٍ أرقى..

نحو التكامل..

****

العلاقة بين أبي بكر وعمر كانت من هذا النوع..

التنافس في الخير الذي تحوَّل مع الوقت ليصير تكاملاً نادراً، نموذجاً إيجابيّاً لما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين شخصيَّتين قياديَّتين، فذَّتين.. تمتلك كلٌّ منهما من الفضائل "الشخصيَّة" والصفات "القياديَّة" ما يؤهِّلها ليجعل كلّاً منهما تتصوَّر أنَّها يمكن أن تنفرد.. وكان ذلك حقيقةً، كان يمكن لكلٍّ من أبي بكر وعمر أن يكون ناجحاً ومؤثراً،

@iAbubader

بمعزلٍ عن التكامل الذي حصل بينهما..

لكن، ولأنَّ كلّاً منهما كان استثنائيّاً على نحوٍ استثنائيٍّ، فإنّهما بالتدريج شعرا أنَّ تكاملهما معاً هو ما يكمّل كلّاً منهما فعلاً.. هو ما يحقّق أكبر النفع للقضية المشتركة التي آمنا بها معاً والتي جمعتهما ابتداءً..

تجاوزا الـ "أنا" تماماً.. نحو الـ "نحن".. في سبيل القضيّة..

الإسلام..

****

التنافس بين الشخصيّتين حقيقةٌ تاريخيّةٌ، وليست من قبيل التحليل..

(عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: « أمرنا رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أن نتصدَّق، ووافق ذلك منّي مالاً، فقلت: اليوم أسْبِقُ أبا بكر - إن سَبقتُه - قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكلِّ ما عندَه، فقال: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسولَه، قلت: لا أسبقه إلى شيءٍ أبداً»).[٨٤]
هذه حقيقةٌ.

لا أسبقه إلى شيءٍ أبداً.. آمن بها عمر، فلم تعد هاجساً أصلاً.. بل حقيقةً واقعةً..

سبقه أبو بكر بالإسلام، وبالقرب منه عليه الصلاة والسلام بكونه ثاني اثنين في الغار..

ولكنَّهما معاً، كانا يصيران "أفضل"، "أكمل".. ممّا لو كان كلٌّ منهما منفرداً..

اتَّضح هذا الموقف تماماً في وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام..

رباطة جأش أبي بكرٍ أعادت عمر إلى الواقع.. أخرجته من الصدمة.

وحسم عمر، فَصْلُ خطابه عبر بالأمر إلى برِّ الأمان.

تكاملا معاً، بتلقائيَّة العمل المنسجم المتجرِّد عن كلِّ هدفٍ إلا خدمة القضيَّة..

وكان تكاملهما معاً هو أفضل ما يمكن أن يحدث للأمّة في تلك الظروف..

---

٨٤ أخرجه أبو داود ١٦٧٨ والترمذي ٣٦٧٥ وحسنه الألباني

ولعلَّ هذا التكامل، هو ما جعله عليه الصلاة والسلام يحدِّدهما بالذات، أبا بكر وعمر، دوناً عن كلِّ الصحابة الكرام، ليكونا القدوة للصحابة أنفسهم..

(عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنِّي لا أدري ما بقائي فيكم، فاقتدوا باللَّذين من بعدي، وأشار إلى أبي بكر و عمر).[٨٥]

(وعن ابن مسعود: اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي أبي بكر وعمر).[٨٦]

تحديد هاتين الشخصيَّتين بالذَّات، على التنافس الكبير في الفضل بين الصحابة الكرام، لا يوحي بوجود فضلٍ كبيرٍ وميِّز لكلٍّ منهما فحسب، بل بوجود التكامل الذي يجعلهما معاً "نموذجاً" غنيّاً بالاقتداء والدرس والنهل منه..

هل نستغرب بعد ذلك أن تكون فترة خلافتهما معاً هي الأفضل في التاريخ الإسلاميّ؟

وأن يُقاس الجميع على مقياس **"سيرة الشيخين"**!

****

عندما نقارن بين المواصفات الشخصيَّة لكلٍّ من أبي بكر وعمر نرى فروقاً واضحةً بين الاثنين..

وهذا طبيعيٌّ، بل ومطلوبٌ، فلا يمكن أن نتخيَّل وجود قالبٍ واحدٍ للجميع في الجيل الأول..

لكلٍّ منهما فضله، ولكلٍّ منهما مكانته، لكن هناك غير السبق، شيءٌ ما في أبي بكر الصديق جعله يكون الأنسب ليكون "الخليفة الأول".

شيءٌ ما، غير فضل السبق في شخصيَّة أبي بكر مثَّل نقطةً إضافيَّةً جعلته الأنسب ليكون أوَّل من يخلف الرسول عليه الصلاة والسلام.. وما دمنا نتحدث عن عمر تحديداً في هذا السياق، فعلينا أن نقول: جعلته أنسب من عمر، العملاق، الذي يصعب تصوُّر وجود من هو أنسب منه في أيِّ مجالٍ!..

لكن تلك الصفة المميَّزة لأبي بكر جعلته يسبق عمر في هذا الاستحقاق أيضاً.

---

٨٥ الترمذي ٣٦٦٣ وصحَّحه الألباني
٨٦ السلسلة الصحيحة ١٢٣٣

ما هي هذه الصفة؟

كان أبو بكر **مديراً استثنائيّاً للأزمات!..**

كان يمتلك من الصفات ما يجعله قادراً على إدارة أيّة أزمةٍ، أيِّ ظرفٍ طارئٍ عاصفٍ..

فلنتذكّر أنّه كان أوّل من صدّق الرسول في دعوته.. أوّل من وقف معه في ذلك الظرف العصيب..

في الإسراء أيضاً.. وقف بلا تردُّدٍ ليعلن موقفه..

كما كان يعمد إلى شراء العبيد من المسلمين ممّن ينالون صنوف التعذيب والاضطهاد من قبل مشركي مكة.

فلنتذكّر موقفه في الحديبية.. يوم كرّر لعمر بالضبط ما قاله الرسول له..

ولا يمكن إلا أن نذكر موقفه في وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام..

إدارته للأزمة في كلِّ موقفٍ من هذه المواقف، يكشف عن صفةٍ قياديّةٍ بالغة الأهميّة.. هي الصفة التي يتفوّق بها على عمر تحديداً، بالإضافة إلى سبقه..

كان أبو بكر أكثر مَن يناسب مرحلة الأزمة..

ولم يكن هناك أزمةٌ أكثر من التي نشبت عند وفاة الرسول.. وبعدها.

****

هذه الصفة، **القيادة عند الأزمة**، هي ما جعلت أبا بكر هو الأنسب ليكون الخليفة الأول بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، **لأنّ المرحلة كلّها مرحلة أزمة..**

وهو ما سيتأكّد تماماً في موقف أبي بكر الصديق، من "الردّة".

(عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم منّي ماله ونفسه إلا بحقّه وحسابه على الله، فقال أبو بكر: والله لأقتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حقّ

@iAbubader

المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه. فقال عمر بن الخطاب: فو الله ما هو إلا رأيت الله عزَّ و جلَّ قد شرح صدر أبي بكرٍ للقتال فعرفت أنَّه الحق).[٨٧]

دوماً هناك استغرابٌ من هذا الموقف.

عمر هو من عُرِفتُ عنه الشدَّة والحزم.

وعُرف عن أبي بكر اللِّين والهدوء.

لكن ها هو الأمر يبدو هنا كما لو كان العكس.. أبو بكرٍ يصرّ على قتال مانعي الزكاة، وعمر يستغرب: لقد قالوا لا إله إلا الله..!

لكن هذا الاستغراب سيزول عندما ننتبه إلى أنَّ نقطة تفوُّق أبي بكر الأساسيَّة - في هذه المرحلة - كانت قدراته القياديَّة عند الأزمة..

وكانت الردَّة أزمةً كبيرةً تعصف بالدولة والمجتمع الإسلاميَّيْن، وبعد وقتٍ قصيرٍ من أزمة وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.. بل كانت أهمَّ وأخطر من وفاة الرسول، فالموت حقٌّ، أمَّا الردَّة فقد كان من الممكن أن تُستأصل شوكة المسلمين في وقتٍ شديد الحرج..

كان عمر قياديًّا حتماً.. ولعلَّه كان يتمتَّع بمواهب قيادةٍ في الأزمة وغيرها أكثر بكثيرٍ من سواه..

لكنَّ قيادة أبي بكر في الأزمة تحديداً، كانت هي الأكثر حكمةً.. والأكثر تأثيراً.. والأكثر حسماً..

رؤيته في الأزمة أوضح، يكون قادراً دوماً على الرؤية ببُعد نظرٍ يتجاوز غبار الأزمة وضبابها إلى نتائجها..

ولقد رأى في امتناع القبائل عن دفع الزكاة تمرُّداً على سلطة الدولة المركزيَّة كما على "الدين".. رأى في ذلك تحدِّياً لكلمة الشهادة التي عصموا دماءهم عبرها يوم خرجوا من شركهم أمام الرسول عليه الصلاة والسلام.. لكنَّ هذا وقتٌ مختلفٌ.. لقد خرجوا من الكفر إلى الإسلام، ولا سبيل للعودة.. لا سبيل إلى أن تكون "لا إله إلا الله" عاصمةً لدمائهم إذا ما هم خرقوا تقديم "الزكاة"..

رأى أبو بكر أنَّ هذا التمرُّد سيكون خرقاً متَّسعاً لا سبيل لرتقه لاحقاً ما لم يقاتل المرتدين وبحزمٍ..

.. وهكذا كان..

وكان عمر يتدرَّب..

وسيثبت لاحقاً أنَّه قد أفاد من التدريب إلى أقصى مدى..

---

٨٧ صحيح مسلم ٣٢

لعلَّ علاقة التكامل هذه بين الشيخين هي ترجمةٌ صادقةٌ لما رآه عليه الصلاة والسلام في منامه، ورؤيا الأنبياء حقٌّ..

(عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بَيْنَمَا أَنَا عَلَى بِئْرٍ أَنْزِعُ مِنْهَا جَاءَنِى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ الدَّلْوَ، فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ وَفِى نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ مِنْ يَدِ أَبِى بَكْرٍ، فَاسْتَحَالَتْ فِى يَدِهِ غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِى فَرِيَّهُ، فَنَزَعَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ).[88] [89]

الحديث واضحٌ في توزيع الفضل.

فضل السبق لأبي بكر.

لكنَّ فضل المنجزات الكثيرة وحجمها واتِّساعها سيكون لعمر.

وهذا ما حدث فعلاً.

وسيكون التاريخ مصداقاً لما رآه عليه الصلاة والسلام..

ستكون عبقريَّة عمر عاملاً في أن يفعل ما لم يفعله أحدٌ.. وينتج ما لم يسبقه به أحدٌ..

سينطلق من ذلك البئر.. بئر القرآن والسنَّة.. ويروي منه العالم أجمع..

لا.

بل سينطلق من البئر، ليغيِّر العالم..

كما لو كان هذا البئر منجماً للطاقة..

بل هو كذلك فعلاً.

المسألة فيمن يأخذ الدلو ويضعه فيه..

****

عمر في تكامله مع أبي بكرٍ - على ما يبدو - كان يمتلك القدرة على رؤية أزمةٍ ما قبل وقوعها..

ولقد شهدت فترة خلافة أبي بكر قدرة عمر العبقريَّة على رؤية أزمةٍ قادمةٍ، بمجرَّد أن نبتت بذورها الأولى..

ولولا عبقريَّته تلك، لولا قدرته على رؤية تلك الأزمة، وتصديه لها، وإقناعه لأبي بكر بالتصدِّي لها.. لاختلف كلُّ شيءٍ.. كلُّ شيءٍ..

---

[88] صحيح مسلم ٦٣٤٧ متفق عليه: صحيح البخاري ٣٦٧٦، ٣٦٣٣، ٣٦٨٢

[89] معاني الكلمات:
الذنوب: الدلو العظيمة وقيل لا تسمى كذلك إلا إذا كان فيها ماء.
الغرب: الدلو العظيمة التى تتَّخذ من جلد الثور.
يفري: يعمل عمله.
العطن: الضرب بعطن إذا رويت الإبل ثم بركت حول الماء والمراد اتِّساع الأمصار.

كلُّ تلاوةٍ نتلو القرآن بها اليوم يعود جزء من ثوابها وفضلها إلى عمر. يوم فعل ما يجب فعله. قبل أن يرى غيرُه الأزمةَ القادمة بزمنٍ بعيدٍ..

أزمة لا تمسُّ الدولة هذه المرة..

بل تمسُّ جوهر الدين.. تمسُّ المحرِّك الحضاريَّ لهذه الأمَّة..

القرآن.

****

(عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة. فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني فقال: إنَّ القتل قد استحر يوم اليمامة بقُرَّاء القرآن. وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثيرٌ من القرآن. وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ قال عمر هذا والله خيرٌ. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك. ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نتَّهمك. وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبَّع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلَّفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان أثقل عليَّ ممَّا أمرني به من جمع القرآن. قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله؟ قال: هو والله خيرٌ فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شَرِح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. فتتبَّعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال).[٩٠]

قبل كلِّ أحد. وقبل أن تحدث الأزمة حقاً. كان لعمر "بُعدُ النظر" اللازم لرؤية ما كان يتراكم في الأفق.. منذراً بتهديد الأمَّة في أعزِّ وأثمن ما تملك..

القرآن..

لا يتصوَّر أحدٌ أنَّ ذلك كان مجرَّد حرصٍ على القرآن بالمعنى المجرَّد.. كان عمر يدرك **أنَّ هذا القرآن هو قوَّة هذه الأمة.. هو محرِّكها وبوصلتها وشفاؤها من أمراضها الحضاريَّة والاجتماعيَّة وجهاز إنذارها المبكِّر. بل رئتها وقلبها النابض..**

كان عمر مدركاً أنَّ صنع الحضارة لا يمكن أن يحدث فيما لو مُسَّ حرفٌ واحدٌ. واحدٌ فقط من القرآن..

---

٩٠ صحيح البخاري ٤٦٧٩

لو مُسَّ حرفٌ واحدٌ منه فسيكون ذلك مطعناً فيه كلّه.. لذا لا تساهل.. ولو في حرفٍ واحدٍ.

هل سيقول أحدٌ إنَّ الله تعالى قد تكفَّل القرآن بالحفظ؟

بالتأكيد.

للّه عزَّ وجلَّ سننه في ذلك..

وكان ذلك العقل العمريُّ، العقل الذي يعمل بنظام تشغيلٍ قرآنيٍّ، والذي يمدُّ صاحبه بتلك الرؤية بعيدة المدى جزءاً من تلك السنن الإلهيَّة.

ما أحوجنا أن نستحضر ذلك الحوار بين أبي بكر وعمر أولاً، وبينهما وبين زيد بن ثابت ثانياً..

السؤال.. كيف نفعل شيئاً لم يفعله الرسول عليه الصلاة والسلام؟

والجواب: هو والله خير..

ما أحوجنا إلى أن نفرّق بين الوسائل المتغيّرة، وبين الأهداف الثابتة..

ما أحوجنا أن نميّز بين التكتيك وبين الإستراتيجيَّة..

بين الأدوات والغايات..

ذلك التمييز أداةٌ مهمَّةٌ جداً، لكلِّ صانع حضارةٍ.. وقد تمتَّع بها عمر وتفوَّق..

لولا ذلك، لكنَّا ربَّما لا نزال نقرأ القرآن في جريد النخيل..

إن كنَّا لا نزال مسلمين أصلاً.

منجزات أبي بكر في خلافته وقبلها مهمَّةٌ حتماً..

وليس هنا مجال تعدادها..

لكن علينا أن نزيدها واحدة، لا تقلُّ أبدا عن سواها..

إن لم تَفُقْها..

إنَّها توليته الخلافة لعمر بن الخطاب من بعده.

(عن الحسن قال: لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه جمع الناس إليه فقال لهم إنه قد نزل بى ما قد ترون ولا أظننى إلا لمماتى وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى وحل عنكم عقدى ورد عليكم أمركم فأمروا عليكم من أحببتم فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر أن لا تختلفوا بعدى فقاموا فى ذلك وخلوه تخلية فلم يستقم لهم فرجعوا إليه فقالوا رأينا لنا يا خليفة رسول الله رأيك قال فلعلكم تختلفون قالوا لا قال فعليكم عهد الله على الرضى قالوا نعم قال فأمهلونى أنظر لله ولدينه ولعباده فأرسل أبو بكر إلى عثمان فقال أشر على برجل فوالله إنك عندى لها لأهل وموضع فقال عمر فقال اكتب فكتب حتى انتهى إلى الاسم فغشى عليه فأفاق فقال اكتب عمر!).[٩١]

اكتب عمر!..

اكتب عمر!..

وصل إلى الاسم.. ثمَّ أغشي عليه.. في لا وعيه، وهو يصارع الألم والوجع، تذكَّر أنَّه لم يكتب الاسم.. لم يكتب "عمر".

أفاق ليقول: اكتب عمر!

كلمتان ستكونان في ميزان أبي بكر.. ستكونان من أهمِّ منجزاته.

اكتب عمر..

وعمر سيكتب الباقي..

سيكتب تاريخ العالم، من جديدٍ.

****

(قالت عَائِشَةُ أُمُّ المُؤمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنها : لمَّا ثَقُلَ أَبِى دخَلَ عَلَيهِ فُلانٌ وفُلانٌ فَقَالُوا : يا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ مَاذَا تَقُولُ لِرَبِّكَ غَدًا إِذَا قَدِمتَ عَلَيهِ وقَدِ استَخلَفتَ عَلَينَا ابنَ الخَطَّابِ؟ قالَت فَأَجلَسنَاه فَقَالَ : أَبِاللَّهِ تُرهِبُونِى أَقُولُ استَخلَفتُ عَلَيهِم خَيرَهُم).[٩٢]

---

٩١ جامع الأحاديث: مسند أبي بكر٢٧٨٨٣
٩٢ البيهقي١٧٠١٧

(لما حضرت أبا بكر الوفاة أرسل إلى عمر ليستخلفه قال فقال الناس أتستخلف علينا فظا غليظا فلو ملكنا كان أفظ وأغلظ ماذا تقول لربك إذا أتيته وقد استخلفته علينا قال تخوفوني بربي أقول اللهم أمرت عليهم خير أهلك).[٩٣]

عاتبه البعض على اختياره.

وكانوا يقصدون شدَّة عمر التي لن ينكرها عمر شخصيًّاً..

أمَّا أبو بكر، مدير الأزمات والنوازل..

فقد كان يعرف أنَّ إرضاء الجميع مستحيلٌ..

وأنَّ ما يتخوَّفون منه، هو بالضبط ما تحتاجه الأمّة في مرحلتها القادمة..

لذا لا يخِفونه بشيءٍ.

كان سيقول لربِّه بحسمٍ من يعرف.

استخلفت عليهم خيرهم..

وسيعرف الجميع لاحقاً، أنَّ من عدّه البعض فظًّاً غليظاً، سيكون الأعدل بين كلِّ مَن حكم عبر التاريخ.

اكتب عمر..

واكتب أيُّها التاريخ، ما سيكتبه عمر..

---

٩٣ مصنف ابن أبي شيبة ٣٢٠١٣

@iAbubader

أبو العيال!

أغلب القادة والرؤساء، يفتتحون عهودهم بالوعود المعسولة التي تبشّر الناس بالرَّخاء والرفاهية.. تقول لهم: إنَّ الخير القادم لم يأتِ قبل، ولن يأتي بعد، وتجعل لهم من البحر بركة سباحةٍ سهلة العبور..

عبر التاريخ، كان بذل الوعود والعهود في البداية من قبل القادة هو النموذج الأكثر شيوعاً..

وعبر التاريخ، كان عدم تحقُّق شيءٍ من تلك الوعود هو الأكثر شيوعاً أيضاً..

القادة يكذبون؟

نعم، غالباً.. إلاَّ من رحم الله، أغلب الخطب السياسيَّة تكون تصريف كلامٍ.. تكون تدعيماً لشعبيَّةٍ يحتاجها هذا الزعيم ويعتقد - محقّاً على الأغلب - أنَّه يستطيع كسبها عبر مواهب الخطابة وسحر الكلام..

ورغم كلِّ مطبَّات التاريخ التي أثبتت كذب أغلب هذه الخطب على فصاحتها وبلاغتها وبيانها، فقد استمرَّت الجماهير بالتصديق.. كما لو أنَّها تريد أن تصدِّق فحسب.. كما لو أنَّها ترى قشرة الموز من بعيد، وتعلم أنَّها ستنزلق بسببها، لكنَّها لا تكفُّ ولا تحذر من ذلك.

الجماهير، أو نسبةٌ كبيرةٌ منها على الأقلّ، تشرب "المقلب" في بداية كلِّ عهدٍ تقول: هذه المرَّة يبدو صادقاً.. هذه المرَّة مختلفٌ.. هذه المرَّة "لدينا إحساسٌ مختلفٌ"..

وفي كلِّ مرَّةٍ يخيب أملهم.

الكذب جزءٌ من "عدَّة المهنة" للسَّاسة والسِّياسيين.. هم لا يسمُّونه كذباً.. يسمُّونه أشياء مختلفةً جدَّاً.. لكنَّ النتيجة التي يشعر بها الجمهور في نهاية الأمر، وفي نهاية عهد هذا السياسيِّ تحديداً، هي أنَّه خُدِع.. وأنَّه شرب المقلب يوم صدَّقه.

السَّاسة يفعلون ذلك.. يقدِّمون وعوداً كاذبةً بالرخاء، يتحدَّثون عن دروبٍ معبَّدةٍ بالورود.. عن لبن عصفورٍ مغلَّفٍ بورق سوليفان.

@iAbubader

أمَّا بناة النهضة الحقيقيّون، فهم لا يفعلون ذلك.
أبداً.

بناة النهضة يدركون أنَّ الحضارة دربها طويلٌ، وشاقٌّ، ووعرٌ، يدركون أنَّ على الشعب أن يضحِّي أولاً قبل أن ينال مكتسبات الحضارة، وأنَّ القفز على المراحل، وبذل الوعود سيضرُّ درب الحضارة، ولن ينفع لأنَّه سيخدع الناس.. سيسوق لهم حلماً بعيداً عن الواقع، وقد يحبطون ويثبطون عندما يرون وعورة الطريق.
بناة النهضة الحقيقيُّون ليس لديهم ترف "اللَّفِّ والدوران".. ليس لديهم هذا الخيار أصلاً.. فالدرب لا يتحمَّل أن تلفَّ وتدور.. صراط الحضارة مستقيمٌ، وعليك أن تكون مستقيماً معه ومستقيماً عليه.. ومستقيماً مع من يتبعك من الجماهير.
بناة النهضة يقولون لأتباعهم عن صعوبة الطريق، عن وعورته، عن أنَّ الثمار لن يحين موسم حصادها إلاَّ لاحقاً، وربَّما لن يشارك في الحصاد كثيرون ممَّن بدؤوا الرحلة.
بناة النهضة يربطون مشروعهم بوعي الجماهير، بإدراكها لصعوبة الطريق ووعورته.. يربطون الطريق بغاياتٍ عليا، بآخرةٍ يُجزَون فيها على ما بذلوه في صنعها، بحضارةٍ يجزيهم مجرَّد التفكير أنَّهم ساهموا في صنعها.
السَّاسة يجمعون الناس حولهم من أجل أصواتٍ في موسمٍ انتخابيٍّ قادمٍ، أو بعض التهليل والدعم، أو للوجاهة.
لكن، بناة النهضة، يصنعون الإنسان أولاً..
يصنعونه أولاً بصدقهم معه.

****

فلنحاول أن ننسى كلَّ ما تعوَّدناه من خطب السَّاسة، فلننسَ كلام الجرائد، والخيبة المريرة التي جعلت الكثيرين منَّا أصلاً يكفُّون عن متابعة كلِّ شيءٍ.
فلنحاول أن ننسى كلَّ ذلك الآن..
نحن الآن في السنة ١٣ هجريَّة.. نحن لا نعرف ذلك بعد، فالتقويم الهجريُّ لم يكن قد استُخدم إلاَّ بعدما تولَّى عمر الخلافة.. لكن مضت سنتان و٣ أشهر على وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتُوفِّي للتوِّ أبو بكر الصديق، وصَّى أبو بكر بالخلافة لعمر في كتابٍ مختومٍ.. بعدما استشار في الأمر كبار الصحابة.
وها هو عمر يعتلي المنبر.
يقف أوَّلاً على الدرجة التي وقف عليها أبو بكر، ثمَّ كأنَّه قرَّر أنَّه لا يستحقُّها.
ينزل درجةً واحدةً، ثمَّ يبدأ خطبته..

(... أما بعد فإنّي ابتُليت بكم، وابتُليتم بي، فمن كان بحضرتنا باشرنا، ومهما غاب عنّا ولّيناه أهل القوّة والأمانة، فمن يحسن نزده حسنى، ومن يسئ نعاقبه...).

المنصب سيكون امتحاناً إذاً.. للطرفين.. لهم وله..
سيكون "هو" امتحاناً لهم..
وسيكونون **"هم"** امتحاناً له..
وبين هذا وذاك، بين طرفي الامتحان، سيكون كلُّ ما في هذه الدنيا من أحداثٍ امتحاناً لهما معاً.. للراعي والرعيَّة..
القوّة والأمانة هي مقياس التولية..
ومَن يُحسن نزده حسنه ومَن يُسِئ فسيُعاقب..

(... ثم قال: بلغني أنَّ الناس قد هابوا شدّتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشدِّد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فكيف الآن وقد صارت الأمور إليه؟!).

ها هو يتحدَّث بمخاوف الناس وهواجسهم.. يعلم ما يسرّون به فيما بينهم.. لأنّه ليس بعيداً عنهم.
هل سيُطمئنهم؟ هل سيكذِّب مخاوفهم؟ هل سيقول: إنَّ ما وصلهم عنه كان مجرَّد سوء فهمٍ ومؤامراتٍ عالميَّة هدفها التشويش عليه وتشويه سمعته والنيل من مكانته؟ هل سيعدهم بأنَّه سيتغيَّر؟ بأنَّه سيلين؟!

(... ولعمري من قال ذلك فقد صدق، كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله، وهو راضٍ عنّي ولله الحمد، وأنا أسعد الناس بذلك، ثمَّ ولّي أبو بكر، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدّتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى - وهو عني راضٍ، ولله الحمد، وأنا أسعد الناس بذلك، ثم إنّي ولِّيت الآن أموركم، اعلموا أنَّ تلك الشدَّة قد تضاعفت).

ببساطة.. كلُّ ما تتداولونه وتتناقلونه عنّي ليس صحيحاً فحسب.. بل هو صحيحٌ، وأنا متمسِّكٌ به، بل أعدكم بما هو أكثر إن شاء الله!
شدَّتي ستتضاعف!
(... ولكنَّها إنّما تكون على أهل الظلم والتعدّي على المسلمين، وأمّا أهل السلامة في الدِّين والقصد فإنّما اللِّين لهم من بعضهم لبعض).

@iAbubader

شدَّتي لم تكن يوماً إلا بالحقِّ، فالحقُّ أحقُّ أن تكون شديداً فيه، واللِّين في الحقِّ ضعفٌ وخوار..
لِمَ ستتضاعف شدَّته إذاً؟
لِمَ يبشِّرهم بذلك بتضاعف شدَّته بدلاً من أن يُطمئنهم على الأقلِّ ببقائها على حالها؟..
ببساطةٍ لأنَّ المرحلة القادمة ستتطلَّب عملاً أكبر، وبالتالي شدةً أكبر.. كلَّما زاد العمل، وجب أن يزيد الحسم والحزم والشدَّة.. وجب أن يزيد الانضباط، ويزيد الالتزام.. ويزيد عمر في عمريَّته!

(... ولست أدع أحداً يظلمه أحدٌ أو يتعدَّى عليه حتى أضع خدَّه بالأرض، وأضع قدمي على الخدِّ الآخر حتى يذعن للحقِّ).

هذا أنا بكلِّ بساطةٍ.. أقولها بلا لفٍّ أو دوران، فليس لديَّ ما أخفيه.. أقول لكم ما سأفعله للظالم فيكم: أضع خدَّه على الأرض، وأضع قدمي على الخدِّ الآخر.
هل أزعجكم المشهد؟
لن يُزعجكم إلاَّ إن تخيَّلتم أنفسكم وخدُّكم على الأرض والخدُّ الآخر تحت قدمي، ولن يحدث ذلك إلاَّ إن كنتم ظالمين.
يزعجكم أن تكونوا في هذا الموضع، تحت قدمي؟
إذن لا تظلموا أحداً.. وأذعنوا للحقِّ.. قبل أن تُجبركم قدمي على الإذعان.
قد يزيد انزعاج البعض ممَّن يعتقدون أنَّ هذا الأسلوب غير مناسبٍ للعصر.
هم ببساطةٍ مخطئون.. لا يوجد سلوكٌ عامٌّ منضبطٌ في العالم يُمكن أن يترسَّخ دون "هيبة القانون" و"سلطة العقوبة" - ولو التلويح بها.
يمكن أن يقتنع أفرادٌ بالسلوك المنضبط.. نسبةٌ معيَّنةٌ من الناس.. لكن لكي يتحوَّل هذا السلوك المنضبط إلى ظاهرةٍ عامَّةٍ، لا بدَّ من "سلطة القانون".. لا بدَّ من قوَّته.. لا بدَّ من التلويح بالعقوبة..
في البداية، سيكون التلويح بالعقوبة ضروريَّاً، وأساسيَّاً، مع الوقت وخاصَّةً عندما يظهر للجميع أنَّ من يدعو لهذا السلوك ملتزمٌ به أيضاً، فإنَّ هذا السلوك سيصير عُرفاً اجتماعيَّاً، وسيمارس المجتمع سلطته التي لن تكون أقلَّ تأثيراً من سلطة العقوبة.
كلُّ من يحاول إنكار هذا أو تجاوزه.. كلُّ من يقول إنَّ شعوب العالم تلتزم بسلوكٍ ما دون رقابةٍ قانونيَّةٍ هو واحدٌ من اثنين:

إمَّا أنَّه يجهل أنَّ هذا السلوك في تلك المجتمعات قد مرَّ بمراحل تطوريَّة، كان الالتزام بالقانون والخوف من عقوبته في البداية، أمراً أساسيَّاً..
أو أنَّه يعرف ويتجاهل، لأنَّه يريد "استيراد" ثمار حضارةٍ أخرى، دون أن يساهم في غراس حضارته هو..

(... ولكم عليَّ أيُّها الناس خصالٌ أذكرها لكم فخذوني بها...).

خذوني بها، حاسبوني عليها، لا تحاسبوني على "توقعاتكم".. لا تحاسبوني على ما تريدونه منِّي أن أكون، بل على ما أعاهدكم عليه الآن..

(... لكم عليَّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم، ولا ممّا أفاء الله عليكم إلا في وجهه، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقِّه، ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى وأسُدّ ثغوركم...).
يحدِّد عمر هنا معياراً مهمَّاً للثقة بين الشعوب وأنظمة الحكم..
كلُّ الشعوب، باختلاف الأعراق والألوان، وباختلاف الحضارات والقيم، يمكن أن تغفر لحكَّامها وأنظمة حكمها الكثير من الأخطاء وحتى الكثير من المظالم..
لكن، النزاهة الماليَّة، نظافة كفِّ الحاكم ومن حوله، هي من الخطوط الحمراء للشعوب..
أن يكون هناك فقرٌ وجوعٌ، ويكون الحاكم متقشِّفاً، أمر يحتمله الناس.
لكن أن يكون هناك فقرٌ وجوعٌ، ويكون الحاكم وبطانته وآله مسرفين متنعِّمين، فهذا ما لا يحتمله الناس.
ليس الناس فقط، فهذا خطٌّ أحمر للشرع أيضا بطبيعة الحال..
لكنَّه "خطٌّ أحمر" آخر بالنسبة للشرع.. من ضمن خطوطٍ أخرى..
أمَّا الناس، فهذا الخطُّ الأحمر هو خطُّهم الأول جدَّاً.. بمسافةٍ بعيدةٍ عن الخطوط الأخرى، خاصَّةً عندما تكون عدساتهم لم تُضبَط بحسب الشريعة..
والجملة الأخيرة، في كون هذا المال لن يخرج منه إلا بحقِّه، تحدِّد صلاحيَّات "الحاكم" في الإنفاق، فهو مضطرٌّ لتسخير المال للناس، أو للدفاع عنهم في تقوية الجيش والدولة..
(... ولكم عليّ ألا ألقيكم في المهالك، ولا أجمركم في ثغوركم...).
وهو يتعهَّد لهم أن لا يزجَّ بهم في حروبٍ خاسرةٍ، وأيضاً لا يزجَّ بهم في ترفٍ مهلكٍ وكسلٍ قاتلٍ، فالمجتمعات لا تهلك فقط في مشاريع حروبٍ خاسرةٍ، تحرق الأخضر واليابس، بل في مشاريع الترف القاتل، التي تنتهي بحرق الأخضر واليابس أيضاً..
وهو يتعهَّد بأن لا يجمعهم في الثغور لفترةٍ طويلةٍ تبعدهم عن أسرهم وعوائلهم،

فيبيِّن هنا مقدار بُعد نظره الاجتماعيِّ- الحضاريِّ، وحرصه على تماسك الأسرة - الثغر الداخليِّ، كما حرصه على الثغر الخارجيِّ.. يبيِّن لنا في هذه الكلمة فهمه العميق للحضارة التي لا يمكن أن تكون في عزٍّ ومنعةٍ - مهما تطاولت وتناطحت أبراجها - إن كانت البنية الاجتماعيَّة ممزَّقةً أو معرَّضةً للتمزُّق..

(... فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفِّها عنِّي، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم...).

تقوى الله لا معيار دنيويّاً لها.. لا يُمكن لعمر أن يقيسها ويكيلها، فعلمها عند الله وحده، لكن يمكن لعمر أن يطلب منهم أن يعينوه على "أنفسهم".. وعلى "نفسه".. على أنفسهم بأن لا يجعلوه مضطرّاً لوضع قدمه على خدِّ أيٍّ منهم.. بأن لا يظلموا.. وعلى نفسه بأن يلتزموا بأمره بالمعروف.. انتبهوا لكلمة "أمر" هنا، أن يأمروه هو، أميرهم، وأن ينكروا عليه، وأن ينصحوه في هذا الابتلاء الذي ابتلي به..

(... فخذوا مني ما أعطيكم، وأعطوني ما أسألكم، إنِّي آخذكم بالحقِّ غير معتدٍ به، وأعطيكم الحقَّ غير قاصرٍ عنه، كتاب الله وسنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم بيني وبينكم، لا يسألنَّ أحدٌ غير ذلك، ولا يطمعنَّ فيه عندي...).

هذا ما عندي، وهذا ما ألتزم به، هذه مرجعيَّتي، وهي غير قابلةٍ للتغيير.. إنها مرجعيَّة كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فكيف أغيِّرها بسواها، مهما كانت مبهرةً بالدعايات والشعارات؟..

****

ثم إنَّه قال شيئاً مبهراً، فضَّلت أن أؤخره..

(... وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم...

إذا تأخَّرتم في جهادكم ومشاريعكم، وتركتم خلفكم أسركم وأولادكم، فأنا "أبو العيال".. حتى تعودوا...).

أبو العيال!..

تخيَّلوا..

ابن الخطاب، أبو العيال..

رغم كلِّ شدَّته.. هو أيضاً في منتهى الشدَّة في الرَّحمة.. إنَّه "أبو العيال" في حنانه على رعيَّته.. ربَّما لم تكن الكلمة وقتها صادمةً كما هي اليوم، لأنَّ من كان يستمع

إلى الخطبة مرَّ عليه الرسول عليه الصلاة والسلام، وأبو بكر.. وقد كانا بطريقةٍ ما نموذجين لأبي العيال وإن لم يستخدما المفردة..

لكن نحن!..

أيُّ جرحٍ تثير فينا الكلمة..

نحن الذين هُدِّدنا بعيالنا.. نحن الذين طالما شدَّتنا عيالنا ومسؤوليتهم نحو التقاعس.. نحو عدم العمل خوفاً من أن يفقدوا "أباهم".. نحن الذين عرفنا أنظمةً كانت كزوجة الأب.

أيُّ شجونٍ تثير فينا كلمة عمر هذه، "أبو العيال"..

آه يا أبا العيال..

كيف يمكن لمن يعرف سيرتك ونموذجك أن يفكِّر في البحث عن نموذجٍ آخر للحكم؟!..

كيف يمكن لنا أن نبحث عند الإغريق أو الغرب أو الشرق أو الجنِّ الأزرق، ونترك ما عندك يا أبا العيال، يا من وُلدت في القرآن، وتربَّيت على يد محمَّد، ثم تخرَّجت لتقدِّم أعظم نموذجٍ تطبيقيٍّ لأعظم وأكمل عقيدةٍ عرفتها البشريَّة..

أبو العيال.. لو تعرف ما الذي حدث لعيالك..

****

ثم قال عمر:

(... أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.
ونزل...).[٩٤]

نزل عن المنبر؟

بل نزل إلى الواقع، ليطبِّق ما قال.. ليجعل الأرض مصداقاً لكلامه.

البعض يقول كلاماً في منتهى الروعة على المنابر... كلاماً عيبه الوحيد أنَّهم لا ينزلونه معهم إلى الواقع..

لكنَّ عمر، أبا العيال، يأخذ معه ما قال، ينزل به إلى الواقع العمليِّ، ليطبِّقه، فيزيده التطبيق روعةً وبهاءً..

ليس هذا فقط، بل هو يحرص على أن يكون التطبيق "مؤسساتيّاً"، أي من خلال مؤسَّسات كي لا ينفكَّ كلُّ شيءٍ، بمجرَّد أن يذهب الفرد..

---

٩٤ الخطبة مجموعة من "سمط النجوم العوالي، حياة الحيوان الكبرى للدميري، نثر الدرّ، كنز العمال

كلُّ ما سيفعله عمر لاحقاً، سيتثبت هذا..

نزل عن المنبر..

إلى الواقع..

نزل، لترتفع الحضارة.

كانت هذه الخطبة، هي "الموجز"..

كلُّ ما فعله عمر، لاحقاً، طيلة مدَّة خلافته.. هو التفاصيل.

عزل خالد: نهاية البطل "الأوحد"

العمل هو المحكُّ الأهمُّ وربَّما الوحيد، لصحَّة أيَّة نظريةٍ أو مشروعٍ..

كان عمر مدركاً لذلك، وكان يريد من ابتلائه بالخلافة أن يتعزَّز بالعمل..

كان يريد أن يجعل العمل مشروعاً جماعيَّاً يشارك فيه الجميع..

كان قد أدرك ببُعد نظره، وقدرته على استشعار الأزمة قبل وقوعها، أنَّ المحافظة على منجز الاستقرار الذي حقَّقه أبو بكر، بقضائه على تمرُّد قبائل الردَّة، **أمرٌ صعبٌ ما لم تنغمس الأمَّة كلُّها بمشروع كبيرٍ، مشروعٍ يستغرق منها جهدها، مشروع يؤسِّس لهذه الأمَّة هويتها، يصبُّ مكوناتها داخل هذا المشروع، ويجعلها تجدُ نفسها فيه..**

إنهَّا السَّنة ١٣ هجريَّة..

والأمَّة لم تعد تقتصر على ذلك الجيل الذي نال الرِّضا والرّضوان، وبايع الرسول عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة..

لقد اتَّسعت الأمَّة.. دخلت في الدِّين قبائل جديدةٌ لم تعرف الدِّين حقَّاً.. وكبر جيلٌ كان صغيراً جدَّاً عشيَّة وفاة الرسول.. صار شابَّاً في ذروة عطائه وعنفوانه..

صحيحٌ أنَّ الجيل الأول، **جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار كان لا يزال يتمتَّع بمركزيَّةٍ مهيمنةٍ، لكنَّ عمر كان يدرك أنَّ ذلك كان مسألة وقت**، وخير ما يجب أن تتربَّى عليه الأجيال الجديدة الشابَّة، هو انهماكها في **مشروع عملٍ جماعيٍّ يجسِّد قيم الإسلام، ويصهرهم فيها**، ويجعلهم يتشرَّبون الإسلام بينما هم يعملون لأجله.. ويبنون حضارته في الوقت نفسه.

@iAbubader

لأجل كلِّ هذا، كان أوَّل ما أمر به عمر بعد تولِّيه الخلافة، هو عزل خالد بن الوليد.. وتولية أبي عبيدة بن الجراح محلَّه..

كيف؟

كيف؟! لأجل هذا..

ما علاقة هذا بذاك؟

كيف يعزل خالد بن الوليد وهو سيف الله المسلول؟

وكيف يكون هذا أوَّل ما قام به عمر!..

وكيف نقول هذا كما لو كان منجزاً نفخر به!..

هل يجب أن نداريه إذاً؟

على الإطلاق... لو نظرنا إلى الأمور ببُعد نظرٍ..

بالمنظار العمريِّ.

****

لخالد بن الوليد فضله ومكانته بلا شكٍّ.

لسنا بصدد إيراد مناقبه ومنجزاته.

لكن يجب أن نحدِّد أنْ لا عصمة لأحدٍ في الإسلام.

لا لخالدٍ، ولا لعمر..

ليس هذا فقط..

بل إنَّه ليس هناك شخصٌ - مهما علت مكانته، ومهما قدَّم من منجزاتٍ - فوق القانون!

هل هذا أمرٌ يجب أن نخجل منه؟

على العكس.

هو ممَّا يجب أن نفخر به.

أن نتحدّى به كلّ ما يقولونه عن سيادة القانون والشفافيّة في التجارب الحضاريّة الأخرى، لدينا مثلٌ أهمٌّ من ذلك، عن قائدٍ عسكريٍّ عظيمٍ عُزِل في عزِّ انتصاراته، لأنَّ الخليفة رأى أنَّه أصبح من شدَّة انتصاراته فوق القانون، أو يكاد يكون كذلك لو استمرَّ الأمر على هذا المنوال..

ولا ينبغي لأحدٍ مهما كان، ومهما كانت منجزاته أن يكون فوق القانون..

****

ما الذي فعله خالدٌ بالضبط، كي يرى عمر هذا الأمر؟

كتب كُتَّاب التاريخ والسِّير الكثير عن ذلك.. من أهمِّ ما ذكروه يتعلَّق بأنَّ خالداً كان مستقلاً بقراراته في توزيع الغنائم عن الخليفة..

(... لما كان ينفق من أموال الغنائم دون الرجوع إلى الخليفة، كما روى الزبير بن بكار قال: «كان خالدٌ إذا صار إليه المال قسَّمه في أهل الغنائم، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً، وكان فيه تَقَدُّمٌ على أبي بكر، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر.. ونقل الزبير بن بكَّار عن مالك بن أنس قوله: «قال عمر لأبي بكر: اكتب إلى خالدٍ لا يعطي شيئاً إلا بأمرك، فكتب إليه بذلك، فأجابه خالد: إمَّا أن تدعني وعملي، وإلا فشأنك بعملك، فأشار عليه عمر بعزله، فقال أبو بكر: فمن يجزئ عني جزاء خالد؟ قال عمر: أنا، قال: فأنت، فتجهَّز عمر حتى أنيخ الظهر في الدار، فمشى أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي بكر فقالوا: ما شأن عمر يخرج وأنت محتاجٌ إليه؟ وما بالك عزلت خالداً وقد كفاك؟ قال: فما أصنع؟ قالوا: تعزم على عمر فيقيم، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله، ففعل، فلمَّا تولى عمر كتب إلى خالد أن لا تعطِ شاة ولا بعيراً إلا بأمري، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبي بكر، فقال عمر: ما صدقتُ اللهَ إن كنت أشرت على أبي بكر بأمرٍ فلم أنفذه، فعزله، ثم كان يدعوه إلى أن يعمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما يشاء، فيأبى عمر)[٩٥]

ويؤيِّد ذلك ما نُقل عن عمر من قوله: (إني ما عتبت على خالد إلا في تقدُّمه، وما كان يصنع في المال)[٩٦]

٩٥ الإصابة في تمييز الصحابة ج٢ ص ٢٥٥ ذكر من اسمه خالد
٩٦ تاريخ دمشق ابن عساكر ج١٦ ص ٢٧٤

ويؤيِّده ما رواه الإمام أحمد بسندٍ جيِّدٍ، أنَّ عمر - رضي الله عنه – اعتذر من الناس في الجابية فقال: **(وإنِّي أعتذر إليكم من خالد بن الوليد: إنِّي أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفَة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللَّسَانة، فنزعته وأمَّرت أبا عبيدة).**[٩٧]

هذه الآثار لا تدلُّ على عدم نزاهة خالد، فلا يوجد أثرٌ واحدٌ فيها يدلُّ على أنَّه كان يتصرف في الأموال لصالحه الشخصيِّ، لكن من الواضح أنَّه كان **يتصرَّف بها بحسب ما يراه مناسباً، دون الرجوع إلى الخليفة، وهو ما كان لا يتَّفق مع نظرة عمر لدولة الخلافة التي يراها مركزيَّةً منظَّمةً بقانونٍ واضحٍ ومعايير موحَّدة.**

عمر كان يرى أنَّ الحضارة لا يمكن أن تُصنع إلا بفصل الخطاب، تعدُّديَّة الخطابات، خاصَّةً في الفترة المبكِّرة - فترة التأسيس - لن يكون صحيّاً للحضارة الناشئة.

السبب الثاني الذي تحدَّث عنه كُتَّاب السِّير **أنَّ عمر عزل خالداً - رضي الله عنهما - خشية افتتان الناس به ؛ فإن خالداً - رضي الله عنه - ما هُزم له جيشٌ لا في الجاهليَّة ولا فيالإسلام، وقد جمع الله تعالى له بين الشَّجاعة والقوَّة والرَّأي والمكيدة في الحرب، وحُسن التخطيط والتدبير والعمل فيها، وقلَّ أن تجتمع هذه الصفات في شخصٍ واحدٍ.**

(عن عدي بن سهل أنَّ عمر - رضي الله عنه - كتب في الأمصار: إنِّي لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة، ولكنَّ الناس فُتنوا به، فأحببت أن يعلموا أنَّ الله هو الصانع).[٩٨]
(قال عمر: لأنزعن خالدا ولأنزعن المثنى حتى يعلما أن الله ينصر دينه، ليس إياهما).[٩٩]
(قول ابن عون عن ابن سيرين: ولي عمر فقال: لأنزعنَّ خالداً حتى يعلم أن الله تعالى إنَّما ينصر دينه. يعني بغير خالد).[١٠٠]

****

موضوع افتتان الناس بخالدٍ **يقرِّبنا أكثر من مشروع الفتح العمريِّ..** يجعلنا نفهمه أكثر..

كان لخالدٍ فضله ومنجزاته التي رأى عمر - محقَّاً - أنَّها لا تضعه فوق القانون..

وكان له أيضاً بعض المواقف التي جعلت عمر يرى الأزمة قادمةً، كالعادة يراها قبل أن تحدث..

٩٧ مسند أحمد – حديث أبي عمرو بن حفص ١٥٩٤٦
٩٨ كنز العمال ٣٧٠١٩
٩٩ مصنف ابن أبي شيبة ٣٣٨٤٢
١٠٠ تاريخ دمشق ج ١٦ ص ١٢٦٢ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ١ ص ٢٣٩

كان خالدٌ يميل إلى **الاستقلاليّة في القرار** كما رأينا في موضوع الأموال.

وكان خالدٌ كبيراً.. في المكانة.. كبيراً في الشّرف والفضل..

حجم المكانة المتزايدة لخالد، **مع الميل إلى الاستقلال في القرار عن الخليفة**، كانت تنذر بخطرٍ محدقٍ في الدرب الذي يرى عمر أن تسير الأمّة فيه.. درب الحضارة.

كان يمكن لذلك أن يكون **نموذجاً جاذباً** لسواه، ليقلّده، ويحتذي حذوه، **فينفرط عقد** الدولة وهي لا تزال فتيّةً..

رأى عمر ذلك قادماً، ففضّل أن يوقفه عند حدّه..

وعندما يحدث هذا مع خالد، وهو خالد!، فهذا جديرٌ بأن يوقف كلَّ من دونه..

إنّها سلطة الدولة المركزيّة..لا تضعف عندما تتّسع الدولة، بل تقوى.. يزيد المركز قوّةً وجذباً...

هكذا رأى عمر الأمر.

وهكذا كان..

****

افتتان الناس بخالدٍ، كان يمتلك جانباً سلبيّاً آخر يتعارض تماماً مع الفكر العمريِّ ورؤيته للحضارة التي يجب أن تقوم..

خالد بن الوليد لم يُهزم لا في جاهليّة ولا في إسلام، وقد مرَّ **كيف كان ذلك يجعل الناس يقرنون بين «شخص» خالد، وبين النصر، وليس بين الله وسننه، وبين النصر..**

وهو أمرٌ يتناقض مباشرةً مع العقيدة الإسلاميّة في النصر..

لكن هناك جانبا آخر، في هذا..

هذا الجانب يتناقض مع العقيدة الإسلاميّة في إمكانات البشر، في امتلاكهم لقدراتٍ يجهلون وجودها فيهم.. في كون كلٍّ منهم يحوي «منجماً».. يحوي من الثروات والطاقات ما لا يتخيّلون وجوده..

@iAbubader

وجود قائدٍ عسكريٍّ ملهمٍ ومهيمنٍ على هذا النحو، كان يعطّل «اكتشاف» هذا المنجم.. كان يعطّل ظهور قياداتٍ جديدة.. لم يكن لأحدٍ أن يبرز في ظلّ وجود خالدٍ، كانت انتصارات خالدٍ ومنجزاته تشكّل عائقاً أمام بروز صفٍّ جديدٍ من القيادات..

كان خالدٌ وقتها قد اقترب من الخمسين في العمر، وقد بلغ من الانتصارات ما لا يمكن أن يضيف إلى رصيده الكثير..

ورأى عمر أنّ الدّولة المتّسعة من كلّ الجهات والجبهات المفتوحة أصلاً، والتي لم يكن ينوي إغلاقها قريباً، بل توسعتها، كانت تحتاج إلى بروز طاقاتٍ جديدةٍ، طاقاتٍ كانت قد بقيت مهاراتها في الظلّ بوجود خالد..

كان يريد من الناس أن يفهموا على نحوٍ عمليٍّ، لا نظريٍّ، **أنّهم يمتلكون طاقاتٍ كامنةً، ربّما كان خالدٌ قائداً استثنائيّاً وبمواهب متفوّقة، لكنّ عمر كان يريد أن يصنع مجموعةً من القادة المهمّين، لا قائداً واحداً شديد الأهميّة..**

كان يرى أنّ **مجموعةً من القادة اللمّاحين موزّعي الأدوار، أهمّ وأكثر جدوى من الإبقاء على قائدٍ «عبقريٍّ» واحدٍ..**

مهما كان عبقريّاً.

****

ثلاثة جوانب في قرار عمر بعزل خالدٍ، وفي جعل هذا القرار أوّل ما صدر من قرارات..

أوّلها، لا أحد فوق القانون..

ثانيها، السُّلطة المركزيّة للدولة فوق الجميع، مهما كانت منجزات هذا الجميع في أقاليم بعيدة متمددة..

ثالثها، أن يفسح هذا العزل المجال لطاقاتٍ جديدةٍ شابة للبروز..

قرار عزل خالد إذاً، كان من أجل أمورٍ في صلب مشروع الفتح الذي أراد عمر أن يفتح أبوابه للجميع.. لا يتركه حكراً على أحدٍ، ولا يسمح لأحدٍ أن يشتّته عن المركز.. أو يجعل منجزاته فوق قوانين هذا الفتح.

@iAbubader

هل حسب عمر حساب المتصيِّدين في الماء العكر، ممَّن سيؤلِّفون القصص والراويات عن هذا العزل!..

وصل بعضهم إلى القول إلى أنَّ الأمر كان يعود إلى أنَّ «عمر» و«خالد» كانا يتصارعان في شبابهما في الجاهليَّة، وأنَّ خالداً غلب عمر مرَّة، وأنَّ عمر انتقم بعد ٣٠ عاماً، وكان أول ما عمل عندما صار خليفةً هو أن عزله..!!

أو تقوَّل بعضهم عن حادثةٍ مثل حادثة مالك بن نويرة في حروب الردَّة، التي قتل فيها خالدٌ مالكاً متأولاً، ولكن زاد فيها المتقوِّلون رغم أنَّ القضيَّة كانت قد حُسِمت في عهد أبي بكر..

لعلَّ عمر فكَّر في احتماليَّة أن يتقوَّل البعض هنا وهناك هذا الشيء أو سواه..

لكن هل يتوقّع من يسير في درب بناء الحضارة أن لا تنبح الكلاب على مسيرته؟

هل يمكن لمن يسعى للآفاق أن يلتفت للماء العكر؟!..

****

لا يُمكن أن نتحدَّث عن عزل عمر لخالد، دون أن نتحدَّث عن توليته لمعاوية بن أبي سفيان..

فهذا الأمر كثيراً ما يحاول فيه المغرضون أن يخوضوا فيه بناءً على ما حدث لاحقاً من نزاعٍ بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.. والذي انتهى إلى ما انتهى إليه من خلافٍ فرَّق الأمَّة..

والحقيقة أنَّ الطعن بهذا، أو الخوض فيه، يدلُّ على مشاكل في طريقة التفكير..

أولاً - من ناحية مَنْ يطعن في تولية عمر لمعاوية، يُتصوَّر أنَّ عمر كان يعلم الغيب، وأنَّه بناءً على هذا كان عليه ألاَّ يولِّي معاوية على الشام، كي يغيِّر مجريات التاريخ الذي كان وقتها مستقبلاً..

وهذا أمرٌ سخيفٌ بالتأكيد، فبغضِّ النظر عن الموقف من الخلاف الذي حصل فيما بعد، فإنَّ محاسبة «عمر» بأثر رجعي على ما حدث لاحقاً بين معاوية وعليٍّ، وبعد أكثر من عشر سنوات من وفاة عمر، هو أمرٌ لا معنى له، خاصَّةً أنَّ حيثيَّات هذا الخلاف لم تنبت إلا في عهد خلافة عثمان، ولم يكن هناك أيَّة بوادر لها في عهد عمر.

ثانياً - إنَّ الاعتراض على تولية عمر لمعاوية على الشام كونه من الطلقاء[١٠١]: هو اعتراضٌ على ما فعله الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام نفسه، فقد سبق له أن استعمل والد معاوية أبا سفيان شخصيًّا عند فتح الطائف[١٠٢]، علماً أنَّ عداء أبي سفيان للإسلام قبل إسلامه كان أشدَّ وأكثر بكثير من عداء معاوية، وأنَّ الرسول الكريم قد اعتبر إسلام أبي سفيان كفيلاً بمحو ذلك، فكيف بمَن لم يكن عداؤه لهذا الحدِّ؟

ثالثاً- إنَّ المناصب الإداريَّة لها معايير مختلفةٌ تماماً عن منصب الخليفة، والخلط بين الأمرين يعكس سوء فهمٍ يجب أن نتنبه له، **فالعامل أو الوالي يتقلَّد منصباً تنفيذيًّاً بصلاحياتٍ واضحةٍ ومحدَّدةٍ** مرتبطةٍ بما يوكل إليه الخليفة، وكان من مسؤوليَّات الخليفة كما فهمها عمر أن يهيمن برقابته على عمَّاله وولاته، كما سنرى بالتفصيل.. ولو أنَّ معاوية قد بدر منه خلال فترة عمر ما يستوجب عزله لفعل دون تردُّدٍ، وقد فعلها عمر مع شقيق معاوية عتبة بن أبي سفيان الذي كان قد ولاه على الطائف[١٠٣]، بل إنَّه عزل صحابةً لهم مكانةٌ أهمُّ وأكبر مثل سعد بن أبي وقَّاص الذي ولاه على الكوفة، ثمَّ عزله وولَّى ثلاثة أشخاص مكانه (عمار بن ياسر على الحرب، وعبد الله بن مسعود على القضاء، وعمرو بن حنيف على الخراج)[١٠٤] والمغيرة بن شعبة الذي كان قد ولاه على البحرين[١٠٥]، وعزل أبا موسى الأشعريِّ عن البصرة[١٠٦] وعزل أبا هريرة الذي ولاه على البحرين.[١٠٧]

عزل هؤلاء لا يقدح في مكانتهم، بل يعني أنهم إداريّاً لم يتمكَّنوا من أداء متطلَّبات المنصب.. إمَّا لأنَّ المنصب كان أكبر من أن يقوم به شخصٌ واحدٌ (كما في حالة سعد).. أو لوجود شكاوى عليه كما في حالة المغيرة، ولو أنَّ أخطاء إداريةً وقعت من معاوية لما تردَّد عمر في عزله، علماً أنَّ عمر لم يولِّ معاوية على كلِّ بلاد الشام كما

١٠١ كنت اعتقد جازما أن معاوية ينتمي إلى الطلقاء ، وذكرت ذلك ضمناً في كتابي البوصلة القرآنية . أجد اليوم أن الأمر ليس واضحا تماما . فقد صحت أحاديث كثيرة عن تواجد معاوية في المدينة . ولو حدث ذلك بعد فتح مكة وكان من الطلقاء لتعارض ذلك مع حديث "لا هجرة بعد الفتح"(صحيح البخاري . أي "منع المسلمين الجدد- مسلمة الفتح" من الهجرة إلى المدينة. وقد يعني ذلك أنه أسلم قبل الفتح في مرحلة متأخرة ما -لم يثبت توقيتها عندي- . لا يغير هذا من رأيي فيما حدث لاحقا . فالتوريث كان ضربة كبيرة لمفهوم الخلافة بغض النظر عمن أرساه . واعظم ما في ديننا أن لا عصمة لأحد.ولن يتغير ذلك سواء كان معاوية من الطلقاء أو ممن حضروا بيعة الرضوان (وهو ما لم يثبت ايضا).علي أن أشير في هذا السياق إلى ما يتداول عن تلقيبه بـ"كاتب الوحي" : لم أجد ما يثبت ذلك. وقد يجده غيري. ثبت أنه كان كاتب مراسلات للرسول عليه الصلاة والسلام . ولم أجد شيئا يدل على غير ذلك. و كبار الصحابة لم يكونوا كتابا للوحي. ولم يضيرهم ذلك. ولن يضيره أيضا.ولكن لا معنى بتلقيبه بما لم يثبت. (وأكرر أنني لم أجد ذلك ولا يعني هذا عدم وجوده).

١٠٢ المستدرك على الصحيحين ٥٩٢٢

١٠٣ العقد الفريد ج ١. ص ١٤

١٠٤ الأخبار الطوال ج١ ص ١٢٩

١٠٥ سير أعلام النبلاء -المغيرة بن شعبة

١٠٦ العقد الفريد ج١ ص ١٣

١٠٧ تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك ج ١ ص ٩٣

هو شائع، بل ولاه على الأردن خلفاً لأخيه يزيد بن أبي سفيان الذي توفِّي في طاعون عمواس . وضمَّ دمشق إليه فحسب، ولم تُصبح كلُّ ولاية الشام له إلا لاحقاً في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

رابعاً - يتوضَّح الفرق بين معايير الخلافة ومعايير ولاية الأمصار عند عمر لاحقاً في اختياره لستَّةٍ من كبار الصحابة ليكوِّنوا «مجلس الشورى» الذي سينتخب الخلفاء من بينهم حصراً، فهؤلاء الستَّة كانوا بمعايير «الخلافة» ولم يكونوا بمعايير «عمَّال الأمصار»..

وهكذا فإنَّ سعداً الذي عُزِل من ولاية الكوفة، كان من ضمن الستَّة الذين اختارهم عمر لتكون الخلافة بينهم!..

هل يستقيم هذا؟

لو نظرنا للأمر سطحيَّاً، وكما لو كانت المعايير واحدةً، أو كما لو كان «الوالي» «خليفةً» مصغَّراً في ولايته، فلن يستقيم الأمر..

لكنَّ الحقيقة هي أنَّ المعايير لا علاقة لها بكون المنصب أصغر أو أكبر، فالمتطلَّبات الوظيفيَّة مختلفةٌ أصلاً.. بالضبط مثل الفرق بين «المدير التنفيذيِّ» لشركةٍ كبرى، ورئيس مجلس إدارة الشركة نفسها.. مَن يقرِّر «أجندة» الشركة وأهدافها ورسالتها هو رئيس مجلس الإدارة، ويجب أن يحمل عمق الرؤية الشاملة، وبُعد النظر..

أمَّا المدير التنفيذيُّ، فهو مسؤولٌ عن الخطوات العمليَّة اليوميَّة يوماً بيوم، **وبالتالي فهو أكثر خبرةً بالتفاصيل القريبة الدقيقة، ومن المهم جدا أن يكون مقبولا بين موظفيه**، لكنَّ «رئيس مجلس الإدارة» هو صاحب القرار في «تقييم» أداء المدير التنفيذيِّ..

الخليفة هو مثل رئيس مجلس إدارة الشركة، مواصفاته أعلى وأرفع من مواصفات المدير التنفيذيِّ..

ولو أنَّ عمر كان يرى ولو قليلاً أنَّ مؤهِّلات معاوية تضعه في مصافِّ «الستة»، لوضعه دون تردُّدٍ بينهم، لكنَّ رؤيته لمعاوية كانت كوالٍ، كمديرٍ تنفيذيٍّ ضمن شركة يرأسها من يستحقُّ أن يكون خليفةً، وتهيمن عليه كما على الجميع تصورات «الخليفة» ورؤاه ليقوم بتنفيذها.

خامساً - يجب ألاَّ يغيب عن بالنا هنا، خاصَّةً أنَّ بعض أصحاب نظريات المؤامرة يفترض أنَّ عمر كان يمهِّد لمعاوية الدرب عبر توليته الشام (وهو ما لم يفعله عمر أصلاً كما تقدم!)، أنَّ عمر كان على المستوى الشخصيِّ يميل إلى «عليٍّ» من بين من اختارهم من الستَّة. فقد روي عنه: (**فلما خرجوا من عند عمر قال عمر: لو ولوها الأجلح (يعني عليّاً) سلك بهم الطريق، فقال له ابن عمر: فما يمنعك يا أمير المؤمنين؟ قال: أكره أن أتحمَّلها حيّاً وميِّتاً**).[108]

سادساً - كانت رقابة عمر مهيمنةً على الجميع، ولم تكن تسمح لأيٍّ كان - معاوية أو غيره - أن يخرج عن إطار ما هو مرسومٌ في «الرؤية» التي تحملها الدولة عبر رأسها.. وقد كان عمر يحاسب معاوية بالذَّات أكثر من سواه لعلمه بأنه سيكون محطّاً للأنظار والانتقادات بصفته ابن أبي سفيان، لذلك فقد ورد في الأثر:

(أنَّ معاوية دخل على عمر وعليه حلَّة خضراء فنظر إليها الصحابة، فلمَّا رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرَّة فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين الله الله فيَّ، فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم: لِم ضربته يا أمير المؤمنين؟ وما في قومك مثله؟ فقال: والله ما رأيت إلا خيراً، وما بلغني إلا خير، ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليك غير ما رأيتم، ولكن رأيته وأشار بيده، فأحببت أن أضع منه ما شمخ).[109]

بل إنَّ عمر لم يكن ليتحرَّج أبداً لا من تعيين من تأخَّر إسلامهم فحسب، بل من يسمِّيهم البعض فجَّاراً، ماداموا «كفوئين إداريّاً»، وما دام هو مهيمناً على رقابتهم..

(عن الحسن أنَّ حذيفة قال لعمر: إنَّك تستعين بالرجل الفاجر فقال عمر: إنِّي لأستعمله لأستعين بقوَّته ثمَّ أكون على قفائه).[110]

****

فلنتذكَّر هنا أنَّ جزءاً من هذا الانتقاد يعود لتأخُّر إسلام معاوية!

لو تخيَّلنا أنَّ مؤمناً آمن بنوحٍ في السنة الأولى من دعوته، وآخر آمن به في السنة التسعمائة..

---

١٠٨ ٥٩٤ كنز العمال ٣٦٠٤٤ الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٣٤٢ مسند الحارث - زوائد الهيثمي
١٠٩ تاريخ دمشق ج ٥٩ ص ١١٥
١١٠ كنز العمال ١٤٣٣٨

هل سيقوم المؤمن الأول بمنع الثاني من ركوب السفينة؟!

بغضِّ النظر عن ما حدث لاحقاً..

فالمسألة مسألة مبدأ..

****

لم يعزل عمر خالداً بالضَّبط..

بل عزل الفرديَّة، عزل أوهام الناس حول إمكانات الفرد خارج سياقات الجماعة..

وكان سلوك خالدٍ تجاه ذلك في منتهى التحضُّر والانضباط.. كان مثالاً على أنَّ الدرس قد وصل للجميع..

التزم خالدٌ بالأمر، وصار مساعداً لأبي عبيدة، ومستشاراً له، فساهم «عمليَّاً» في ظهور القادة الجدد الذين كان عمر يعدُّهم بالتدريج..

وقد كان لخالدٍ وقفةٌ مهمَّةٌ في فتح دمشق.. لم يقل: لا شأن لي بذلك، فليأتِ أبو عبيدة يحلُّ الموضوع، أو فليرَ «خليفتكم» من عزل.. أو أيَّ شيءٍ من هذا القبيل.

ما الذي حدث بالضبط؟

لو أنَّ ما حدث كان يصوَّر في مشهدٍ سينمائيٍّ، لما قام الممثل- البطل الذي يقوم بدور خالدٍ بالمشهد! ولتمَّت الاستعانة ببديلٍ ليقوم بالمشهد الصعب..

لكنَّ البطل الحقيقيَّ خالداً خرِّيجُ مدرسة محمَّد، ما كان ليقبل ببديل..

حتى لو كان قد «عُزل»..

سنرى ذلك لاحقاً.

****

ليس مهمَّاً اسم القائد..

ليس مهمَّاً من يكون في القلب، في ميمنة الجيش، في ميسرته..

ليس مهمّاً أن تكون مجرّد جنديٍّ..

أو أن تكون القائد..

المهمٌّ أن تشارك.. أن يكون لك دورٌ فاعلٌ في هذا المشروع..

مشروع الفتح الحقيقيِّ..

ليس فتح المدن فحسب..

ولكن أن تفتح نفسك تجاه ما يجب أن تفعله في هذا المشروع.. مهما كان ذلك مؤلماً..
مهما اضطررت أن تدوس على مشاعرك الشخصيَّة وعواطفك..

أن يكون المشروع هو القضيَّة الأولى في حياتك..

ويكون كلُّ شيءٍ عداه مجرَّد تفاصيل.

إلى "قرن الشيطان"..

بعض الأعداء يبدِّلون أشكالهم، يبدِّلون مظاهرهم، يبدِّلون شعاراتهم، ويبدِّلون أسبابهم في العداء.. لكنَّهم يبقون أعداء مخلصين في عدائهم.

ربَّما تكون أسبابهم في العداء خفيَّةً حتى على أنفسهم، ربَّما صارت بالتدريج جزءاً من عقلهم الباطن، ومن عقلهم الجمعيّ.. من لا وعيهم..

تختلف الشعارات.. الأيدلوجيَّات.. الأسباب المعلنة..

لكنَّ العداء يبقى نفسه.

****

عداء الفرس للعرب هو من هذا النوع..

بدأ كنوعٍ من الصراع على **موارد المياه** التي تتمتَّع بها بلاد الرافدين، وتفتقر لها هضبة بلاد فارس..

اختلط هذا الصراع بالتغذية اليهوديَّة له، فقد عدَّ اليهود أثناء السبي البابليِّ أنَّ الإمبراطور قورش الإخميني هو "مسيحهم المنتظر" -!- وذكروه فيما حرَّفوه من التوراة ٢٣ مرَّة!..

من يومها، والعلاقة بين اليهود والفرس قويَّةٌ وخفيَّةٌ، تعمل في كلٍّ منهم عمل اللاوعي الذي يسري في الدَّم..

استمرَّت سيطرة الفرس بدولهم المختلفة على الجزء الشماليِّ الشرقيِّ من جزيرة

@iAbubader

العرب. العراق الغنيّ بالأرض الخصبة لمدّةٍ تقترب من ألف سنةٍ، مع فتراتٍ منقطّعة من انحسارها..

إلى أن جاء الإسلام.

****

كان أبو بكر الصديق قد بدأ فعلاً بتسيير الجيوش إلى العراق، لكنّ حصّة بلاد الشام من اهتمامه كانت قد زادت لاحقاً، فسيّر أربعة جيوشٍ إلى الشام، وجيشاً واحداً إلى العراق، كان قد أمّر عليه خالد بن الوليد، ثمّ سحبه ومعه كلُّ الصحابة، ونقلهم إلى جيوش الشام.

لكنّ عمر بن الخطاب، ومنذ اليوم الأول لخلافته رأى أن يلقي بالثقل كلّه في الجبهتين معاً، دون أن ينتظر انتصاراً حاسماً يحقّقه المسلمون في جبهةٍ ما للتفرُّغ للجبهة الثانية؟

لماذا؟ أليس في هذا مخاطر قد تؤدّي إلى الهزيمة في الجبهتين معاً؟

رأى عمر أنَّ الوقت مناسبٌ حتماً للذهاب إلى الجهتين، بل إنّه رأى أنّ هذا الوقت الأنسب لفعل ذلك.. وذلك **مرتبطٌ بظروفٍ كانت تمرُّ بها إمبراطوريّة فارس..**

لم تكن فارسٌ بعيدةً أبداً عمّا يحدث في الجزيرة، لكنّها كانت قد مرّت بمشاكل داخليّةٍ شغلتها عن أوّل صعودٍ للقوّة الإسلاميّة في دولة النبيّ عليه الصلاة والسلام، وذلك بعد صلح الحديبية..

مع اغتيال كسرى أبرويز في وقتٍ متأخّرٍ من عام ٦٢٨ م، وخلال الأعوام الأربعة التي تلت هذه الحادثة، تعاقب على عرش فارس ثمانية ملوكٍ، كلٌّ منهم تولّى السلطة بعد اغتيال سلفه أو إقصائه عن الحكم، وهكذا، كان الفرس عاجزين عجزاً تامّاً عن اتخاذ إجراءاتٍ فعّالةٍ لإيقاف زحف الإسلام وامتداده إلى مناطق نفوذهم التقليديّة، حتى الذين كانوا يحكمون باسمهم في كلٍّ من البحرين واليمن أُصيبوا بالإحباط بسبب الوضع المتدهور في الإمبراطوريّة الفارسيّة، فانقسموا على أنفسهم، واتّصل بعضهم بالنبيِّ ليتحالف معه، ويضمن من ثمّ المحافظة على مكتسباته، ويحصل على امتيازاتٍ جديدةٍ..

استيقظ الفرس في نهاية المطاف على خطرٍ داهمٍ، لكن بعد فوات الأوان. ففي وقتٍ مبكّرٍ من سنة ٦٣٢م - ١٠ هـ. وحين كان النبيُّ عليه الصلاة والسلام في حجّة الوداع وضع الفرس حدّاً لخلافاتهم وأجمعوا على تنصيب يزدجرد الثالث ملكاً عليهم، وكان من أوّل ما فعله هذا الملك:

أولاً - أنّه أعاد العائلة اللخميّة المالكة إلى الحكم في الحيرة، وأوكل إليها استعادة مناطق نفوذها القديمة في الجزيرة العربية من أيدي المسلمين.. حدث ذلك في اجتماعٍ عقده يزدجرد في قصره في المدائن مع زعماء القبائل الموالية له.

وقد طلب من هؤلاء الزعماء أن يلتفُّوا حول ملك الحيرة الجديد، وينصروه على قتال حلفاء النبيِّ في مناطقهم، وأمدَّهم بما يحتاجونه من أموالٍ وسلاحٍ، وضمَّ إليهم وحداتٍ من الجيش الفارسيِّ تساعدهم في إنجاز مهمَّتهم في شرقي الجزيرة العربيَّة ووسطها. وقد فعل يزدجرد الشيء نفسه في الجنوب
ثانياً - اتَّصل بحلفائه في اليمن وحثَّهم على توحيد صفوفهم، واجتثاث نفوذ المسلمين من أراضيهم.. هذا كلُّه يجب أن يجد له رابطةً ما **بحركة الردَّة التي واجهها أبو بكر الصديق بمنتهى الحسم**[١١١].. **لا بدّ أنَّ الفرس قد ساهموا في تأليب القبائل الواقعة تحت نفوذهم تقليديّاً على الارتداد والتمرُّد بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.**

بالتأكيد لا وثائق سريَّة مسرَّبة عن ذلك تكشف المستور، **لكنَّ انتشار حركة الردَّة في مناطق نفوذٍ فارسيَّةٍ، باستثناء حركة مسيلمة، لا بدَّ أن يكون مرتبطاً بيدٍ فارسيَّةٍ قلقةٍ من تصاعد القوَّة الجديدة.. والتاريخ يصدق ذلك دوماً.. ليس في هذه فقط..**

كلُّ هذا جعل عمر يجد في الفرس عدوّاً يجب القضاء عليه، وبأقصى سرعة.. (عدواً فقط؟! سنعرف المزيد لاحقاً!).

كان يزدجرد الثالث قد نجح فعلاً في توحيد الدولة بعدما تعرَّضت للضعف، ولتعاقب الملوك، ولصعود نفوذ حكَّام الإقطاعيَّات والقادة العسكريين.. وما كان سيترك المسلمين يُحرزون الانتصارات على الروم دون أن يطعنوهم في الشرق..

كما أنَّ العقيدة التي يدين بها المجوس، **كانت ممّا لا يمكن التعايش معه بالنسبة للعقيدة الإسلاميَّة**، على العكس من عقيدة الروم التي كانت في النهاية عقيدة أهل كتاب.

---

١١١ من بحث لأحمد السامرائي منشور على الشبكة.موقع الدفاع عن السنة

(لمّا مات الصدِّيق، ودُفِن ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، أصبح عمر، فندب الناس، وحثَّهم على قتال أهل العراق، وحرَّضهم، ورغّبهم في الثواب على ذلك، فلم يقم أحدٌ لأنَّ الناس كانوا يكرهون قتال الفرس لقوّة سطوتهم، وشدّة قتالهم، ثم ندبهم في اليوم الثاني والثالث فلم يقم أحدٌ، وتكلّم المثنّى بن حارثة، فأحسن، وأخبرهم بما فتح الله تعالى على يدي خالدٍ من معظم أرض العراق، ومالهم هناك من الأموال والأملاك والأمتعة والزاد، فلم يقم أحدٌ في اليوم الثالث، فلمّا كان اليوم الرابع كان أوّل من انتدب من المسلمين أبو عبيد بن مسعود الثقفيّ ثمّ تتابع الناس في الإجابة...)[112]

فلنتنبه هنا إلى عدّة أمورٍ مهمّةٍ في قراءتنا للجوانب الحضاريّة في السيرة العمريّة:

الخليفة كان **يحثُّ الناس على قتال الفرس ويرغّبهم في الثواب، والناس لا يقومون، لهذا السبب أو ذاك..**

يوم واثنان وثلاثة..

وما من مجيب..

المثنّى بن حارثة وهو من أهل العراق، يمنّيهم بالمغانم، وبما حقّقه خالدٌ عندما كان هناك..

وما من مجيب..

إلى أن جاء أبو عبيد بن مسعود الثقفيّ، ثمّ تتابع الناس في الإجابة..

ما الذي يعنيه هذا؟

يعني أنَّ هذا المشروع، **مشروع الفتح الذي يمرُّ من باب «الجهاد» و «الحرب» لن يكرِه أحداً على الدخول فيه دون أن يكون مقتنعاً به..**

عمر بن الخطاب هو من يدعو إلى قتال الفرس... عمر الذي خطب أوّل ما خطب، وقال ما قال، لكنّه رغم ذلك، **لا يجبر أحداً على المشاركة في السّير لحرب الفرس.. لا يقول إنَّ من يتخلف عن ذلك فارٌّ من الزحف مثلاً..**

إنّه يرغبهم.. يمنّيهم.. يشجّعهم.. يستخدم وسائل إقناعٍ متعدّدة..

---

١١٢ البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٢ - ٣٣

لكنّه لا يُكرههم..

يومٌ ويومان وثلاثة..

لا بدَّ من أن يقتنعوا.. لا يُمكن لهم أن يشاركوا في مشروعٍ ضخمٍ، مشروع فتحٍ، مشروع حضارةٍ، ما لم يكونوا مقتنعين فعلاً بالمشاركة..

الاقتناع أوّلاً.. ثمَّ الإيمان.. فمشاريع كهذه لا تتحرّك عبر القناعة فحسب..

ربّما كان الأمر مختلفاً لو كان في وضع دفاعيٍّ، ربّما كان عمر سيقول شيئاً آخر..

لكن هنا كان السياق مختلفاً.

****

أبو عبيد الذي كان أوّل من انتدب، كان له أثرٌ كبيرٌ في تغيير الموقف.. أبو عبيد الثقفيّ، هو والد صفيَّة زوجة عبد الله بن عمر، ولعلَّه كان قد أسرَّ لعمر بن الخطاب بما ينويه.. ولعلَّ عمر، ببُعد نظره شجَّعه على ذلك، وهو يعرف أيَّ أثرٍ سيُحدث ذلك..

أن يقوم «ثقفيٌّ» تحديداً، بالانتداب لقتال الفرس، كان سيجعل ثقيفاً كلَّها المتحفِّزة لإثبات مكانتها في الدولة الجديدة، ثقيفاً المنافِسة التقليديَّة لقريش، والتي كانت من القبائل القليلة التي لم ترتدّ، سيجعلها تريد أن تثبت ولاءها للدِّين الجديد..

وتبدو فكرة الاستجابة لنداء عمر بقتال الفرس فرصةً ذهبيةً..

ويسارع الثقفيُّون إلى اتِّباع أبي عبيد..

وبعدهم يسارع الجميع!..

نجح الأمر في جعل التنافس يصبُّ لصالح المشروع.

****

ستصبح القيادة إذاً هنا لا للمهاجرين ولا للأنصار..

بل لمن تبعهم بإحسانٍ.. سار على خطاهم الأولى التي جعلتهم مهاجرين وأنصاراً..

خطوات السبق في التضحية والإقدام.

(... وكان سليط بن قيس الأنصاريّ قد استجاب لنداء عمر بعد أبي عبيد الثقفي، وقال: يا أمير المؤمنين إنّما كان عن هؤلاء الفرس إلى وقتنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان، ألا وإنّي قد وهبت نفسي لله أنا ومن أجابني من بني عمي ومن اتّبعني...).[113]

ما قاله سليط هنا، قد يؤيّد ما ذكرناه عن علاقة الفرس بحركة الردّة، فهو يشير إلى أنّهم لم يروا من الفرس – إلى وقتنا هذا – **إلا شقشقة من شقاشق الشيطان..**

وسيكون لنا عودةٌ لما فهمه سليط.. سيكون هذا ما فهمه عمر أيضاً، بل ما قصده الرسول عليه الصلاة والسلام يوماً ما.

(وجاء في رواية: وأمّر على الجميع أبا عبيد، ولم يكن صحابياً فقيل لعمر: هلا أمّرت عليهم رجلاً من الصحابة؟ فقال: إنّما أومر أوّل من استجاب، إنّكم إنّما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين، وإنّ هذا هو الذي استجاب قبلكم).[114]

كلمةٌ واضحةٌ للصّحابة..

للجيل الأول..

ما دام أبو عبيد قد سبقكم فلا تتوقّعوا أنّكم ستكونون في الصدارة هنا.

فضلكم في السَّبق.. فإن سبقكم أحدٌ، فقد سبق!

فليكن هذا دافعاً للتعويض عن تردُّدكم!..

(... ثمَّ دعاه، فوصّاه في خاصّة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يستشير سليط بن قيس فإنّه رجلٌ باشر الحروب).[115]

التقوى أوّلاً..

هم ذاهبون للحرب..

لكنَّ التقوى أوّلاً..

لِمَ؟

---

١١٣ الفتوح - ابن أعثم ج ١ ص ١٦٤
١١٤ البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٢
١١٥ البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٢

لأنَّها الحرب من أجل الحضارة.. الحرب من أجل القيم والعقيدة.. والتقوى في لبِّ هذه القيم.. لذا فهي أوّلاً.. قبل حدِّ السيوف.. قبل سنِّ الرماح وتجهيز الخيول..

التقوى أوّلاً..

مشورة الصحابة تبقى لهم مكانتهم التي استمدُّوها لا من قبيلتهم بل من نصرتهم للرسول.. إنَّه يقودهم لأنه في هذا الموقف «سبقهم».. لكنَّ «مشورتهم» تبقى.. لهم «المرجعيَّة»..

وسليط، المستعدُّ للشَّهادة، بما يبدو أنَّه خبرةٌ في المعارك، تكون له مشورته أيضاً..

(جاء في وصايا عمر رضي الله عنه لأبي عبيد الثقفي ما يأتي: اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً، بل اتَّئد، فإنَّها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث.. الذي يعرف الفرصة، ولا يمنعني أن أؤمّر سليطاً إلاّ سرعته إلى الحرب، والسرعة إلى الحرب إلاّ عن بيانٍ ضياعٌ... والله لولا سرعته لأمَّرته).[116]

الحرب إذن لا يصلحها إلا الرجل المكيث.. المتَّئد..

حقاً؟

هل هذه هي حرب الكرِّ والفرِّ التي عرفها العرب؟

لا، قطعاً.. هذه حرب الحضارة.. الحرب التي لا تريد النصر في معركةٍ خاطفةٍ، بل تريد النصر على مكثٍ.. النصر على مهلٍ.. هذا هو الجهاد حقّاً.. هذا هو مشروع الفتح.. الناس لا تدخل الحرب لتستشهد وتذهب للجنَّة، بل تدخل الحرب لإعلاء كلمة الله وبناء حضارةٍ مبنيَّةٍ عليها، فإن حصل الاستشهاد، وجبت الجنة.. لكنَّ الحرب هي من أجل الحياة - كما يريدها الله - أصلاً.

(... ثم قال: إنَّك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجَبْرية، تقدم على قومٍ تجرّؤوا على الشرِّ فَعَلِموه، وتناسوا الخير فجهلوه: فانظر كيف تكون؟ واحرز لسانك، ولا تفشينَّ سرَّك، فإنَّ صاحب السرِّ ما يضبطه متحصِّن لا يؤتى من وجهٍ يكره، وإذا لم يضبطه كان بمضيعة.. ثم أمر المثنى بن حارثة أن يتقدَّم إلى أن يلحقه الجيش، وأمره أن يستنفر من حسُنت توبته من المرتدِّين...)[117]

---

١١٦ تاريخ ابن خلدون ج٢ ص٥٢٠ اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ص٦٥
١١٧ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ص٦٥

المرتدِّين؟

نعم، المرتدُّون!..

لم يعد يجدي وضعهم في خانة الإقصاء إلى الأبد.. لقد أخطؤوا ودفعوا ثمن خطئهم.. بقاؤهم دون المشاركة في مشروع الفتح كان سيجعلهم «بؤرة» توتُّرٍ قد تتحوَّل إلى «طعنة في الظهر»..

مشاركتهم في مشروع الفتح كان سيصهرهم، كان سيذيبهم في «الأمة».. سيجعلهم بالتدريج «يصدقون» في إسلامٍ رجعوا له بالقوة..

من منجزات عمر، وبُعد نظره الحضاريِّ، أنَّه استقطبهم، كسبهم لمشروع الفتح..

فقد ضمن أوَّلاً أن لا يطعنوا المشروع..

وضمن ثانياً انصهارهم فيه!..

****

لكن ما الذي قصده عمر عندما قال: «**إنَّك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجَبَرية، تقدم على قومٍ جَرؤوا على الشرِّ فَعَلِموه، وتناسوا الخير فجهلوه**»..

ما الذي يعنيه بذلك وهو يسيِّر الجيوش إلى العراق؟

هل يقصد أنَّ أهل العراق هم كذلك؟

لا قطعاً..

بل هو يقصد ذات ما عناه الرسول عندما أشار إلى المشرق، ناحية العراق، وقال: «**ألا إنَّ الفتنة ههنا، ألا إنَّ الفتنة ههنا [قالها مرتين أو ثلاثاً]، من حيث يطلع قرن الشيطان [يشير بيده إلى المشرق، وفي رواية: العراق]**»[١١٨].

****

ماذا يقصد؟
ما الذي كان في العراق، ويجعل منه ذلك..
فيه ما كانت الجيوش ذاهبةً لإزالته..
كسرى..!

١١٨ السلسلة الصحيحة ٢٤٩٤

@iAbubader

فيه الفرس، وكانوا هناك منذ قرابة ألف عام..
احتلُّوا العراق، واتَّخذوا عاصمتهم فيه.. المدائن، جنوب بغداد حاليًّا، هي عاصمة كسرى وإيوانه.. ومنبع دسائسه وعقيدته الفاسدة.. والعراق هو، بحسب عمر نفسه: (جمجمة العرب، وكنز الإيمان، ورمح الله في الأرض، ومادة الأمصار). [119]
وكان من الطبيعي أن يختار الشيطان، الجمجمة لكي يغرس قرنيه فيها..
رَكِب غصباً لتكون على الجمجمة..
الشيطان اختار أرض العراق، ليضع فيها قرنه..ليس فقط لأنه الجار التاريخي للعراق، وليس فقط لخيرات العراق.. ولكن لأن الجمجة هي ما يغري الشيطان بوضع قرنه فيها..
والعراق جمجمة العرب فعلاً.. فالجمجمة تضمُّ أقوى عظامٍ في الجسم، وهي تحفظ «الدماغ».. والجمجمة في كلام العرب تعني الرأس أيضاً. فالعراق «رأس العرب»، وهو منبع قوتهم، ومن الطبيعيِّ للشيطان، لقرنه تحديداً أن **يبحث عن «الرأس».. عن الجمجمة..** فما الذي سيفعله في مكانٍ آخر؟.. **ما الذي يفعله الشيطان في البيت الخرب؟ وأين يمكن للشيطان أن يطمع بوضع قرنه إلا في الجمجمة؟!..**
الجمجمة، رمز القوّة، والعراق، قوّة المكان، علاقته بقوة العرب تتناسب طرداً. كلَّما كان قويًّا، حرًّا متحرِّراً من قرن الشيطان، كان العرب أقوياء، وكلَّما عاد له قرن الشيطان، كان العرب ضعفاء..
قوّة المكان، هي سرُّ العراق، جمجمة العرب.

****

وكان هناك وعدٌ ينتظر التنفيذ..
سوارا كسرى، لا بد أن يكونا في يدي سراقة..
سوارا قرن الشيطان، كان لا بدَّ أن ينتهيا عند ذلك الأعرابيِّ..
كان لا بدَّ لأحدٍ أن ينفِّذ الوعد! [120]

****

وهكذا فهم عمر الذي عزم أن تتوجَّه الجيوش إلى العراق قبل أن تحسم الجبهة المفتوحة شمالاً..
كان لا بدَّ من كسر قرن الشيطان الذي قد لا يخصُّ عرق الفرس أو قوميَّتهم،

١١٩ تاريخ ابن خيثمة ج ٤ ص ٢٨٥
١٢٠ دلائل النبوة ٢٥٩١

بل يخصُّ تجربتهم، مشروع حقدهم القائم على الاستعلاء والاحتقار العنصريِّ والاستعباد لكلِّ ما لا ينتسب لهم..

كان لا بدَّ من تخليص «جمجمة العرب»، كنز الرجال، من قرن الشيطان..

مشروع الفتح، كان لا بدَّ أن يكسر قرن الشيطان.. ويستثمر « الجمجمة» !

ليس آنذاك فقط..

بل دوماً..

الدرب إلى الفتح المبين يمرُّ بمحطاتٍ متعدِّدةٍ، بعضها تكون مؤلمةً وباهظة الثمن، وبعضها يكون أقلَّ إيلاماً.. وفي الحالتين تكون هناك الدروس والعبر.. في الحالتين يكون هناك التدريب على البناء الحضاريِّ..

الطريق إلى النصر الحاسم على قرن الشيطان لم يكن يسيراً قط، وكان أشبه بعملية تأهيل للأمَّة في حرب بنائها لذاتها.. اختلطت التضحيَّات بالخبرات العسكريَّة بالخبرات النفسيَّة مع الشعوب الجديدة، ومع أساليب غير معهودةٍ في القتال..

الصِّراع مع قرن الشيطان جعل الأمَّة تكتشف قوَّتها، تكتشف أنَّها أقوى حتَّى ممَّا كانت تظنُّ وتعتقد..

كان الصراع مريراً مثل الصراع مع السرطان..

لكنَّه كان لا بدَّ منه.. لا للشفاء، بل لكينونة الأمة وصيرورتها.

****

أربع معارك أساسيَّة تلت إرسال عمر للجيش بقيادة أبي عبيد الثقفيِّ..

النمارق، باروسما، وقعة الجسر، البويب..

النمارق كانت المعركة الأولى، ورغم أنَّ الفرس كانوا قد أعدُّوا لها أقصى الإعداد، وبعثوا لمن يلحق بهم من الفلاحين في كلِّ مكانٍ، حيث وصلتهم الأخبار عن مسير جيش المسلمين، إلا أنَّهم هُزِموا أمام المسلمين، وأُسر قائدهم جابان..

هنا مظهران حضاريّان تجلّيا في هذه المعركة، يبيّنان التزام أبي عبيد بما أوصاه به عمر: التقوى أولاً..

فقد حدث أنّ أحد المسلمين، وهو مطر بن فضة التميميّ قد منح الأمان للقائد جابان، وهو لا يعرفه بعد أن أسره، فلمّا عرف أشار البعض على أبي عبيد بقتله لأنه القائد، فرفض لمجرّد أنّ أحد الجنود في الجيش قد منحه الأمان، وقال: **إنّي أخاف الله أن أقتله، وقد أمنه رجلٌ مسلم، والمسلمون في التوادّ والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلّهم، فقالوا: إنّه القائد قال: وإن كان، لا أغدر، فتركه..**[121]

هل كان هذا درساً للفرس فحسب؟

لا.. كان درساً للمسلمين أيضاً.. لكلِّ فردٍ فيهم.. لقد أعطى ذلك المثل أهميّة كلّ فردٍ، حتى لو كان مجرّد جنديٍّ بلا منصبٍ، ومن قبيلةٍ شاركت في الردّة، أي من «المشكوك فيهم».. لكنّه بمجرّد أن أعطى الأمان لقائد العدوّ، ودون أن يعرف أنّه القائد، فإنّ قائد الجيش احترم ذلك تماماً..

أيُّ درسٍ هذا للجميع.. يُشعرهم بأهميّتهم.. بذوبان الـ «أنا» في الـ «نحن»..! إنّها التقوى أوّلاً التي وصّى عمر بها.. تتمثّل في هذا السلوك الذي يصهر الجميع، ويكون مؤثّراً حتى في العدو..

إنّها القيم، جزءٌ أساسيٌّ من عدّة المقاتل..

المقاتل، عندما يكون صانعاً للحضارة.. مؤسّساً لنهوض الأمّة.

****

المظهر الثاني، كان أنّ المسلمين بعد انتصارهم سيطروا على إقطاعيّةٍ واسعةٍ كانت لابن خالة كسرى، وسيطروا على خزائنه، فوجدوا فيها شجراً ذا ثمرٍ ثمينٍ اسمه «النرسيان»، وكان ابن خالة كسرى هذا يحرص عليه أشدّ الحرص، ولا يدع أحداً من غير خاصّته يتذوّقه حتى مَن يزرعه، ويعتني به.[122]

ماذا فعل المسلمون بهذا الثمر (الذي يبدو أنّه كان لذيذاً فعلاً!)..

لقد وزّعوه على الفلاحين الذين كان محرّماً عليهم تذوّقه!..

---

121 الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٠١
122 تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٦

هذا الموقف التلقائيُّ يعبِّر عن عمق قيم العدالة الاجتماعيَّة في نفوس حاملي الرسالة.. لقد جاؤوا ليحطِّموا تلك الحواجز التي تبقي هؤلاء الفلاحين في وضع العبيد.. التي تحرمهم من تذوُّق ثمرةٍ يعملون في زراعتها.. الحواجز التي تضع الملأ في برجٍ عالٍ بعيد لمجرَّد أنَّه وُلِد فيه.

وكان من ثمار توزيع الثمار على الفلاحين هو أنَّ الفلاحين بالتدريج، بدؤوا ينحازون للقادم الجديد..

بعدما كانوا طوع سيِّدهم القديم، مهما كان ظالماً متجبِّراً..

كان حملة الرسالة يتفاعلون مع الواقع الجديد.

وكان التفاعل إيجابيّاً..

معركة باروسما حدثت بعد مدَّةٍ وجيزة، وقد انتهت بهزيمةٍ منكرةٍ لجيش الفرس بقيادة ابن خالة كسرى الذي لعله جاء لينتقم لثماره التي غنمها المسلمون!!، ثم جاء جيشٌ آخر لنجدته بقيادة الجالينوس، وهُزِم أيضاً.[١٢٣]

وهكذا هُزمت ثلاثةُ جيوش للفرس في فترةٍ بسيطةٍ..

لكنَّ وقعة الجسر ستكون مختلفة النتيجة..

ستكون درساً صعباً بعد ما تكرَّرت الانتصارات.

****

اجتمع الجالينوس إلى رستم ليجيِّش جيشاً آخر يواجه به المسلمين، هذه المرَّة حمل الفرس رايةً تحمل رمزيَّةً كبيرةً عندهم هي راية «فريدون»، وهو بطلٌ أسطوريٌّ عندهم، وكان يقودهم «بهمن جاذويه»، ووصلوا إلى المسلمين فلم يكن بينهم إلا نهر «دجلة»..

فأرسلوا إلى المسلمين: تعبرون أم نعبر؟

فأشار المسلمون إلى أبي عبيد: أن يعبر الفرس إليهم.[١٢٤]

(فقال ما هم بأجرأ على الموت منّا، ثم اقتحم إليهم، فاجتمعوا في مكانٍ ضيِّقٍ

١٢٣ تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٣٦
١٢٤ البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٣

هنالك، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يعهد مثله، والمسلمون في نحوٍ من عشرة آلاف، وقد جاءت الفرس معهم بأفيلةٍ كثيرةٍ عليها الجلاجل قائمة لتذعر خيول المسلمين، فجعلوا كلَّما حملوا على المسلمين فرَّت خيولهم من الفيلة وممَّا تسمع من الجلاجل التي عليها ولا يثبت منها إلا القليل على قسر.

وإذا حمل المسلمون عليهم لا تقدم خيولهم على الفيلة، ورشقتهم الفرس بالنبل، فنالوا منهم خلقاً كثيراً، وقتل المسلمون منهم مع ذلك ستة آلاف.

وأمر أبو عبيد المسلمين أن يقتلوا الفيلة أولاً، فاحتوشوها، فقتلوها عن آخرها، وقد قدَّمت الفرس بين أيديهم فيلاً عظيماً أبيض، فتقدَّم إليه أبو عبيد، فضربه بالسيف، فقطع ذلومه فحمى الفيل، وصاح صيحةً هائلةً وحمل، فتخبَّطه برجليه فقتله، ووقف فوقه، فحمل على الفيل خليفة أبي عبيد الذي كان أوصى أن يكون أميراً بعده فقُتل، ثم آخر، ثم آخر حتى قتل سبعةٌ من ثقيف كان قد نصَّ أبو عبيد عليهم واحداً بعد واحدٍ، ثم صارت إلى المثنى بن حارثة بمقتضى الوصية أيضاً.

فلمَّا رأى المسلمون ذلك وهنوا عند ذلك، ولم يكن بقي إلا الظفر بالفرس، وضعف أمرهم، وذهب ريحهم، وولَّوا مدبرين، وساقت الفرس خلفهم، فقتلوا بشراً كثيراً، وانكشف الناس فكان أمراً بليغاً وجاؤوا إلى الجسر فمرَّ بعض الناس.

ثم انكسر الجسر فتحكَّم فيمن وراءه الفرس، فقتلوا من المسلمين، وغرق في الفرات نحوٌ من أربعة آلاف).[١٢٥]

كان انكسار المسلمين في وقعة الجسر كبيراً، واستشهد فيها أكثر من سبعين صحابيّاً، ولولا حكمة المثنَّى بن حارثة وفطنته لأبيد الجميع..

(... وسار المثنَّى بن حارثة، فوقف عند الجسر الذي جاؤوا منه، وكان الناس لمَّا انهزموا جعل بعضهم يلقي بنفسه في الفرات فيغرق، فنادى المثنى:

أيُّها الناس على هينتكم، فإني واقفٌ على فم الجسر لا أجوزه حتى لا يبقى منكم أحدٌ ههنا، فلمَّا عدى الناس إلى الناحية الأخرى سار المثنَّى، فنزل بهم أوَّل منزل، وقام يحرسهم هو وشجعان المسلمين، وقد جرح أكثرهم وأثخنوا.

ومن الناس من ذهب في البرية لا يدرى أين ذهب، ومنهم من رجع إلى المدينة النبوية مذعورا).[١٢٦]

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان يذكر «أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن يعلم بمقتل أهل الجسر، وقد كان استعمل أبا عبيد بن مسعود

---
١٢٥ البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٤

١٢٦ البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٤

الثقفي، ومعه نميلة بن عبد الله، وسليط بن قيس الأنصاريان، واستعمل على الناس أبا عبيد فلقيتهم فارس بالفيلة، فقاتلوهم فقُتلوا جميعاً، فقدم فتى من أهل الطائف المدينة، فقعد عند حذّاء يحذو له نعلين، فقال: ما بال أهل المدينة لا يبكون على قتلاهم؟ فو الله لقد قتل أهل الجسر، فأخذ الحذّاء بلببه، ثم أتى به عمر، رضي الله عنه، فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، خرجت أنا ونفر معي كثير حتى إذا كنا بوادٍ من أودية الطائف يقال له الشهاب، سمعنا جلبة الناس وإرغاء الإبل وصياح الصبيان، ثم دهمنا حاضراً كثير الأهل، فسمعنا ضرب الحجر والقباب، فقامت مناحة فجعلن يقلن، نسمع الأصوات قريباً منّا ولا نرى أحداً: وا أبا عبيداه، وا نميلتاه، وا سليطاه، ثم هتف هاتفٌ فقال: مات على الجسر فتية صبر صادقين اللقاء يوم اللقاء، ثم منهم مؤمن القلب مستجاب الدعاء يقطع الليل لا ينام صلاةً وجؤاراً يمدُّه بالبكاء وخبيتاً لربه مستكينا غير ذي غدرة ولا ذي عداء قال: فحبسه عمر رضي الله عنه، وكتب إلى الطائف، فلم ينشب أن جاءه الخبر حقاً، وبدر عليه العلل».[127]

لم يشأ عمر أن ينتشر الخبر دون أن يتمَّ التحقُّق منه، وبهذه الطريقة النواحيَّة التي كان ينقلها الفتى، والتي كانت ستثير أيَّ شيءٍ إلا ردود الفعل الإيجابيَّة التي يريدها أن تثمر في الطريق للنصر.. لذا قام بحبس الفتى وخبره مؤقّتاً.. ريثما يتمُّ التحقُّق وإعلانه على نحوٍ مناسبٍ بعد تهيئة الجوِّ.

لاحقاً جاءه التحقُّق من الخبر، وهو على المنبر، فلم يؤنِّب الفارِّين بل قال: **اللهمَّ كلُّ مسلمٍ في حلٍّ مني، أنا فئة كلِّ مسلمٍ، من لقي العدو فَفُظِّع بشيءٍ من أمره فأنا له فئةٌ، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إليَّ لكنت له فئة.**[129]

أبو العيال، على شدَّته، لم يجد في الهزيمة - وقد حدثت فعلاً - سبباً في الشدَّة على الفارِّين من المعركة..

ربَّما لو كان الأمر قبل أن تقع الواقعة، لانتقد أخطاء واضحةً وقع فيها أبو عبيد الثقفيّ، فقد ألزمه عمر يوم أمّره على الجيش بمشورة الصحابة، وقد كانت مشورتهم واضحةً بأن لا يعبر النهر، لكنه خالف المشورة..

كما أوصاه عمر بأن يكون متّئداً مكيثاً، لا أن يسارع في العبور والمواجهة بحجَّة أنَّ الفرس ليسوا أكثر جرأةً على الموت من المسلمين..

النصر لا يأتي بالجرأة على الموت، بل يأتي أحياناً عبر الجرأة على الحياة.. خاصَّةً عند القائد..

---

١٢٧ أخبار مكة للفاكهي رقم الحديث ١٨٩١

١٢٩ تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٤٢

كذلك لم يكن حَصْرُ الراية في سبعةٍ من أبناء ثقيف من قبيلة أبي عبيد نفسها أمراً صائباً على الإطلاق، إذ كان يشي براية عصبيّةٍ عشائريَّةٍ، وليست راية عقيدة..

لكنَّه في انكسارهم ذاك الذي كان عمر يعي أنَّه انكسارٌ في «معركة» وليس في «الحرب- المواجهة»، فقد كان عمر فيئاً لهم جميعاً.. يستظلُّون به من عناء ما واجهوه، يعودون له فيجدون أبا العيال الذي يشدُّ من أزرهم، ويقوِّيهم.. ويبحث لهم عن حلولٍ لما واجهوه، فلا يلومهم، ولا يعنِّفهم أو يؤنِّبهم..

كما أنَّ عمر نشر في خضمِّ ذلك أخباراً عن الصراع على السلطة في فارس بعد انتصارهم في موقعة الجسر حيث أنَّهم خلعوا رستم، ثم ولَّوه، وأضافوا إليه الفيرزان، فقال للناس: **أشغل الله المجوس بأمر ملكهم.**[١٢٩] وهو أمر كان سيجعل المسلمين رغم الهزيمة يشعرون أنَّ الفرس مهيّؤون لاستلام ضربةٍ جديدةٍ.

وكان ذلك كلُّه، تأجيلُ نشر الخبر، ومن ثمَّ إذاعتُه وعمر على المنبر - وهو «أبو العيال» والفيءُ الذي يفيء إليه الجميع - وصراعُ أهل الملك على الملك في فارس، **كلُّ ذلك كان جزءاً من الاستراتيجيَّة العمريّة في الاستنفار العامِّ لمواجهة مستجدَّات الوضع أمام «قرن الشيطان».**

وهكذا أخذ عمر يجيش القبائل ويسير أرتال الدعم والإمداد تسير نحو العراق من دون انقطاعٍ، وفي الوقت ذاته أرسل المثنَّى بن حارثة الشيباني إلى من في العراق من أمراء المسلمين يستحثُّهم، فبعثوا إليه بالإمداد حتى كثر جيشه.. ولقد كان المثنَّى بن حارثة **واحداً من أهمِّ الطاقات التي كشفتها موقعة الجسر، والتي جعلت عمر يثق أكثر بقدرة الأمَّة في توليد القيادات..** لذلك فقد ولاَّه قيادة جيش المسلمين.. الذي سيقف ليتحدى هذه المرة جيشا بقيادة مهران.

وقف (المثنى) على الرايات راية راية يحضضهم ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم تحضيضا لهم ولكلهم يقول إني لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم من قبلكم والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم فيجيبونه بمثل ذلك وأنصفهم المثنى في القول والفعل وخلط الناس في المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا

---

١٢٩ البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٥

عملا ثم قال إني مكبر ثلاثا فتهيؤوا ثم احملوا مع الرابعة فلما كبر أول تكبيرة أعجلهم أهل فارس وعاجلوهم فخالطوهم مع أول تكبيرة وركدت حربهم مليا فرأى المثنى خللا في بعض صفوفه فأرسل إليهم رجلا وقال إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم فقالوا نعم واعتدلوا). [١٣٠]

انكسر الفرس في المعركة انكساراً كبيراً، وقُتِل قائدهم مهران، وقائد فرسانهم شهر براز.. وقُتِل منهم جندٌ كثيرون، وكان أثر موقعة البويب مهمّاً فقد أتاحت للمسلمين أن يقوموا بغاراتٍ واسعةٍ في أرض السواد شمالاً وغنموا مغانم مثيرةً لم يعرفوا مثلها قبل.

****

عندما انجلى غبار معركة البويب.. قال المثنّى بن حارثة شيئاً دقيقاً وهائلاً:

(... قد قاتلت العرب والعجم في الجاهليّة والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهليّة كانوا أشدَّ عليَّ من ألفٍ من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشدُّ عليَّ من ألفٍ من العجم، إنَّ الله أذهب مصدوقتهم، ووهّن كيدهم، فلا يروعنّكم زُهاءٌ ترونه – يعني هيئتهم – ولا سوادٌ – يعني كثرتهم – ولا قسيٌّ مجّ ولا نبال طوال - قد بانت أوتارها - إذا أُعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهّتموها اتّجهت). [١٣١]

المثنّى قاتل قرن الشيطان حتى في الجاهليّة!..

وها هو يلاحظ الفرق..

في الجاهليّة.. كان مائةٌ من العجم أشدَّ من ألفٍ من العرب..

في الإسلام.. صار مائةٌ من المسلمين أشدَّ من ألفٍ من العجم..

المثنّى فسّر ذلك بتغيُّرٍ أصاب الفرس.. ذهاب مصداقيّتهم، ووهن كيدهم..

لكنَّ الحقيقة هي أنَّ العرب تغيَّروا أيضاً.. نما العملاق في داخلهم.. نما الإنسان الجديد في داخلهم، فجعل الواحد منهم أقوى من عشرةٍ من العجم.

لم يكن ذلك لأنَّهم تناولوا مشروب الطاقة مثلاً..

بل لأنَّ الإسلام برؤياه الجديدة للإنسان ولعلاقته مع ربه، قد نفخ فيه من العزَّة ما جعله يكون أقوى..

---

١٣٠ تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٧٢

١٣١ تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٧٣

والقوَّة هنا ليست الشِّدة في الحرب فحسب.
بل هي القوَّة والعزَّة مطلقاً.
إنَّها ما يجعل المائة منهم أكثر إنتاجاً من ألفٍ من سواهم... أكثر تأثيراً على العالم. أكثر إبداعاً... أكثر «تغييراً»..
كان ذلك يحدث حقّاً..
وكان المثنَّى قد عاصر عرب الجاهليَّة، وعرب الإسلام، وجاءت البويب لتجعله يقول هذه الجملة التي تؤشِّر إلى **وجود متغيِّرٍ حضاريٍّ كبيرٍ دخل المعادلة..**
إنَّه الإنسان،
الطرف الأهمُّ في معادلة الحضارة.

****

وهل يذكِّرنا هذا بشيءٍ مؤسفٍ حصل لاحقاً.. ولا يزال ماثلاً في ذاكرتنا..
يوم سقطت بغداد بيد المغول، وأجرى المغول في الناس السيف لأربعين يوماً..
يوم كان «مغوليٌّ» واحدٌ يحمل سيفاً واحداً يُجهِز على أربعين رجلاً ينتظرون دورهم للذبح..
يوم كان المغوليُّ يستوقف رجلاً مسلماً.. فيقف... فيذهب المغوليُّ ليجلب سيفه.. والمسلم ينتظر.. فيذبحه!

تغيَّرت المعادلة.

****

وماذا نحن الآن؟
كم نساوي نحن الآن مقابل كم من العالم؟
الألف منا كم يعادل من الشعوب التي سبقتنا؟ بالإنتاجيَّة؟ بالمخترعات؟ بالقراءة والاطِّلاع؟
بالإبداع؟
نعرف جيِّداً أنَّ المعادلة بوضعها الحاليِّ ليست مما يسرُّ..
لكنَّنا نعلم أنَّ ذلك كلَّه يمكن أن يتغيَّر..
بجهودنا، بإيماننا بقدرتنا على ذلك.. بإيماننا أنَّ ذلك ما أمرنا الله به.

الطريق إلى المعركة الحاسمة قد اقترب.

@iAbubader

اندفع الفرس يستعملون كلَّ أوراقهم.. يشترون الذِّمم.. يثيرون القبائل.. وكان عمر بن الخطاب مدركا أنَّ ما بعد البويب سيكون حاسماً..

المثنَّى بانتظار المدد العسكريِّ..

وكان عمر قد تجاوز في النفير العامِّ موضوع الترغيب والإقناع، ووصل إلى حدِّ التجنيد الإلزاميِّ (وهو أوَّل من شرَّع ذلك في الدَّولة الإسلاميَّة)..

وهنا قال عمر قولته الشهيرة:

والله لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب..[١٣٢]

هل كان للعرب ملوك!

لا قطعاً..

لم يكن للعرب ملوكٌ..

لكنَّه كان يقصد هذا الإنسان الجديد الذي ولد في كلِّ مسلمٍ.. كان يقصد هذا الإنسان الممتلئ عزَّةً وقوَّةً كما لو كان ملكاً متوَّجاً على عرشه..

هذا الملك المتوَّج بإيمانه وعزَّته هو الاستثمار في مشروع الفتح..

وقد عزم عمر على أن يضرب ملوك العجم الممتلئين ترفاً وعنصريَّةً وتجبُّراً وتكبُّراً وحقداً وظلماً.. بملوك العرب.. بالإنسان المسلم الجديد.

وكانت القادسيَّة موعدهم.

١٣٢ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٨

الكلام لسعد، ولكن اسمعي يا جارة!

كان عمر يدرك أهميَّة المواجهة الأخيرة بين المسلمين والفرس.

كان يدرك أنَّ الانتصار في هذه المواجهة سيُحدِّد مسار التاريخ.. تاريخ الحضارة الإسلاميَّة.

وقد كان عمر عظيم الاهتمام بهذه المعركة..**(فلم يدع رئيساً ولا ذا رأيٍ ولا ذا شرفٍ ولا ذا سلطةٍ ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم...)**.[١٣٣]

كان عمر يدرك تماما أهميَّة ما سيحدث.. لذا فقد استنفر كلَّ شيءٍ من وسائل الإعلام في ذلك الوقت، ولذلك فقد كان يريد أن يرمي بكلِّ الثقل في تلك المواجهة.

لا الثقل الماديّ، العدَّة والعدد فحسب..

بل الثقل المعنويّ أيضاً..

أكثر من هذا، كان يريد لمن **يكسر قرن الشيطان أن يكون من الجيل الأوّل..**

من الجيل الذي تربَّى على يدَي الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرةً..

لذا كان عمر على وشك أن يكون هو من يتولّى قيادة الجيش هذه المرَّة..

(... فقد استهلَّت هذه السنة الرابعة عشرة وعمر رضي الله عنه يحثُّ الناس، ويحرِّضهم على جهاد الفرس، وركب رضي الله عنه أوّل يومٍ من المحرم في هذه السنة في الجيوش من المدينة، فنزل على ماءٍ يقال له صِرار، فعسكر به عازماً

---

١٣٣ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٨

على غزو العراق بنفسه، واستخلف على المدينة عليَّ بن أبي طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان وسادات الصحابة، ثمَّ عقد مجلساً لاستشارة الصحابة فيما عزم عليه، ونودي الصلاة جامعة، وقد أرسل إلى عليٍّ فقدم من المدينة، ثم استشارهم فكلُّهم وافقوه على الذهاب إلى العراق إلا عبد الرحمن بن عوف فإنَّه قال له: إني أخشى إن كُسِرتَ أن تَضعف المسلمين في سائر أقطار الأرض، وإني أرى أن تبعث رجلاً، وترجع أنت إلى المدينة، فاستصوب عمر والناس عند ذلك رأيَ ابن عوف، فقال عمر: فمن ترى أن نبعث إلى العراق؟

فقال: قد وجدته!

قال: ومن هو؟ قال: الأسد في براثنه، سعد بن مالك الزهريّ، فاستجاد قوله، وأرسل إلى سعد، فأمّره على العراق). [١٣٤]

الأسد في براثنه إذن.. سعد بن أبي وقاص.

لِمَ سعد تحديداً؟

لسعد، عدا فضل مكانته وصحبته وسَبْقِه رمزيةٌ كبيرةٌ تتعلَّق بقرابته من الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فهو من أخوال الرسول، **وهذه العلاقة كانت تجعل المسلمين في هذه المواجهة يستحضرون في سعد علاقته بالرسول الكريم.. فيدافعون ويهاجمون ويطيعون، ويذودون كما كانوا يفعلون مع الرسول عليه الصلاة والسلام..**

القيمة المضافة التي يقدِّمها سعدٌ كانت تقدِّم دعماً للمزيد من النفير العام، وتبريراً للتجنيد الإلزامي الذي نادى به عمر.. لا يمكن لأحدٍ أن يعترض وهو يرى كبار الصحابة في الجيش، وأبناؤهم معهم..

كذلك فقد كان لسعدٍ سجلا حافلا : لقد كان يوماً ما ثلث الإسلام (أي ثالث ثلاثة في الإسلام) [١٣٥]، و كان له موقف يوم أحد عندما وقف يدافع عن الرسول الكريم [١٣٦]، وكان يُعَدُّ أوَّل مَن رمى بسهمٍ في سبيل الله [١٣٧]، وأنَّه الوحيد الذي افتداه الرسول بأبويه فقال له: «ارمِ سعد.. فداك أبي وأمي». [١٣٨]

---

١٣٤ البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٢، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣
١٣٥ المستدرك على الصحيحين ٦١٦٧
١٣٦ صحيح البخاري ٤٠٥٥
١٣٧ سنن الترمذي ٢٥٣٩ وصححه الالباني
١٣٨ صحيح البخاري ٤٠٥٥

وكان سعدٌ أوّل من أراق دماً في الإسلام! وذلك حين اعترض المشركون سبيل المسلمين عندما أرادوا الصلاة في أحد شعاب مكة، فضرب سعدٌ رجلاً من المشركين بعظم جمل فشجَّه، فكان أوّل دمٍ أريق في الإسلام.[١٣٩]

ويقول عليّ بن أبي طالب: ما سمعت الرسول يفدي أحداً إلا سعداً![١٤٠]

ارمِ سعد.. فداك أبي وأمي!

واليوم، سيرمي على عرش الفرس..

قرن الشيطان!

****

وصَّى عمر سعداً عندما أمَّره على الجيش السائر إلى العراق بهذه الوصية:

(يا سعد، سعد بن وهيب، لا يغرنَّك من الله أن قيل: خال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنَّه يمحو السيئ بالحسن، فإنَّ الله تعالى ليس بينه وبين أحدٍ نسبٌ إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربُّهم، وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنَّه الأمر، هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها كنت من الخاسرين...).[١٤١]

عمر الذي استخدم رمزيَّة قرابة سعدٍ من الرسول في تجييش الناس **يحذِّره من أن تجعله هذه القرابة يعتقد أنَّ له فضلاً غير فضل التزامه بالإسلام!..**

هو يقول له: (يا سعد بن وهيب)، ووهيب هو جدُّ سعد، وهو عمُّ آمنة بنت وهب والدته عليه الصلاة والسلام، وهو عمُّها الذي ربّاها بعد وفاة والدها.. **فهو يذكِّره بخؤولته له عليه الصلاة والسلام ليذكِّره بأنَّ وهيباً - صلة الربط والقرابة - إنما مات على الشرك!..** فلا يغرنَّك ما يقول الناس عن قرابتك للرسول، إنَّما فضلك ابتدأ يوم بُعث الرسول عليه الصلاة والسلام فاتَّبعتَه وكنتَ من أوائل من اتَّبعه، أمَّا أيَّة قرابةٍ ونسبٍ قبل ذلك، **فهذا ممّا يشترك فيه حتى المشركون!**

---

١٣٩ سنن الترمذي ٢٥٣٩ وصححه الالباني
١٤٠ صحيح البخاري ٦١٨٤
١٤١ البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٢

عمر يستبق الأمر. سعدٌ لم يقل شيئاً، ولعلّه لم يدُرُ في باله.. لكنَّ عمر العملاق الخبير بالنفوس يعرف كيف يتسلّل الشيطان من هذه الثغرات فيوسعها.. عمر لم يقل عندما أمّر سعداً إنّه إنّما يؤمّره لأنّه خال الرسول.. إنّما قيل عنه **الأسد في براثنه، وبراثن الأسد مخالبه، ويعني هذا أنّ لسعدٍ «مخالب» وقدرات لا تزال لم تُستخدم في الفتوحات.**

عمر يذكّر سعداً بهذه الحقيقة كي لا يزهو بقرابته، فالأصل عمل.. والكلُّ سواء عند الله، شرفاء الناس ووضيعهم، ولا نسب ولا قرابة إلا الطاعة والقرب منه عزَّ وجلَّ.

لم يسكت عمر إذن على المفهوم، ولم يترك الناس يزيدون ويكبّرون من أمر القرابة دون حقٍّ!..

لم يسكت.. ها هو يوصي سعداً علناً فيفهم الناس أنّه يوصيهم أيضاً.

وسيكون له متّسعٌ من الوقت لاحقاً، ليقدّم المزيد من مجرّد الوصيّة.

****

(... إنّي قد ولّيتك حرب العراق فاحفظ وصيّتي، فإنّك تقدم على أمرٍ شديدٍ كريهٍ لا يخلّص منه إلا الحقّ، فعوّد نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أنّ لكلّ عادةٍ عتاداً، فعتاد الخير الصبر، فالصبر على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته، وإنّما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحبِّ الآخرة، وعصاه من عصاه بحبِّ الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً، منها السرُّ ومنها العلانية، فأمّا العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحقّ سواء، وأمّا السرُّ فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبّة الناس، فلا تزهد في التحبُّب فإنَّ النبيّين قد سألوا محبتهم، وإنَّ الله إذا أحبَّ عبداً حبّبه، وإذا أبغض عبداً بغّضه، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس، ممن يشرع معك في أمرك).

ولّيتك حرب العراق، لكن إيّاك أن تفرح!.. الأمر شديد الصعوبة، بل هو كريه !..(الصراع مع الشيطان لكسر قرنه أمرٌ كريهٌ حتماً).

كلماته هنا كما لو كانت موجّهةً لنا جميعاً، لا لسعدٍ وجيشه خاصّةً، بل هي لنا جميعاً، ألا يُفترض أن نكون في هذا الجيش السائر لمحاربة قرن الشيطان-أينما كان، وباختلاف وسائل ذلك؟ أليس جزءٌ من إسلامنا أن نفعل ذلك؟ أليس تهديم الفساد جزءاً

من أيَّة عمليَّة بناء؟

هاهو يقول شيئا لا بدَّ لنا منه، كما لسعدٍ، كما للجنود في جيش سعد، كما للجميع..

الحقُّ لا يأتي إلا عبر الخير.

أن يصبح الخير عادةً.

كيف يُصبح عادة؟

والخير لا يأتي إلا عبر تعوُّده.

لكلِّ عادةٍ «عتاد»..

وعتاد عادة الخير الصبر.. لكي تنال الحق لا بدَّ من الخير، والخير لا بدَّ أن تتعوَّده.. أن يكون جزءاً من **سلوكك اليومي.. سلوك كلِّ يومٍ الذي تفعله بتلقائيَّة ودون طول تفكير.. ألا نتحدَّث دوماً عن سلوكيَّاتٍ إيجابيَّةٍ لشعوبٍ معيَّنةٍ؟ سلوكياتٍ هي كالعادة التي لا يفكِّر أحد فيها عند تنفيذها لأنَّها سلوكٌ يوميٌّ، تلقائيٌّ.**

كيف حصل هذا؟

حصل كما يقول عمر!

الخير صار عادة، ولا يصير الخير عادة إلا بالصبر.. تصبر عليها.. تحارب أهواءك.. تبقى تنبِّه الآخرين على أنَّ هذه الورقة التي رموها على الأرض هي أذى نُهينا عن رميه، ومن إيماننا أن نُميطه عن الطريق.. تبقى تحتمل أذاهم وسخريَّتهم.. مع الوقت سيكفُّون عن ذلك.. عن السخرية وعن رمي الأذى في الطريق..

تصبر على أن تحارب الرشوة.. على احترامِ مواعيد العمل.. على عدم تضييع الوقت أثناء العمل.. على إتقان العمل كجزءٍ ممّا أُمرنا به في ديننا.

سيكون ذلك كالوقوف بوجه التيار العاتي.. **تيار المجتمع الذي تعوَّد اللامبالاة، وفهم من كلِّ الأمور شكليَّاتها فقط.. ستجد السخرية والاستهزاء وربَّما المحاربة، أو اللامبالاة في أحسن الأحوال، لكن هذا الوقوف في وجه التيار، سيتحوَّل بالتدريج إلى تغيير مسار التيار.. سيصير الخير عادةً عند الناس.**

الحديث عن طاعة الله واجتناب معاصيه في هذا السياق، يجعلنا ننظر إلى أمر الطاعة والمعصية في سياقٍ أوسع من فهمنا الفرديّ لها.. بل في سياق الجماعة.. في سياق نهضة الأمَّة.. في سياق صناعة الحضارة.

السياق الفرديُّ لن يُلغى، لكنَّه سيكون «مجموعةً جزئيَّةً» من السياق العامّ.. السياق الذي يصب طاعاتنا وأعمالنا الصالحة معاصينا وخطايانا في المحصلة النهائيّة التي تبني المجتمع وتنهض الأمة

أو.. العكس.. تهدم المجتمع وتقتل بذرة أيَّة نهضة.

ما المعيار في هذا؟

المعيار في أيَّة طاعةٍ من هذا النوع «البنّاء».. هو بُغضُ الدنيا وحبُّ الآخرة.

والعكس بالنسبة للمعصية هو حبُّ الدنيا وبُغض الآخرة.

لكن حذار من سوء الفهم هنا: الدنيا التي يبغضها هؤلاء الطائعون الناهضون هي ليست الدنيا مطلقاً.. وإلاَّ ما كانوا خرجوا للحرب ومجاهدة قرن الشيطان.. ما **أسهل البقاء في البيوت وبُغض الدنيا فيها..**

لكنهَّم كانوا يبغضون الدنيا كما كانت سائدةً.. دنيا كسرى وهرقل والملأ القرشيّ.. دنيا المعاصي والشهوات والبُعد عن ما أراده الله.

الدنيا التي تحقِّق للشيطان قسَمه: (فبعزتك لأغوينَّهم أجمعين).

لكنهَّم كانوا يحبِّون الدنيا الأخرى.. **الدنيا التي يقومون ببنائها.. الدنيا التي هي مزرعة الآخرة.. الدنيا كما يريدها الله أن تكون.**

وهو ينبِّه سعداً، وينبِّهنا، إلى أن يتساوى عندنا الذمُّ والمدح في الحقّ!.. ولكنَّه لا يزهِّده في التحبُّب، فحتَّى الأنبياء طلبوا حبَّ الناس من الله عزَّ وجلَّ.

أنت يا عمر تطلب منّا «تحبُّب الناس»؟!

أنت يا مَن لم يُبقِ لك الحقُّ صاحباً!.. أنت يا من افتتحت خلافتك بخطبةٍ صفعتَ فيها من يتحدَّث عن شدَّتك بالقول إنَّ شدَّتك ستتضاعف!

@iAbubader

نعم.. فلكلٍّ موقعه في مشروع الفتح.

وما هو مهمٌّ في القائد الميدانيِّ قد يكون أقلَّ أهميَّةً عند الخليفة الذي يستمدُّ سلطته من الحقِّ الذي يمثِّله دون مساومة.

أمَّا القائد الميداني، فعليه أن يوازن بين الأمور.. لا يتنازل عن الحق.. لكنَّ محبَّة جنده له جزءٌ من طاعتهم له.

كتحصيل حاصل: ما ترك الحقُّ لعمر صاحباً.. مرحليّاً.

لكنَّه في المحصلة النهائيَّة: جعله الأكثر تأثيراً.. وجعل الناس تحبُّه، عبر العصور.. ربما أكثر ممَّا فعلت مع أيِّ خليفةٍ أو حاكم آخر.. وربما بفارقٍ كبير.

وربَّما لو أنَّه حرص على أن يحبَّه الناس أكثر من حرصه على الحقِّ - الذي ما ترك له صاحباً - لما حدث له ذلك.. **لما كان عمر!**

****

سار سعدٌ إلى العراق في أربعة آلاف مقاتل، ووصل إلى مكانٍ يقال له: زرود، في أطراف نجد، واستطاع أن يجمع من نجدٍ سبعة آلافٍ آخرين.. وكان المثنَّى ينتظر جيش سعدٍ ومعه حوالي ١٢ ألف مقاتلٍ.

وقبل أن يلتقي سعدٌ بالمثنَّى، مرض المثنى مرضاً شديداً من جراحٍ أصيب بها في موقعة الجسر، وتوفِّي.. لكنَّه قبل وفاته أوصى لسعدٍ بوصيةٍ من واقع خبرته بحرب الفرس، كان يعي على ما يبدو أهميَّة رمزيَّة أن يقود أحد الصحابة المعركة الفاصلة، فلم يجد في نفسه شيئاً من تولية سعدٍ للجيش بأسره، لكنَّه أوصاه بأن لا يحارب القوم في عقر دارهم، بل على أطرافها، (... **فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم، وإن تكن الأخرى فاؤوا إلى فئة، ثم يكونون أعلم بسبيلهم، وأجرأ على أرضهم، إلى أن يردَّ الله الكرَّة عليهم** !).[١٤٦] ولعلَّ تجربته في موقعة الجسر التي حوصر فيها المسلمون في أرض ضيقة قد أوصلته لهذه القناعة التي تمنح المسلمين أكثر من فرصةٍ بدلاً من أن تكون فرصةً واحدةً فقط.

لقد مات المثنَّى وهو يفكِّر في النصر، ويخطِّط له، ويوصي بما يتصوَّره مناسباً!..

أمَّا عمر فقد كتب إلى سعدٍ عندما أمره بالرحيل من زرود إلى العراق يوصيه بما يلي..

١٤٦

(أمّا بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كلِّ حال، فإنَّ تقوى الله عزَّ وجلَّ أفضل العدَّة على العدو، وأقوى العدَّة في الحرب).[١٤٣]

التقوى مجدّداً..

بالتأكيد!.. أليست هي خير الزاد حتى في الرحلات العاديّة، أفلا تكون من باب أولى في المسير لملاقاة العدوّ؟

لكن ماذا عن التجهيز الماديّ؟.. لِمَ لا يذكره عمر؟ هل يعقل أن يكون كلُّ تركيزه فيما نسمِّيه القلبيَّات، ويترك العدَّة الماديَّة؟

هذا الفصل بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح لم يكن له وجودٌ عند الجيل الأول، وإنما وفد إلينا لاحقاً.. الجيل الأول لم يعرف هذا الفصل المزعوم، ولذلك تفوَّق في القلب كما في الجوارح... في الدنيا كما في الآخرة.

بل إنَّ هذه الآية: «وتزوَّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى»، التي يشير لها عمر ضمناً، إنَّما كان سبب نزولها كما روى البخاريّ (**عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون يقولون نحن المتوكِّلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله عز وجل «وتَزَوَّدوا فَإِنَّ خَيرَ الزادِ التَقوى»..).**[١٤٤]

أي تزودوا !.. لا تعتقدوا أنَّ التوكل على الله يمكن أن يتعارض مع الأخذ بالأسباب.. على العكس، التقوى الحقيقيَّة.. التقوى كما فهمها الجيل الأول تتضمن الأخذ بالأسباب.. فأن تتقي الله يعني أن تفهم سننه وأسبابه، وإذا كان المعنى في أولئك الحجيج من اليمن هو أن تتزود بالطعام والماء بدلاً من المسألة بحجة التوكل.. فإنَّ المعنى في السير للحرب هو أن تتَّخذ عدَّة القتال كاملةً، بدلاً من أن يكون انكسارك تحصيلاً حاصلاً.

عندما يوصي عمر بالتقوى، فهو يعني طاعة الله في أوامره واجتناب معاصيه، ويتضمَّن ذلك قطعاً وبالتأكيد: **وأعدُّوا!**

(... وترفَّقْ بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشِّمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزلٍ يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنَّهم سائرون إلى عدوٍّ مقيمٍ، جامِّ الأنفس والكراع وأقم بمن معك كلَّ جمعةٍ يوماً وليلةً حتى

---

١٤٣ العقد الفريد ج ١ ص ٣٧
١٤٤ صحيح البخاري ١٤٥١

تكون لهم راحةً، يجمعون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمّة، فلا يدخلنّها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً فإنّ لهم حرمةً وذمّةً ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فوفّوا لهم.. ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح...).[١٤٥]

ها هو أبو العيال يوصي حتى بالجنود، فهم عياله أيضاً، رغم شدّته، يوصي سعداً بأن يترك لهم مساحةً للراحة في هذا المسير الشاقّ.. ويوصيه أن لا تكون راحتهم على حساب قرى من تصالح معهم، أي أهل العهد.. بل إنّه يمنع المسلمين من دخول هذه القرى، حفاظاً على حرماتها!

إنّها الحضارة وأخلاقها وقيمها تتجسّد في سلوكياتٍ ربّما لم يكن المسلمون كلُّهم يدركونها بعد، لقد كانت تجربةً جديدةً بالنسبة لهم، وكان المخاض الحضاريُّ كلُّه يجعلهم يتعلّمون من عمر الذي ولد من خلال القرآن وتربّى على يدي الرسول الكريم، وكان نظام تشغيل عقله قرآنيّاً.. ها هو يوصيهم بما سيكون انتصارهم الحقيقيّ، أكثر من الانتصار في ساحات المعارك، الانتصار بالقيم والأخلاق.. أيُّ أثرٍ كان لهذا السلوك على أهل قرى الصلح؟.. لقد تصالحوا خوفاً من شوكة المسلمين.

لكنّ قلوبهم فتحها هذا السلوك..

(... وإذا وطئت أدنى أرض العدوّ فأذكِ العيون بينك وبينهم، ولا يخفَّ عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئنّ إلى نصحه وصدقه، فإنّ الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعض، والغاشُّ عينٌ عليك وليس عيناً لك، وليكن منك عند دنوّك من أرض العدوّ أن تكثر الطلائع، وتبثّ السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائعُ عورتَهم، وانتقِ الطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخيَّر لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول من تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد، ولا تخصّ أحداً بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصّتك، ولا تبعث طليعةً ولا سريّةً في وجهٍ تتخوّف فيه ضيعةً ونكايةً، فإذا عاينت العدوّ فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوّتك، ثم لا

١٤٥ نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢ ص ٢١٥

تعالجهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلَّها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنيعته بك، ثم أذكِ حُرّاسك على عسكرك، وتحفَّظ من البيات جهدك...).[146]

لكنَّ عمر يريد من سعدٍ أن ينتبه إلى أنَّ الأخلاق لا تعني السذاجة والطيبة.. لذا فهو يعطي نصائح استخباراتيَّةً عامَّةً لا بدَّ منها لأيِّ حربٍ، لا بدَّ من عيونٍ، ولا بدَّ من الرقابة على هذه العيون، فلا يصدِّق كلّ ما ينقل، بل يتحقَّق من الصدق.. كما يوصيه بأن لا يستعجل القتال إلا دفاعاً عن النفس، فهو لا يريد منهم أن يتأقلموا على المكان، أن يرتبطوا به أن يعرفوه جيِّداً كما يعرفه أهله قبل أن ينجزوا الولوج في القتال..

بعبارةٍ أخرى، يريد منهم أن **يكون الملعب ملعبهم!.. حتى يتمكَّنوا من الفوز فيه..**

(... وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوِّكم، فإنَّ ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوِّهم، وإنَّما ينصر المسلمون بمعصية عدوِّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوةٌ لأنَّ عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوَّة، وإن لا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوَّتنا، واعلموا أنَّ عليكم في سيركم حفظةٌ من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدوَّنا شرٌّ منَّا، ولن يسلَّط علينا وإن أسأنا، فربَّ قوم سُلِّط عليهم شرٌّ منهم كما سُلِّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرةُ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً، اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوِّكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم..).[147]

لا تقولوا إنَّ عدوَّنا شرٌّ منَّا ولن يسلّط علينا وإن أسأنا!!!

هل يتحدَّث مع سعدٍ وجيشه؟؟

أم معنا؟!

هل هذه الوصيَّة لسعدٍ عندما أمره أن يسير من زرود إلى العراق، أم هي وصيَّةٌ لنا نحن، ونحن عشيَّة مسيرنا نحو الحضارة التي يجب أن نشيِّد؟.. هل هي الوصيَّة التي لن يُمكن أن نسير على ذلك الدرب ما لم نطبقُها؟

هذا الحوار الذي يتحدَّث عنه عمر: **إنَّ عدوَّنا شرٌّ منَّا**، ألا نسمعه كلَّ يوم؟ ألا نقوله نحن أحياناً بصوتٍ منخفضٍ؟

١٤٦ نهاية الأرب في فنون الأدب ص ٢١٥-٢١٦
١٤٧ العقد الفريد ج ١ ص ٣٧

ألا نسمع دوماً من يجادل عندما نقول: **إن ترك المعاصي والالتزام بأوامر الله جزءٌ أساسٌ من نهضتنا؟!** ألا نسمعهم يقولون: فما بال الغربيين إذن؟ ألا يفعلون كلَّ المعاصي دون أن يعدُّوها معاصي أصلاً.. ولم يؤثِّر ذلك على قوَّتهم؟!..

لِمَ نحن بالذات نعتقد أنَّ ترك المعاصي سيكون جزءاً من أسباب النهضة والنصر؟

ها هو عمر يردُّ..

لأنَّنا لسنا سواءً في العدَّة والعدد.. ذنوبنا ومعاصينا ستكون قوةً مضافةً «لهم» في سباق الحضارة.. إن تساوينا في المعاصي، نحن وهم، كانت الغلبة لهم بقوَّتهم.. بعدَّتهم.

ذنوبنا ومعاصينا - أحياناً - أشدُّ من العدوِّ علينا..

لأنَّها - أحياناً - تعكس عدم جديَّتنا في الدرب الذي يجب أن نسير عليه..

وصَّاهم عمر.. فسمعوا ووعوا.

كسرى خارج التغطية..

بقي أن نسمع ونعي نحن!

كان عمر متابعاً دقيقاً لا لما يدور فحسب، بل لما لم يحدث بعد.. نعرف مقدرته الفذّة على توقُّع الأزمة قبل حدوثها، ورغبته في السير للعراق قبل توليته سعداً، لذا فقد حرص على أن يكتب له سعدٌ كتباً مفصّلةً كلَّ يوم..

كلَّ يوم!

كان ذلك في عصرٍ لا بريد إلكترونيّاً فيه ولا مؤتمرات عبر الفيديو Video Conference.

ولو كان، لما تركها عمر ثانيةً واحدةً..

كان عمر قد فتح خطّاً ساخناً، بكتابٍ كلَّ يوم[148] ينقل له سعدٌ كلَّ التفاصيل.. كلَّها.. من العراق إلى المدينة.

رسائل سعدٍ إلى عمر تُعَدُّ إلى اليوم وثائق جغرافيَّةً - سوسيولوجيَّةً لِما كان عليه الوضع في ذلك الجزء من العراق عشيَّة الفتح..

وكان عمر يلحّ في الطلب.. يريد المزيد من الوصف.. من التفاصيل..

كان يريد أن يكون في المشهد..

كي ينظر عبره.. كي يمدَّ بصره عبر الأفق، ويرى ما يجبُّ عَمَلَه..

---

١٤٨ البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٥

أتخيَّله هناك في المدينة ساهماً في الأفق البعيد.. نحو الشمال الشرقيِّ، حيث كان قرن الشيطان رابضاً..

أتخيَّله يفكِّر طيلة الوقت فيما يجب عمله..

وقال عمر لسعدٍ في رسائله: **(لا يكربنَّك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به واستعن بالله، وتوكَّل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه إلى الله فإنَّ الله جاعلٌ دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً عليهم وإكتب إلي في كل يوم...).**[١٤٩]

فاختار عمر سبعةً بينهم النعمان بن المقرن، وعدي بن سهيل، واختار سعدٌ بينهم عمرو بن معد يكرب، والأشعث بن قيس، والمعنى بن الحارثة (شقيق المثنَّى)..
وفدٌ لمحادثة كسرى إذاً.
وفدٌ من أربعة عشر رجلاً تمَّ انتقاؤهم بدقَّة.. لمحاورة كسرى.
هل كان ثمَّة أمل في المحاورة؟
هل حقاً كان يأمل في أن يقبل كسرى (قرن الشيطان) بالدعوة..!
ربَّما لا، لكنَّ عمر كان يعلم أنَّ التاريخ كلَّه قد مدَّ بصره ليرى ماذا سيفعل المسلمون..
كان عمر يعلم أنَّ ما سيحدث الآن سيترك أثراً أكبر بكثيرٍ من السنة التي يحدث فيها كلُّ هذا، أو العقد الذي يحدث فيه، أو حتى القرن..
كان عمر مدركاً **أنَّه إنما يفعل ما سيترك الأثر على الإنسانيَّة جمعاء.. لذا فقد حرص على أن يعطي كسرى فرصةً يدعوه فيها إلى الله قبل أن يحاربوه..**
يمكن أن نقول إنهم كانوا يُسقطون فرضاً.. يؤدُّون ما عليهم.. يتركون الكرة في ملعب كسرى، وهم يعلمون أنَّه لن يناولهم إيَّاها مجدَّداً.

****

ليس هذا فقط..
ولو كان هذا، لما احتاج إلى كلِّ هذا الوفد..
كانت رسالةٌ واحدةٌ تعرض الإسلام ستفي بالغرض، كما سبق وفعل عليه الصلاة والسلام..
لكنَّ وفداً من أربعة عشر رجلاً تمَّ انتقاؤهم بدقَّة.. لا بدَّ أن يكون لهم «هدفٌ آخر» يتجاوز دعوة كسرى إلى دين الله..
الأمر جليٌّ.

---
١٤٩ البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٥

أربعة عشر رجلاً عُرفوا بالذكاء والخبرة والحكمة يدخلون قصر كسرى في المدائن، يدخلون عرين الأسد، ويجولون في عاصمة قرن الشيطان، وفي الطريق الفاصل بينها **وبين المكان الذي تعسكر فيه الجيوش.**

من الواضح أنَّهم كانوا فرقةً استطلاعيَّةً على أعلى مستوى.. كان عمر قد وصَّى سعداً باتِّخاذ العيون على العدوّ، ووصَّاه أيضاً بعدم تصديق كلِّ ما تنقله هذه العيون والتحقُّق والتدقيق بما تنقله من أخبار..

وهل هناك تدقيقٌ وتحقُّقٌ أكثر من هذا الاختراق الذي حقَّقه الوفد وصولاً لقصر كسرى!..

وفدٌ «منتقى» **للتدقيق والاختراق اللوجستي!..**

ليس هذا فقط..

لكنَّ دخولهم القصر، ولقاءهم بكسرى وبطانته، كان سيجعلهم يعرفون عبر لغة الجسد، ولغة العيون، ما لا تقوله الكلمات..

لغة الجسد في القصور ستفضح الجبهة الداخليَّة رغم كلِّ البروتوكولات، ستُظهر الحقيقة التي يريدون مداراتها.. سيظهر الضعف - الكامن - رغم مظاهر القوة.

ذلك الوفد، وبهذا الحجم، وقبول كسرى لاستقباله، دلَّ على أنَّ الفرس لم يكونوا مقدِّرين لخطر العدوِّ الواقف على أسوار حضارتهم.

****

(... وأدخلوا على ملك الفرس يزدجرد، فسألهم بواسطة ترجمانه: ما جاء بكم ودعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فتكلَّم عنهم النعمان بن مقرن، فقال: إنَّ الله رحمنا، فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر، ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة، فلم يدع قبيلة قاربه منها فرقة، وتباعد عنه منها فرقة، ثم أمر أن نبتدئ بمن خالفه من العرب، فبدأنا بهم، فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط، وطائع فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمر أن نبتدئ بمن جاورنا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دينٌ حسَّنَ الحسن، وقبَّحَ القبيح كلَّه، فإن أبيتم فأمرٌّ من الشرِّ أهونُ من آخر شرٍّ منه: الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع منكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزاء قبِلنا منكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزاء قبِلنا منكم ومنعناكم وإلاَّ قاتلناكم.

@iAbubader

فقال ملك الفرس يزدجرد: إنّي لا أعلم أمّةً في الأرض كانت أشقى، ولا أقلَّ عدداً ولا أسوأ ذات بينٍ منكم، فقد كنّا نوكل لكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم، ولا تطمعون أن تقوموا لفارس، فإن كان غرورٌ لحقكم فلا يغرنّكم منّا، وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فقام المغيرة بن زرارة، فقال: أمّا ما ذكرت من سوء الحال، فكما وصفت وأشدّ، وذكَرَ من سوء عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي صلى الله عليه وسلم.. مثلَ مقالة النعمان، ثم قال: اختر إمّا الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، أو السيف، وإلا فنجِّ نفسك بالإسلام.

فقال يزدجرد: لولا أنّ الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي، ثم استدعى بوقر (حمل ثقيل) من تراب، وقال لقومه: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن، فقام عاصم بن عمرو وقال: أنا أشرفهم وأخذ التراب فحمله وخرج إلى راحلته فركبها، ولما وصل إلى سعدٍ قال له أبشر: فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم).[١٥٠]

كان يزدجرد كأغلب الطغاة يعيش في كوكبٍ آخر.. يعتقد أنّ كلَّ ما يحدث هو مجرد مؤامرةٍ على الملك من قبل البدو الذين تجرّؤوا بسبب «انشغالنا عنكم»..

المشكلة كانت هي في انشغال الفرس عن العرب.. **كلُّ المشكلة كانت في أنّهم انشغلوا عنهم قليلاً.. لو أنّهم لم ينشغلوا لما حدث شيء!**

حديث كسرى يلخّص موقف أغلب الأكاسرة عبر التاريخ، بغضِّ النظر عن لونه وعرقه وزمانه ومكانه.. إنّهم يعيشون في عالمهم الخاصِّ الذي يدور حولهم.. لا يستطيعون فَهْمَ التحوُّلات الكبرى في التاريخ **التي تجعلهم «منتهي الصلاحيّة»**.. يصرُّون على أن لا شيء يحدث، وأنّ كلَّ شيءٍ على ما يرام.

كلام كسرى يلخّص أيضاً ذلك التعالي العنصريَّ الذي يعاني منه كلُّ من يسقط في فخِّ أيدلوجية تقوم على نقاء عرقٍ أو أفضليّته على بقيّة البشر، **وهي أيدلوجيات لا تزال قائمةً ومنتشرةً، ولكن صارت تتحرّج من إعلان عنصريّتها القبيحة، فتخفيها خلف شعاراتٍ عن حضارة الرجل الأبيض الذي قد يقبل رجلاً أسمر لو مسخ هويّته، وخرج عنها ليقلّد الرجل الأبيض حذو القذة بالقذة.**

كسرى يقول باستخفافٍ مزدوجٍ إنّه كان يكتفي بترك أمر العرب لفلاحي القرى! هو

---

١٥٠ تاريخ الطبري ج ٧ ص

يستخفُّ بهم وبرعاياه في آنٍ واحدٍ.. وهذا شأن كلِّ الطغاة.. يستخفُّون بشعوبهم وبالشعوب الأخرى على حدٍّ سواء.
كلام كسرى يتكرَّر كثيراً في كلِّ عصرٍ وزمان.. بالضبط يتكرَّر في اللحظات التي ينتهي فيها عصرٌ ليبدأ عصرٌ آخر.. فقط لو أنصتنا جيِّداً لما قاله لأدركنا أننا سمعناه مراراً وتكراراً.

****

الحوار بين كسرى والوفد كان يشبه حواراً مع أطرش يتحدَّث في موضوعٍ لا علاقة له بموضوع الحوار..
كسرى: انشغلنا عنكم فتجرَّأتم وجئتم لبلادنا (لاحظوا.. صارت بلادهم!).
الوفد: بل جاءنا رسولٌ بدعوة الحقِّ والخير والرحمة.
كسرى: أنتم جرابيع.. لا نعرف من هو أقلُّ شأناً أو ضعةً منكم.
الوفد: نعم، كنَّا كذلك حتى جاء الإسلام.
كسرى: إن شئتم جئنا بملك عليكم يكرمكم، ويكون رفيقاً بكم!
الوفد: إمَّا الجزية أو السيف، أو تُسلم لتنجوَ بنفسك.
كسرى: مَن أشرفكم؟ فليحمل هذا التراب على ظهره ولا يخرج من المدائن إلا وهو على ظهره.

****

خرج الوفد بنتيجةٍ مهمَّةٍ جدّاً.
هي أنَّ كسرى «خارج التغطية» تماماً.. فاقد الصلة بالواقع.. غير مدركٍ لما يحدث حوله، ولما سيحدث بملكه.. غير مدركٍ أنَّ التاريخ يدخل في انعطافةٍ حادَّة، وأنَّه هو وعرشه وحضارة أجداده على وشك التعرُّض لضربةٍ هائلةٍ تزيلهم من الواقع، وتجعلهم مجرَّد ذكرى من ذكريات التاريخ.
ما أمرَ به كسرى ممَّا عدَّه إهانةً للوفد مِن أن يحمل أشرفُهم حِملاً ثقيلاً من التراب، كان حماقةً كبيرةً تحمل دلالاتٍ رمزيَّةً كبيرةً.. **ربَّما دون أن يشعر كسرى، فقد سلَّم «الأرض» لأشراف العرب.. لم يعِ كسرى هنا إنهم لم يعودوا عربا فقط.. بل صاروا مسلمين!**

لكن رستم، قائد الجيش، وأحد المتصارعين على الملك، لم يكن خارج التغطية تماماً..

@iAbubader

كان مدركاً جزئيّاً لخطورة الموقف.. ربّما لأنّ القادة العسكريين يكونون أقرب إلى الواقع منهم إلى البرج العاجيّ الذي يقيم فيه الملوك..
طلب رستم من سعدٍ أن يرسل لهم رجلاً يكلّمهم..
فجاء ربعي بن عامر، هو ورمحه!
(... فأرسل إليه: ربعيَّ بن عامر، فجاءه وقد جلس على سريرٍ من ذهب، وبُسُط النمارق، والوسائد منسوجة بالذهب! فأقبل ربعيٌّ على فرسه، وسيفه في خِرقة، ورمحه مشدودٌ بعِصَب، فلما انتهى إلى البساط وطأه بفرسه، ثم نزل وربطها بوسادتين شقّهما: وجعل الحبل فيهما، ثم أخذ عباءة بعيره، فاشتملها، فأشاروا عليه بوضع سلاحه، فقال: لو أتيتك فعلت ذلك بأمركم، وإنما دعوتموني -!-، ثم أقبل يتوكّأ على رمحه، ويقارب خطوه حتى أفسد ما مرّ عليه من البُسط، ثم دنا من رستم، وجلس على الأرض، وركز رمحه على البساط، وقال: إنّا لا نقعد على زينتكم...). [151]
فلننتبه هنا إلى أنّ ربعيّاً لم يكن يتصرّف بجلافةٍ كما قد يبدو للوهلة الأولى.. كان يتصرّف بعزّةٍ.. كان يتصرّف بالطريقة التي تستفزُّ رستم، وتجعله يشعر أنّ حملة الدين الجديد والحضارة الجديدة لهم معايير مختلفةٌ جدّاً عن حضارتهم الآيلة للسقوط.. حضارة لا تكترث بكلّ تلك الأبّهة والمظاهر الفارغة ما دامت فارغةً تُخفي خلفها ظلماً وجوراً وبُعداً عن ما أراده الله للإنسان.
كلُّ تلك الماركات الفاخرة، كلُّ تلك السلع الثمينة، ليست معيارنا في الحضارة، ولا تُقرّبنا من حضارتنا إلا بمقدار ما تقرّبنا كوسائل إلى تحقيق أهدافنا..
فقال له رستم: ما جاء بكم؟
قال: الله جاء بنا!.. (أيّة ثقة.. أيُّ رعبٍ أُلقي في قلب رستم.. لم يكن يتوقّع هذا الجواب عندما سأل سؤال: ما جاء بكم؟.. كان يتوقّع جواباً عن الغنائم مثلاً.. لكن.. اللهُ جاء بنا!).
(... بَعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل لنا رسوله بدينه إلى خَلقِهِ، فمن قبله قبِلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نُفضي إلى الجنة، أو الظّفر.
فقال رستم: قد سمعنا قولكم، فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟
فقال: نعم، وإنَّ مما سَنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألاّ نمكن الأعداء أكثر

---
١٥١ الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤١٣

من ثلاث، فنحن متردِّدون عنكم ثلاثاً. فانظر في أمرك، واختر واحدةً من ثلاثٍ بعد الأجل: الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك، وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا، وأنا كفيلٌ عن أصحابي.

فقال رستم: أسيِّدهم أنت؟ (تصوَّر أنه يواجه سعداً نفسه، متنكِّرا بزيٍّ جنديٍّ عاديٍّ، وتصوَّر أنَّه كشفه!)..

قال: لا ولكنّ المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض، يجِيرُ أدناهم أعلاهم.

ثم انصرف. فخلا رستم بأصحابه، وقال: رأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل؟!

فأروه الاستخفاف بشأنه:

فقال رستم: ويلكم وإنما أنظر إليَّ الرأي والكلام والسيرة، والعربُ تستخفُّ اللباس وتصون الأحساب.

فلما كان اليوم الثاني من نزوله، أرسل إلى سعدٍ أن ابعث إلينا هذا الرجل، فأرسل إليه حذيفة بن مِحْصَن الغلفاني، فلم يختلف عن ربعي في العمل والإجابة.

فقال له رستم: ما قعد بالأول عنا؟ قال: أميرنا يعدل بيننا في الشدَّة والرّخاء، وهذه نوبتي. فقال رستم: والمواعدة إلى متى؟ قال: إلى ثلاث، من أمس.

وفي اليوم الثالث أرسل إلى سعدٍ أن ابعث إلينا رجلاً، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة، فتوجَّه إليه، ولمَّا كان بحضرته جلس معه على سريره، فأقبلت إليه الأعوان يجذبونه! فقال لهم: قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً، إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني: أنَّ بعضكم أرباب بعض، وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم، وأنَّ مُلكاً لا يقوم على هذه السِّيرة ولا على هذه العقول.

تكلَّم رستم بكلامٍ صَغَّر فيه شأن العرب، وضخَّم أمر الفرس، وذكر ما كانوا عليه من سوء الحال وضيق العيش.

فقال المغيرة: أمَّا الذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق والاختلاف، فنعرفه ولا ننكره، والدنيا دُول، والشدَّة بعدها الرخاء، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلاً على ما أوتيتم، وقد أسلمكم ضعف الشُّكر إلى تغيُّر الحال، وإنَّ الله بعث فينا رسولاً. ثم ذكر مثل ما تقدَّم، وختم كلامه بالتخيير بين الإسلام أو الجزية أو المنابذة.

فخلا رستم بأهل فارس، وقال: أين هؤلاء منكم؟ ألم يأتكم الأوَّلان فجسراكم واستخرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا

أمراً واحداً. هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين.. والله لئن بلغ من أدبهم وصونهم لسرِّهم أن لا يختلفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم. لئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيءٌ. فَلجُّوا).[١٥٢]

رستم لم يكن خارج التغطية تماماً.. لقد تنبَّه إلى أن العرب تغيَّروا.. يتحدَّثون بمنطقٍ واحدٍ.. يأتي منهم ثلاثة جنود. فيتكلَّم كلٌّ منهم الحديث نفسه.. **المعايير نفسها صاغت طريقة تفكيرهم.**

يلتفت رستم إلى من حوله. فلا يجد اثنين متَّفقين على شيءٍ..

فيفهم أنَّ الأمر أخطر مما قد يبدو لكسرى..

****

وقد ثبت في صحيح البخاري واقعة مشابهة حدثت مع أحد عمال كسرى، لا نعرف إن كان رستم أو سواه. لكنها تدل على أن خطاب المسلمين كان واحدا. لأنه صادر عن عقل جمعي واحد يجعلهم يتكلمون ويفكرون على النحو ذاته..

(عَنْ جُبَيْرِ بْنِ حَيَّةَ قَالَ فَنَدَبَنَا عُمَرُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْنَا النُّعْمَانَ بْنَ مُقَرِّنٍ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِأَرْضِ الْعَدُوِّ، وَخَرَجَ عَلَيْنَا عَامِلُ كِسْرَى فِى أَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَقَامَ تَرْجُمَانٌ فَقَالَ لِيُكَلِّمْنِى رَجُلٌ مِنْكُمْ. فَقَالَ الْمُغِيرَةُ سَلْ عَمَّا شِئْتَ. قَالَ مَا أَنْتُمْ قَالَ نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ كُنَّا فِى شَقَاءٍ شَدِيدٍ وَبَلاَءٍ شَدِيدٍ، نَمَصُّ الْجِلْدَ وَالنَّوَى مِنَ الْجُوعِ، وَنَلْبَسُ الْوَبَرَ وَالشَّعَرَ، وَنَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالْحَجَرَ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرَضِينَ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَجَلَّتْ عَظَمَتُهُ إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا، نَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، فَأَمَرَنَا نَبِيُّنَا رَسُولُ رَبِّنَا - صلى الله عليه وسلم - أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ أَوْ تُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ، وَأَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا - صلى الله عليه وسلم - عَنْ رِسَالَةِ رَبِّنَا أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ فِى نَعِيمٍ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَطُّ، وَمَنْ بَقِىَ مِنَّا مَلَكَ رِقَابَكُمْ!).[١٥٣]

****

(... ثم إنَّ رستم خرج بجيشه الهائل، مائة ألف أو يزيدون، من ساباط، فلمَّا مرَّ على كوش - قرية بين المدائن وبابل - لقيه رجلٌ من العرب، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون منا؟ قال: جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تُسلموا.. قال رستم: قد وضعنا إذاً في أيديكم.. قال العربي: أعمالكم

---

١٥٢ الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤١٣ - ٤١٤
١٥٣ صحيح البخاري ٣١٥٩

وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يغرنّك ما ترى حولك، فإنّك لست تجادل الإنس، وإنما تجادل القدر!

فغضب منه رستم، وقتله؛ فلما مرَّ بجيشه على البرس – قرية بين الكوفة والحلة غصبوا أبناء أهله وأموالهم، وشربوا الخمور، ووقعوا على النساء! فشكِي أهل البرس إلى رستم فقال لقومه: والله لقد صدق العربيّ! والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله إنّ العرب مع هؤلاء وهم حربٌ أحسن سيرةً منكم).[١٥٤]

****

لا تجادل الإنس.

إنّما تجادل القدر..!

هكذا كان المسلمون يشعرون، وهم مقبلون على مشروع الفتح.. مشروع بناء حضارة «لا إله إلا الله».. **كانوا يشعرون أنّهم جزءٌ من القدر، جزءٌ من إرادة الله وقدرته..**

كم أمدَّهم الإيمان بكونهم جزءاً من القدر بطاقةٍ وقدرةٍ على التغيير!.. كم أمدَّهم بدوافع ليحقِّقوا تلك المعجزة الاستثنائيَّة التي حقَّقوها في أقصر مدة!.. معجزة الانتقال من أقلّ الأمم شأناً إلى أرقاها وأكثرها عزَّةً ومنعةً..

إنّما تجادل القدر.. فلا تجادله.. نحن جزءٌ منه، جزءٌ من السُّنن التاريخيَّة.. جزءٌ من حركة التاريخ، ولا أحد يستطيع أن يوقف ذلك.

****

كان هذا الرجل ينتمي لعصر العزَّة..

يمكن لفردٍ آخر يعيش عصر الذلِّ، لا عصر العزة أن يقول: إنَّ قدره هو أن يعيش الهوان والضعف.

نعم، يمكن هذا، وقد حدث كخيارٍ جماعيٍّ أحياناً!..

لهذا نقول ما قاله عمر باني ومشيِّد حضارة «لا إله إلا الله»، يوم قال بكلِّ وضوحٍ..

نفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله..

يوم سأله أبو عبيدة، أنفرُّ من قدر الله؟ عندما أمر عمر أن لا يدخلوا مدينةً عمّ فيها الوباء..

نعم، نفرُّ من قدر الله، إلى قدر الله..[١٥٥]

---

١٥٤ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ص ٥٧
١٥٥ صحيح مسلم ٥٩١٥

وهناك قدر الطاعون، قدر الوباء، قدر الذل، قدر الهوان..

لكنّنا نفرُّ إلى القدر الآخر.. القدر الذي نحقّق فيه ما أمرنا الله به.. إنه قدر الله أيضاً.. لكنّنا نفرُّ إليه..

فأيُّ قدرٍ سنختار نحن، إن كنّا حقاً جادِّين في صنع الحضارة ؟

قدر الاستسلام لطاعون الضعف..

أم قدر العزَّة..

قدر حركة التاريخ..

الذي لا يمكن جداله.

ألف عام، أربعة أيام، وثلاث ليال!

الجيوش متأهِّبةٌ للقاء.

كلُّ جيشٍ أخذ موقعه في القادسية.. متقابلين.. منتظرين ساعة الصفر..

(ساعة النهاية بالنسبة لمعسكر كسرى، وساعة البداية، الفتح، بالنسبة لمعسكر المسلمين).

الهدوء الذي يسبق المعركة يسود الساحة الفاصلة بين الجيشين..

وهناك في معسكر الفرس، يخرج رستم، يمدُّ ببصره إلى الجهة الأخرى.. كما لو أنَّه يريد أن يجادل القدر..

الهدوء الحذر سيِّد الساحة.. الصَّمت محمَّلٌ بكلِّ ما لا يريد رستم أن يسمعه.

فجأةً، ينطلق صوتٌ من معسكر المسلمين.

ويفزع رستم.

ينادي على قومه أن اركبوا على خيلكم.

ماذا؟

يقول: أما سمعتم؟.. لقد نودي فيهم ليتحششوا - يتحركوا - إليكم!

فقيل له إنما هذا نداؤهم ليقوموا لصلاتهم.. فقال: إنما هذا عمر، هو الذي علَّم هؤلاء الكلاب العقل!..

@iAbubader

كان هذا هو الأذان!..

وعندما سمعهم يصلُّون..

قال رستم قولته الشهيرة: أكل عمر كبدي..[١٥٦]

أي: قضى عليَّ!

في الجيش ثلاثمائة وبضعة عشر صحابيًّاً.

منهم سبعون بدريًّاً.

وسبعمائة من أبناء الصحابة.

اختار عمر عبر مراسلاته مع سعدٍ وبكلِّ دقَّةٍ كلَّ القيادات في الجيش.. مَن في الميمنة.. مَن على الميسرة.. مَن على المقدمة.. مَن على الطلائع، ومَن على الفرسان، ومَن على الراجلة، ومَن على الراكبة.

ربَّما الأسماء هنا ليست مهمَّةً جدَّاً في هذا السياق.

لكن هناك اسمٌ واحدٌ كان يملك دلالاتٍ كبيرةً جداً، ولا يمكن أن نغفله.

اسمٌ لصحابيٍّ جليلٍ تمَّ اختياره ليكون داعي الجيش ورائده.. أي يكون من ينادي بالجيش كلِّه.. مَن يثير فيهم الحماسة والهمَّة..

إنَّه سلمان.

سلمان الفارسيّ[١٥٧]، لا غيره..

لم يكن هذا الاختيار صدفةً.. لو تمَّ اختياره ليكون مع الوفد الذي ذهب إلى كسرى لقلنا إنَّه اختير لأنَّه يعرف القوم أكثر من سواه..

لكنَّه اختير ليكون داعي الجيش ومناديه.. جيش المسلمين، في حربهم مع الفرس، بني قومه..

هذا هو المعنى.. الحرب لم تكن مع الفرس لأنَّهم فرس.. بل لظلمهم.. لتجبُّرهم.. لكفرهم.

---

١٥٦ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٥

١٥٧ الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٠٨، تاريخ الطبري ج ٣ ص ٩

تلك الدعوة التي اتَّبعها سلمان، والتي قطعت الطريق نحو بناء «حضارتها». لم تكن قط دعوةً قوميَّةً أو متحيِّزةً للعرق العربيِّ.. **العربيَّة كانت وعاءها اللغويَّ فقط، لكن رسالتها كانت للعالمين جميعاً**، لكلِّ البشر.. لكلِّ مَن يشعر أنَّه بحاجةٍ إلى أن تكتمل إنسانيَّته بأن يكون ما أراد له خالقه أن يكون.. بغضِّ النظر عن عشيرته أو عرقه أو لونه أو بلده.

حضارة «لا إله إلا الله» تترفَّع عن العنصريَّة.. فالعنصر الأهمُّ فيها هو القيم التي يحملها الإنسان.. العنصر الأهمُّ هو عبوديَّته لله واستسلامه لأوامره..

حضارة «لا إله إلا الله» تترفَّع عن السقوط في هذا الفخِّ.

حتى في لحظة المواجهة الحاسمة مع من تصادَفَ أنهم فرس.. سيكون منادي الجيش فارسيَّاً اتَّبع الرسول **لا لأنه عربيٌّ، بل لأنَّ رسالته هي الحقُّ.**

كلنا ثقةٌ أنَّ في المعسكر الآخر - معسكر الفرس - كان هناك مجنَّدون عربٌ جُنِّدوا طمعاً بأعطيات كسرى أو كانوا منهزمين نفسيَّاً فانحازوا لمن تصوَّروا أن لا سبيل لهزيمته، أو كانوا قد اعتنقوا المجوسيَّة فحاربوا في صفِّها..

الانحياز لقرن الشيطان لا علاقة له بالانتماء العرقيِّ..

إنَّه مسألة مبدأ..

والانحياز للحقِّ كذلك..

وكان سلمان داعي الجيش نموذجاً على ذلك..

وكان عمر يدرك كلَّ ذلك، ويريد أن يؤكِّده، وكان يعرف أنَّ التأريخ ينظر إليه، وإلى ذلك الموقع الذي اجتمع فيه الجيشان.. وأنَّ كلَّ ما سيحدث سيسجَّل في رصيد تلك الحضارة التي يقوم بصنعها..

أو عليها.

****

وقد كان سعدٌ رضي الله عنه مريضاً بعرق النسأ، وبه دمامل وقروح تعيق حركته، فلا يستطيع الركوب ولا الجلوس فكان مكبّاً على صدره وتحته وسادة ويشرف على الميدان من قصر قُدَيْس الذي كان في القادسية، وقد أناب عنه في تبليغ أوامره خالد

بن عرفطة[158]. وقد أمر بأن ينادي في الجيش: **(ألا إن الحسد لا يحلّ إلا على الجهاد في أمر الله، أيُّها الناس فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد)**.[159]

تحاسدوا على الجهاد!..

تغايروا عليه!..

هذا هو مجال التنافس والغيرة والحسد.. أثبتوا أنفسكم فيه.. لا شيء غير هذا اليوم.. غير هذا الجهاد.. هو محكُّ عملكم وصداق إيمانكم..

خطب فيهم سعد بن أبي وقاص.. (إن الله هو الحقُّ لا شريك له في الملك، وليس لقوله خُلف. قال الله جل ثناؤه (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ).. (الأنبياء :١٠٥) إنَّ هذا ميراثكم وموعود ربِّكم، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يقرِّب ذلك أحداً إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم تُوبقوا آخرتكم).[160]

خطب فيهم فقال ما قاله الله في كتابه..

أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون!..

أيُّ مكانٍ أنسب من هذا لتلاوة هذه الآية!..

أيُّ مكانٍ، وهو على أبواب المواجهة التي ستجعلهم يستلمون، رسميّاً، إرثهم المستحقّ..

المستحقّ بماذا؟

بكونهم «عباداً صالحين»..

لقرونٍ رسخت صورةٌ سلبيَّةٌ للغاية عن العبد الصالح.. صورةٌ تجعل منه على هامش الحياة.. يقضي وقته بين المسجد والبيت.. يسير قرب الحائط لكي يتجنَّب الاصطدام بأيِّ شيءٍ.. زهده في الدنيا حوَّله إلى الزهد حتى في إصلاحها..

هذه هي الصورة التي تكرَّست في أذهاننا عن العبد الصالح.

هل سيرث هذا الأرض؟

---

١٥٨ تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٩٦
١٥٩ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٣
١٦٠ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٤

لا بالتأكيد.. سيرثها عبادٌ صالحون من نمط آخر.. من النمط الذي قدَّمه القرآن، والذي طبَّقه أولئك الواقفون، المتأهِّبون للقتال في القادسيَّة.

عبادٌ فهموا العبادة على نحوٍ لا يحصرها في المسجد فقط.. **الأرض كلُّها مسجدٌ لهم**، ووظيفتهم إصلاحها، وجعلها على نحوٍ يُرضي اللّٰه.. نحوٍ أكثر عدالة.. وهذا ما يجعلهم يرثونها.. أداؤهم لمسؤوليتهم تجاهها..

لا يعني هذا بالضرورة القتال.. لكنَّه يعني «الفعل» حتماً.. العمل المستمرُّ الدؤوب سواءٌ اتَّخذ هذا شكل الجهاد العسكريِّ في مرحلةٍ ما، أو اتَّخذ أشكالاً أخرى من البناء الحضاريِّ..

في هذه المواجهة، كان الجهاد عملاً عسكريّاً يستأصل قرن الشيطان..

لكنَّ الطريق إلى استحقاق الإرث يأخذ أشكالاً متعدِّدة، بحسب مرحلة البناء الحضاريِّ التي يمرُّ بها صنَّاع الحضارة.

****

استمرَّت المواجهة أربعة أيامٍ أُطلق على كلٍّ منها اسمٌ خاصٌّ به..

أرماث.. أغواث.. أعماس والقادسيَّة..

في اليوم الأول وجَّه سعدٌ رضي اللّٰه عنه بيانه إلى الجيش قائلاً: **(الزموا مواقفكم لا تحرِّكوا شيئاً حتى تصلُّوا الظهر، فإذا صلَّيتم الظهر فإنِّي مكبِّرٌ تكبيرةً، فكبِّروا واستعِدُّوا، واعلموا أنَّ التكبير لم يعطه أحدٌ قبلكم، واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم، ثمَّ إذا سمعتم الثانية فكبِّروا، ولتستتم عُدَّتكم، ثمَّ إذا كبَّرتُ الثالثة فكبِّروا، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا، فإذا كبَّرتُ الرابعة فازحفوا جميعاً، حتى تخالطوا عدوَّكم وقولوا: لا حول ولا قوة إلا باللّٰه).**[١٦١]

التكبير.. اعلموا أنَّه لم يعطَه أحدٌ قبلكم!.. وإنَّما أعطيتموه تأييداً لكم..

أيَّةُ قوةٍ أن تجد العزَّة والقوَّة والمنعة في كلِّ تفصيلٍ من تفاصيل دينك.. أن تجد أنَّه يميِّزك عن كلِّ مَن سبقك من الأمم والتجارب الحضاريَّة.. أن يجعلك أكبر، وأهمّ، وأكثر تأثيراً..

أربع تكبيراتٍ.. ثم الزحف..

١٦١ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٧

بعد صلاة الظهر!..

(... لما صلى سعد الظهر أمر الغلام الذي كان ألزمه عمر إياه وكان من القراء ان يقرأ سورة الجهاد(= الأنفال) وكان المسلمون يتعلمونها كلهم فقرأ على الكتيبة الذين يلونه سورة الجهاد فقرئت في كل كتيبة فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها...).[١٦٢]

تُراها كانت همسةً عمريَّةً، كتبها عمر في كتابه اليوميِّ إلى سعد أن يقرأ سورة الأنفال على الجيش كلِّه!..

سواءٌ كان عمر، أو سعداً فقد كان يُراد **بسورة الأنفال أن يستحضر المسلمون جوَّ سورة الأنفال..** أن يستحضروا أسباب نزولها.. **فيتَّخذوا من سبب النزول سلَّماً يتسلَّقونه نحو الأعالي..**

أن يستحضروا يوم بدر.. التي نزلت السورة بعده بالضبط..

يوم بدر، الذي هُزِم الجمع فيه وولُّوا الدُّبر..

والذي كان يشبه القادسيَّة فعلاً..

مواجهةٌ قريشٍ الأقوى عُدَّةً وعدداً، وبين المسلمين الذين كانوا أقلَّ عدداً وعُدَّةً.

كان عدد المسلمين في بدر يقارب ثلث عدد المشركين، وكانت النسبة تقلُّ إذا أخذنا بنظر الاعتبار الفرسان والخيول (٣١٣ ومعهم فرسان فقط، مقابل ١٠٠٠ مشرك معهم ١٠٠ فرس)..

وفي القادسية، لم يتجاوز عدد المسلمين ٣٦ ألف مقاتل..

وكان عدد الفرس ١٢٠ ألف مقاتل.. وكان معهم الفيلة التي لم يتعامل معها المسلمون من قبل..

كفَّار مكَّة كانوا يريدون استئصال التجربة الجديدة..

وكفَّار فارس ما كان يمكن لهم أن يتركوا التجربة الجديدة أن تمضي.. **قرن الشيطان كان لا بدَّ له أن يستهدف المسلمين..**

بدر.. القادسيَّة..

١٦٢ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٧

وسيُهزم الجمعُ.. ويولُّون الدُّبر.

تلك كانت رسالة اختيار سورة الأنفال للمسلمين غداة المواجهة..

أن يشخصوا بأبصارهم إلى بدر..

أن يستحضروها..

٣٠٠ صحابيٍّ، كان منهم أكثر من مائتين ليسوا بدريين..

استحضروا بدراً، وهم يريدون أن ينالوها، وقد فاتتهم في المرَّة الأولى..

٣٦ ألف مسلمٍ، كانوا يريدون أن ينالوها ذلك اليوم..

وفي الأفق كانت سورة الأنفال.. تقول لهم أن تعالوا.

****

استمرَّت المعركة أربعة أيامٍ وثلاث ليالٍ..

كلُّ المعارك الفاصلة في الفتوحات الأخرى تستمرُّ يوماً واحداً..

لكنَّ المعركة مع قرن الشيطان لا يُمكن أن تكون ليومٍ واحدٍ فقط..

استقتل الفرس في الدفاع عن عاصمتهم.. أدركوا أنَّ هزيمتهم في المعركة سيعني نهاية كلِّ ملكهم، كانوا قد دفعوا بكلِّ قوتهم وثقلهم.. وكان المدد يأتيهم في أيام المعارك الأربعة فيدخل المدد في دوَّامة المعركة..

أبدى المسلمون في المعركة - بأيامها الأربعة ولياليها الثلاث - ما هو أكثر من مجرد الشجاعة والإقدام.. أبدوا **الإبداع والابتكار والإتقان وأيضا الالتزام.. وهي لوازم كلِّ مواجهةٍ وبناءٍ حضاريَّين حتى لو لم تكن مواجهةً عسكريَّةً.**

أبدع المسلمون وابتكروا في مواجهة ما لم يواجهوه من قبل من الفيلة، وكانوا في كلِّ يومٍ يغيِّرون أسلوب مواجهتها على نحوٍ مربكٍ للفرس، وبطريقةٍ تجعل هذه الفيلة سلاحاً ضدَّ الفرس أنفسهم!.. يقطعون أحزمتها وحبالها أوَّل مرةٍ فتسقط هوادجها، ويسقط الجنود منها وترتعب الفيلة فتدوسهم فيُقتلون، وقد يقطعون أذنابها - وهي التي ترتبط بها الأحزمة - فيسقط الهودج ويعلو نهيم الفيلة فترتبك الفيلة الأخرى وتهيج، وتولِّي الأدبار، وتدهس على الجنود خلفها.

كما أنَّهم صاروا يضربون أعين الفيلة أو يقطعون مشافرها، فصارت الفيلة تصيح صياح الخنازير وتطأ الفرس بأقدامها.

وعمدوا إلى إظهار الإبل بمظهرٍ مخيفٍ فألبسوها وحلَّلوها، ووضعوا لها البراقع على وجوهها، وحملوا عليها المشاة وأحاطوها بالخيول لحمايتها، وهجموا بها على خيول الفرس، ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلوا بالمسلمين يوم أرماث، فجعلت تلك الإبلُ لا تصمد لقليلٍ ولا لكثير إلا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين، فلمَّا رأى ذلك الناس استنُّوا بهم، فلقي الفرس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث.

****

كان مقتل رستم حدثاً فاصلاً في اليوم الرابع، يوم القادسيَّة..

وما إن انطلقت صيحة «قتلت رستم وربِّ الكعبة»[١٦٣] حتى انكسر جيش الفرس انكساراً تامَّاً وفرَّ بقيَّة القادة نحو النهر، فتتبَّعهم المسلمون، وقضوا عليهم وعلى فلولهم..

استشهد في هذه المعركة عددٌ كبيرٌ من المسلمين، أكثر من ٨ آلاف شهيدٍ، أي قرابة ربع الجيش، وهو رقمٌ كبيرٌ جداً بمقاييس ذلك الوقت، وبالمقارنة مع معارك الفتوحات في البلدان الأخرى، وذلك أنَّ المجوس- قرن الشيطان - قد رموا بكلِّ ثقلهم للدفاع عن عاصمتهم وملكهم.. ودفع المسلمون الثمن كاملاً في سبيل إعلاء كلمة الله والحضارة القائمة على هذه الكلمة.

ألف سنةٍ من احتلال قرن الشيطان للعراق، انتهى بتلك المعركة الفاصلة: أربعة أيام، وثلاث ليال.

وعندما دخل سعدٌ إيوان كسرى في المدائن صلَّى ثماني ركعاتٍ هي صلاة الفتح[١٦٤]..

إنَّها سُنَّةٌ عنه عليه الصلاة والسلام..

سنَّةٌ حُرِمنا نحن منها، حرَّمناها على أنفسنا، منذ أن انسحبنا من الفتح.. من مفاهيمه.. من مقوِّماته.. علَّمونا كيف نصلِّي صلاة الخوف، ولكن لم يقولوا لنا أنَّ هناك أيضاً صلاةً للفتح.. صلاةً للنصر..

١٦٣ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٩
١٦٤ الطبري ج ٣ ص ١٢٦

صلاة الفتح، في قلب إيوان كسرى..

الأسد في براثنه.. سعد.. يصلي النصر في قلب إيوان كسرى.. بعد أن كسر قرن الشيطان.

«صلاة الفتح».. سُنَّة حُرِم منها جيلنا المنكوب بالهزيمة والانكسار، حُرِم منها لأنَّه حُرِم الفتح.. لأنَّه حرَّم على نفسه أن يكون من الفاتحين..

ليس جيلنا فقط.. بل أجيال كثيرة سبقتنا حُرِمت "صلاة الفتح".. حتى أنَّنا صرنا لا نكاد نعرف عنها شيئاً.. أو ربَّما لم نسمع بها أصلاً..

نعرف الكثير عن سننٍ أخرى، ونختلف ونعرف الخلافات على هذه السنَّة أو تلك.. على كونها سنَّةً أو لا..

لكنَّنا لم نختلف قط على صلاة الفتح.. لأنَّنا لم نعرف الفتح أصلاً.. لم نذقه.. لم نعمل ما يجعلنا مؤهَّلين له..

«صلاة الفتح».. سنَّةٌ عن قائد الفاتحين، عليه الصلاة والسلام، صلاها يوم فتح مكَّة ثماني ركعاتٍ بتسليمةٍ واحدة.[١٦٥]

قال ابن القيِّم:

(ثمَّ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل، وصلى ثماني ركعاتٍ في بيتها، وكانت ضحى، فظنَّها مَن ظنَّها صلاة الضحى، وإنَّما هذه صلاة الفتح، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلداً صلُّوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي القصَّة ما يدلُّ على أنَّها بسبب الفتح شكراً لله عليه فإنَّها قالت ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها). [١٦٦]

صلاة الفتح، صلاها سعدٌ في قلب إيوان كسرى..

وربَّما تُصلَّى في قلب أيِّ فتحٍ آخر، حتى لو لم يكن فتحاً عسكريَّاً، فتحاً علميَّاً، فتحاً إداريَّاً، فتحاً في الدعوة..

صلاة الفتح ثماني ركعاتٍ، دون تسليمٍ بينها، هي سنَّةٌ تنتظر أن نصلِّيها.. تنتظر أن نذهب إلى الفتح، أن نكون أيضاً من جيل الفاتحين.. لكي نستحقَّ أن نصلِّيها..

---

١٦٥ متفق عليه البخاري ٣١٧١ مسلم ٧٩١

١٦٦ زاد المعاد ج ١ ص ٣٣٠

أم أنّنا سنكتفي بصلاة الخوف؟!

فتح النصر في القادسيَّة الباب نحو انتصاراتٍ متتاليةٍ، ففُتحت المدائن بلا قتالٍ تقريباً، إذ وجدها المسلمون خاليةً من السكّان إلا قليلاً، وفرَّ كسرى، وبقي هارباً هائماً على وجهه وحده حتى قُتِل في خراسان في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

تلت القادسيَّة موقعة جلولاء التي غنم فيها المسلمون غنائم عظيمةً، وتلاها فتح مدن رامهريز، وتستر، وجندي سابور..

ثم كان فتح الفتوح عام ٢١ هجرية: نهاوند.

كان عمر قد قرّر أن يقف عند حدود جبال زاكروس عند مدينة نهاوند، فيوقف الفتوحات العسكريَّة ليتفرَّغ لنوعٍ آخر لا يقلُّ أهميةً من الفتوحات.. **الفتوحات الإداريّة..**

لكن ما حدث بعدها، كان أنَّ هذا الفتح قد أدّى لفتح كلِّ بلاد فارس.. حيث جاء كلُّ وجهاء المدن يطلبون الصلح، وفُتحت كلُّ فارس بلا قتال.

****

في المدينة، وأثناء أيام القادسيَّة، كان عمر يخرج إلى أطراف المدينة.. ينتظر خبراً من العراق..

(وكان عمر رضي الله عنه يستخبر الركبان عن أهل القادسيَّة من حين يصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله ومنزله، فلمّا لقي البشير سأله من أين؟ فأخبره، قال: يا عبد الله حدثني قال: هزم اللهُ العدوَّ، وعمر يخُبُّ معه - يعني يسرع - ويستخبره، والآخر على ناقته ولا يعرفه، حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلِّمون عليه بإمرة المؤمنين فقال: فهلا أخبرتني رحمك الله أنّك أمير المؤمنين، وجعل عمر يقول لا عليك يا أخي).[١٦٧]

كلَّ يوم.. من الصباح إلى انتصاف النهار.. ينتظر أن يكون هناك خبرٌ من ركبان جاؤوا من العراق.. يسأل عمّا يحدث هناك!

مثل أمٍّ قلقةٍ على ابنٍ لها خرج في رحلةٍ صعبةٍ ولم يعد بعد..

ثمَّ جاء من أرسله سعدٌ بالخبر، وهو لا يعرف عمر، لكنّه يعرف أنَّ عليه أن تصل الرسالة إلى أمير المؤمنين، ولم يتوقّع قط أن يجده منتظراً في البريّة..

---

١٦٧ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٨٤

من أين؟ يسأل عمر.

فيردُّ الراكب وهو مسرع: من العراق.

فيسأله بلهفةٍ، تكاد تسمع دقّات قلبه مع السؤال.. **تكاد تتخيّل أنَّ فؤاده أصبح فارغاً مثل فؤاد أمِّ موسى بانتظار الجواب..**

يا عبد الله حدِّثني!.. أخبرني ما تحمل من خبرٍ؟!..

فيردُّ الراكب مسرعاً باختصار: هزم الله العدوَّ!..

يتنفَّس عمر الصعداء.. يتنفَّس عالمه الصعداء.. لكنَّه يخُبُّ، يركض مسرعاً خلف الراكب وهو يسأله المزيد من التفاصيل..

والرجل على ناقته مسرعاً، ولا يعرفه، ولا يتصوَّر سوى أنَّه ممَّن حبسه العذر..

فلمَّا يدخل المدينة يلقي الناس التحيَّة على عمر: السلام عليك يا أمير المؤمنين..

فيذهل الرجل: أما كنت أخبرتني..

فيقول عمر: لا عليك يا أخي.

****

وجاء في رسالة سعد:

(... أمَّا بعد، فإنَّ الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتالٍ طويلٍ، وزلزالٍ شديدٍ، وقد لقوا المسلمين بعُدَّةٍ لم يرَ الراؤون مثل زهائها - يعني مقدارها -. فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهم، ونقله عنهم إلى المسلمين، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان، ورجالٌ من المسلمين لا نعلمهم، والله بهم عالم، كانوا يدَوُّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دويَّ النحل، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم).[١٦٨]

النصر، السنن، يدوُّون بالقرآن دويَّ النحل..

ثلاثة مترادفاتٍ في رسالة سعد.

---

١٦٨ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٨٤

@iAbubader

ثم صعد عمر إلى المنبر ليخطب..

(لما أتى عمر رضي الله عنه خبر الفتح قام في الناس، فقرأ عليهم الفتح، وقال: إنِّي حريصٌ على أن لا أدع حاجةً إلا سدَّدتها ما اتَّسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك منَّا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف، ولوددت أنَّكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم، ولست معلِّمكم إلا بالعمل، إني والله ما أنا بملكٍ فأستعبدكم، وإنَّما أنا عبد الله عرض عليَّ الأمانة، فإن أبيتها يعني أعففت نفسي من أموال الرعية ورددتها عليكم، واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت، وإن أنا حمَّلتها واستتبعتها إلى بيتي شقيت، ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً، وبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب).[١٦٩]

الفتح بالنسبة له كان مناسبةً، لا لإظهار القوَّة والفخر بها كما يفعل القادة المنتصرون المنتمون لمنظوماتٍ حضاريَّةٍ أخرى.. بل للعدالة الاجتماعيَّة.. لتأكيدها وتكريس قيمها لحدِّ «الاستواء في الكفاف»..

في عزِّ النصر، يتحدَّث عمر عن الأمانة الثقيلة، وعن كونه «ليس معلِّمهم إلا بالعمل»..

لست معلِّمكم إلا بالعمل!!

هذا هو منهاج حضارة «لا إله إلا الله».. لا تعلّم إلا بالعمل.. وكلُّ ما لا يؤدِّي إلى هذا لن يكون ذا جدوى في هذا السياق.. سياق صنع حضارة «لا إله إلا الله»..

لست معلِّمكم إلا بالعمل!!..

أيَّة كلمةٍ.. وأيُّ تعليمٍ.. وأيُّ عملٍ!..

****

لكنَّه افتتح خطبته بسورة الفتح..

تذكرون؟

عندما نزلت السورة، بعد صلح الحديبية..

---

١٦٩ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٨٥

وطلبه عليه الصلاة والسلام، ليقرأها عليه.. كما لو كانت قد أُنزلت من أجله، وقد كان منه ما كان قبلها من رفض الصلح..

يومها أشرق وجه عمر وهو يسأل.. أفتحٌ هو يا رسول الله؟!

هو الفتح..

وهو الفتح هنا أيضاً، مجدَّداً..

عليه الصلاة والسلام مات..

لكن من علَّمهم الفتح يواصلونه.

@iAbubader

الفتح، من أبوابٍ متفرّقةٍ

للشام وقعٌ معيَّنٌ، وأثرٌ بيِّنٌ عند كلِّ المسلمين..

لا يزال هذا الوقع فاعلاً، لكنَّه كان أكثر فاعليةً وإيجابيَّةً عندما كان المسلمون أكثر التصاقاً بإسلامهم، أي بأنفسهم ومكوِّنات شخصيَّتهم.. عندما كان الإسلام دافعهم الأساسيَّ للحركة والتحرُّك..

سكنت الشام عقول المسلمين وقلوبهم حتى قبل أن يسلم أكثرهم!

فبمجرد معرفة أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام أسري إليها، ومنها كان معراجه إلى السماء، كان يملأ عقولهم وقلوبهم بوقعٍ توَّاقٍ إلى هذه الأرض «المباركة»..

كذلك كانت أحاديثه عليه الصلاة والسلام عن فضل الشام، بل فضائلها، كلُّها كانت تلهب حماسهم ووجدانهم وتشعرهم أنَّهم لا بدَّ سينقلون نور دينهم إلى بلاد الشام، وأنَّ الشام لا بدَّ ستُفتح، وأنَّ فتحها هذا سيكون نقلةً لا بدَّ منها لهذا العالم..

(عن زيد بن ثابت الأنصاريّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يا طوبى للشام! يا طوبى للشام! يا طوبى للشام! قالوا: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام).[١٧٠]

(عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشام أرض المحشر والمنشر).[١٧١]

---

١٧٠ فضائل الشام ودمشق للألباني ت ١

١٧١ فضائل الشام ودمشق للألباني ت ٤

(عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال لنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم الله يوماً: إنّي رأيت الملائكة في المنام أخذوا عمود الكتاب فعمدوا به إلى الشام، فإذا وقعت الفتن فإن الإيمان بالشام).[١٧٢]

قال المقدسي في الشام ملخصا كل ذلك وأثره على المسلمين.

(إقليم الشام جليل الشأن ديار النبيِّين، ومركز الصالحين، ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى، وموضع الحشر والمسرى، والأرض المقدَّسة، والرباطات الفاضلة، والثغور الجليلة، والجبال الشريفة، ومهاجر إبراهيم، وقبر وديار أيوب وبئره، ومحراب داود وبابه، وعجائب سليمان ومدنه، وتربة إسحق وأمّه، ومولد المسيح ومهده، وقرية طالوت ونهره، ومقتل جالوت وحصنه، وجبُّ ارميا وحبسه، ومسجد اوريا وبيته، وقبَّة محمَّدٍ وبابه، وصخرة موسى، وربوة عيسى، ومحراب زكريا، ومعرك يحيى، ومشاهد الأنبياء، وقرى أيوب، ومنازل يعقوب، والمسجد الأقصى، وقبر موسى، ومضجع إبراهيم ومقبرته، وموضع لقمان، ووادي كنعان، ومدائن لوط، وموضع الجنان، والباب الذي ذكره الرجلان، والمجلس الذي حضره الخصمان، وقبر مريم وراحيل، ومجمع البحرين، ومشاهد لا تُحصى، وفضائل لا تخفى، وفواكه ورخاء وأشجار ومياه وآخرة ودنيا، به يرقُّ القلب، وتنبسط للعبادة الأعضاء...).[١٧٣]

كلُّ من زار الشام، يعرف ذلك أو شيئاً منه، للمكان روحانيَّته الخاصَّة به.. وإذا كانوا يتحدَّثون عن عبقريَّة المكان في مصر، وقوة المكان في العراق، فإنَّ الحديث في الشام هو عن روحانيَّة المكان..

روحانيَّة المكان في الشام، كلّ الشام، أمرٌ غامضٌ ولكنَّه حقيقيٌّ.. تشعر بروحانيَّةٍ تغمر المكان وتغمرك، تشعر بصلاتك مختلفةً، ومناجاتك لله مختلفةً..

هل هذا بسبب البركة التي أثبتها القرآن لما حول المسجد الأقصى؟ هل هذا بسبب مروره عليه الصلاة والسلام في دربه إلى السماء؟ هل هذا بسبب كلِّ الأنبياء الذين مرُّوا بها ونشروا دعوتهم فيها؟ ...

كلُّ ذلك واردٌ..

روحانيَّة المكان حقيقةٌ في بلاد الشام..

بغضِّ النظر عن السبب!

---

١٧٢ فضائل الشام ودمشق للالباني ت ١٠
١٧٣ حسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٥١

تولَّى عمر الخلافة بينما كانت دمشق محاصرةً.. وكتب إلى أبي عبيدة يقول له..

(عن أبي حذيفة إسحاق بن بشير عن شيوخه قال: كتب عمر بن الخطاب لمَّا استخلف إلى أبي عبيدة بن الجراح: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح سلامٌ عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أمَّا بعد. فإنَّ أبا بكر الصديق خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد توفِّي إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. ورحمة الله وبركاته على أبي بكر الصديق العامل بالحقِّ. والآمر بالقسط. والآخذ بالعرف واللين والستير الوادع السهل القريب الحليم. ونحتسب مصيبتنا فيه ومصيبتكم ومصيبة المسلمين عامَّةً عند الله. وأرغب إلى الله في العصمة بالتقى برحمته. والعمل بطاعته ما أحيانا والحلول في جنَّته إذا توفانا. فإنَّه على كلِّ شيءٍ قدير. وقد بلغنا إحصاركم لأهل دمشق. وقد ولَّيتك جميع الناس. فأثبت سراياك في نواحي أرض حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام. وانظر في ذلك برأيك ومن حضرك من المسلمين. ولا يحملك قولي هذا على أن تعري عسكرك فيطمع فيك عدوك. ولكن من استغنيت عنه فسيِّره. ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه. وليكن فيمن تحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه).[174]

وكان ردُّ أبي عبيدة ومعاذ..

(من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب. سلامٌ عليكم. فإنَّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمَّا بعد. فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهمٌّ. وإنَّك يا عمر. أصبحت وقد ولِّيت أمر أمَّة محمد. أحمرها وأسودها. يقعد بين يديك العدوّ والصديق. والشريف والوضيع. والشديد والضعيف. ولكلٍّ عليك حقٌّ. وحقّه من العدل. فانظر كيف تكون يا عمر. وإنا نذكِّرك يوماً تُبلى فيه السرائر. وتُكشف فيه العورات. وتَظهر فيه الخُبَّات. وتَعنو فيه الوجوه لملكٍ قاهرٍ. قهرهم بجبروته. والناس له داخرون. ينتظرون قضاءه. ويخافون عقابه. ويرجون رحمته. وإنَّه بلغنا أنَّه يكون في هذه الأمَّة رجالٌ إخوان العلانية أعداء السريرة. وإنا نعوذ بالله من ذلك. فلا ينزل كتابنا من قلبك بغير المنزلة التي أنزلناها من أنفسنا. والسلام عليك ورحمة الله).[175]

****

هذه الرسائل بين عمر. وأبي عبيدة ومعاذ بن جبل. تكشف الكثير مما هو خلف الكواليس..

---

174 جامع الأحاديث ٣٠٩٨٥. كنز العمال ١٤٢٠٨

175 مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩٠٨٠

لو تخيَّلنا أنّها رسالةٌ سريّةٌ مسرَّبةٌ ممّا يتسرَّب في عصرنا الحاليّ، لوجدناها مليئةً بالدسائس والمؤامرات..

هنا نجد شيئاً بطعم المفاجأة..

خطاب عمر لم يكن شديداً، رغم عزله لخالدٍ إلا أنّه ذكره بخيرٍ، كما مرَّ سابقاً، لكنّه يشير بضرورة الإسراع بالفتح في دمشق أو حمص أو أيّة مدينةٍ أخرى من مدن الشام (كما لو أنّه يقول: **إنَّ فتح مدينةٍ من المدن المهمّة سيوهن من عزيمة الروم، ويضعِف صمودهم في الجبهات الأخرى..**) لكنَّ عمر لا يُلزِم أبا عبيدة بشيءٍ، بل يترك له حريّة التصرُّف بعد مشورة المسلمين..

لهجة عمر في الرسالة الأولى لا توحي لنا بعمر الحازم الشديد الذي عزل خالد بن الوليد، أهمَّ قائدٍ عسكريٍّ في ذلك الوقت..

بل توحي بالخليفة الذي ابتلي بالخلافة للتوّ، **ويريد أن ينشئ جيلاً جديداً من القادة الفاتحين.**

****

لكنَّ الردَّ المشترك من أبي عبيدة ومعاذ بن جبل هو الذي يمكن أن يشكّل لنا مفاجأةً..

إنّهما يعظانه على نحوٍ سنستغربه..

ننتظر الموعظة منه لهما، أو شيئاً من هذا القبيل..

لكن هذا الردّ المعاكس!

هل من مفاجأةٍ؟

فقط لو تصوَّرنا أنَّ الأمور تسير كما هي اليوم..

لكنَّ الحقيقة، **أنَّ صدور هذا الخطاب من أبي عبيدة ومعاذ، هو الذي ساهم في جعل عمر بن الخطاب عمر بن الخطاب!..**

ليس في هذا الموقف فحسب، بل في «ثقافة التناصح» والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي كانت سائدةً في ذلك الجيل.. الجيل الذي برز فيه عمر.. وهي ثقافةٌ لم تكن موجودةً اعتباطاً بالصدفة مع وجود عملاقٍ مثل عمر، بل ساهمت في صنعه وتكريسه..

فلنتذكَّر هنا أنَّ أبا عبيدة ومعاذاً كانا من الصحابة الذين لهم الفضل، وشهد لهم عليه الصلاة والسلام بما شهد، فأبو عبيدة هو «**أمين هذه الأمّة**»[١٧٦].. ومعاذ بن جبل كان ممّن قال عنهم صلى الله عليه وسلم «استقرئوا القرآن من أربعة: **من ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي، ومعاذ بن جبل**»[١٧٧] وقال عليه الصلاة والسلام «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر الله عمر واصدقهم**

---

١٧٦ صحيح البخاري ٤٣٨٠

١٧٧ صحيح البخاري ٣٧٥٨

حياء عثمان واقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب وأفرضهم زيد بن ثابت وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ألا وإن لكل أمة أمينا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».[178]

فلنتذكّر هنا، أنّ عمر رغم كونه قامةً عملاقةً جداً، إلا أنّه برز بين جيلٍ من العمالقة ساهم أيضاً في أن يكون عمر «عملاقاً» بالحجم الذي كانه..

****

لم يكن حصار دمشق يسيراً، فقد استمرّ أشهراً طويلةً، وكان حصاراً من هذا النوع في برد دمشق جديداً على المسلمين، خلال هذه الفترة تمكّن المسلمون من فتح حمص، لكنّهم أيضاً اضطروا إلى الانسحاب منها عندما قام هرقل باستنفار كلّ جنده ووصول إمداداتٍ واسعةٍ له من إنطاكية تحضيراً لمعركةٍ أرادها الروم حاسمةً لصالحهم (وقد كانت حاسمةً فعلاً، لغير صالحهم).. فكان لا بدّ من تجميع جند المسلمين لمواجهة مستجدّات الوضع..

لكن الانسحاب من حمص، كان فتحاً كبيراً أيضاً، **ولعلّ هذا الانسحاب قد ساهم في فتح «الثغرة» الكبيرة في فتح دمشق..**

كيف يكون الانسحاب فتحاً، وقد تعوّدنا أن نعدّه هزيمةً؟!

نعم، عسكريّاً هو كذلك، لكنّ الفتح أمرٌ أعمق بكثيرٍ من مجرّد نصرٍ عسكريٍّ..

هو فتح النفوس والعقول والقلوب..

الانسحاب من حمص ترك في نفوس أهل الشام أثراً حسم المعركة في دمشق لاحقاً..

الانسحاب قد يؤدّي إلى الفتح، **عندما يكون كما فعله المسلمون عندما انسحبوا من حمص..**

لقد ردّوا إلى أهلها الجزية!

(... ثم بعث إلى حبيب بن مسلمة، وكان استعمله على الخراج، فقال: انظر ما كنت جبيت من حمص فاحتفظ به حتى آمرك فيه، ولا تجبين أحداً ممن بقي حتى أحدث إليك في ذلك، ففعل، فلمّا أراد أبو عبيدة أن يشخص دعا حبيباً، فقال له: اردد على القوم الذين كنّا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم، وقل لهم: نحن على ما كان بيننا وبينكم من الصلح لا نرجع عنه إلا أن ترجعوا، وإنّما رددنا عليكم أموالكم كراهية أن نأخذها، ولا نمنع بلادكم، ولكنّا نتنحّى إلى بعض

---
178 السلسلة الصحيحة ١٢٢٤

الأرض، ونبعث إلى إخواننا، فيقدموا علينا، ثم نلقى عدوّنا، فإن أظفرنا الله بهم وفّينا لكم بعهدكم إلا ألا تطلبوا ذلك).[179]

لم يعرف التاريخ فاتحاً ردَّ «مغانمه» عندما انسحب إلا المسلمين..

ولهذا ربَّما لم يُشهد رجال دينٍ في مدينةٍ محاصرة ينحازون للفاتح من غير دينهم ضدَّ المحتلِّ المتحصِّن الذي يدين بنفس دينهم..

وهذا ما حدث في دمشق!

****

(... حدث سفيان بن عوف قال: بعثني أبو عبيدة بن الجراح ليلة غدا من حمص إلى أرض دمشق فقال: ائت عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، وأبلغه مني السلام، وأخبره بما قد رأيت وعانيت، وبما قد حدثتنا العيون، وبما استقرَّ عندك من كثرة العدو، والذي رأى المسلمون من الرأي من التنحّي، وكتب معه إليه: بسم الله الرحمن. وذكر الكتاب. قال سفيان بن عوف: فلما أتيت عمر فسلمت عليه قال: أخبرني بخبر الناس، فأخبرته بصلاحهم ودفع الله عز وجل عنهم قال: فأخذ الكتاب فقال لي: ويحك ما فعل المسلمون؟ فقلت: أصلحك الله خرجت من عندهم ليلاً بحمص، وتركتهم وهم يقولون: نصلي الصبح ونرحل إلى دمشق، وقد أجمع رأيهم على ذلك. قال: فكأنه كرهه ورأيت ذلك في وجهه وقال لي: وما رجوعهم عن عدوِّهم وقد أظفرهم الله بهم في غير موطن! وما تركهم أرضاً قد حووها وفتحها الله عليهم وصارت في أيديهم؟! إنّي لأخاف أن يكونوا قد أساؤوا الرأي وجاؤوا بالعجز وجرؤوا عليهم العدوَّ قال: فقلت له: إنَّ الشاهد يرى مالا يرى الغائب.. إن صاحب الروم قد جمع لنا جموعاً لم يجمعها هو ولا أحدٌ كان قبله لأحدٍ كان قبلنا، ولقد جاء بعض عيوننا إلى عسكر واحدٍ من عساكرهم.. أُمر بالعسكر في أصل الجبل، فهبطوا من الثنية نصف النهار فما تكاملوا فيها حتى أمسوا، ثم تكاملوا حين ذهب أول الليل، هذا عسكرٌ واحدٌ من عساكرهم، فما ظنُّك بمن بقي؟ قال عمر: لولا أنّي ربَّما كرهت الشيء من أمرهم يصنعونه فإذا الله يخير لهم في عواقبه لكان هذا رأي أنا له كاره، أخبرني أجمع رأي جماعتهم على التحول؟ قال: قلت: نعم قال: فإنَّ الله إن شاء الله لم يكن يجمع رأيهم إلاَّ على ما هو خيرٌ لهم).[180]

---

179 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ج ٣ ص ٢١٩

180 مختصر تاريخ دمشق ص ١٣٢٨

@iAbubader

الخليفة لم يكن موافقا على الانسحاب من حمص..

لم يرعد ويزبد ويهدِّد بعزل قوّاد الجيش عندما علم بالانسحاب..

بل بانت الكراهية للأمر في وجهه فحسب!..

أيضاً..

لم يحدث أن أخذ بعض قادة الجيش يقولون لعمر سرّاً إنَّ ذلك كان خطأً، ويوغرون صدره على ما حدث، بل تعامل الجميع بشفافيةٍ ودون أيَّة محاولةٍ لاستثمار «كراهة الخليفة» - أو عدم علمه أصلاً - للتسلُّق على قيادة الجيش.. كما سيحدث في حالاتٍ مشابهةٍ..

على العكس من كلِّ ذلك، تعامل عمر - رغم حسمه وعزمه وإيمانه بالقول الفصل - بمنتهى التقبُّل، عندما عرف تحديداً أنَّ كلَّ قادة الجيش قد أجمعوا على ضرورة الانسحاب..

هذا هو عمر، المتشبع بقيم حضارة «لا إله إلا الله»، وهكذا تُصنع الحضارة حقا وعلى هذا تقام.. **هناك ثوابت واضحةٌ، هناك قواعد ثابتةٌ لا حياد عنها، هناك استراتيجيَّة «فتح» لا يمكن تركها..**

ولكن هناك مرونةٌ في التكتيك.. في التنفيذ.. حتى لو خالفت هذه المرونة ما تراه القيادة العليا..

هذه شورى ملزمةٌ «عمليَّاً» دون خطاباتٍ أو تنظيراتٍ يتجاوزها الحكَّام حين يريدون..

قبِلَ عمر بالأمر رغم كراهته له..

لأنَّهم اتفقوا جميعاً على قبوله!

****

لاحقاً، فَتْحُ دمشق لم يحدث حقيقةً إلا بتلك الثغرة التي أحدثها الانسحاب من حمص!

كان لذلك الموقف الذي وقفه المسلمون من إعادة الجزية إلى أهل حمص تأثيرٌ كبيرٌ على أهل دمشق، خاصَّةً عندما رأى **أهل القرى المحيطة بدمشق حُسن تعامل المسلمين معهم، وعبادتهم والتزامهم بأوامر قادتهم، كما رأوا صبرهم على الحصار واستعدادهم له..**

وكان بعض أهل المدينة، يقفون على بعض جوانب أسوار دمشق، فيتحدثون مع المسلمين، وكان من ضمن هؤلاء قسيس دمشقي هو «يونس بن مرقص» الذي تسلل ليتحدَّث مع خالد بن الوليد بعيداً عن أعين الروم، بل وكتب خالد له وثيقةً للصلح... وهو من أشار إلى المواضع التي يمكن اقتحامها من السور.[١٨١]

وفي الموعد المحدَّد، تسلَّق خالدٌ ورجاله الأسوار، وفتحوا الباب، وتوغّلوا في المدينة، بينما دخل أبو عبيدة من باب الجابية مستغلاً ارتباك الروم الذين فوجئوا بخالد.. والتقى خالد وأبو عبيدة وسط السوق في دمشق..

وهكذا فُتِحت دمشق من عدة أبواب، الباب الشرقي بقيادة خالد، وباب الجابية بقيادة أبي عبيدة، وباب توما بقيادة عمرو بن العاص، باب الفراديس بقيادة شرحبيل بين حسنة، الباب الصغير بقيادة يزيد بن أبي سفيان.[١٨٢]

لم يدخلوها من بابٍ واحدٍ، بل من أبوابٍ متفرِّقةٍ.. كما لو كانوا يجسِّدون نصيحة يعقوب لولده، عشيَّة تحقُّق البشارة..

«وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» (يوسف: ٦٧).

لم يدخلوا من باب النصر العسكريِّ فقط، بل من باب حسن المعاملة، والأمانة، وباب الإخلاص، وباب حسن الإعداد..

لكي يكون «إن الحكم إلا لله».. لا بدَّ أن يكون الفتح، من كلِّ هذه الأبواب.

---

١٨١ فتوح الشام ج١ ص ٥٧

١٨٢ فتوح الشام ج ١ ص ٥٠

غُلبَتِ الروم!...

في مكة، بدأت الحكاية..

"الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)" (الروم: ١ – ٥).

نزلت السورة، تحكي عن هزيمة الروم، وعن انتصارهم اللاحق، تفتُّح أفق المسلمين على العالم، تقول لهم إنَّهم جزءٌ مهمٌّ من هذا العالم الذي يعيشون فيه، حتى لو كانوا مستضعفين، حتى لو كانوا يواجهون مشاكل كبيرةً تحاصرهم في نطاقٍ ضيِّقٍ داخل مدينةٍ كانت لا تزال ككلِّ العرب على هامش التاريخ، دون أن يكون لهم دورٌ في صراع القوى العالميَّة..

تفتح السورة **سماء الاحتمالات وأفق الفرص أمامهم**، تقول لهم إنَّ الأدوار قد تتبادل، وإنِّ المنتصر قد يُهزَم، وإنَّ المهزوم قد ينتصر..

تقول لهم أيضا إنَّ ذلك قد **يحدث خلال بضع سنين.**

****

للوهلة الأولى، سيبدو الأمر أنَّ الحكاية انتهت في مكة في بضع سنين.

الروم هُزِموا.. كانوا أصحاب ديانةٍ كتابيَّةٍ رغم انحرافاتها..

والفرس كانوا أقرب لمشركي مكة..

وقد فرح المشركون يومها بهزيمة الكتابيين..

@iAbubader

ووعد القرآن المؤمنين بنصرٍ لاحقٍ للروم، يجعلهم فرحين. ربَّما ليس بنصر الروم بالضبط، بل بهذا التغيُّر السريع في موازين القوى، الذي يفسح لهم المجال.. ربَّما فرح المسلمون فعلاً بتحقُّق الوعد، لأنَّ الروم كانوا أهل كتابٍ مثلهم.. **ولكن ربَّما كان هناك الفرح أيضاً بأنَّ تداول النصر والهزيمة بين الطرفين قد أضعفهما معاً.. وربَّما سيمهِّد هذا الطريق لقوةٍ ثالثةٍ تكون هي البديل لهما معاً..**

ربَّما..

****

تلك القصة كان لها فصل ذروة.. بعد سنين..

أحداث ذلك الفصل، كان في "اليرموك"..

****

حدثت موقعة اليرموك في سنة ١٥ هجرية، وتُعدُّ المعركة الفاصلة في فتح بلاد الشام، **وربما هي أكثر معارك الفتوحات عدداً من الصحابة، فقد بلغ عددهم الكليُّ ألف صحابيٍّ..**

منهم مائة بدريٍّ، أي قرابة ثلث البدريين.. وقد انسحب بعدها هرقل تماماً من بلاد الشام، وكانت مكانتها وتأثيرها لا يقلان عن وقع القادسية في العراق.. وسجَّلتا معاً دخول التاريخ في مرحلةٍ جديدةٍ تماماً..

كما أنَّها أثبتت من الناحية الاستراتيجيَّة استفادة المسلمين من تجاربهم السابقة، خاصَّةً في القادسية، حيث جرُّوا جيش الروم جرَّاً إلى مكان المعركة، وظلُّوا يتحرَّكون ويتحرَّك **جيش الروم** خلفهم، حتى جعلوه في وادٍ ضخمٍ بلا منفذ، أي أنَّه عمليَّاً كان في الموقع نفسه الذي كان فيه المسلمون في معركة الجسر، والذي لقي فيه المسلمون الهزيمة.. وهي التجربة التي انتفع منها المسلمون في القادسيَّة، ثمَّ في اليرموك.

بقي جيش المسلمين يتحرَّك، وجيش الروم يسير خلفه، حتى وصل المسلمون إلى محاذاة الوادي الضخم، وعبروا النهر إلى الجهة اليمنى، أمَّا الروم فقد فرحوا واستقرُّوا في الوادي الذي يتَّسع لعددهم الضخم، دون أن ينتبهوا إلى الفخِّ المرسوم بدقَّةٍ، والذي جعل المسلمين يتحكَّمون بالممرِّ الوحيد الذي يتمكَّن الروم من الخروج منه.

@iAbubader

كيف لم ينتبه الروم لذلك رغم خبرتهم الحربيّة، ورغم أنّ هرقل قد جمع لجيشه هذا خيرة قوّاده، واستنفر كلّ ما أمكنه من جيوشه حتى بلغ العدد ما يقارب وربما يزيد عن الـ٤٠٠ ألف جنديٍّ (٢٠٠ **ألفٍ** في تقديراتٍ أخرى).. ربّما كان الروم قد اغترّوا بكثرتهم، وهو أمرٌ ليس نادراً على الإطلاق..

لكنّه ربّما يكون أيضاً جزءاً نتجاهله أحياناً فلا نحسب له الحساب البتّة، ونبالغ في حسابه أحياناً أخرى حتى لا نترك لسواه مجالاً..

هذا الجزء الذي نعامله بين الإفراط والتفريط هو **التدخُّل الإلهيّ في الأحداث**، أن يكون هناك تدخُّلٌ مباشرٌ منه في حدثٍ ما، بحيث يساهم هذا التدخُّل في قلب الموازين المتوقّعة في هذا الحدث..

ونحن نتعامل حقيقة بإفراطٍ وتفريطٍ في هذا..

أحياناً ننسى أنّ الله ينصر عباده الذين ينصرونه، أي أنّ **التدخُّل الإلهيَّ مشروطٌ وليس مطلقاً**، وننسى أنّ نصر العباد لله يكون أولاً باتّباع أوامره واجتناب نواهيه.. وأوامره تشمل ضمن ما تشمل "وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل"..

فالنصر الإلهيُّ يكون مشروطاً بجملة شروطٍ، من ضمنها العمل على **شروط النصر، والإعداد والتخطيط له..**

لاحقاً، يأتي النصر الإلهيّ ليتوّج ذلك..

لكن ما الفائدة من ذلك؟ إذا كنت أصلاً قد عملت على الوصول إلى النصر عبر شروطه، فما الفائدة من أن يأتيك النصر الإلهيّ بعد ذلك؟

الأمر هو أنّ الطرف الآخر غالباً، سيعمل على الشروط الماديّة نفسها من الإعداد والتخطيط للنصر، وقد يكون إعداده أفضل من إعدادك عدداً وعدّةً، وقد تكونان متساويين أو متقاربين في الإعداد، هنا سيكون للتدخُّل الإلهيّ دورٌ حاسمٌ في النصر.. بأشكالٍ مختلفةٍ ومتعدّدةٍ..

ما يحدث هنا أنّ البعض ينتظر هذا التدخُّل الإلهيّ دون أن يؤدّي شروطه، ويبقى ينتظر ويقضي وقته في الانتظار والدعاء، دون أن يعلم أنّه أصلاً يرتكب "معصيةً" في انتظاره لنصرٍ دون تأدية شروطه..

أمَّا التفريط، فهو أن لا يكون التدخُّل الإلهيُّ وارداً إطلاقاً، أن نستغرق في حسابات العدَّة والعدد والإعداد والحرص على زيادتها في وساوس قهريَّةٍ لا تنتهي قط.. دون أن نضع في بالنا أنَّ التدخُّل الإلهيَّ قد ينصرنا ما دمنا قد قمنا بتأدية ما يجب..

والتدخُّل الإلهيُّ يأخذ أشكالاً متعدِّدةً..

ربَّما في شكل انشقاقٍ أو تصدُّعٍ داخليٍّ في جبهة العدو، أو كارثةٍ بيئيَّةٍ تلحق به..

أو في اختيارٍ استراتيجيٍّ خاطئٍ جدّاً يقع فيه العدو، خيارٍ غبيٍّ جداً، قد نستغرب من وقوع العدوِّ فيه، خاصَّةً إذا كان هذا العدوُّ متمرِّساً..

لكن هذا ما يحدث أحياناً..

ولا يمكن أن يُفهم الخطأ الذي وقع فيه الروم إلا من هذا الجانب..

لقد أعدَّ المسلمون العدَّة حتى أقصى ما يستطيعون، وبقي تفوُّق الروم عليهم (في العدد) شاسعاً (٢٠٠ - ٤٠٠ ألفٍ للروم مقابل ٤٠ ألفاً للمسلمين في أقصى تقدير)..

ولكن ما وقع فيه الروم من خطأٍ في اختيار الموقع، ساهم في "التوازن" الذي مهَّد للنصر..

خطأ لا يمكن أن يكون حدث بالصدفة..

وحاشا لله..

****

في تفاصيل المكاتبات بين أبي عبيدة وعمر بن الخطاب، نجد المزيد من التفاصيل "الاستراتيجيَّة"..

(في حديث عبد الله بن قرط أنَّ معاذ بن جبل ورجالاً معه من المسلمين قالوا لأبي عبيدة حين سار من دمشق إلى اليرموك: ألا تكتب إلى أمير المؤمنين تُعلِمه علم هذه الجيوش التي جاءتنا وتسأله المدد؟! قال: بلى، فكتب إليه:
أمَّا بعد فإنَّ الروم نفرت إلينا برّاً وبحراً، ولم يخلفوا وراءهم أحداً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع، فاستجاشوا أهل أرمينية والجزيرة، وجاؤونا وهم نحو

من أربعمائة ألف رجل، وإنه لما بلغني ذلك من أمرهم كرهت أن أغر المسلمين من أنفسهم، فكشفت لهم عن الخبر، وصرَّحت لهم عن الأمر، وسألتهم عن الرأي، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى جانبٍ من أرض الشام، ثم نضم إلينا قواصينا، وننتظر المدد فالعجل العجل علينا يا أمير المؤمنين بالمدد بعد المدد والرجال بعد الرجال وإلا فاحتسب نفوس المسلمين إن هم أقاموا، أو دينهم إن هم هربوا، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدَّهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياثٍ من عنده، والسلام عليك). [١٨٣]

الحرب دينيَّةٌ بامتيازٍ، هكذا أرادها هرقل إذاً هذه المرَّة..

كانت هذه هي سادس معركةٍ بين المسلمين والروم في بلاد الشام (بعد بصرى، أجنادين، فحل، دمشق وحمص) ولم يُذكَر أنَّ الروم قد استخدموا رجال الدين أو الرموز الدينيَّة لدرجة إخراج الرهبان من الصوامع كما فعلوا هنا.. وهذا يعني أنَّ هرقل، أو قادته الكبار، قد رأوا استخدام الورقة الدينيَّة في التجييش، خاصَّةً أنَّهم استقدموا هذه المرَّة الأرمن، واستعانوا بعرب الجزيرة من النصارى..

أليس هذا ما يفعله الروم دوماً؟ كلَّما أعجزتهم الحيل، لجؤوا إلى الورقة الدينيَّة؟!.. أمَّا المسلمون، فالدين لم يكن ورقةً يستخدمونها، لقد كان كلَّ وجودهم.. كلَّ هويَّتهم.. كان درعهم وبوصلتهم ومحرِّكهم منذ المواجهة الأولى مع الروم، ولهذا انتصروا..

(قال عبد الله بن قرط: وبعثني بكتابه، فلما قدمت على عمر دعا المهاجرين والأنصار، فقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فبكى المسلمون بكاءً شديداً، ورفعوا أيديهم ورغبتهم إلى الله عز وجل أن ينصرهم وأن يعافيهم ويدفع عنهم، واشتدت شفقتهم عليهم، وقالوا: يا أمير المؤمنين ابعثنا إلى إخواننا وأمِّر علينا أميراً ترضاه لنا أو سِرِ أنت بنا إليهم، فوالله إن أصيبوا فما في العيش خيرٌ بعدهم قال: ولم أرَ منهم أحداً كان أظهر جزعاً ولا أكثر شفقاً من عبد الرحمن بن عوف، ولا أكثر قولاً لعمر سر بنا يا أمير المؤمنين فإنك لو قدمت الشام شدَّ الله قلوب المسلمين، ورعَّبَ قلوب الكافرين.. قال: واجتمع رأي أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أن يقيم عمر، ويبعث المدد ويكون ردءاً للمسلمين.

قال فقال لي عمر رحمه الله: كم كان بين الروم وبين المسلمين يوم خرجت؟ فقلت: نحو من ثلاث ليالٍ، فقال عمر: هيهات متى يأتي هؤلاء غياثنا...). [١٨٤]

---

١٨٣ الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ج ٢ ص ٢٣٤

١٨٤ الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ج٣ ص٢٣٤- ٢٣٥

بعد كلِّ هذا.. سيبدو المدد أنَّه سيصل متأخِّراً جداً.. حتى لو كان هناك مددٌ..
لذا كانت رسالة عمر، تحمل لهم المدد..
لكنَّه مددٌ من نوعٍ آخر..
(... فكتب إليه عمر: أمَّا بعد، فإنَّه مهما ينزل بعبدٍ مؤمنٍ من شدَّةٍ يجعل الله بعدها فرجاً، وإنَّه لن يغلب عسرٌ يسرين، وإنَّ الله يقول في كتابه: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون").[185]

لن يغلب عُسرٌ يسرين!..

هذه هي الاستراتيجيَّة التي قد تغيب عن أذهان البعض..

عُسر حشود الروم، لا يمكن له أن يغلِبَ يسرين..

اليسر الأول: كان العدَّة والإعداد الذي استعدَّه المسلمون، ليس في السلاح الماديِّ فقط أو أعدادهم (الجيوش انسحبت حتى من مناطق مفتوحةٍ كي تلحق بجيش اليرموك، كما حدث في مدينة حمص).

اليسر الثاني: هو ذلك التدخل الإلهيّ الذي قلب موازين كانت تبدو لصالح الروم..

لقد أخطؤوا ذلك الخطأ ووقعوا في فخٍّ كان يجب لأيٍّ قائدٍ عسكريٍّ أن يجنِّب جيشه من الوقوع فيه..

بالتأكيد..

لن يغلب عُسرٌ يُسرين!..

****

(قال عبد الله بن قرط: فدفع إليَّ عمر الكتاب، وأمرني أن أعجِّل السير، وقال لي: إذا قدمت على المسلمين فسِر في صفِّهم، وقف على كلِّ صاحب رايةٍ منهم، وأخبرهم أنَّك رسولي إليهم، وقل لهم إنَّ عمر يقرِئكم السلام ويقول: يا أهل الإسلام اصدقوا وشدُّوا على أعدائكم شدَّ الليوث وأعضوا هامهم السيوف، وليكونوا أهون عليكم من الذر، ولا تَهُلكم كثرتهم، ولا تستوحشوا لمن لم يلحق بكم منكم

185 كنز العمال ٣٠٨٩١ جامع الأصول من أحاديث الرسول ٧٢١٠ ، موطأ مالك ٩٦٧، المستدرك على الصحيحين ٣١٧٦ وقال الذهبي صحيح على شرط مسلم.

قال: فركبت راحلتي، وأقبلت مسرعاً أتخوف ألا آتي الناس حتى تكون الوقعة، فانتهيت إلى أبي عبيدة يوم قدم عليه سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي في ألف رجل مدداً من قبل عمر رضي الله عنه، فسُرَّ بمقدمه المسلمون، وشجَّعهم ذلك على عدوهم، ودفعت إلى أبي عبيدة كتاب عمر، فقرأه على الناس، فاشتدَّ سرورهم برأيه لهم وبما أمرهم به من الصبر، وما رجا لهم في ذلك من الأجر).[١٨٦]

نعم، كان هناك مددٌ مع عمر، غير مدد الجند..

كان مدداً يذكِّرهم بأنَّ كلّاً منهم يمكن أن يصير عدَّة رجال..

وأنَّ ذلك كلَّه سيكون من اليسر الإلهيّ..

وأنَّه سيغيِّر معادلة الكثرة.

****

(حدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ سِمَاكٍ قَالَ: سَمِعْتُ عِيَاضًا الْأَشْعَرِيَّ قَالَ: شَهِدْتُ الْيَرْمُوكَ وَعَلَيْنَا خَمْسَةُ أُمَرَاءَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَابْنُ حَسَنَةَ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعِيَاضٌ، وَلَيْسَ عِيَاضٌ هَذَا بِالَّذِي حَدَّثَ سِمَاكًا، قَالَ: وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا كَانَ قِتَالٌ فَعَلَيْكُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ قَالَ: فَكَتَبْنَا إِلَيْهِ إِنَّهُ قَدْ جَاشَ إِلَيْنَا الْمَوْتُ، وَاسْتَمْدَدْنَاهُ، فَكَتَبَ إِلَيْنَا: إِنَّهُ قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا وَأَحْضَرُ جُنْدًا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَنْصِرُوهُ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ نُصِرَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي أَقَلَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ، فَإِذَا أَتَاكُمْ كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ وَلَا تُرَاجِعُونِي، قَالَ: فَقَاتَلْنَاهُمْ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَقَتَلْنَاهُمْ أَرْبَعَ فَرَاسِخَ قَالَ: وَأَصَبْنَا أَمْوَالًا، فَتَشَاوَرُوا، فَأَشَارَ عَلَيْنَا عِيَاضٌ أَنْ نُعْطِيَ عَنْ كُلِّ رَأْسٍ عَشْرَةً، قَالَ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَنْ يُرَاهِنِّي ، فَقَالَ شَابٌّ أَنَا إِنْ لَمْ تَغْضَبْ، قَالَ: فَسَبَقَهُ فَرَأَيْتُ عَقِيصَتَيْ أَبِي عُبَيْدَةَ تَنْقُزَانِ وَهُوَ خَلْفَهُ عَلَى فَرَسٍ عَرَبِيٍّ).[١٨٧]

خمس قواد لجيش المسلمين إذاً؟..

في البداية فقط.

لاحقاً، وعند اشتداد المعركة، صار خالدٌ هو القائد التنفيذيّ لكلِّ الجيش، لم يتنازل أبو عبيدة - القائد العامّ - كما هو شائع، وليس له أن يفعل ذلك دون إذنٍ من الخليفة.. لكنَّ خالداً صار في مكانةٍ تنفيذيَّةٍ عليا.. وهو أمرٌ يجب أن يجعلنا نتأمَّل في خلوِّ هذا

١٨٦ الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ج٣ ص ٢٣٦- ٢٣٧

١٨٧ مسند احمد ٣٤٤ وحسنه شعيب الارناؤوط

الجيل - جيل الفتح والحضارة - من الحساسيَّات خاصَّةً عند ساعات الحسم..
عمر عزل خالداً، وولّى أبا عبيدة..
خالدٌ لم يعدَّ ذلك إهانةً، ولم يجعلهم يتوسّلون إليه لكي يقبل تولِّي إدارة المعركة.
لم يجد أبو عبيدة حرجاً في أن يولِّي خالداً المنصب..
كلُّ هذا لن يحدث بسهولةٍ في تجارب حضاريَّةٍ أخرى..
لكنَّ تلامذة محمَّدٍ، عليه الصلاة والسلام تجاوزوا ذلك كلَّه...
(قال خالدٌ لأبي عبيدة: أرسل إلى أهل كلِّ رايةٍ فمرهم أن يطيعوني، فدعا أبو عبيدة الضحاك بن قيس، فأمره بذلك، فخرج الضحاك يسير في الناس ويقول لهم: إن أميركم أبا عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به، فقال الناس: سمعنا وأطعنا).[١٨٨]

استمرَّت المعركة ستة أيامٍ، كانت الخمسة الأولى منها معارك لُخِّصت بهجماتٍ قام بها الروم مراراً وتكراراً على المسلمين دون أن يتمكَّنوا من كسرهم..
ساهمت هذه الهجمات في أمرين مهمَّين..
الأول: أنها جعلت المسلمين في وضعٍ مريحٍ، فهم يدافعون، والروم يهاجمون، والدفاع أيسر، ويكبِّد المهاجمين خسائر أكبر بكثيرٍ مما سيتكبَّدها الفريق المدافع..
الأمر الثاني: أنَّ هذه الهجمات المتتالية بيَّنت لقادة جيش المسلمين مَن هي الكتيبة الأقوى داخل جيش الروم..
وكان هذا أمراً مهمَّاً فيما قرَّره خالد، لليوم السادس..

****

في اليوم الخامس، وقع قائد الروم باهان في خطأ آخر..
طلب هدنةً لمدَّة ثلاثة أيامٍ..
فعرف خالدٌ أنَّ الروم قد أُنهِكوا..
وأنَّ اليوم السادس هو ساعةُ الصفر!
اليوم السادس هو يوم الحسم... اختار خالدٌ الكتيبة الأرمنيَّة ليوجِّه هجومه عليها، وبطريقةٍ مبتكرةٍ في مقاييس ذلك الوقت ألا وهي طريقة "سرية الفرسان السريعة التنقُّل"..
كان القضاء على الكتيبة الأقوى - الأرمنيَّة - بمثابة ضربةٍ قاصمةٍ للجيش كلِّه..
لقد هُزِم "الأقوى".. فكان من الطبيعيِّ أن ينكسر الأضعف والأقلُّ قوةً بعد انكسار القوى..

١٨٨ الاكتفاء بما تضمنه مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ج ٣ ص ٢٣٩

فرَّت فلول الروم المنكسرة. ولكن كان خالدٌ قد ترك كتيبةً بقيادة ضرار بن الأزور عند الممرِّ الضيِّق الذي يخرج منه الروم من الوادي. فكانت هزيمتهم مضاعفةً. واستمرَّت مطاردة خالدٍ لهرقل حتى مشارف دمشق..

كانت معركة اليرموك هي آخر المعارك الكبيرة في بلاد الشام.. وقد أدَّت إلى أن تكون الفتوحات اللاحقة عمليات حصارٍ ومناوشاتٍ أكثر منها معارك كما في اليرموك.

وعندما جاء النصر. كتب أبو عبيدة إلى عمر..

كتبت إلى عمر بن الخطاب حين أظهره الله على أهل اليرموك..

(بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح سلامٌ عليك أمَّا بعد فإنِّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. والحمد لله الذي أهلك المشركين. ونصر المسلمين وقديماً تولَّى الله نصرهم. وأظهر فلجهم. وأعزَّ دعوتهم فتبارك الله رب العالمين.

أُخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أنا لقينا الروم في جموع لم تلقَ العرب جموعاً قط مثلها. فأتَوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس. فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً ما قوتل المسلمون مثله في موطنٍ قط ورزق الله المؤمنين الصبر. وأنزل عليهم النصر. فقتلوهم في كلِّ قريةٍ وكلِّ شِعبٍ وواد وسهلٍ وجبلٍ. وغنم المسلمون عسكرهم وما كان فيه من أموالهم ومتاعهم. ثم إني أتبعتهم بالمسلمين حتى بلغنا أقصى بلادهم. وقد بعثت إلى أهل الشام عمالاً وبعثت إلى أهل إيلياء أدعوهم إلى الإسلام. فإن قبلوا وإلا فليؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. فإن أبوا سيَّرت إليهم حتى أنزل بهم ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين إن شاء الله والسلام عليك).[189]

أما رد عمر على كتاب النصر فقد كان موجزاً.. مذكِّراً إيَّاهم بالمدد. باليسر الذي نصرهم..

(اعلموا أنَّكم لم تظهروا على عدوِّكم بعددٍ ولا عدَّةٍ ولا حولٍ ولا قوَّةٍ. ولكنَّه بعون الله ونصره ومنِّه تعالى وفضله. فلله المنُّ والطول والفضل العظيم. فتبارك الله أحسن الخالقين والحمد لله ربِّ العالمين).[190]

****

كانت معركتا القادسية واليرموك هما الموقعتين اللتين رسمتا خريطة العالم الجديد

١٨٩ الاكتفاء بما تضمنه مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ج ٣ ص ٢٧٦
١٩٠ الاكتفاء بما تضمنه مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ج ٣ ص ٢٧٧

الذي بناه المسلمون، انتصروا فيهما على أقوى قوّتين في العالم آنذاك، تلكما القوّتان اللتان كانتا تتنازعان على السيطرة على العالم قبلها، واللتان كان مشركو مكة ومؤمنوها يتحمّسون ويُشجِّعون هذه الفئة أو تلك فقط لقربها العقائديّ النسبيّ منهم..

من كان يصدِّق أنَّ خلال بضع عشرة سنة، في مدةٍ تقِلُّ حتماً عن ربع قرنٍ، سيطيح المسلمون الذين كانوا مستضعفين في مكة، بالقوّتين معاً؟

لا أحد كان سيصدِّق بالتأكيد..

لكن هذا ما حدث.

****

حادثةٌ صغيرةٌ وقعت في اليرموك، تسلِّط لنا الضوء على أسبابٍ غير مرئيَّةٍ للنصر..
حادثةٌ صغيرةٌ، لكنَّها كبيرةٌ جداً في دلالاتها.. تكاد تكون كالصندوقِ الأسود الذي يضمُّ أسرار الطائرة التي اتَّجهت إلى النصر وحطَّت عليه..

(عن عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، أنَّ خالد بن الوليد، فقد قلنسوةً له يوم اليرموك فقال : اطلبوها فلم يجدوها، ثم طلبوها فوجدوها، وإذا هي قلنسوة خَلِقة، فقال خالد: اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه، وابتدر الناس جوانب شعره، فسبقتُهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالا وهي معي إلا رزقت النصر).[١٩١]

في وسط المعركة الطاحنة تسقط "القلنسوة" من رأس خالد.. فيصيح : كما لو كان قد أضاع كنزاً، القلنسوة، القلنسوة.. ويطلب من الجنود أن يجدوها.. خشية أن تضيع منه..

تطلب القلنسوة يا خالد؟!..

الناس تقاتل وتقتل، وأنت تطلب قلنسوة؟!..

وعندما يجدونها، وسط القتال، إذا بقلنسوةٍ خلقةٍ، تكاد تكون مهترئة..

فيعاتبونه لاحقاً..

فيقول لهم إنَّ هذه القلنسوة، ضمَّت يوماً ما شعره عليه الصلاة والسلام..

وإن خالداً ما كان ليستشعر الطمأنينة إلى النصر دون هذه القلنسوة..

هذه القلنسوة، التي كانت تحمي رأس خالد، لا علاقة لها بموضوع التبرُّك بآثاره عليه الصلاة والسلام..

---

١٩١ المستدرك على الصحيحين ٥٣٠٥

بل لها علاقةٌ **بالتعلّق به..** بالسير على نهجه.. باعتبار أنّك جنديٌّ من جنوده عليه الصلاة والسلام، تتبع أوامره وتنفّذ تعليماتها..
نعم، كان خالد محقّاً..
دون القلنسوة، لا نصر..
ولقد أضعنا القلنسوة..
أضعنا اتّباعنا له عليه الصلاة والسلام..
أضعنا "سنّته" التي تحمي رؤوسنا من الانحناء لغير الله، وأفكارنا من الذلّ والتبعيّة للغير..
وكان من الطبيعيّ جداً، أن نضيّع النصر.

****

غُلِبت الروم.
الحكاية بدأت في مكة.
وكانت اليرموك ذروةً فاصلةً لها..
لكنّ الحكاية لا تنتهي أبداً..
لا يزال هناك رومٌ بأشكالٍ متعدّدةٍ..
لا تزال هناك روما.. لكنّها صارت في كلّ مكانٍ..
لا تزال المواجهة قائمةً.. ولا يُشترَط قطّ أن تكون "عسكريّة"..
ولا تزال كلُّ الاحتمالات قائمةً..
لكن، قبل كلّ شيءٍ..
ثمّة قلنسوة، علينا استعادتها..
ووضعها على رؤوسنا..
قبل أن نحصل على "ويومئذٍ يفرح المؤمنون".

@iAbubader

في حضرة المكان..

يتشابه الظَلَمةُ في ظلمهم وجبروتهم، وتتشابه تفاصيل ظلمهم حدَّ التطابق، حتى لو كانت شعاراتهم مختلفةً، حتى لو كانوا أعداء، ويتبادلون الاتّهامات فيما بينهم، ويعيِّر الواحد منهم الآخر بالظلم..

لكنَّهم متشابهون جداً، كما لو كانوا توائم متماثلة..

عبر التاريخ..

****

كان الروم والفرس أعداءً تاريخيين، تبادلوا الانتصار والهزيمة بعضهم على بعض لمرَّاتٍ عديدةٍ وكان صراعهم غالباً يصبُّ على مناطق نفوذٍ تكون في منطقتنا، بسبب غياب المشروع الموحّد لهذه المنطقة..

لقرونٍ عديدةٍ، سيطر الفرس على جنوب العراق، سيطر الروم على بلاد الشام وشمال العراق، وبقيت هناك مناطق متنازعاً عليها بين النفوذين..

في المظهر الخارجيِّ، كان الروم أهل كتاب، يؤمنون بالمسيحيَّة..

لكنَّهم كانوا قد نحَّوا إيمانهم جانباً عن حكمهم.. نحَّوا القيم التي جاء بها السيد المسيح عن طريقة تعاملهم ورؤيتهم للعالم.. لا نتحدَّث هنا عن خلافاتٍ عقائديَّةٍ بيننا وبينهم، بل نتحدَّث عمَّا هو مشتركٌ.. لم يكن الروم يتعاملون مع الناس.. مع العالم من حولهم.. كما ينبغي، حتى بحسب الأناجيل التي بين أيديهم..

كانت الرموز الدينيَّة موجودةً في جيوشهم وقصورهم ومراسلاتهم وكلِّ ما يصدر

@iAbubader

عنهم..

لكنَّ الدين لم يكن لا في حضارتهم، ولا في دولتهم...

لو حذفنا الرموز الدينيّة "التعريفيّة" لما عرفنا أنَّهم ينتمون لمنظومةٍ كتابيَّةٍ أصلاً!

(هل يُذكِّرنا هذا الشيء بأحدٍ نعرفه؟ بأحدٍ نراه دوماً في المرآة!)...

وهكذا فإنَّ الروم في النهاية كانوا يشبهون الفرس..

وهرقل، كان يشبه كسرى..

وكذلك ربَّما يُمكن أن نضيف إلى القائمة الكثير من الأمم.. والكثير من القادة والزعماء..

في بعض المراحل، سنكون "نحن" أيضاً في القائمة... وشخصيَّات تنتسب إلى الإسلام، لكنَّها مثل هرقل، استخدمت رموزاً إسلاميَّةً، لكنَّ سلوكها كان مفرغاً من أيَّة قيمٍ على الإطلاق.

****

(فأرسلوا (الروم) إليهم أن ابعثوا إلينا رجلا من صلحائكم نسأله عما تريدون وما تسألون وما تدعون إليه ونخبره بذات أنفسنا وندعوكم إلى حظكم إن قبلتم.. أرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل فأتاهم على فرس له فلما دنا منهم نزل عن فرسه ثم أخذ بلجامه وأقبل إليهم يقوده فقالوا لبعض غلمانهم انطلق إليه فأمسك له فرسه فجاء الغلام ليفعل فقال له معاذ أنا أمسك فرسي لا أريد أن يمسكه أحد غيري وأقبل يمشي إليهم فإذا هم على فرش وبسط ونمارق تكاد الأبصار تغشى منها فلما دنا من تلك الثياب قام قائما فقال له رجل منهم أعطني هذه الدابة أمسكها لك وادن أنت فاجلس مع هذه الملوك مجالسهم فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم وقد بلغهم عنك صلاح وفضل فيمن أنت منه فهم يكرهون أن يكلموك جلوسا وأنت قائم فقال لهم معاذ والترجمان يفسر لهم ما يقول إن نبينا {صلى الله عليه وسلم} أمرناأن لا نقوم لأحد من خلق الله ولا يكون قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة والرغبة إليه فليس قيامي هذا لكم ولكن قمت إعظاما للمشي على هذه البسط والجلوس على هذه النمارق التي استأثرتم بها على ضعفائكم وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها وقد زهد الله في الدنيا وذمها ونهى عن البغي والسرف فيها فأنا أجلس هاهنا على الأرض وكلموني أنتم بحاجتكم من ثم وأقيموا الترجمان بيني وبينكم يفهمني ما

تقولون ويفهمكم ما أقول ثم أمسك برأس فرسه وجلس على الأرض عند طرف البساط فقالوا له لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس مكرمة لك وإن جلوسك على الأرض متنحيا صنيع العبد بنفسه فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك فلما أخبره الترجمان بمقالتهم جثا على ركبتيه واستقبل القوم بوجهه وقال للترجمان قل لهم إن كانت هذه المكرمة التي تدعونني إليها استأثرتم بها على من هو مثلكم إنما هي للدنيا فلا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم وهم مستأثرون بها على ضعفائكم مكرمة لمن كانت في يده منكم عند الله فهذا خطأ من قولكم وجور من فعلكم ولا يدرك ما عند الله بالخطأ ولا بخلاف ما جاء به الأنبياء عن الله من الزهادة في الدنيا وأما قولكم إن جلوسي على الأرض متنحيا صنيع العبد بنفسه ألا فصنيع العبد بنفسه صنعت أنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله ولا استأثر من مال الله بشيء على إخواني من أولياء الله وأما قولكم أزريت بنفسي في مجلسي فإن كان ذلك إنما هو عندكم وليس كذلك عند الله فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كنت عند الله على غير ذلك وإن قلتم أن ذلك عند الله فقد أخطأتم خطأ بينا لأن أحب عباد الله إلى الله المتواضعون لله القريبون من عباد الله الذين لا يشغلون أنفسم بالدنيا ولا يدعون التماس نصيبهم من الآخرة..

فلما فسر لهم الترجمان هذا الكلام نظر بعضهم إلى بعض وتعجبوا مما سمعوا منه..

قالوا له بقيت خصله ونحن عارضوها عليكم فإن قبلتموها منا فهو خير لكم وإن أبيتم فهو شر لكم نعطيكم البلقاء وما وإلى أرضكم من سواد الأردن وتتحولون عن بقية أرضنا وعن مدائننا ونكتب عليكم كتابا نسمي فيه خياركم وصلحاءكم ونأخذ فيه عهودكم ومواثيقكم أن لا تطلبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم ونحن نعينكم عليهم حتى تقتلوهم أو تظهروا عليهم. فقال لهم معاذ هذا الذي تعطوننا هو كله في أيدينا ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاث التي وصفت لكم ما فعلنا. فغضبوا وقالوا أنتقرب منك وتتباعد منا اذهب إلى أصحابك فوالله إنا لنرجو أن نقرنكم غدا في الحبال فقال معاذ أما في الحبال فلا ولكن والله لتقتلننا عن آخرنا أو لنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون ثم انصرف إلى أبي عبيدة).[192]

لا فرق كبيرا بين لقاء وفد المسلمين بكسرى، ولقاء ربعي بن عامر ورفاقه برستم، وبين لقاء معاذ بن جبل بالروم..

---

192 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء مختصرا ج ٣ ص ١٨٤- ١٨٩

المظاهر الفارغة نفسها، التفاخر نفسه، تلك الزينة التي تكاد تكون تنكُّراً لإخفاء البشاعة الموجودة، الاتّكاء نفسه على مادّياتٍ لا قيمة حقيقيّة لها بمعايير القيم الدينيّة..

وأكثر من هذا وأشدُّ..

تلك الطبقيّة.. تلك الهوّة الهائلة بين الطبقات.. انقسام المجتمع إلى أسيادٍ وعبيدٍ.. وذلك التجبُّر في العلاقة بين الحاكم والمحكوم..

كلُّ هذا يجعل من هرقل يشبه كسرى.

ويجعل من الفرس كالروم.

ويجعل المسلمين «خارج قوسين»..

يجعلهم، على الأقلِّ ينتمون لمنظومةٍ حضاريّةٍ قيميّةٍ يجب أن تكون مختلفةً، يجب أن تكون مغايرةً..

حضارة الإسلام، كما نكتشفها عبر ردِّ فعل المسلمين من دخولهم على قادة الروم والفرس، تتمثل في ذلك **الاشمئزاز الذي يشعرون به أمام قلّة قيمة الإنسان وتضاؤله أمام زيادة المظاهر والبهرجة..** بالذات في **علاقة ذلك بالاستعباد الذي يسود فيما بينهم كبشرٍ..** كما لو أنَّ هناك تلازماً بين الأمرين..

بالتأكيد هناك تلازمٌ، فلكي يكون هناك هذا البذخ الفاحش، يجب أن يكون هناك فقرٌ مدقعٌ، وعندما يكون هناك فقرٌ مدقعٌ، سيكون هناك وعلى نحوٍ حتميٍّ سيِّدٌ وعبدٌ..

لذا علينا أن ننتبه إلى **أنَّ العدالة الاجتماعيّة كقيمةٍ أساسيّةٍ في الإسلام ترتبط على نحوٍ غير مباشرٍ، بعقيدة التوحيد، بعقيدة لا إله إلا الله..**

كي «نمكّن» هذه العقيدة من قلوب الناس وعقولهم، علينا أن نساهم في بناء تلك الحضارة التي تكون العدالة الاجتماعيّة والمساواة من أساساتها وقواعدها المؤسّسة..

كان من الواضح أنَّ فهم عمر للعدالة الاجتماعيّة، واعتبارها قاعدةً وركناً أساسيّاً من مشروع فتحه الحضاريّ، هو امتدادٌ لعقيدة التوحيد.. امتدادٌ تطبيقيٌّ لعبارة: لا إله إلا الله.

@iAbubader

لكن لماذا حدث ذلك مع الروم وهم أهل كتابٍ؟.. ولا يُشَكُّ في أنَّ كتابهم يحضُّ على العدالة الاجتماعيَّة، حتى لو كانت هناك اختلافاتٌ عقائديَّةٌ بيِّنةٌ بيننا وبينهم..

الحقيقة أنَّ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة **لم تبنَ على المسيحيَّة..** أي إنَّها كانت موجودةً وقائمةً ومزدهرةً قبل ظهور المسيحيَّة وانتشارها..

ثم قام قسطنطين الكبير باعتناق المسيحيَّة وجعلها الديانة الرسميَّة للإمبراطوريَّة.. الإمبراطوريَّة كانت قائمةً، قواعدها وقيمها وأركانها..

ثم جاءت المسيحيَّة، ربَّما أزالت بعض المظالم.. ربَّما عدَّلت بعض ما يجب تعديله.. ربَّما استُخدِمت **«روحانيَّاً» لجعل الإنسان يتقبَّل واقع الظلم المرّ..**

لكنَّها، وقيمها، لم تكن قاعدة الأساس، حجر الزاوية في إمبراطوريَّة الروم..

لذا، سنظلم المسيحيَّة جداً لو تخيَّلنا أنَّ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة كانت تمثِّلها..

(ألا يشبه ما حدث مع المسيحيَّة والإمبراطوريَّة الرومانيَّة، بعض المشاريع التي نريد أن نؤسلمها، فنأخذ المشروع جاهزاً بكلِّ ما بُنِي عليه من قيمٍ وأركانٍ، ونضع «يافطاتٍ» إسلاميَّةً على واجهة المشروع!).

****

لكنَّ مشروع الفتح الذي حمله المسلمون، منذ اليوم الأول، كان مشروعاً قد بُني على الإسلام.. لذا كان لا بدَّ لهم - ولمن يقابلهم من الوفود في المقابل - أن يصاب كلٌّ منهم **بنوعٍ من الصدمة الحضاريَّة** للتناقض الذي يحمله كلٌّ منهم في المعايير..

طرف الكفر والحضارة الماديَّة يعتقد أنَّ ما **يقدِّمه من مظاهر سيادةٍ وترفٍ سيبهر المسلم الذي تصوَّروه أنَّه سيتصرَّف كما لو كان «محدث نعمة».**

والمسلم بالمقابل، كان **يصدم سلبيَّاً من هذه المظاهر التي يفترض أنَّها ستبهره..**

كان يملؤه **الاشمئزاز..** من تلك المظاهر..

ويشعر بالمزيد من الاعتزاز والمنعة والقوَّة في منظومته القيميَّة..

في إسلامه..

@iAbubader

(واليوم.. أين نحن من هذا..صدمتنا الحضارية عندما نرى جبروت الغرب ومظاهر ترفه، هل هي صدمة اشمئزاز أم انبهار؟..

ألم تصبح هذه المظاهر هي مقياس البعض منا لكل تطور حضاري؟ ألم تعد أسلمة هذه المنتجات أقصى أماني البعض منا؟

ألا يشير ذلك لشيء ما..

لتراجعنا عن إسلامنا وقيمه الحقيقية ، رغم حرصنا على الشعائر؟).

****

كان أثر معركة اليرموك في بلاد الشام كأثر القادسيَّة في العراق وفارس، فقد تداعت بعدها المدن بين الفتح صلحاً والفتح عنوةً بمعارك.. كما كان الروم يعمدون إلى محاولة التحصُّن خلف أسوار المدن واستغلال برودة فصل الشتاء لجعل العرب يرجعون ويكفُّون عن محاولات الفتح..
فُتحت البقاع، والفحل، وبيسان، وطبرية، وحمص، وقنسرين، وقيسارية.. ثم جاء دور بيت المقدس..
(وذلك أنَّ عمرو بن العاص لمَّا فتح هذه الجهات التي ذكرناها، أرسل إلى أرطبون رجلاً يتكلم بالروميَّة، وقال له: اسمع ما يقول، وكتب معه كتاباً، فوصل إليه، وأعطاه الكتاب، وعنده وزراؤه، فقال لهم: لا يفتح عمرو شيئاً من فلسطين بعد أجنادين، فقالوا له: من أين علمت ذلك؟ فقال: صاحبها صفته كذا وكذا، وذكر صفة عمر، فعاد رسوله إلى عمرو، وأخبره بذلك، فكتب عمرو رضي الله عنهما يقول: إني أعالج عدوّاً شديداً، وبلاداً قد ادُخرت لك، فرأيك.
فعلم عمر أنَّ عمراً لم يقل ذلك إلا لشيءٍ سمعه، فسار عن المدينة وقيل: كان سبب قدوم عمر إلى الشام، أنَّ أبا عبيدة حصر بيت المقدس، فطلب أهله أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولّي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك، فسار عن المدينة، واستخلف عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه).[١٩٣]
رغم كلِّ ما يُقال عن ورود صفة عمر في الكتب عند أهل الكتاب، واستخدامهم لهذا الأمر في طلبهم أن يأتي عمر لصلح بيت المقدس، فإنَّ ذلك كان على الأغلب من المبالغات، ولعلَّ الأرطبون الذي راسل عمرو بن العاص كان يريد أن يأتي الخليفة شخصيّاً إلى بيت المقدس ليعقد الصلح ليحفظ للمدينة مكانتها وهيبتها.. ولعلَّ

١٩٣ نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٥ ص ٢٢٤

عمرو بن العاص وهو أحد دهاة العرب كان واعياً لذلك. فلم يُبشِر في رسالته إلى عمر إلى « ذكر عمر بالاسم والصفة في كتاب النصارى».. لأنّه ربّما ببساطةٍ لم يصدِّقهم! وكان لبيت المقدس مكانته بلا شكٍّ التي جعلت عُمَر لا يتردَّد في المضيِّ إليه ليعقد الصلح بنفسه..

وهو ما لم يحدث مع مدينةٍ أخرى. غير بيت المقدس..

أو إيليا. كما كانت تسمَّى آنذاك..

(وكتب عمر إلى أمراء الأجناد بموافاته بالجابية ليومٍ سمَّاه لهم. وأن يستخلفوا على أعمالهم. فوافوه. وكان أول من لقيهم يزيد بن أبي سفيان. ثم خالد بن الوليد على الخيول. عليهم الديباج والحرير. فنزل عن فرسه. ورماهم بالحجارة. وقال: ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم! إيَّاي تستقبلونني في هذا الزيّ! وإنما شبعتم منذ سنتين. وتاللّه لو فعلتم ذلك على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم!). [١٩٤]

انتهز عمر الفرصة ليمارس الرقابة على عمَّاله. فطاب منهم أن يلاقوه في الجابية. وهي غرب مدينة نوى في درعا السوريَّة اليوم. فجاء منهم بعضهم وهم يرتدون الديباج والملابس الزاهية.. (كما يليق باستقبال الخليفة!)..

أمَّا عمر فقد استقبلهم بالحجارة!..

نزل عن فرسه ليضربهم!..

في سنتين فقط تغيَّرتم!..

بعد مائتي سنةٍ سأعزلكم لو تكرَّرت!..

استنكر عمر أن يخرج الإنسان من جلده إلى الترف. وجد ذلك مفسدةً وعلامةً خطرةً على ما يجب التصدي له بحزم.. بالحجر.. وكان يدرك تماماً أنَّ الطبيعة البشريَّة ستضعف أمام الترف. وكان يجد أنَّ الرقابة والحزم الدائمين هي الحلُّ في الصراع مع هذه الطبيعة البشريَّة..

كان الحجر هنا مثالا بسيطا على الرقابة الدائمة والحزم المستمر التي انتهجها عمر في كل لحظة من لحظات استخلافه..

الحجر جاهز على الدوام!

(وقال معمر في حديثه: لما قدِم عمر الشام تلقَّاه الناس وعظماء أهل الأرض. فقال عمر أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة. قالوا: الآن يأتيك. فلمَّا أتاه نزل فاعتنقه. ثم دخل عليه بيته فلم يرَ في بيته إلا سيفه وترسه ورحلاً...). [١٩٥]

بيت القائد خالٍ من أيِّ متاعٍ!.. سيفٌ وترسٌ ورحلٌ..!

---

١٩٤ تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٠٣

١٩٥ حلية الأولياء ج ١ ص ١٠١

قائدٌ كهذا كان يعوِّض عن خيبة الأمل بالديباج الذي استقبله..

(حدثني هشام بن عمار قال: حدثني الوليد بن مسلم عن تميم بن عطية، عن عبد الله بن قيس قال: كنت فيمن تلقّى عمر مقدمه الشام، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان.

فقال عمر: مه؟ امنعوهم.

فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سنتهم، أو كلمة نحوها، وإنّك إن منعتهم منها يروا أنّ في نفسك نقضاً لعهدهم.

فقال: دعوهم!). [196]

أيُّ اشمئزازٍ تثيره مظاهر الترحيب المبالغ بها، لمن نذر نفسه للعمل وصنع الحضارة..

أيُّ اشمئزازٍ أن يراهم يرحِّبون به، وربَّما كانوا سيرحِّبون بأيِّ فاتحٍ منتصرٍ. عمر، خبير النفوس، كان يعلم أنَّ تلك السيوف والرياحين لم تكن ترحِّب به، وبما يريد أن يؤسِّسه وينشره فعلاً من قيمٍ.

بل كان يعلم مضارَّ هذه المظاهرِ على القادة الجدد والعمال الذين يعيِّنهم.. إنَّها تجعلهم يعجبون بأنفسهم، وتخفِّف محاسبتهم لأنفسهم، وتزيد من بطانة المنافقين الذين سيكذبون على الوالي أو العامل بكلِّ الأحوال..

مه!

امنعوهم!..

و «مه» اسم فعل، يعني : كفَّ!.. كفى!..

خرجت الكلمة بتلقائيَّةٍ من فمه عندما رأى ما يفعلون..

ثم قيل له إنَّ هذا قد يعني بالنسبة لهم أنه يخرق الصلح الذي عقده معهم.

قال: دعوهم..

لا بدَّ أنَّه قال: لا حول ولا قوة إلا بالله في سرِّه..

وقال: إنَّ عليه أن يجد طريقةً لمنع هذا!

****

دخول عمر لبيت المقدس عُرِض بأكثر من طريقةٍ، القصة الأشهر هي قصةٌ رواها نصارى بيت المقدس أنفسهم، ولم ترد بتفاصيلها في أيٍّ من كتب التاريخ كما رواها المسلمون..

قصة الخليفة الذي يمشي وغلامه الذي يركب على الناقة لم ترد إلا عند نصارى بيت المقدس، الذين استقبلوا عمر، و كانوا شهوداً على دخوله للقدس.. والذي ترك دخوله هذا الأثر الكبير في نفوس النصارى.. وصارت«صورة الخليفة الراجل» أيقونة

---

196 فتوح البلدان للبلاذري ٣٧٢

في كنائسهم وتقاويمهم، فالحدث مجد حتى بالنسبة للنصارى، إذ إن المعاهدة - كما سنرى لاحقا - حفظت الحقوق والحريات الدينية للمسيحيين وحفظت مكانة الكنيسة.. ولذلك فقد سجلت بالنسبة لتاريخ الكنيسة على أنها نقطة لصالحها في ظل المتغيرات الحضارية العاصفة..

أقرب ما ورد إلى ذلك في كتب التاريخ الإسلامي هو ما ثبت في الصحيح:

(خرج عمر بن الخطاب إلى الشام و معنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة، فنزل عنها وخلع خفَّيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، أأنت تفعل هذا؟! تخلع خفَّيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك!
فقال عمر: أوه لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة!
جعلته نكالاً لأمَّة محمد صلى الله عليه وسلم! إنَّا كنَّا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزَّنا الله به أذلَّنا الله).[197]
دخل برجليه في الوحل ليخلِّص الناقة..
وأبو عبيدة محرج!..
يا أمير المؤمنين.. الناس يا أمير المؤمنين.. (بما معناه، سوف نُفضَح!)..
لكنَّ عمر يقول بحسم: **لو أنَّ غيرك قالها يا أبا عبيدة..**
ذلُّنا وفضيحتنا كانت بما كنَّا عليه، وعِزُّنا بالإسلام وحده..
وبحسب فهمه للإسلام، فإن خوضه المخاضة لإنقاذه الناقة، وتحمُّله مسؤوليته بنفسه، كان من صلب إسلامه..
صلب عزَّته..
وجاء أيضا فيما يقارب هذه الواقعة ويزيد من تفاصيلها ويقترب من قصة دخوله للشام:
(وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني الربيع بن ثعلب، نا أبو إسماعيل المؤدب، عن عبد الله ابن مسلم بن هرمز المكي، عن أبي الغالية الشامي قال: قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيلياء على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب، وطاؤه كساء انبجاني ذو صوف هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفا، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل وعليه قميص من كرابيس قد رستم وتخرق جنبه.

---
١٩٧ المستدرك على الصحيحين ٢٠٧ وقال الذهبي صحيح على شرط الشيخين وذكره الالباني في السلسلة الصحيحة رقم ٥١

فقال: ادعوا لي رأس القوم، فدعوا له الجلومس، فقال: اغسلوا قميصي، خيطوه وأعيروني ثوبا أو قميصا.
فأتي بقميص كتان فقال: ما هذا ؟ قالوا: كتان.
قال: وما الكتان ؟ فأخبروه فنزع قميصه فغسل ورقع وأتي به فنزع قميصهم ولبس قميصه.
فقال له الجلومس: أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الابل، فلو لبست شيئا غير هذا وركبت برذونا لكان ذلك أعظم في أعين الروم.
فقال: نحن قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نطلب بغير الله بديلا.
فأتي ببرذون[١٩٨] فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فركبه بها فقال: احبسوا احبسوا، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا فأتي بجمله فركبه).[١٩٩]

(أخبرنا مالك أخبرني يحيى بن سعيد أنه سمع القاسم يقول : سمعت أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول : خرجت مع عمر بن الخطاب وهو يريد الشام حتى إذا دنا من الشام أناخ عمر وذهب لحاجة قال أسلم : فطرحت فروتي بين شقي رحلي فلما فرغ عمر عمد إلى بعيري فركبه على الفروة وركب أسلم بعيره فخرجا يسيران حتى لقيهما أهل الأرض يتلقون عمر قال أسلم : فلما دنوا منا أشرت لهم إلى عمر فجعلوا يتحدثون بينهم قال عمر : تطمح أبصارهم إلى مراكب من لا خلاق لهم يريد مراكب العجم). [٢٠٠]
سواء كان الأمر كما رواه النصارى ، وكما زينوا به أيقوناتهم، أنه دخل بيت المقدس راجلا وخادمه على البعير، أو أنه كان على بعير أقل فخامة كما يفهم من رواية أسلم، أو أنه ركب البرذون ثم كرهه عندما رأي التبختر فيه، فأن هذه الصورة ، **صورة الخليفة الراجل والخادم الراكب ، هي التي انطبعت في أذهان الملايين عبر التاريخ..**
إنها الصورة التي التقطها "العقل الجمعي" لعمر..
والتي ظل يشتهي أن تتكرر في كل حاكم مر عليه ، عبر العصور..

****

(عَنْ عباد قَالَ : حُدِّثْت، أَنَّ عُمرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، »لَمَّا دَخَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، قَالَ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ...). [٢٠١]
كما لو أنَّه يطوف بالبيت..

١٩٨ كان القادة من غير العرب يركبون البرذون بدلاً من الخيل دلالةً على الترف
١٩٩ البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٩- ٧٠
٢٠٠ موطأ مالك، برواية محمد بن الحسن ج ٣ ص ٤١٧ رقم ٩٢٧
٢٠١ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر ج ٤ ص ١٦٧

نعم، فالفتح طوافٌ بالبيت، بل التحامٌ به..
لبيك اللهمَّ لبيك..
ليست مجرد كلمةٍ تقال، بل فعلاً يُفعل لتكون الكلمة ذات مصداقيَّةٍ..
فتح القدس، ثم دخلها ليقول: لبيك اللهمَّ لبيك..
أُمِرنا جميعاً بالفتح..
ودخل عمر، وقد لبَّى النداء!

دخل عمر القدس..
وصل المسجد الأقصى.. حيث أُسرِي بالنبي..
ومن حيث عُرِج به..
دخل في حضرة المكان.. في حضوره المهيب.. كما لو التقى بآثاره عليه الصلاة والسلام يوم عُرِج به إلى السماء..
سأل عن محراب داود..
فدلُّوه عليه..
(...عن أبي مريم مولى سلامة: شهدت فتح إيليا مع عمر.. ثمَّ مضى حتى يدخل المسجد، ثمَّ مضى نحو محراب داود، ونحن معه، فدخلها، ثم قرأ سجدة "ص"، فسجد وسجدنا معه...).[٢٠٢]
محراب داود؟!
وسورة "ص"!..
هل تذكرون؟..
إنَّها تلك السورة التي نزلت بسبب تداعيات إسلامه..
تلك السورة التي التقى بها مبكِّراً في إسلامه، وصبَّ نفسه في قالب "داود" العملاق العبد ذي الأيدي... قالب الخليفة الذي يحكم بالحقِّ..
ها هو الزمن يدور دورةً واسعةً..
وها هو عمر، يقف في محراب داود.. وهو الخليفة الذي يحكم بالحقِّ..!

ثم قرأ سجدة "ص"..
فسجد.. وسجدنا معه..

---
٢٠٢ تاريخ دمشق ابن عساكر ج ٦٧ ص ٢١١

العهدة العمريّة، بنسختها الكاملة

بعض العهود والمواثيق التي تُكتب في ظروفٍ وأحوالٍ معيَّنةٍ تتجاوز بعبقريَّتها ظروف الزمان والمكان التي كُتِبت فيها، وتصبح بمثابة مثالٍ صالحٍ للتطبيق في الكثير من الأزمنة الأخرى، أو إنَّها تُعدُّ مثالاً على قيم العدالة على مرِّ التاريخ..

يحدث ذلك، وتبدو هذه الوثيقة كما لو كانت سابقةً لزمنها بمراحل..

وثائق نادرةٌ عبر التاريخ، تركت هذا الأثر..

مسلَّة حمورابي[٢٠٣] مثلاً، وثيقة الماغنا كارتا[٢٠٤].. معاهدة جنيف[٢٠٥]..

والعهدة العمريّة!..

الوثيقة التي كتب فيها عمر الصلح مع أهل القدس..

وكان صلحاً لأهل الشام عامَّةً..

الوثيقة التي جاء من أجلها عمر بنفسه من المدينة، ليصالح أهل القدس، ويعقد معهم الوثيقة التي ستتحدّى التاريخ، وتبقى مثالاً على ما يُمكن أن يكون من التعايش والتسامح عندما يكون منبثقاً من الإسلام الحقيقيّ، إسلام العزَّة، إسلام عمر الذي كان يفهم القرآن، ويتحسَّس مقاصده حتى قبل نزوله..

---

٢٠٣ مسلَّة حمورابي: أقدم الدساتير المكتوبة في التاريخ، تعود للقرن الثامن عشر قبل الميلاد، سنّها الملك حمورابي سادس ملوك مملكة بابل، وتضمُّ قوانين في مختلف شؤون الحياة اليوميَّة.

٢٠٤ أوّل وثيقةٍ دستوريَّةٍ بالمعنى الحديث في المنظومة الغربيّة، وهي وثيقةٌ ملكيَّةٌ بريطانيَّةٌ التزم فيها الملك جون بالقانون الإقطاعيّ والمحافظة على مصالح النبلاء وذلك في عام ١٢١٥م.

٢٠٥ اتفاقيّات جنيف: أربع اتفاقيّاتٍ عُقدت بين ١٨٦٤ و ١٩٤٩ تنظّم سلوكيّات التعامل أثناء الحروب، وقعت عليها ١٩٠ دولة (نظريّاً) أي أنها أكثر الاتفاقيّات قبولاً وانتشاراً في العصر الحديث.

التعايش والتسامح نعم، لكن ضمن حزمة أشياء أخرى كثيرة، منها العزَّة.. والنصر..

كما لو أنَّنا عندما فقدنا عزَّتنا، ونصرنا.. فقدنا قدرتنا على التعايش والتسامح!..
كما لو أنَّها تأتي بحزمةٍ واحدةٍ، ولا يمكن لنا أن نفصل فيها: عدلٌ، وعملٌ، وإعمارٌ، ونصرٌ، وعزَّةٌ، وفتوحاتٌ، وتعايشٌ، وتسامحٌ..

أمَّا عندما نفقد العدل والنصر والعزَّة، فلا يمكن أن نجد "التعايش" والتسامح الحقيقيَّين.. ويصير البحث عنها ضرباً من العبث..

كما لو أن تسامحنا عندما ينفصل عن العز يكون ضربا من الانبطاح والذل..

كما لو أنَّ كل مشاكلنا يجب أن تُحَلَّ من الجذر..

وجذرها هو كما قال عمر بن الخطاب بالذات:

نحن قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام..

فإن ابتغينا العزَّة بغيره، أذلَّنا الله!

****

نصُّ العهدة العمريَّة كما ذكره الطبريّ في تاريخه:

(بسم الله الرحمن الرحيم
هذا ما أعطى عبدُ الله عمرُ أميرُ المؤمنين، أهلَ إيليا (القدس) من الأمان:
أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملته: أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارّ أحدٌ منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحدٌ من اليهود.
وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن.
وعليهم أن يخرِجوا منها الروم واللصوصَ.
فمن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم.
ومن أقام منهم فهو آمنٌ، وعليه مثلُ ما على أهل إيليا من الجزية.
ومن أحبَّ من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بِيَعهم (أي كنائسهم) وصُلُبَهم (أي صلبانهم)، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعِهم وصُلُبهم حتى يبلغوا مأمنهم.

فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رحل إلى أهله، فإنّه لا يؤخذ منهم شيءٌ حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله، وذمّة رسوله، وذمّة الخلفاء، وذمّة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان

وكتب وحضر سنة خمس عشرة للهجرة).[٢٠٦]

****

اسمه عبد الله!.. هذا هو لقبه الأول، قبل أمير المؤمنين..

فلولا عبوديّته لله لما كان شيئاً..

لولا عبوديّته لله لما انتصر..

ولولا عبوديّته لله لما عزّ..

ولولا عبوديّته لما وصل ليكون هنا، في محراب داود، داود الذي كان عبداً لله أيضاً..

لولا عبوديّته لما تمكّن من أن يعدل، أن يتجاوز «عدم الظلم» إلى إحقاق الحقّ.. العبوديّة لله هي التي تحرّرك حقاً من عبوديّتك لنفسك.. للانحياز لها.. للانحياز لكلّ منظومةٍ وضعيّةٍ.. لكلّ هوى أو مصلحةٍ..

هذه الوثيقة، التي ابتدئت بالعبوديّة تتحدّى، ونتحدّى معها أيَّ منتصرٍ في التاريخ عبر العصور، وخاصّةً العصور الحديثة، عصر الديمقراطيّة وحقوق الإنسان، نتحدّى أن يكون هناك أيُّ منتصرٍ في التاريخ غير المسلمين منح حقوقاً لمن هُزِم واستسلم كهذه العهدة العمريّة.

الوثيقة تكاد توحي لك أنّ أهل القدس هم من انتصر!.. تمنحهم لا كلّ ما يريدون، ولا كلّ ما راود آمالهم، بل كلّ ما لم يفكّروا فيه أصلاً.. كلّ ما لم يتصوّروا إمكانيّة الحصول عليه من منتصر كانت جيوشه تكتسح العالم، وقد هزمت للتوّ جيوش

---

٢٠٦ تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٠٥ . وهناك نصوص كثيرة وردت في كتب التاريخ المختلفة، عليها زياداتٌ على النصّ أعلاه، ومن الواضح أنّ هذه الزيادات أدخلت في عهودٍ لاحقة، فهي تتعلّق بتمييز النصارى عن المسلمين بملابس مختلفةٍ، وهو أمرٌ لم يكن معروفاً في عهد عمر أو العهود الأولى عموماً.

الروم والفرس.. القدس كانت بلا جيشٍ روميٍّ للدفاع عنها، عوامُّها هم من طلبوا من «الأرطبون» أن يراسل عمرو بن العاص طلباً للصلح، وفرَّ الأرطبون إلى مصر قبل وصول عمر، وخرج البطريرك رئيس الكنيسة، ليعقد الصلح نيابةً عن أهل المدينة، لأنَّ السلطة الحاكمة قد فرَّت، وعمَّت الفوضى وهجم اللصوص، فكان البطريك ممثِّلاً لأهل المدينة في أحلك ظروفٍ ممكنة..

الاستعباد قادمٌ لا محالة!.. هكذا فكَّر أهل القدس بلا شكٍّ.

ولكن جاءت العهدة العمريَّة لتصدمهم، وتصدمنا، تصدم التاريخ كلَّه..

مَن مِن المنتصرين عبر التاريخ فعلها؟.. هل فعلها الأمريكيّون عندما استسلمت اليابان مثلاً؟!.. هل فعلها الحلفاء عندما انتصروا على دول المحور في الحرب العالميَّة الأولى، وفرضوا شروطاً مذلَّةً على ألمانيا كانت وقوداً لاحقاً للرغبة في الانتقام وخوض حربٍ جديدةٍ..؟! هل فعلها الحلفاء عندما فكَّكوا الدولة العثمانيَّة؟!..

كلُّ المنتصرين عبر التاريخ، كانوا يأخذون كلَّ شيءٍ..

إلا المسلمين!..

كانوا يجعلون الشعوب المهزومة تنتصر أيضاً، بانتصارهم..

ولو بعد حين..!

ولا يكون هذا إلا عندما ينطلق من «العبوديَّة لله».

****

العهدة تتحدَّث عن نفسها.

لا يمكن لشيءٍ أن يجسِّد «التسامح» والتعايش أكثر..

ليس فقط الأموال والأنفس والكنائس والرموز الدينيَّة وعدم التعدِّي عليها..

ولكن أيضاً «حماية القدس» من اليهود، أعداء النصارى التقليديِّين..

أعطتهم العهدة هذا، لم يكن لليهود وجودٌ في القدس آنذاك، وكان أهل القدس يتخوفون من أطماع مستمرة لليهود في القدس!

لكنَّ العهدة العمريَّة تمنح أهل القدس حقَّ المحافظة على نسيج مدينتهم الاجتماعيِّ، تحميهم من محاولات اليهود تكوين بؤرٍ استيطانيَّةٍ..

أعطتهم أن لا يُمارَس عليهم أيُّ «إكراهٍ» في دينهم، وأن لا يُضارُّون بالمطلق.. بكلِّ ما يتيحه هذا الإطلاق من تفسيرٍ!..

هذا ما لهم..

فماذا عليهم؟

الجزية، وهي مقدارٌ من الضريبة التي تُستخدم في الخدمات العامَّة للدولة التي يستفيد منها أهل الذِّمَّة كما سواهم، والمسلمون يدفعون أكثر، بسبب الزكاة..

ماذا أيضاً؟

لا يحقُّ لهم أن يؤووا الروم، أو اللُّصوص (الذين عاثوا في المدينة فساداً بعد فرار الأرطبون).. وهو أمرٌ حتميٌّ وإجراءٌ ضروريٌّ ويمكن أن يتمَّ دون أن يدرج في العهدة أصلاً..

ومن أراد أن يسير مع الروم فيلتحق بهم، فهو في مأمنٍ، ويستطيع أن يأخذ كلَّ أمواله، فهي في مأمنٍ أيضاً!

بعبارةٍ أخرى: من شاء أن يلتحق بالروم الذين كانوا لا يزالون في حالة حربٍ مع المسلمين، ويأخذ معه كلَّ أمواله التي ستكون في هذه الحالة دعماً للمجهود الحربيِّ المضادِّ.. فله ذلك.

العهدة تمنحه حتى ذلك..

ليس هذا فقط..

فمن كان ساكناً في القدس- قبل الفتح -، وهو ليس من أهلها أصلاً، فله مثل ما لأهلها، وعليهم ما عليهم..!

نستطيع أن نتخيَّل صدمة أهل القدس بهذه العهدة..

مَن كان منهم سيفكِّر ولو مجرد تفكيرٍ أن يلحق بالروم المعروفين بظلمهم؟

هذا الفهم العمريُّ للإسلام، المنطلق من العبوديّة لله، الذي أنتج هذه العهدة، التي هي المثال الأعلى للتسامح عبر العصور، كان له جذرٌ آخر، يمكننا أن نجده في أثرٍ معروفٍ عن علاقة عمر بن الخطاب بالكتاب وبأهل الكتاب..

(...عنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَغَضِبَ وقَالَ «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى - صلى الله عليه وسلم - كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي).[٢٠٧]

وفي سندٍ آخر..

(فتغيَّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيُّرا شديداً لم أرَ مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر: أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّدٍ نبيّاً، فسري عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: « لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنا حظُّكم من النبيين وأنتم حظّي من الأمم).[٢٠٨]

عمر بن الخطاب كان من متعلِّمي قريش القلائل، وربَّما دفعه فضوله إلى قراءة التوراة، وفي بعض أسانيد الرواية فإنَّه كان يبحث فيها عن البشارة والإشارة إليه عليه الصلاة والسلام ليحاجج بها أهل الكتاب..

لكنَّ موقفه الحاسم والقاطع عليه الصلاة والسلام الذي منع فيه عمر من الاطِّلاع على التوراة، هو الذي **أسَّس للوثيقة الأكثر تسامحاً عبر التاريخ!..** للعهدة العمريَّة!..

كيف؟

يبدو هذا تناقضاً!..

على العكس.. هو تناقضٌ بحسب مفاهيمنا الحاليَّة، لكنَّه ليس كذلك بالنسبة لما أنتج ذلك التسامح..

٢٠٧ مسند أحمد ١٥٥٤٦ وحسنه الألباني مشكاة المصابيح ٥٠
٢٠٨ شعب الإيمان للبيهقي ٤٩٨٢

مَنعُ الرسول عليه الصلاة والسلام لعمر من الاطِّلاع على التوراة في تلك المرحلة، والقرآن لا يزال ينزل، **كان في الحقيقة يعزل كلَّ ما يمكن أن يشكِّل تشويشاً واضطراباً في مرحلة التشكُّل بالقرآن تلك..** كان عمر تحديداً هو الأكثر تحسُّساً وتشكُّلاً بالقرآن، وما كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يترك ذلك التشكُّل يتعرَّض لأيِّ تشويشٍ.. قال له: «أمتهوِّكون فيها؟»

أي: أمتحيِّرون.. أمتردِّدون؟.. لأنَّ تعدُّد «المرجعيَّات» في مرحلة التأسيس لن يؤدِّي إلا إلى الحيرة والاضطراب..

ذلك العزل الصارم، أسَّس لأن يكون القرآن هو المرجعيَّة الوحيدة، **المرجعيَّة الوحيدة التي يمكن لاحقاً أن نطَّلع ونتفاعل مع كلِّ المنظومات القيميَّة والأخلاقيَّة والعلميَّة من خلالها**، أي أن نطَّلع بعد أن صار القرآن هو العدسة التي نقرأ بها.. فيصير تفاعلنا مع ما نطَّلع عليه محكوماً بضوابط قرآنيَّة واضحة..

أمَّا أن يحدث ذلك، والمرجعيَّة لم تكتمل، (بعدم اكتمال نزول القرآن وقتها، أو بعدم اتِّخاذه كمرجعيَّة لنا رغم ادِّعائنا ذلك) **فهو يؤدِّي إلى تفاعلٍ غير منضبطٍ.**

تفاعل لا يمكن أن يؤدِّي إلى العهدة العمريَّة.. إلى التسامح الذي تمثَّل فيها.

****

عندما تكون علاقتك بالمنظومات القيميَّة الأخرى - كتابيَّةً أو غيرها - علاقةً مضطربةً، غير مؤسَّسةٍ بمرجعيَّة القرآن، فإنَّك ستكون في حالةٍ من حالتين:

إمَّا أن تكون مستلباً تجاهها، تشعر بالنقص والهزيمة.. فتأخذ منها باعتبارها مرجعيَّتك، حتى لو لم تعترف بذلك، وقد يحدث أن تحاول أن تلفِّق «توفيقاً» بين المرجعيَّتين..

أو أن تكون متطرِّفاً في رفضها بالكليَّة، في رفض النظر إليها أصلاً.. كما لو أنَّك تملك خوفاً سريَّاً منها، كما لو أنَّك لست واثقاً من مرجعيَّتك.

في الحالتين، لن ينتج تسامحٌ من طراز ما جاء في العهدة العمريَّة..

قد ينتج **استلاب المهزومين**.. نوعاً من العلاقة الذليلة التي تحاول أن تمثِّل التسامح لكنَّك عمليَّاً تمارس التمييع..

@iAbubader

وقد ينتج **تطرُّف غير الواعين**.. نوعاً من الرفض الذي يعكس عدم الثقة بما لديك..

أمَّا العلاقة الصحيَّة بمرجعيِّتك، أي التي تكون فيها مرجعيِّتك هي ما ترجع له حقَّاً، هي مصدر عزَّتك ومصدر معاييرك ومقاييسك، فهي **تنتج علاقةً صحيَّةً مع المنظومات الأخرى..**

علاقة مثل تلك الموجودة بالعهدة العمريَّة.

****

التسامح لا يعني أن تسامح في ثوابتك!..

أن تتنازل عنها!..

التسامح لا يعني أن تخفي هويَّتك كي لا ينزعج أحدٌ منها..

على العكس، تكون معتزَّاً بها، ثابتاً عليها، ولكن تعامل الآخرين بما علَّمه لك القرآن.. وما سنَّه نبيُّك..

هكذا لم يمنعه تسامحه من أن يعرض الإسلام على عجوزٍ نصرانيَّةٍ..

(عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوزٍ نصرانيَّةٍ: أسلمي أيَّتها العجوز تسلمي، إنَّ الله بعث محمَّداً بالحقِّ.
قالت: أنا عجوزٌ كبيرةٌ والموت إليَّ قريبٌ! فقال عمر: اللهمَّ اشهد، وتلا: « لا إكراه في الدين»...). [٢٠٩]

التسامح، واللاإكراه، لم يمنع عمر من أن يدعو العجوز إلى الإسلام.. وأن يقول لها ما يؤمن به من كون الإسلام هو سبيل النجاة.

لم تقبل؟

لا مشكلة..

اللهمَّ فاشهد.. لا إكراه في الدين.

عهدة عمر كانت في سلوكه أيضاً مع مملوكٍ نصرانيٍّ له..

---

٢٠٩ القرطبي، تفسير الآية.

(عن أستق (الرومي) قال: كنت مملوكاً لعمر بن الخطاب، وأنا نصرانيٌّ فكان يعرض عليَّ الاسلام، ويقول: إنَّك إن أسلمت استعنت بك على أمانتي فإنَّه لا يحلُّ لي أن أستعين بك على أمانة المسلمين ولست على دينهم، فأبيت عليه فقال: لا إكراه في الدين، فلمَّا حضرته الوفاة أعتقني وأنا نصرانيٌّ، وقال: إذهب حيث شئت).[٢١٠]

مملوكه نصرانيٌّ

لم يجبره على الإسلام.. لكنَّه كان يدعوه له.. بل يغريه به.

لم يسلم النصرانيّ.

فكان يقول: «لا إكراه في الدين»...

إيمانه بالتسامح لم يجعله يُعرض عن دعوته إلى الإسلام.

ولم يجعله أيضاً يُكرهه عليه.

وجعله في نهاية الأمر يقول له: اذهب حيث شئت!

****

العهدة العمريّة، لم تكن حبراً على ورقٍ..

كانت حقيقةً.

في اليوم نفسه الذي وُقّعت فيه الوثيقة، تصرَّف عمر بطريقةٍ تجعل من العهدة حقيقةً واقعةً.. سلك سلوكاً واقعيَّاً يجسّد العهدة، ويجسّد ما أدّى لها..

(عَنْ عُبَيْدِ بْنِ آدم وَأَبِي مَرْيَمَ وَأَبِي شُعَيْبٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ بِالْجَابِيَةِ، فَذَكَرَ فَتْحَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. قَالَ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ فَحَدَّثَنِي أَبُو سِنَانٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ آدم قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِكَعْبٍ: أَيْنَ تَرَى أَنْ أُصَلِّيَ؟

فَقَالَ: إِنْ أَخَذْتَ عَنِّي صَلَّيْتَ خَلْفَ الصَّخْرَةِ، فَكَانَتِ الْقُدْسُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيْكَ.

فَقَالَ عُمَرُ: ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّةَ! لَا وَلَكِنْ أُصَلِّي حَيْثُ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، فَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِبْلَةِ فَصَلَّى..

---

٢١٠ كنز العمال ٢٥٥٨٠

ثُمَّ جَاءَ فَبَسَطَ رِدَاءَهُ فَكَنَسَ الْكُنَاسَةَ فِي رِدَائِهِ وَكَنَسَ النَّاسُ).[٢١١]

أين أصلي؟

قال له كعب: خلف الصخرة.

قال له عمر: مثل اليهود!.. أبداً!.. بل أصلي نحو القبلة!.. نحو مكّة..

فصلّى نحو القبلة.

وكانت الصخرة، التي يقدّسها اليهود، قد صارت مكبّاً للقمامة بأمر الملكة هيلانة، إمعاناً في تحقير اليهود وإذلالهم..

لكنَّ عمر، بسط رداءه ليكنس الزبالة..

لم يعظّمها فيصلي بين يديها كما أشار له كعب.. لم يجامل أحداً في ذلك..

ولكنّه في الوقت نفسه لم يسمح بأن تُهان معتقدات اليهود ومقدّساتهم..

فبسط رداءه، وأخذ يزيل عنها النجاسات بيديه..

في الوقت ذاته: يؤمن النصارى ، فيما يروونه إنه لم يصلِّ في الكنيسة، كي يحميها من أن تتحوّل إلى مسجد![٢١٢]

هذا ما يُنتج التسامحَ الحقيقيَّ..

أن تكون ثابتاً على قبلتك، على ثوابتك..

في الوقت نفسه أن لا تسمح لأحدٍ أن يهين ثوابت الآخرين ويمسّها بسوءٍ..

****

وأن يكون هذا موقفا عمليّاً.. لا نظريّاً..

---

٢١١ مسند أحمد ٢٦٧

٢١٢ القصة متداولةٌ جداً وملخّصها: (وسأل البطريرك، أين أصلي؟ بعدما عقد الصلح في كنيسة القيامة، فقال له: مكانك صلِّ!.. فقال عمر: ما كان لعمر أن يصلي في كنيسة القيامة، فيأتي المسلمون من بعدي فيتخذون مسجداً..) لكني لم أجد لها سنداً في أيِّ كتابٍ تاريخيٍّ، وإن وجدت في الموروث الغربي كما في
Steven Runciman, A History of the Crusades, Vol. 1 The First Crusade (Cambridge: Cambridge University Press, 1987), 3-4.
لكن من المهمّ أن نتنبه هنا إلى أن العهدة العمرَية نفسها قد حمت المسيحيين من خطر تحوُّل كنائسهم إلى مساجد؟ فممَّ التخوُّف إذاً من صلاة عمر في الكنيسة؟ ربّما كان السبب الحقيقيّ عدم رغبة عمر في الصلاة في مكانٍ توجد فيه صور.

”كنس، فكنس الناس“..

الزبالة كانت ممَّا تعودوا عليه.. كانت ممَّا ألفوه وتآلفوا معه.. جزءاً من ”حوالينا ولا علينا“.. جزءاً من عقلية ”نفسي نفسي“ التي تمثل عدم الانتماء للمجتمع.. وتكرس الفردية في سلوك عملي..

كان يمكن لعمر الفاتح المنتصر أن يأمرهم بإزالة الزبالة ليهبُّوا جميعاً..

لكنَّه ”معلِّمهم بالعمل“ كما قال في الخطبة بعد انتصار القادسيَّة..

كنس هو..

فكنس الناس..

****

العهدة العمريَّة، بنسختها الكاملة، هي هذا كلُّه..

إنَّه الثبات على قبلتك.. التمسُّك بها.. الاعتزاز بها..

إنَّه أن تكون قبلتك التي تصلي إليها في الصلاة، هي ”قبلتك“ في كلِّ حياتك.. في كلِّ قراراتك.. وليس موضع سجَّادتك فقط..

العهدة العمريَّة هي أن تعمل.. أن لا تكتفي بالوعظ بعدم إهانة معتقدات الآخرين أو إلقاء القمامة، بل أن تزيلها بكلِّ عزَّة.. هي أن تكون مثالاً ”عمليَّاً“ لما تؤمن به.. لا أن تفضح المسلمين بأن يكون سلوكك مناقضاً لما تقول إنَّك تؤمن به..

والعهدة العمريَّة هي أن تكون متسامحاً مع أهل الكتاب، كما أمرك كتابك أن تفعل..

إنَّها حزمةٌ واحدةٌ.. تأتي هكذا..

إن حاول أحدٌ أن يروِّج لتسامحٍ منفصلٍ عن الثبات والعزَّة..

فهذا لن يكون تسامحاً..

سيكون شيئاً آخر.

كان عمر واعياً لقبلته..

ليس الجهة التي يتَّجه لها في صلاته فقط..

بل الجهة التي تتَّجه لها كلُّ حياته.. كلُّ أفعاله.. كانت قبلته واحدةً في الصلاة، وفي التفكير، وفي التخطيط.. في درب الحضارة الذي سار فيه.. القبلة هي رمزٌ لمرجعيَّتك في هذه الحياة.. رمزٌ لموقعك من الأشياء وموقع الأشياء منك..

فهل نحن كذلك؟؟

هل قلوبنا تتَّجه إلى القبلة؟ هل عواطفنا معلقةٌ حقاً بما تمثِّله القبلة؟

هل عقولنا تتَّجه لها؟ هل نفكِّر كما يجب لمن كانت قبلته قبلة محمد أن يفكر؟

هل قراراتنا؟ اختياراتنا، تعكس القبلة التي نضع السجَّادة باتّجاهها؟

أم أنَّها تتَّجه اتجاهاً آخر؟

أم إنَّها إصلاً، بلا قبلةٍ؟ بلا هدفٍ!

@iAbubader

أبو العيال، وأمُّ الدنيا!

نسمع كثيراً عن أشخاصٍ يشعرون أنَّهم غرباء في أوطانهم..

يشعرون أنَّ أوطانهم ليست أوطانهم..

بعضهم يردِّدها كمن تعوَّد عليها، وقد لا يعنيها حقاً بقدر ما يعني أنَّ وطنه يعطي للغريب أكثر ممَّا يعطيه له شخصيَّاً..

بعض الشعوب، يتراكم هذا الشعور عندها بالتدريج، حتى يصير جزءاً من مكوِّنات تفكيرها الأساسيَّة المشتركة..

ويكون هذا غالباً عائقا في طريق أن يخدم الأفراد وطنهم.. في طريق أن يقدِّموا له ما يجب تقديمه..

ندخل هنا في حلقةٍ مفرغةٍ.

وطنك ليس وطنك، أو أنَّك لا تشعر أنَّه وطنك..

لأنَّك لا تشعر أنَّه كذلك، فأنت لا تقدِّم له ما يقدِّمه "المواطنون" لوطنهم.

ولأنَّك لا تقدِّم له ما يجب تقديمه، فإنَّه بالمقابل لن يقدِّم لك ما يقدِّمه الوطن لمواطنيه..

القصَّة معروفةٌ جداً، ومنتشرةٌ جداً، ومعقَّدةٌ جداً في الوقت ذاته.

هكذا كان حال مصر عشيَّة الفتح الإسلاميّ..

كان المصريُّون على حبِّهم لبلدهم يشعرون أنَّهم غرباء فيه.

يشعرون أنَّ مصر ليست بلدهم.

يشعرون أنَّها أمُّ الجميع.. أمُّ الدنيا.. لكنَّها ليست أمَّهم تحديداً، بل ربَّما كانت زوجة أبيهم!..

الروم في مصر هم من أوصل المصريين إلى هذا..

هل كان ذلك يختلف عن الفرس في العراق، والروم في الشام؟

كان يختلف بأنه كان أكثر في مصر، منه في الشام أو في العراق.

الفرس في العراق، والروم أنفسهم في بلاد الشام، كانوا قوَّة احتلالٍ بغيضةً، لكنَّ الروم في مصر وبسبب كونهم من ديانة أهل البلد نفسه، ولكن من طائفةٍ مختلفةٍ، فقد تصرَّفوا معهم بعداءٍ شديدٍ، أكثر بكثيرٍ ممَّا سيفعله أيُّ محتلٍّ من ديانةٍ أخرى، وأكثر ممَّا فعله الروم أنفسهم في بلاد الشام.

كان عداء الروم للمصريِّين من نوع العداء "الشخصيِّ".. لم يكونوا يريدون منهم أن يتركوا الكنيسة المصريَّة، بل كانوا يريدون من الكنيسة المصريَّة نفسها أن تتبعهم، أي كانوا يريدون إلغاء المذهب الذي يتَّبعه المصريُّون من أساسه!

من أجل هذا، كان الروم قد طردوا "الأنبا" بنيامين من كرسيِّه على رأس الكنيسة، وكان "الأنبا" بنيامين رئيس الكنيسة المصريَّة الشرعيّ، الذي يمثِّل ما يؤمن به المصريُّون، فهرب خوفاً من القتل والتعذيب..

بينما عيَّن الروم رجل دينٍ بدا أنَّه كان أكثر استعداداً لتحقيق أهداف الروم، وهو الشخص الذي يُعرَف في تاريخنا بأنَّه المقوقس، والذي راسله الرسول عليه الصلاة والسلام وأهداه مارية القبطيَّة، ولم يكن المقوقس سوى لقبٍ رسميٍّ لرأس الكنيسة المصريَّة، وكان حاكماً لمصر في الوقت نفسه، فالروم كانوا من تعاليهم أنَّهم لم يحكموا "المصريين" مباشرةً.. كما لو كانوا يأنفون من التعامل المباشر معهم، بل كان ذلك من خلال المقوقس الذي لم يكن في النهاية كما أراده الروم بالضبط، فلم يغيِّر شيئاً حقيقيّاً من مذهب الكنيسة، بل ماطل في ذلك، ولعلَّه تعمَّد أن يقبل المنصب لكي لا يقبل به سواه ممَّن يمكن أن يقدِّم تنازلاتٍ حقيقيَّةً.[٢١٣]

ليس الاضطهاد الدينيّ فقط!..

كان المصريُّون ممنوعين من الدخول إلى المدن الرئيسيَّة التي استوطنها الروم، وبقايا

٢١٣ فتح مصر، د.جمال عبد الهادي، دار الوفاء ١٩٩٩ ، ص ١٣- ١٨

الإغريق الذين بقوا في مصر، وكوّنوا جالياتٍ ضخمةً تتمتّع بحقوق المواطنة الرومانيّة، وكذلك استوطنتها جاليةٌ كبيرةٌ من اليهود الذين تعاونوا مع كلِّ من غزا مصر منذ الإغريق، وبدّلوا جلودهم مع كلِّ غازٍ جديدٍ..

وكذلك كانت هناك قلّةٌ قليلةٌ من أثرياء المصريّين التي استطاعت أن تنتمي للطبقة الجديدة..

ولكن عموم المصريين، لم يكن لهم حتى حقّ الدخول إلى عاصمة بلادهم، الإسكندريّة آنذاك كانت محصورةً بالأسياد من الطبقات آنفة الذكر.. فقط الخدم من المصريين كان يمكن لهم أن يدخلوا الإسكندريّة..

كيف يمكن للمصريين إلا أن يشعروا أنّهم غرباء في بلادهم؟..

كيف يمكن إلا أن يشعروا أنّ مصر قد تكون أمّ الدنيا، لكنّها ليست أمّهم، بل هي "زوجة أبيهم"!

هكذا كان وضع مصر عشيّة الفتح.

وهو ما يفسّر موقف المصريّين من الفتح الإسلاميّ، لقد انضمّ الكثيرون منهم من سكّان القرى لجيش المسلمين، جيش عمرو بن العاص الذي أُرسِل لفتح مصر وكان صغير الحجم، وربّما كان قد أُرسِل لجسّ نبض الوضع، ومعرفة ردّ فعل الروم تجاه توسُّع الفتح الإسلاميّ، ولكنّ أهل مصر ساندوه وجعلوا الجيش يتوغّل فاتحاً بعض المناطق والأراضي بسهولةٍ، حتى إنّ مصر كلّها صنفت بأنها "فُتِحت صلحاً".. رغم أنّ بعض أجزائها لم يكن كذلك فعليّاً، بل فُتِحت عنوةً، وشهدت معارك طاحنةً مع الروم..

لكنّ المصريّين كانوا قد قرّروا أنّ المسلمين مهما كانوا فهم أفضل من الروم.

(إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإنّ لهم ذمّةً ورحماً، وأمّ إسماعيل منهم!).[٢١٤]

كان هذا الحديث - الوصيّة، قد سكن وعي المسلمين ومخيلتهم، وكان عمر ولا بدّ مدركاً أهميّة وصيّة الرسول، وإشارته إلى خؤولة المصريّين للعرب.. وكان مدركاً أيضاً أنّ ذلك الفتح، والمواجهة لا بدّ أن تقع، لأنّ مصر هي امتدادٌ طبيعيٌّ للشام، ولأنّ ترك الروم يستجمعون قواهم بعد ما مُنيوا به في الشام، سيجعل لهم الفرصة سانحةً للهجوم..

لكنّ عمر هنا، كان متردّداً..

---

٢١٤ السلسلة الصحيحة ١٣٧٤

كان يخشى أن يكون هذا التوسُّع السريع المستمرُّ سبباً في ضعف الدولة، كان يريد أن ينضج مشروع الفتح بمشروعات الفتح الإداريَّة التي تحمي الفتح وتُنضجه..
كان عمر يقدِّم رِجلاً ويؤخِّر أخرى نحو فتح مصر..
لكنَّ عمرو بن العاص كان يُلحُّ عليه ويراجعه في المسير إليها..
لماذا عمرو تحديداً؟
لا نعرف..
يقال لأنَّه كان جريئاً.. شجاعاً..
ويقال أيضاً: لأنَّه كان قد زار مصر في الجاهليَّة في تجارةٍ له..[٢١٥]
لقد شرب من نيلها!..
وكان لا بدَّ أن يعود..
لكنَّه سيعود لا في تجارةٍ عابرةٍ..
بل في تجارةٍ رابحةٍ بكلِّ المقاييس..
تجارة هي صناعةٌ في حقيقتها.. صناعة الحضارة..
عاد، بعدما شرب من نيلها ليساهم في تحريرها من الظلم، **فتحها من "الغلق"** الذي كانت فيه وقت الروم.

****

(أنَّ عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بعد ما فتح الشأم أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خفَّ معك فسر به وابعث به مع شريك بن عبدة، فندبهم عمرو، فأسرعوا إلى الخروج مع عمرو، ثم إنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على عمر بن الخطاب فقال عمر: كتبت إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام، فقال عثمان: يا أمير المؤمنين إنَّ عمراً لمجرؤ، وفيه إقدامٌ وحبٌّ للإمارة، فأخشى أن يخرج من غير ثقةٍ ولا جماعةٍ فيعرِّض المسلمين للهلكة رجاء فرصةٍ لا يدرى تكون أم لا. فندم عمر بن الخطاب على كتابه إلى عمرو إشفاقاً ممَّا قال عثمان، فكتب إليه: إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامضِ لوجهك..
واستخار عمر الله، فكأنَّه تخوَّف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص يأمره أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح، فتخوَّف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه، وسار كما هو حتى نزل قريةً فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل إنَّها من أرض مصر، فدعا

---
٢١٥ فتوح مصر وأخبارها ابن عبد الحكم مكتبة مدبولي ص ٤٦

بالكتاب فقرأه على المسلمين، فقال عمرو لمن معه: ألستم تعلمون أنَّ هذه القرية من مصر؟.

قالوا: بلى، قال: فإنَّ أمير المؤمنين عهد إليَّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه، ويقال: بل كان عمرو بفلسطين فتقدَّم بأصحابه إلى مصر بغير إذنٍ، فكُتِب فيه إلى عمر، فكتب إليه عمر وهو دون العريش، فحبس الكتاب فلم يقرأه حتى بلغ العريش فقرأه، فإذا فيه: من عمر بن الخطاب إلى العاص بن العاص أمَّا بعد، فإنَّك سرت إلى مصر ومن معك وبها جموع الروم، وإنَّما معك نفرٌ يسيرٌ، ولعمري لو كان ثكل أمك ما سرت بهم، فإن لم تكن بلغت مصر فارجع، فقال عمرو: الحمد لله أيَّة أرضٍ هذه؟ قالوا: من مصر، فتقدَّم كما هو).[٢١٦]

****

لكن لماذا كان عمر متخوّفاً رغم إدراكه لوصيَّة الرسول بالقبط عند الفتح؟

ربَّما لم يكن فقط خوفه من التوسُّع السريع فحسب، ولا من ملاحظة عثمان عن جرأة عمرو بن العاص فحسب..

ولكن لأنَّه وجد أنَّ **العدَّة** التي مع عمرو بن العاص غير مناسبة..

هل أقصد العدد؟

لا.. العدَّة..

النوعيَّة..

كان عدد الصحابة مع عمرو بن العاص قليلاً، وكان غالبيَّة جنده من قبيلة "عك".. وهي إحدى قبائل الردَّة..

كان عمر هو أوَّل مَن أشرك قبائل الردَّة في مشروع الفتوحات، ليصهرهم في المجتمع الجديد ويشغلهم عن "التفكير بالردَّة" ويحميهم من مخاطر الإقصاء..

ولكن أن يكون جلُّ الجيش منهم، مع عددٍ لا يُذكر من الصحابة، وليس بينهم من الرعيل الأول..

كان هذا مقلقاً لعمر!

---

٢١٦ الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ج ٤ ص ٧ - ٨

(سار عمرو بجيشٍ مكوّنٍ من ٤ آلاف رجلٍ وعبر بهم من فلسطين إلي العريش، ومرَّ ببئر المساعيد حتى انتهي إلى الفرما وهي ميناءٌ صغيرٌ على البحر، وتقابل هناك مع حامية روميَّة، ودار قتلٌ شديدٌ حتى انتصر المسلمون، ثمَّ واصلوا السير إلى داخل مصر حتى وصلوا إلى بلبيس في دلتا مصر في مارس ٦٤٠ م / ربيع أول ١٩ هجرية.

وفي بلبيس تقابل جيش المسلمين مع جيش الروم بقيادة الأرطبون الذي كان قد فرَّ من القدس، وانتصر المسلمون بعد قتالٍ دام شهراً واستولوا علي بلبيس، ثم تقدَّموا إلى حصن بابليون، وكان الحصن فيه حاميةٌ روميَّةٌ كبيرةٌ ويقع في منطقةٍ تسمَّى مدينة مصر، وهي منطقة مزارع من قرى وحدائق تتَّصل جنوباً بمدينة منف في الجيزه على الضفَّة الغربيَّة للنيل. كان حصن بابليون شديد المنعة، فأرسل عمرو بن العاص يطلب مدداً من الخليفة عمر بن الخطاب).

هذه المرَّة، سيكون المدد مختلفاً..

(عن زيد بن أسلم قال: لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص، أمَّا بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبَّ عدوُّكم، وإنَّ الله لا ينصر قوماً إلا بصدق نيَّاتهم، وقد كنت وجَّهت إليك أربعة نفرٍ، وأعلمتك أنَّ الرجل منهم مقام ألف رجلٍ على ما أعرف إلا أن يكون غيَّرهم ما غيَّر غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضَّهم على قتال عدوِّهم، ورغِّبهم في الصبر والنيَّة، وقدِّم أولئك الأربعة في صدور الناس، وأمر الناس أن يكون لهم صدمةٌ كصدمة رجلٍ واحدٍ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنَّها ساعةٌ تنزل فيها الرحمة، ووقت الإجابة وليعجَّ الناس إلى الله، وليسألوه النصر على عدوِّهم، فلمَّا أتى عمرو الكتاب جمع الناس وقرأه عليهم، ثمَّ دعا أولئك النفر فقدَّمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهَّروا ويصلُّوا ركعتين، ثمَّ يرغبون إلى الله ويسألونه النصر ففتح الله عليهم...).[٢١٧]

فسَّرَ عمرُ بُطءَ الفتح بما كان يقلقه ابتداءً..

فأرسل دعماً لوجستيَّاً لا بالعدد فقط، بل بالبنيَّة، بالبناء الإيماني.. أرسل أربعةً من خيار الصحابة، ممَّن تربَّوا على يد النبيِّ، ليحسموا الفتح.. هم الزبير بن العوام، ومسلمة بن مخلد، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود.

٢١٧ الاكتفاء بما تضمنه مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ج ٤ ص ٢٨

أمره أن يكون هؤلاء في مقدّمة الناس.. وأن يكونوا "كالصدمة"..

صدمة لمن؟

للعدوّ؟..

أم للجيش الذي تصوَّر عمر أنَّه صار يميل إلى الاسترخاء إلى ما قد غنم؟

تراه قصد ما نسمِّيه اليوم **بالصدمة الحضاريَّة**؟

سواء للعدوٍّ، أو لأهل مصر، أو للجيش نفسه..

كلُّ هذا واردٌ..

وكلُّه تحقَّق!

****

بعد سقوط حصن بابليون فَقَدَ الروم معظم مواقعهم في مصر، ولكن مازالت عاصمتهم المزدهرة الإسكندريَّة في أيديهم، ولقد رأى عمرو بن العاص أنَّ مصر لن تسلم من غارات الروم طالما بقيت الإسكندريَّة في حوزة الروم، فاتَّجه بجيشه إلى الإسكندريَّة، وفرض عليها حصاراً بريَّاً استمرَّ لمدَّة أربعة أشهرٍ، ولكنَّ هذا الحصار لم يكن مجدياً لأنَّ المواصلات بينها وبين الإمبراطوريَّة الرومانيَّة عن طريق البحر ظلَّت مفتوحةً لولا موت الإمبراطور الرومانيّ، وحدوث فتنٍ واضطراباتٍ حول مَن يخلفه.

فقرَّر عمرو بن العاص اقتحام المدينة، وعهد إلى عبادة بن الصامت بذلك، فنجح في اقتحام المدينة بجنده، وجاء المقوقس (الذي كان هرقل قد عزله بعدما رأى تعاطفه مع المسلمين ورغبته في الصلح مبكراً) إلى الإسكندريَّة ووقَّع على معاهدة الإسكندريَّة مع عمرو بن العاص سنة ٦٤٢ م / ٢١ هـ، وكانت تنصُّ على انتهاء حكم الدولة البيزنطيَّة لمصر وجلاء الروم عنها ودفع الجزية للمسلمين دينارين في السنة عن كلِّ شخصٍ وإعفاء النساء والأطفال والشيوخ منها..

كيف وصل خبر فتح مصر إلى عمر؟

(عن معاوية بن حديج انه قال قدمت المدينة في الظهيرة فأنخت راحلتي بباب المسجد ثم دخلت المسجد فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحبا علي ثياب السفر فأتتني فقالت من أنت فقلت أنا معاوية

بن حديج رسول عمرو بن العاص فانصرفت عني ثم أقبلت تشتد فقالت ثم قم فأجب أمير المؤمنين فتبعتها فلما دخلت إذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه فقال ما عندك فقلت خير يأمير المؤمنين فتح الله الإسكندرية فخرج معي إلى المسجد فقال للمؤذن أذن في الناس الصلاة جامعة فاجتمع الناس ثم قال لي قم فأخبر أصحابك فقمت فأخبرتهم ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس فقال يا جارية هل من طعام فأتت بخبز وزيت فقال كل فأكلت على حياء ثم قال كل فإن المسافر يحب الطعام فلو كنت آكلا لأكلت معك فأصبت على حياء ثم قال يا جارية هل من تمر فأتت بتمر في طبق فقال كل فأكلت على حياء ثم قال ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد قال قلت أمير المؤمنين قائل قال بئس ما قلت أو بئس ما ظننت لئن نمت بالنهار لأضيعن الرعية ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية...).[٢١٨]

معقولٌ أن تظنَّ أنَّ الخليفة ينام الظهيرة؟ سامحك اللّه!.. إنْ نام في النهار ضيَّع الرعيَّة، وإن نام الليل ضيَّع نفسه..

وهل تعتقد أنَّ خبراً كفتح الإسكندريَّة يمكن أن ينتظر!..

والغذاء عند الخليفة الذي كان قد بسط الدولة إلى كلِّ العراق وفارس والشام! خبزٌ وزيتٌ.. وتمر..

ليس هذا فقط "لو كنتُ آكلا لأكلت معك!.."

كان صائماً أيضاً..

لقد سمعنا خبر الفتح ..فتح مصر..

ثمَّ عرفنا المقومات التي قادت إلى استحقاقه في رأس الدولة.. **قيام ليلٍ، صيام نهارٍ، وحرصٌ على الرعيَّة، ومتاعٌ بسيطٌ في بيته، رغم الانتصار على كسرى وقيصر وغنائم قصريهما!**

****

لكنَّ مقومات الفتح بحسب عمر لم تكن هذه فقط. أدرك عمر أنَّ لكلِّ بلدٍ خصائصه التي تختلف عن الآخر.. فحاول أن يعرف المزيد من أهله أنفسهم ...

(كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس (الأنبا بنيامين هذه المرة الذي استعاد كنيسته على يد المسلمين) – يسأله - عن مصر من أين تأتي عمارتها وخرابها، فسأله عمرو، فقال له المقوقس: تأتي عمارتها وخرابها من وجوهٍ خمسة، الأول أن يستخرج خراجها في إبانٍ واحدٍ (زمان واحد) عند فروغ أهلها من زروع، ويرفع خراجها في إبانٍ واحدٍ عند فراغ أهلها من عصر كرومها،

٢١٨ الاكتفاء بما تضمنه مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ج ٤ ص ٣١

ويحفر في كلِّ سنةٍ خليجها، ويسدُّ ترعها وجسورها، ولا يقبل محلَّ أهلها مريد البغي فإذا فعل هذا فيها عمرت، وإن عمل فيها بخلافه خربت).[219]

كان ذلك ترتيب المقوقس..

لكنَّ عمر سيقدِّم ويؤخِّر فيها..

سيجعل العدل أوّلها، كما في كلِّ مكان، ثمَّ سيعمل على "حفر الخليج" وسدِّ الترع والجسور والسدود..

ثمَّ سيفهم من الإشارة إلى رفع الخراج، واستخراجه في وقتٍ واحدٍ لكلٍّ منها حاجةَ مصر إلى أن يُترك الوقت الكافي لأهلها إلى تقديم ما عليهم، دون ضغطٍ أو إسراعٍ..

وسيؤدي الترتيب العمريُّ للأولويّات إلى جعل مصر تدخل عصراً جديداً من العدل، لقد شهد المصريُّون في العهد الجديد حادثةً دخلت التاريخ، وجعلت القول المتعلِّق بها يفتتح إعلانات حقوق الإنسان في العصر الحديث.[220]

(عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أتى رجلٌ من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين عائذٌ بك من الظلم قال: عذت بمعاذ، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه، ويقدم بابنه معه، فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الألأمين، قال أنس: فضرب، فوالله لقد ضربه ونحن نحبُّ ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنّينا أنّه يرفع عنه، ثمَّ قال عمر للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني، وقد اشتفيت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني).[221]

ذلك كان ردُّ الفعل العمريِّ تجاه ما فعله ابن عمرو بن العاص..

ردُّ فعلٍ دخل التاريخ، وصارت المقولة مثالاً سابقاً على كلِّ مواثيق حقوق الإنسان التي يتشدَّق بها المعاصرون..

لا.. لم تكن مجرَّد مقولةٍ.. كانت «فعلاً».. كانت فعلاً أكَّد أنَّ حقوق الإنسان ليست مجرَّد «حبرٍ على ورقٍ»، بل حقيقة ناصعة أبهرت التاريخ.. أدخلته في مرحلةٍ جديدةٍ..

كان من الطبيعيِّ بعد كلِّ هذا..

أن يبدأ المصريُّون باستعادة بلدهم.. باستعادة شعورهم أنَّ مصر هي بلدهم، وأنَّها ليست زوجة أبيهم..

بل هي أمُّهم!..

---

٢١٩ كنز العمال ١٤٢١١

٢٢٠ Universal Declaration of Human Rights -1948, Article 1

٢٢١ كنز العمال ٣٦٠١٠

أخيراً!..
أخيراً عادت أمُّهم لهم.. وعادوا لها!..
ألم يكن منطقيّاً أن يرجِع «أبو العيال»، العيال، إلى حضن أمّهم؟
ألم يكن منطقيّاً بعدها، أن يسلم المصريُّون؟
أن يتَّبعوا الدين الذين أعاد أمّهم لهم..
أليس هذا ما يريدونه دوماً؟

****

ليس هذا فقط!..
فقد أعاد بنات مصر إلى حضن آبائهم وأمهاتهم..
كانت بعض العادات الفرعونيَّة القديمة لا تزال قائمةً رغم دخول المصريين في المسيحيَّة، لم يحاول الإغريق، ومن بعدهم الرومان، ومن بينهم اليهود، أن يغيِّروا من بعض هذه العادات السيئة، رغم مخالفتها لشريعة اليهود والنصارى، والحسِّ السليم قبل ذلك.
كان من عادات الفراعنة إلقاء فتاةٍ عذراء في النيل إرضاءً له لكي يفيض!..
(لمَّا فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل بؤنة من أشهر العجم، فقالوا له: أيُّها الأمير! إنَّ لنيلنا هذا سُنَّةٌ لا يجري إلا بها.
فقال لهم: وما ذاك؟
قالوا: إنَّه إذا كان لاثنتي عشرة ليلةً تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جاريةٍ بكرٍ بين أبويها فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها شيئاً من الحليِّ والثياب أفضل ما يكون ثمَّ ألقيناها في هذا النيل).
كلُّ عذراء في مصر، كلُّ سنة، كانت تخاف أن يتمَّ انتقاؤها لتكون عروس الموت تلك، كلُّ عذراء في مصر، كان لديها ذلك الكابوس المفزع، أنَّ أهلها سيبيعونها، وأنَّها ستُزيَّن بالحليِّ والجواهر التي تمنعها من السباحة وتأخذها إلى قلب النيل..
(فقال لهم عمرو: إنَّ هذا لا يكون في الإسلام، وإنَّ الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا بونة وأبيب ومسرى (أشهر حزيران وتموز وآب في التقويم السائد عندهم) **لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى همُّوا بالجلاء..**
فلمَّا رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقةٍ فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي، فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر! أمَّا بعد فان كنت تجري من قِبَلِك فلا تجرِ، وان كان الواحد القهَّار يجريك فنسأل الله الواحد القهَّار أن يجريك...).[222]
وجرى النهر!

---
[222] كنز العمال ٣٥٥٩٦

@iAbubader

جرى كما لم يجرِ من قبل..

هل كانت استجابةً لدعاء عمر؟ أم كانت استجابةً طبيعيّةً للسنن الإلهيّة التي سار عليها عمر في إدارته؟

: حفر الخليج، وسدّ الترع، وإقامة السدود.. كما سنعرف لاحقاً.

على الأغلب أنّ الاستجابة كانت نتيجةً طبيعيّةً لقيام عمر بما يجب القيام به، وسؤاله التوفيق..

****

كلمةٌ قالها عمر في رسالته.. لا بدَّ لنا أن نعيها تماماً، وهي جزء من حديث صحيح للرسول عليه الصلاة والسلام.[٢٢٣]

الإسلام يهدم ما كان قبله..

نعم.. عندما تريد أن تبني لا بدَّ من أن تهدم أحياناً.. لا يمكنك أن تبني على أساسٍ خاطئٍ، أو أساسٍ متهالكٍ..

لا بدَّ من الهدم، أحياناً..

لن يرتفع صرح حضارة «لا إله إلا الله»، إذا كنت ستتساهل في «حجر بناءٍ» تعلم جيداً أنَّه هشٌّ.. أو في موادَّ إسمنتيّةٍ تعلم أنَّها مغشوشةٌ..

لن يرتفع صرح الحضارة يوماً، إن كنت تبنيه على بناءٍ آيلٍ للسقوط..

أهدمه أولاً..

ثمَّ أبدأ البناء..

ربَّما كان ذلك البناء جميلاً من الناحية الفنيَّة.. ربَّما كنت متعلِّقاً به، متعوِّداً عليه..

وربَّما سيكون الهدم مؤلماً..

لكن في سبيل بناء «الحضارة».. لا بدَّ من ذلك..

لكي تكون «بنّاءً»..لا بد أن تكون «هدّاما» أيضاً.

****

قصة مكتبة الإسكندريّة، وما يقال عن أمر عمر بإحراقها، يمكن أن تكون جزءاً من ذلك.

لو كان عمر أمر بإحراقها، لقلنا إنَّه قد قرَّر أنَّ فيها ما لا يمكن أن يحتويه بناء الحضارة الجديدة..

لكنَّ ذلك لم يحدث ببساطةٍ..

أولاً لأنَّ المكتبة، ومنذ عهد الإمبراطور تيودوسيس، الذي كان مسيحيّاً مؤمناً، قد أحرق

٢٢٣ صحيح مسلم ٣٣٦

كلَّ ما فيها من كتب فلاسفة الإغريق التي عدَّها الإمبراطور وثنيَّةً.. أي إنَّ مكتبة الإسكندريَّة التي جمع فيها الإسكندر كلَّ ما كان في عصره من كتب، كانت قد تحوَّلت قبل مائتي سنةٍ من الفتح الإسلامي لتكون مكتبةً «دينيَّةً مسيحيَّةً».. فما دخل عمر بذلك؟ لقد ترك لمسيحيي مصر حريتهم في ديانتهم، وكانت المكتبة لهم، ربَّما أعدموا هم بعض ما كان يوافق مذهب الروم ولا يوافق مذهبهم.. لكنَّ عمر، لا شأن له بذلك.

الطريف أنَّ مؤرِّخي تلك الفترة، حتى من الأقباط الذين عاصروا الفتح وأسهبوا في وصفه لم يذكروا شيئاً عن ذلك..

أوَّل من قال شيئاً عن ذلك، كانت تفصله ستة قرونٍ عن الفتح..

لذلك عمر لا دخل له بحريقٍ لم يحدث![٢٢٤]

لكن، لو كان وضع المكتبة مختلفاً، لو لم تكن خاصَّةً بالمسيحيين، أهل الذِّمَّة والعهد، لكان ما يُنسَب إلى عمر محتملاً، ومتوافقاً مع «سيرته»، مع فصل الخطاب الذي يؤمن أن لا بدَّ منه في بناء الحضارة.. «**إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غني، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدَّم بإعدامها.**

دعونا نكن معتزِّين بإسلامنا، كما كان عمر.. إن كنَّا حقاً جادِّين في صنع حضارة «لا إله إلا الله»، **فهذا هو الموقف الصائب في كلِّ ما سوى «الوسائل» و «التقنيَّات»..**

في كلِّ ما سوى ذلك، من كلِّ التجارب الحضاريِّة، «إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف، فلا حاجة إليها»..

القول منسوبٌ له في هذه الواقعة.

لكنَّه صحيحٌ في كلِّ سيرته.

****

الفتح الإسلاميُّ لمصر في عهد عمر، أعاد المصريِّين لمصر..

أعاد المواطنين لوطنهم..

أعاد العيال لأمِّهم..

والعذارى لأمنهم..

---

٢٢٤ يمكن مراجعة الويكيبيديا باللغة الانجليزية مادة (مكتبة الاسكندرية) في هذا الشأن للتأكد من كون هذه الروايات لم تنتشر حقيقة إلا في عشرينات القرن العشرين بين أقباط مصر. وأنَّ أول ذكرٍ لها في كتب التاريخ كان بعد ستة قرونٍ من الحادثة المزعومة!

لكن هذا ليس للفتح الإسلاميّ لمصر فقط..

بل هو لكلِّ فتحٍ..

لكلِّ إسلامٍ عندما يكون فتحاً.. حتى عندما يكون شخصيَّاً جداً..

يجعلك تكسر تلك الحلقة المفرغة التي تشعر فيها أنَّ الوطن ليس وطنك.. يجعلك تسعى لأن تجعله وطنك، حتى لو كان قد سُلب منك.. يجعلك تنتمي له، فينتمي هو لك.

يكسر الإسلام غربتك، يجعلك تشعر أنَّ في هذه الحياة ما يستحق أن تنهض صباحاً من أجله، أنَّها مسؤوليَّتك في هذه الأرض.. في جعلها أفضل..

مع الإسلام، لا تصبح غريباً في وطنك، قد يكون وطنك غريباً عنك، لكنَّك بفهمك الجديد، بالفتح الذي فتحك، ستعمل على أن يعود لما يجب أن يكون عليه..

يرجعك الإسلام إلى نفسك، نفسك الحقيقيَّة.. يمنحك الأمان كما لو كنت قد عدت إلى حضن أمِّك بعد طول غياب..

يجعلك تسأل: كيف احتملت كلَّ هذه المدَّة دون حضنها الآمن؟!..

تجد ذلك في سجدةٍ في جوف الليل.. في قيامٍ مع رفاقٍ لك في الدرب.. في سعيٍ تسعاه لأجل مساعدة إخوانك ونصرتهم.. في نشر الوعي عندهم.. في تحفيزهم على العمل.. في كلِّ ذلك معاً، الذي يصبُّ كلُّه في بناء الحضارة..

يُرجِعك الإسلام إلى نفسك الحقيقيَّة التي ربَّما لم تعرفها من قبل.. والتي ستُدهشك بقوَّتها وعزَّتها وشموخها..

سيُرجعك الإسلام إلى القالب الذي خُلِقت لتكونه، ذلك العملاق الذي اختاره الله ليكون الخليفة على الأرض..

عندما تسجد على الأرض، وأنت تحمل كلَّ ذلك في رأسك وقلبك، فإنَّك ستجد نفسك كما لو كنت تحتضن الأرض..

الأرض: أمانتك.. تلك الوديعة التي استودعها الله عندك..

والتي ستكون كلُّ حياتك اختباراً لما ستستثمره فيها.

الوقائع الشخصيّة لأزمةٍ عامّةٍ

لم تكن سنوات الفتح مزدهرةً دوماً..

فالفتح حياةٌ كاملةٌ..

والحياة فيها يُسرٌ وعُسرٌ..

لكنَّ الفتح، بمفاتيحه المختلفة المغايرة، يتمكَّن دوماً من اجتياز العاصفة، من تجاوز مرحلة العسر، نحو يسرٍ أقوى وأشدَّ صلابة.. نحو يُسرٍ أكثر يُسراً.

الفتح ليس مجرَّد انتصارٍ في مواجهة عدوٍّ ما، عسكريّاً أو اقتصاديّاً أو في أيِّ مجال منافسةٍ وإبداعٍ..

إنَّه أيضاً مواجهة الكوارث والأزمات الطبيعيَّة.. التي تكون بمثابة امتحانٍ لصلابة مجتمعٍ ما، وقدرته على اجتياز الامتحان.

وقد مرَّ عهد عمر بامتحانٍ ما، كان علامةً فارقةً في ذلك العهد، وترك علامةً فارقةً في الفقه العمريِّ ومن ثمَّ في الفقه الإسلاميِّ كلِّه..

بل لقد ترك علامةً فارقةً، حتى على وجه عمر..

حرفيّاً.

عام الرَّمادة..

عامان من عهد عمر الحافل بالمنجزات..

@iAbubader

كانت الرمادة جوعاً شديداً أصاب الناس في الجزيرة العربيّة، لانقطاع المطر، حتى قيل إنَّها جعلت الوحوش تستأنس من شدَّة هزالها.. "الوحوش صارت تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها، وإنَّه لمقفرٌ".[٢٢٥]

وقد روي أنَّ عمر عسَّ المدينة ذات ليلةٍ عام الرمادة، فلم يجد أحداً يضحك، ولا يتحدَّث الناس في منازلهم على العادة، ولم يرَ سائلاً يسأل، فسأل عن سبب ذلك، فقيل له (**يا أمير المؤمنين، إنَّ السؤَّال سألوا فلم يعطَوا، فقطعوا السؤال، والناس في همٍّ وضيقٍ، فهم لا يتحدَّثون ولا يضحكون**).[٢٢٦]

أيضاً احتشد الناس من خارج المدينة، وقدموا إليها يطلبون العون حتى قيل إنَّه خيَّم في أطرافها حوالي ستُّون ألفاً من العرب لا يجدون إلا ما يقدَّم لهم من بيت المال أو من أهل المدينة المنورة.

لماذا سُمِّي بعام الرمادة؟

لاسوداد الأرض من قلَّة المطر حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد.. أو لأنَّ الريح كانت تسفي تراباً كالرماد.[٢٢٧]

.. أو لأنَّ ألوان الناس أضحت مثل الرماد.

وتداخل ذلك لاحقاً مع طاعون عمواس في بلاد الشام، الذي فتك بأكثر من خمسةٍ وعشرين ألفاً من المسلمين، حتى قضى على قبائل بأكملها، فلم يعد المسلمون يعرفون من يرث هذه القبيلة..

حيَّد هذا بلاد الشام من إمكانية إمداد الجزيرة ومساعدتها بالإمداد، فقد كانت هي بأمسِّ الحاجة للمساعدة.. علماً أنَّ الشام كانت قد مدَّت المدينة في أزمتها أولاً إلى أن جاء الطاعون.

ووجد عمر نفسه في مواجهة مجاعةٍ وفاقةٍ كبيرتين..

مواجهة استفزَّت عمر الخليفة، وعمر الفقيه، وعمر الإداريِّ، وعمر الإنسان.. استفزَّته إلى أقصى حدٍّ.

---

٢٢٥ تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٩٢
٢٢٦ البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٣
٢٢٧ تسفي الريح التراب: تذروه أو تحمله

كان أسوأ ما في عام الرمادة، هو ذلك الشعور بأنَّ **الجفاف كان عقوبةً منه عزَّ وجلَّ على عملٍ ما بدر من المسلمين.**

مواجهة العدوِّ، مواجهةٌ تعرف تماماً أنَّك فيها على الحقِّ، وأنَّه على الباطل..

لكن عندما تكون مواجهتك مع كارثةٍ من هذا النوع، كارثةٍ طبيعيَّة، ومن دون فعلٍ بشريٍّ واضحٍ، فإنَّ احتماليَّة أن تكون هذه الكارثة هي عقوبةٌ منه عزَّ وجلَّ..

عقوبةً على ذنبٍ ارتكبه المجتمع.. أو على معصيةٍ قد فشت بين الناس..

أو على الأقلِّ على ذنبٍ ترتكبه صفوةٌ ما..

كانت هناك بطبيعة الحال احتمالاتٌ أخرى..

لكن هذا الاحتمال بالذَّات، قد جعل المواجهة صعبةً جداً.. مؤلمةً جداً..

(خطب عمر بن الخطاب الناس في زمان الرمادة، فقال: أيُّها الناس اتقوا الله في أنفسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم، فقد ابتُليت بكم وابتليتم بي، فما أدري ألسخطةٍ عليَّ دونكم أو عليكم دوني، أو قد عمَّتني وعمَّتكم، فهلمُّوا فلندعُ الله يصلح قلوبنا، وأن يرحمنا، وأن يرفع عنَّا المحل. قال: فرُئِي عمر يومئذٍ رافعاً يديه يدعو الله، ودعا الناس وبكى، وبكى الناس مليّاً، ثم نزل، قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر يقول: أيُّها الناس إنِّي أخشى أن تكون سخطةٌ عمَّتنا جميعاً، فأعتبوا ربَّكم، وانزعوا، وتوبوا إليه). [٢٢٨]

عامل المسؤوليَّة الإنسانيَّة في هذا الجفاف، كان هو أكثر ما يخيف عمر، أي أن يكون هذا الجفاف قد نزل نتيجةً لفعلٍ إنسانيٍّ، يخشى أن يكون قد فعله هو وتُعاقب به الأمَّةُ كلُّها، أو أن يكون فِعْلَ الأمَّة، فيعاقبون جميعاً..

دعوة عمر هنا لم تكن إلى إزالة الجفاف أو العقوبة ابتداءً..

بل كانت إلى إزالة مسبِّباتها أولاً..

إلى إصلاح القلوب!.. ومن ثمَّ طلب الرحمة.. ورفع الجفاف..

---

٢٢٨ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣٢٢

كما لو أنَّه يستحي أصلاً من طلب الرحمة ورفع المصيبة، قبل أن يدعو بإصلاح القلوب، على اعتبار أنَّها قد تكون المسبِّب الأصليَّ لما حدث..

إنَّها مواجهة النفس واتِّهامها دوماً، بدلاً من البحث عن «شمَّاعةٍ» لإلقاء اللوم عليها..

ليس عدوّاً خارجيًا نتَّهمه دوماً.. وليس فئةٌ من الداخل - من سوانا - ! قد ارتكبت معصيةً ونُعاقب جميعاً عليها..

إنَّه الـ «نحن».. دوماً..

لرأس الدولة أن يتَّهم نفسه دوماً أكثر من سواه لاعتباراتٍ تخصُّ منصبه، لكن الـ «نحن» هو المتَّهم الأول..

هو ما يجب استجوابه دائماً في كلِّ أزمةٍ..

****

لكنَّ هذا الاتِّهام الجاهز، والاستجواب اللاحق، ليس كلَّ شيءٍ.. كما أنَّه ليس وسيلةً ليكون جلد الذات هو كلَّ الفعل الذي سيحدث..

على العكس، سيكون **اتِّهام الذات وسيلةٌ للعمل والفاعليَّة..**

لن يكون البكاء وطلب المغفرة، هو الحلّ للحصول على المغفرة، دون أن يتواءم ذلك مع عملٍ في ميدان التطبيق..

وهنا سيكون لما فعله عمر مفارقةٌ كبيرةٌ لفعلنا العاديِّ، عندما نقع في أزمةٍ شخصيَّةً كانت أو عامَّةً..

نعم، لقد بكى بحرارةٍ، ودعا الله بحرارةٍ أن يرفع البلاء..

لكن هذا كان جزءاً بسيطاً ممَّا فعله..

كان الاستغفار ومواجهة الذات بتقصيرها جزءاً أساسيَّاً من استراتيجيَّة إدارة الأزمة والكارثة..

لكنَّه لم يكن كلَّ شيءٍ!

استنفر عمر كلَّ ما في الدولة. فكان في اتِّساعها في عهده عونٌ لما أصاب قلب الدولة ومركزها..

استخدم أولاً بيت المال في المدينة، فكان يولم كلَّ ليلةٍ لما لا يقلُّ عن عشرة آلافٍ من العرب الذين تجمَّعوا حول المدينة حتى قيل إنَّ عددهم قد بلغ خمسين ألفاً من القبائل والبدو الذين لم يجدوا ما ينقذهم من الجوع غير تجمُّعهم حول المدينة.[٢٢٩]

ولعلَّ هذا الموقف «العمريّ» قد ساهم في كسر عزلة البدو تحديداً، بل لعلَّه أيضا فكَّر في أنَّ ذلك قد يكون استقطاباً تدريجيّاً لهم، أي عندما يشعرون أنَّ الدولة المركزيّة يمكن أن تقدِّم لهم ما يعجزون عن تقديمه لأنفسهم في وقت الحاجة..

كما أوقف عمر تطبيق حدِّ السرقة في تلك الظروف العصيبة..

(عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب :ان رقيقا لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة فانتحروها فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمر عمر كثير بن الصلت ان يقطع أيديهم ثم قال عمر أراك تجيعهم ثم قال عمر والله لأغرمنك غرما يشق عليك ثم قال للمزني كم ثمن ناقتك فقال المزني قد كنت والله امنعها من أربعمائة درهم فقال عمر أعطه ثمانمائة درهم).[٢٣٠]

فعمر، الذي أوقف بالشبهة الحدود، وقال قولته التي صارت مرجعاً فقهيّاً: لئن أعطِّل الحدود بالشُّبهات، خيرٌ لي من أن أقيمها بالشُّبهات.[٢٣١]

مَن هذا؟ مَن الذي يقول إنَّ **تعطيل الحدود بالشُّبهة خيرٌ من إقامتها على الشُّبهة؟!**[٢٣٢]

إنَّه عمر الشديد.. **لكن هذا جزءٌ من شدَّته، فهو شديدٌ في الفهم قبل أن يكون شديداً في التطبيق، وتطبيقه قائمٌ على فهمه الدقيق..** وقد فهم عمر أنَّ قطع الأسباب التي تؤدِّي إلى السرقة أهمُّ وأسبق من قطع الأيدي التي تسرق.. **كان يعمل على تجفيف المستنقع الذي يؤدِّي إلى المرض، قبل أن يحارب أعراض المرض.**

٢٢٩ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣١٧
٢٣٠ الموطأ برواية يحيى الليثي ١٤٣٦
٢٣١ مصنف ابن ابي شيبة ٢٨٤٩٣
٢٣٢ تخيل الحاقدون أنهم يمكن أن يستغلوا عدالة عمر لتكون مطعنا عليه. فقالوا إنه لم يطبق الحد على المغيرة بن شعبة لمؤامرة ما في خيالهم المريض. القصة كلها ضعيفة من الناحية الإسنادية .وتفوح منها رائحة مكيدة قبلية لثقيف . وحتى لو صحت فعمر ببساطة لم يجد النصاب المكمل لتنفيذ الحد . وقد نفذ الحد في ولده مرتين من قبل. فلا معنى في عدم تنفيذه في المغيرة لو كان النصاب مكتملا.

بل إنَّ عمر حدَّد بوضوحٍ، وليس فيما يخصُّ عام الرمادة فقط، ما سيمنع تنفيذ الحدِّ فقال:

(عن علي بن حنظلة عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب: ليس الرجل أميناً على نفسه إذا أجعته أو أوثقته أو ضربته).[٢٣٣]

فالجوع، وفقدان الحريَّة، والذلُّ، كلُّها أسبابٌ كانت تجعل من تطبيق الحدِّ أمراً يجب أن يُراجَع ويدقّق..

أيُّ معنى عظيم؟!..

ليس الإنسان بمؤتمنٍ حقاً، إلا عند الشبع، والحريّة، والكرامة.

****

فَهمُ عمر لمقاصد الشريعة وحدودها وأولويّاتها، جعله يفتح الباب واسعاً أمام ما يُعرف اليوم بفقه المقاصد **الذي هو أبعد ما يكون عن التفلُّت أو إيقاف تطبيق الشريعة بقدر ما هو فهمٌ لمقاصد الشريعة وإنزالها على الواقع نزولاً متدرِّجاً يجعل الواقع «يتغيَّر» بالتنزيل، لا يكون عبئاً على الشريعة..**

بعد أن استنفد بيت المال، ولم تنتهِ الأزمة كاتبَ عمر الأمصار طالباً العون فجاءه المدد من أبي عبيدة عامر بن الجراح، ومن أبي موسى، وأرسل إلى سعد بن أبي وقاص فأرسل له بثلاثة آلاف بعيرٍ تحمل الدقيق، وبعث إليه بثلاثة آلاف عباءةٍ، وأرسل إلى والي الشام فبعث إليه بألفي بعيرٍ تحمل الزاد، ونحوُ ذلك ممّا حصل من مواساة المسلمين لبعضهم..

(كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى العاص بن العاص لعمري ما تبالي إذا سمنت، ومن قبلك أن أعجف أنا ومن قبلي، ويا غوثاه». فكتب عمرو: «سلام، أما بعد لبيك لبيك أتتك عير أولها عندك، وآخرها عندي، مع أني أرجو أن أجد سبيلا أن أحمل في البحر، فلما قدمت أول عير دعا الزبير، فقال: اخرج في أول هذه العير، فاستقبل بها نجدا، فاحمل إلى كل أهل بيت قدرت على أن تحملهم، وإلى من لم تستطع حمله فمر لكل أهل بيت ببعير بما عليه، ومرهم فليلبسوا كياس الذين فيهم الحنطة، ولينحروا البعير، فليجملوا شحمه، وليقدوا لحمه، وليأخذوا جلده، ثم ليأخذوا كمية من قدي، وكمية من شحم، وحفنة من دقيق، فيطبخوا، فيأكلوا حتى يأتيهم الله برزق،

---

٢٣٣ ١١٤٢٤ مصنف عبد الرزاق

فأبى الزبير أن يخرج، فقال: أما والله لا تجد مثلها حتى تخرج من الدنيا، ثم دعا آخر أظنه طلحة، فأبى، ثم دعا أبا عبيدة بن الجراح، فخرج في ذلك فلما رجع بعث إليه بألف دينار، فقال أبو عبيدة: إني لم أعمل لك يا ابن الخطاب، إنما عملت لله، ولست آخذ في ذلك شيئا، فقال عمر: قد أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشياء بعثنا لها فكرهنا، فأبى ذلك علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاقبلها أيها الرجل فاستعن بها على دنياك ودينك فقبلها أبو عبيدة بن الجراح ثم ذكر الحديث).[٢٣٤]

وكان عمر يمكن له أن يمدَّ أهل المدينة، ويشبعهم بهذا المدد من الأمصار التي لم تعانِ من الجفاف، ولكنَّه لم يشأ أن يعتمد أكثر ممَّا يجب على هذا . فقد كان الأصل في الأمر عنده أنَّ غلَّة كلِّ مصر تكون لهذا المصر، ولمن يحتاج من الفقراء منهم، لا أن تقوم الأطراف بمدِّ المركز على نحوٍ مستديمٍ..

لذا فقد عمد إلى تعميم إجراءاتٍ تقشفيَّةٍ في المدينة، تعزِّز من قيم التكافل الاجتماعيِّ بين الناس، وتساعد أكثر في مواجهة الأزمة عبر جعل «الحلِّ» يكون جزءاً من فعل الناس..

إذ كان يلقي على أهل كلِّ بيت مثلهم من الفقراء، ويقول: «لن يهلك امرؤ على نصف قوته»[٢٣٥]**.. مستنداً على قوله عليه الصلاة والسلام هذا على سنَّته في قوله، عليه السلام: «طَعَامُ الاِثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاَثَةِ ، وَطَعَامُ الثَّلاَثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ».**[٢٣٦]

ليس هذا فقط..

كان عمر يروِّج لأساليب متقشِّفةٍ دقيقةٍ في الطبخ وإعداد الطعام، وكان يقوم بنفسه، وهو أمير المؤمنين، يعلِّم النسوة كيف يقمن بذلك.. **(عن حزام بن هشام عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مرَّ على امرأةٍ وهي تعصد عصيدةً لها فقال: ليس هكذا تعصدين، ثمَّ أخذ المسوط (الخشبة) فقال: هكذا - فأراها).**[٢٣٧]

(وعن هشام بن خالد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا تذرن إحداكنَّ الدقيق حتى يسخن الماء ثمَّ تذره قليلاً قليلاً، وتسوطها بمسوطها فإنَّه أريع «أزيد وأنمى»لها وأحرى أن لا يتقرد «يتركب بعضه بعضاً»).[٢٣٨]

عمر بنفسه يقوم بذلك..

---

٢٣٤ صحيح ابن خزيمة ٢١٧٦
٢٣٥ الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ج ٩ ص ٣٤٠
٢٣٦ صحيح البخاري ٥٣٩٢
٢٣٧ أنساب الأشراف ج ٣ ص ٤٢٣
٢٣٨ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢١٤ . أنساب الأشراف ج ٣ ص ٤٢٣

لا يأمر بذلك على المنبر.. بل يقوم بذلك بيديه..

إنَّه "معلِّمهم بالعمل".. كما قال لهم ليلة الانتصار على قرن الشيطان..

حتى في طرق ترشيد الطعام!

****

لكنَّ هذه الإجراءات الإداريَّة، على أهميَّتها التاريخيَّة وأهميَّتها الفقهيَّة، لا يمكن أن تقارن بالجانب الشخصيِّ من تفاعل عمر مع "الرمادة"..

عندما ندخل هذا الجانب، سنتعرَّف أكثر على عمر بن الخطاب الإنسان، عمر "أبي العيال".. عمر الذي نتمنَّى لو كان مسؤولونا وحكَّامنا لهم ولو جزءٌ بسيطٌ من شعوره تجاه "رعيَّته" و شعبه في الأزمات..

(عن أسلم قال: كنَّا نقول: لو لم يرفع الله المحل (الأزمة) عام الرمادة لظننَّا أنَّ عمر يموت همَّاً بأمر المسلمين!). [٢٣٩]

كان يموت همَّاً.. يحمل همَّ المسلمين على ظهره، ويظهر ذلك على قسمات وجهه.. لا يرفل بالعزِّ والترف، ويوزِّع الابتسامات أمام الصور بينما الشعب يتضوَّر جوعاً..

(عن السائب بن يزيد قال: ركب عمر بن الخطاب عام الرمادة دابَّةً فراثت شعيراً (خالط روثها الشعير) فرآها عمر فقال: المسلمون يموتون هزلاً وهذه الدابَّة تأكل الشعير! لا والله! لا أركبها حتى يحيا الناس!). [٢٤٠]

صار يمشي على قدميه تحت شمس المدينة الملتهبة!، ويركب أحياناً مع الآخرين، ولكنَّه لا يركب على دابَّةٍ تأكل ممَّا يأكل الناس، وهم بأمسِّ الحاجة إليه..

هل تعاقب نفسك يا عمر؟!

لا.. الأمر أعمق من ذلك.. إنَّه يعلِّم الناس... يعلِّمهم أن لا يركبوا الدوابَّ؟ لا بالتأكيد لكنَّ الناس ستتسأل مستغربةً: لِمَ يفعل أمير المؤمنين ذلك؟ وسيكون الجواب: لأنَّ دابَّته أكلت ممَّا يجب أن يكون للناس، وسيكون ذلك درساً بليغاً لهم، عمليَّاً تماماً، أن لا يتساهلوا في ذلك..

---

٢٣٩ سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣١٥
٢٤٠ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣١٢

@iAbubader

(عن أنس بن مالك قال: تقرقر بطن عمر بن الخطاب، وكان يأكل الزيت عام الرمادة، وكان حرَّم عليه السمن، فنقر بطنه بإصبعه وقال: تقرقر تقرقرك، إنَّه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس...).[٢٤١]

(وفي مرَّةٍ أخرى: لتمرننَّ أيُّها البطن على الزيت ما دام السمن يباع بالأواقي).[٢٤٢]

كان عمر قد حرَّم السَّمن على نفسه.. لا يأكل إلا الزيت، وكان تقرقرُ البطن علامةً على الجوع حيث لا يدخل الجوف إلا سوائل.. لكنَّ عمر يخاطب بطنه قائلاً : ليس لك عندنا غير الزيت حتى يشبع الناس..

لكن كيف حرَّم عمر السمن على نفسه؟

(أتي عمر بن الخطاب بخبزٍ مفتوتٍ بسمن عام الرمادة فدعا رجلاً بدويّاً فجعل يأكل معه، فجعل البدويُّ يتبع باللقمة الودك في جانب الصحفة، فقال له عمر: كأنَّك مقفرٌ من الودك، فقال: أجل ما أكلت سمناً ولا زيتاً ولا رأيت آكلا له منذ كذا وكذا إلى اليوم، فحلف عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيا الناس أول ما أحيوا).[٢٤٣]

(عن عيسى بن معمر قال : نظر عمر بن الخطاب عام الرمادة إلى بطيخةٍ في يد بعض ولده، فقال : بخٍ بخٍ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وأمَّة محمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم - هزلى فخرج الصبيُّ هارباً وبكى، فأسكت عمر بعدما سأل عن ذلك، فقالوا: اشتراها بكفٍّ من نوى..).[٢٤٤]

بطيخ يا أمير المؤمنين!.. تحاسب ابنك على بطيخةٍ في يده!.. كيف تأكل الفاكهة وأمَّة محمَّدٍ هزلى؟.. وابنه علم ما ينتظره فهرب باكياً، بينما أجرى عمر تحقيقاً عن الفساد الماليِّ الذي أوصل البطيخة ليد ابن أمير المؤمنين!.. فسكت على مضضٍ عندما عرف نتيجة التحقيق التي برَّأت الصبي!

(أخبرنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا هشام عن الحسن أنَّ عمر دخل على رجلٍ فاستسقاه وهو عطشان، فأتاه بعسلٍ، فقال: ما هذا؟ قال: عسل، قال: والله لا يكون فيما أحاسب به يوم القيامة).[٢٤٥]

شربة عسل!..

---

٢٤١ الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ٣ ص ٣١٣

٢٤٢ الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ٣ ص ٣١٣

٢٤٣ ج ٣ ص ٣١٣الطبقات الكبرى لأبن سعد

٢٤٤ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣١٥

٢٤٥ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣١٩

لا يريد أن يحاسب على "شربة عسل".. كيف يمكن لأيِّ أحدٍ أن يعلِّق على هذا؟.. كان عطشان والرجل يسقيه ممّا يشربه. وفيه عسلٌ..
لا..
سأبقى عطشان!..
أيّة سيطرةٍ على النفس هذه؟!..

(وكان في خلال ذلك ينفخ لهم عام الرمادة النار تحت القدور حتى يخرج الدخان من لحيته!).[٢٤٦]
(أن عمر كان أبيض فلمّا كان عام الرمادة، وهي سنة المجاعة ترك أكل اللحم والسمن وأدمن أكل الزيت حتى تغيَّر لونه وكان قد احمرَّ فشحب لونه).[٢٤٧]
نعم، ألم نقل: إنَّ عام الرمادة ترك علامةً فارقةً على وجهه؟
(وروي أنَّ زوجته اشترت له سمناً فقال: ما هذا؟ قالت: من مالي ليس من نفقتك، قال: ما أنا بذائقه حتى يحيى الناس).[٢٤٨]
(عن عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جدِّه قال: كان عمر يصوم الدهر. قال فكان زمان الرمادة إذا أمسى أتي بخبزٍ قد ثرد بالزيت إلى أن نحروا يوماً من الأيام جزوراً فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها فأتي به، فإذا فدر من سنام ومن كبد، فقال: أنَّى هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرنا اليوم، قال: بخٍ بخٍ بئس الوالي أنا إن أكلت طيِّبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. قال فأتي بخبزٍ وزيتٍ قال: فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز، ثم قال: ويحك يا يرفا! احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ فإنِّي لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم).[٢٤٩]
أولاً استكثر على نفسه أن يأكل من ما ذُبِح.
فجيء له بالخبز والزيت.. لم يهنأ بلقمةٍ.. تذكَّر أنَّ هناك أسرةً لم يذهب لها منذ أيام، فأمر حاجبه أن يأخذ الجفنة بأسرها إليهم!

(عن صفيَّة بنت أبي عبيد قالت: حدثني بعض نساء عمر قالت: ما قرَّب عمر امرأةً زمن الرمادة حتى أحيي الناس، همّاً!). [٢٥٠]
هذا هو عمر..
أخذه إحساسُه بهمِّ الأمّة، وحَمْلُه له على ظهره، حتى من حاجاته الإنسانيَّة كرجل،

---

٢٤٦ ترتيب المدارك وتقريب المسالك ج١ ص ٦٦
٢٤٧ الاصابة في تمييز الصحابة ج ٤ ص ٥٨٩
٢٤٨ الرياض النضرة في مناقب العشرة ج ١ ص ١٨٢
٢٤٩ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣١١
٢٥٠ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣١٥

فصار لا يقرب امرأةً من نسائه..
وكيف يفعل؟، وهو الذي منع نفسه حتى من الشبع!..
لقد ترك كلَّ ذلك جانباً.. نحَّاه كما لو لم يكن..
أحمِل همَّ الأمة على ظهري.. في رأسي.. في قلبي..
لا أستطيع أن أفكِّر في شيءٍ آخر.. إلى أن تنجلي الأزمة.

****

وفي عام الرمادة، وقعت تلك الحادثة التي دخلت التاريخ..

(عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصرار إذا نار، فقال: يا أسلم، إني لأرى ها هنا ركبا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان صغار وقدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون (يعولون)، فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول: يا أصحاب النار، فقالت: وعليك السلام، فقال: أدنو؟ فقالت: ادن بخير أو دع، فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، قال: فأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ما أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر، فقال: أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟ قالت: يتولى عمر أمرنا ثم يغفل عنا. قال: فأقبل علي فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلا من دقيق وكبة من شحم، فقال: احمله علي، فقلت: أنا أحمله عنك، قال: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك؟ فحملته عليه فانطلق، وانطلقت معه إليها، نهرول، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئا، فجعل يقول لها: ذري علي، وأنا أحرك لك، وجعل ينفخ تحت القدر ثم أنزلها، فقال: أبغيني شيئا، فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم، فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيرا، كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين، فيقول: قولي خيرا إذا جئت أمير المؤمنين، وحدثيني هناك إن شاء الله، ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها فربض مربضا، فقلنا له: إن لنا شأنا غير هذا، ولا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ثم ناموا وهدأوا، فقال: يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت). [٢٥١]

أبو العيال.. حقاً.

---

٢٥١ فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٣٦٢

@iAbubader

ثمَّ انجلت الأزمة ونزل المطر، وأخذ العرب الذين أقاموا حول المدينة طيلة أعوام الرمادة يرحلون..

(فخرج عمر إليهم راكباً فرساً ينظر إليهم وهم يترحلون بظعائنهم، فدمعت عيناه، فقال رجلٌ من بني محارب بن خصفة: أشهد أنَّها انحسرت عنك، ولست بابن أمةٍ، فقال عمر: ويلك، ذلك لو كنت أنفقت عليهم من مالي، أو مال الخطاب، إنَّما أنفقت عليهم من مال الله عزَّ وجلَّ).[252]

دمعت عيناه وهو يراهم يرحلون.. كما لو أنَّ عياله يرحلون عنه، ولم يعودوا بحاجة لوقفته..

دمعت عينا أبي العيال.. وقد رقَّ قلبه وهو يشاهد رحيلهم، وقد تعوَّد إحاطتهم له..

ثم عاد شديداً، عندما قال له أحدهم، مثنياً عليه: لقد انحسرت بسببك، وأنت ابن الحرَّة..

ويلك، لم يكن ذلك مالي أو مال أبي..

إنَّما هو مال الله، الذي أنا مجرَّد مستخلفٍ فيه.

في جوف الليل..

طيلة أعوام الرمادة..

كان عمر يذهب ليلتقي بربِّه..

كان يسجد ليقترب.. ويناجيه..

يختصر كلَّ ما يريد في طلبٍ واحدٍ..

كان يطلب شيئاً واحداً كما نقل لنا ابنه، عبد الله..

(كان عمر بن الخطاب أحدث في زمان الرمادة أمراً ما كان يفعله، لقد كان يصلي بالناس بالعشاء، ثمَّ يخرج حتى يدخل بيته، فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل، ثمَّ يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف عليه، وإنِّي لأسمعه ليلةً في السحر وهو يقول: اللهمَّ لا تجعل هلاك أمَّة محمَّدٍ على يديَّ).[253]

أنت يا عمر؟

هلاك أمَّة محمَّدٍ على يديك!..

بل رفعتها يا عمر.. بل نهضتها يا عمر..

حتى في عام الرمادة يا عمر، تركت لنا نموذجاً استثنائيّاً عمَّا يجب أن يكونه الراعي المسؤول، سواءٌ أكان مسؤولاً صغيراً في أول السلَّم الوظيفيِّ.. أو كبيراً على قِمَّة

252 السنن الكبرى للبيهقي 12812

253 الطبقات الكبرى ج 3 ص 213

الهرم، أفهمتنا أنَّ ذلك ليس أسطورةً، وأنَّه يمكن فعلاً لرجلٍ ما أن يحمل همَّ رعيَّته لهذه الدرجة..

في عام الرمادة يا عمر، أخرجْتَنا من كلِّ رمادةٍ يمكن أن نمرَّ فيها، لا، لم تخرجنا، بل دللتنا على طريق الخروج منها..

الآن نفهم كم كانت ضروريَّةً تلك المحنة التي مرَّ بها المسلمون، كي نعرف كم هو عظيمٌ القائد المسلم، باني الحضارة المسلم ، كي نعرف أنَّ ذلك ليس نظريَّةً، بل حقيقةً غيَّرت التاريخ.

من أعوام الرمادة، يرسم لنا عمر بن الخطاب خطوط خروجنا، كالعنقاء من تحت أيِّ رمادٍ قد يتراكم علينا..

كالعنقاء؟

لا.. العنقاء خرافة..

أمَّا عمر، فهو حقيقةٌ، قد تبدو من فرط روعتها كالخرافة..

لكنَّها حقيقةٌ..

حقيقةٌ تفقأ عيون كلِّ من لا يريد أن يراها.

وفي جوف الليل، اخرج من تحت رمادك..

وقل:

اللهمَّ اجعل يدَيَّ تساهمان في رفعة أمَّة محمَّد..

وعندما يطلع الفجر: اعمل على ذلك!

@iAbubader

المرأة الأخرى، في حياة عمر بن الخطاب..

في حياة كلِّ رجلٍ عدَّةُ نساء!..

امرأةٌ أنجبته، وغالباً ربَّته (الآن لم يعد هذا متلازماً بالضرورة!)..

امرأةٌ علَّمته الحرف، علَّمته الحياة.. علَّمته كيف يكون رجلاً.

امرأةٌ أحبَّها وتعلَّق بها، وربَّما تزوَّجها..

أو تزوَّجها ثمَّ أحبَّها وتعلَّق بها.

أو أحبَّها وتعلَّق بها دون أن يعلم أنَّه يحبُّها ومتعلِّقٌ بها..

في حياة كلِّ رجلٍ.. عدَّة نساءٍ..

أُمٌّ لا يُمكن أن تجازى.. أختٌ كانت موجودةً دوماً.. رفيقة دربٍ جعلته أكثر يُسراً، وأقلَّ وعورةً، وأحياناً دلَّت على الدرب..

وابنةٌ يعيد الرجل اكتشاف طفولته ونقائه عبرها، ثمَّ يكتشف كهولته فجأةً عبرها أيضاً..

كلُّ رجلٍ، في حياته عدَّة نساءٍ..

الإعلام "أغانٍ ومسلسلاتٌ وأفلامٌ وروايات" اختزل تلك النسوة إلى واحدةٍ غالباً، ولو بعدَّة شخصيَّات..

لكن في حياة كلِّ رجلٍ، عدَّة نساءٍ، لا توجَّه لهنَّ الأغاني والقصص!

@iAbubader

لا نعرف الكثير عن أمِّ عمر، حنتمة بنت هشام بن المغيرة، سوى أنَّها كانت ترتبط بصلة قرابةٍ بأبي جهلٍ.. لم يرد شيءٌ عن موقفها من الإسلام، سلباً أو إيجاباً.. ممَّا قد يرجِّح وفاتها قبل البعثة، أو قبل إسلام عمر على الأقلِّ..

ولا نعرف الكثير عن زوجته أمِّ حفصة وعبد الله، زينب بنت مظعون، التي أسلمت معه، وكان عبد الله هو أول مَن وُلِد في الإسلام..

لكنَّنا نعرف دور أخته فاطمة في إسلامه كما تقدَّم..

ونعرف علاقته المميَّزة بابنته التي صارت أمَّاً لأبيها: أمِّ المؤمنين حفصة.

لكنْ هناك امرأةٌ أخرى في حياة عمر، لم نعرف عنها إلا القليل..

في الحقيقة، **لم نعرف عنها شيئاً.**

****

قبل أن نتحدَّث عن المرأة الأخرى، علينا أن نثبت هنا، أنَّ عمر متَّهمٌ بكونه عدوَّاً للمرأة.. متَّهمٌ من قِبَل مَن؟ متَّهمٌ من قِبَل **مجموعةٍ معيَّنةٍ تنتمي لتيارٍ حضاريٍّ آخر غير الإسلام**، حتى وإن لم يتخل هؤلاء عن الإسلام، لكنَّهم **في التيار الذي ينتمون له يؤكِّدون على نمطٍ معيَّنٍ ووضعٍ خاصٍّ للمرأة**، ومواقف عمر حسبما يرون، كان عقبةً أمام الترويج لهذا الوضع الخاصِّ لهذه المرأة..

ما هو موقف عمر؟

الإجابة عن هذا السؤال قد تفضح حقيقة إيمانهم كلِّه.. لكنَّهم باختصارٍ يرون أنَّ إشارته للرسول بحجاب نسائه، وبمعزلٍ عن موافقة القرآن لذلك لاحقاً، ومواقفه الأخرى التي تدعو إلى ستر المرأة، كلها يرونها عائقاً وعقبةً أمام ما يريدونه من وضعٍ للمرأة.. خاصَّةً أنَّ الحجاب يشكِّل "البعبع" الذي يخاف منه هؤلاء..

بحسب هؤلاء، عمر عدوُّ المرأة..

لم يبعدوا عن الحقِّ كثيراً..

هو عدوٌّ فعلاً حقاً لهذه المرأة التي يروِّجون لها..

لكن هذه المرأة، ليست "المرأة" بالمطلق.. صحيحٌ أنَّهم ظلُّوا يكرِّرون ذلك حتى صدَّقناه.. لكنَّ هذا ليس سوى تضليلٍ إعلاميٍّ..

هناك امرأةٌ أخرى.. لم يكن عمر عدوّاً لها..

بل كان النصير الأوّل لها.

أن يكون عمر عدوّاً لنموذجٍ معيّنٍ للمرأة، ونصيراً لنموذجٍ آخر مضادٍّ تماماً، هو جزءٌ من توصيفه الوظيفيّ.. وظيفة أن يكون فاروقاً بين الحقّ والباطل..

وليس سرّاً أنّ النموذج الذي يروّج له هؤلاء، والذي يعدُّون عمر عدوّاً له، هو نموذجٌ "باطل"..

وأنّ النموذج المضادّ نموذج الحقّ، هو ما سيكون عمر نصيراً له..

ليس سرّاً أيضاً أنّ ما عاداه وما نصره عمر هو نفسه ما عاداه وما نصره الإسلام المتمثِّل بالقرآن وبسنّته عليه الصلاة والسلام..

لكنّ عمر، صانع الحضارة، كان عليه أن يواجه أكثر فأكثر مهمّة بناء العالم بحسب ما تنزّل في هذا القرآن وثبت في سنّته عليه الصلاة والسلام..

لهذا، كان لا بدّ من مهاجمته هو من قِبَل هؤلاء..

خاصّةً أنّهم ربّما لا يريدون مهاجمة القرآن أو الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فيهاجمون عمر بن الخطاب، كما لو أنّه لم يكن قد وُلِد عبر هذا القرآن وتربّى على يدي رسوله.. كما لو أنّ عقله لم يكن يعمل بنظام التشغيل القرآنيّ..

لكن ما كان عمر عدوّاً له، وما كان نصيراً له، هو بالضبط ما كان الإسلام قد عاداه، أو نصره..

لا يمكن أصلاً، لغير ذلك أن يحدث!

****

مَن هي المرأة التي عاداها عمر، ولِمَ عاداها؟

المرأة التي عاداها عمر، هي المرأة الأكثر سواداً وانتشارا عبر التاريخ.. لا شكّ في ذلك..

إنّها المرأة التي تمّ إقناعها عبر مختلف الطرق، وفي مختلف العصور، ومختلف المدنيّات الإنسانيّة، **أنّها لم تخلق إلا لتكون متعةً للرجل..** إنّها ليست سوى أداة متعةٍ له.. وأنّ كلّ حياتها تتمركز حول هذا، حول شهوة الرجل وإرضائه.. الإعداد والاستعداد لهذا، واستخدام هذا أيضا في لعبة جرِّ الحبل التاريخيّة..

الكثير من النسوة تمّ تلقينهنّ ذلك.. ثمّ إقناعهنّ أنّ هذا هو دورهنّ في الحياة، وأنّ هذا هو كلُّ ما يمكن لهنّ أن يعملنه في الحياة.. صار هذا جزءاً من البديهيّات التي لا تناقش..

لكنّ صانع الحضارة ذاك الذي كان عقله يعمل بنظام تشغيلٍ قرآنيٍّ، كان لا يمكن إلا أن يكون عدوّاً لهذا النموذج، حتى لو بدا أنّه عدوٌّ للمرأة، بسبب انتشار هذا النموذج عند النساء وقولبتهنّ فيه..

ليس هذا فقط أنّه كان يحيّد نصف المجتمع عن عمليّة صنع الحضارة فحسب، ويجعلهنّ جزءاً من عمليّة الترفيه عن الرجل.. بينما هنّ مندرجات حتماً في "وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون"..

ولكن لأنّ الاستمرار في لعب هذا الدور، **كان يشكّل تشويشاً حتى للرجل عن دوره في الاستخلاف وصنع الحضارة..**

كان الإصرار على لعب دور أداة المتعة من قِبَل نموذج المرأة هذا، يجعل الرجل أيضاً ينجرُّ في لعبة التمتُّع والإمتاع.. بعيداً عن دوره الحقيقيّ.. بعيداً عن دورهما الحقيقيّ معاً "كإنسانٍ" قبل أن يكون ذكراً أو أنثى..

كان لا بدّ أن يكون عمر ضدّ هذا النموذج.

****

نموذج المرأة – أداة المتعة لم يكن من إنتاج جاهليّة العرب فحسب.. ولا حتى من نتاج جاهليّات الفرس والروم المتنكّرة خلف الأقنعة الحضاريّة..

إنّه النموذج الأكثر سواداً في عقر دار الحضارة المعاصرة، التي تتشدّق بحريّة المرأة ومساواتها بالرجل، ولكنّها في الوقت ذاته، تسوّق عبر إعلامها نمطاً يجعل المرأة ليست أكثر من سلعةٍ.. بل أسوأ، صارت المرأة وسيلةً لترويج سلعٍ أخرى لا علاقة لها بالمرأة، كلُّ وسائل الدعاية والترويج تستخدم عري المرأة لترويج منتجات المصانع، من السيارات الفارهة إلى معجون الأسنان..

ويرسّخ ذلك أكثر فأكثر نمط المرأة – أداة المتعة..

حتى تلك التي تمتلك شهادةً عُليا ووظيفةً مرموقةً..

الإعلام يقول لها: إنَّ ذلك مجرَّد وضعٍ عابرٍ، أنت أداةُ متعةٍ، حتَّى في مكان عملك، أدِّي عملك ولكن لا تنسي أن تلبسي ما يمتع الرجال.

****

هذا النموذج، وما يقف خلفه من مفاهيم، كان عمر يقف ضدَّه بالتأكيد على ما يستفزُّ ذلك الموقفُ من النسوة اللائي لم يتخيلن لأنفسهنَّ دوراً غير ذاك..

ومن الرجال أيضاً، الذين سيخسرون بهذه الحالة المزيد من لعبة المتعة والإمتاع.. لصالح "الجهاد الحضاريِّ"!

****

كلُّ المواقف التي وقفها عمر مع المرأة (ضد أو مع) يُمكن فهمها ضمن هذا الإطار: إطار أن لا تكون أداةً للمتعة، أن لا تكون نهباً مشاعاً لأعين من قد يتصوَّر أنَّها خُلِقت لأجل ذلك..

حتى موقفه المعروف الذي وافقه الوحي فيه لاحقاً، عندما طلب من الرسول الكريم أن يحجب نساءه، **لم يقصد فيه عزلهنَّ عن دورهنَّ الاجتماعيِّ، فدور أمَّهات المؤمنين قد بقي فاعلاً وقويّاً، وكان عمر بالذات يستشيرهنَّ ويدخل عليهنَّ، بل ويعظهنَّ كما في حادثةٍ مشهورةٍ أخرى، لكن الحجاب كان لتحييد كلِّ نيَّةٍ سيِّئةٍ**، نعرف جميعاً أنَّ محاولة استئصالها تماماً غير مجديةٍ، وأنَّ من الأجدى "وضع الحجاب"، **الذي لا يحيِّد فاعليَّة المرأة عن دورها الاجتماعيِّ، و لا يحارب طواحين الهواء بمعارك خاسرة سلفاً لأنَّها تحارب جزءاً من الطبيعة البشريَّة..**

حتى وضع "خمار الرأس" – ما نعرفه اليوم باسم الحجاب - والذي لا دخل لعمر فيه!- حتى هذا، كان تعبيراً عن تحييد مفهوم "أداة المتعة" من دور المرأة.. لو لم يكن للمرأة دورٌ في بناء المجتمع يستوجب خروجها لما نزل القرآن بفرض "خمار الرأس" أصلاً.. لكنَّ المرأة يجب أن تخرج، ويجب أن تساهم في بناء المجتمع والحضارة، بأدوارٍ مختلفةٍ بحسب كلِّ امرأةٍ، لكنَّ هذا الخمار سيحيِّد أنوثتها عن أن تساهم في الترويج لمفهوم أنَّ المرأة خُلِقت للمتعة.. سيترك لها الحقَّ في إثبات أنَّ لها دوراً أهمَّ وأعمق بكثيرٍ.. **بالتأكيد هناك نسوةٌ يسِئن لهذا، كما هناك رجالٌ يسيئون لمناصبهم، وكما هناك إساءةٌ للشعارات والقضايا النبيلة، وكما هناك إساءةٌ لاستخدام الطاقة، كلُّها أمورٌ تحدث ولا تقود لإلغاء الأمر الأساسيِّ كما يحاول دعاة نزع الحجاب الجدال دوماً.**

@iAbubader

بالنسبة لعمر، أن يقال إنَّ المرأة خُلِقت لتكون "متعةً للرجل"، كان يوازي أن يقال إنَّها شيطانةٌ!.. ليس أقلَّ من ذلك، لأنَّ هذا الوصف لا يشكِّل إهانةً للمرأة فحسب، بل للرجل أيضاً، وللخالق الذي خلقهما معاً ليعبدوه في آفاقٍ مختلفةٍ لا متناهية..

أن تكون المرأة خُلِقت لتكون متعةً للرجل، يعني أنَّنا خلقنا لهواً ولعباً، حاشا الله أن يكون خلقنا كذلك..

(ولهذا عندما سمع عمر رضي الله عنه امرأة تنشد:

إنَّ النساء رياحين خُلِقن لكم * وكلُّكم يشتهي شمَّ الرياحين..

أجابها فوراً رضي الله عنه:

إنَّ النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شرِّ الشياطين).[٢٥٤]

وروي أيضا أنه مر يوماً بجواري يضربن بالدفِّ ويغنِّين:

تغنين تغنين فللهو خُلقتنَّ

فيهاجمهنَّ ضارباً إياهنَّ بالدرة التي لا تفارق يده وهو يقول:

كذبتنَّ كذبتنَّ فأخزى الله شيطاناً رمى هذا إليكنَّ..

وفي حادثةٍ أخرى (اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَسْأَلْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - فَدَخَلَ وَالنَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - يَضْحَكُ فَقَالَ: أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَقَالَ: «عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلاَءِ اللاَّتِي كُنَّ عِنْدِي، لَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ».

فَقَالَ أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِنَّ فَقَالَ: يَا عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبْنَنِي وَلَمْ تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَقُلْنَ: إِنَّكَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « إِيهٍ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلاَّ سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ).[٢٥٥]

---

٢٥٤ تفسير القرطبي ج ٧ ص ٦٨
٢٥٥ صحيح البخاري ٦٠٨٥

كانت النسوة القرشيّات هنا قد علت أصواتهنّ، في سلوكٍ قد لا يتعارض مباشرةً مع تعاليم الإسلام، بدليل عدم إنكاره له عليه الصلاة والسلام، لكنّه يقارب سلوكاً تتمادى فيه النسوة في التبذُّل والجرأة (ويتمادى فيه الرجال كذلك!)..

عمر لم يفعل شيئاً.. لأنّه ببساطةٍ لم يرَ شيئاً.. كلُّ ما رآه هو أنّ الرسول يضحك.. لم يعرف عمر أنّ النسوة كنّ هنا أصلاً لولا أنّ الرسول أخبره.. ولِمَ هربت النسوة؟ لأنهنّ عرفن أن هذه الجلبة كانت ممّا لا يرضاه عمر..

يذهب لهنّ قائلاً: يا عدوّات أنفسهن!.. تهبنني بدلاً من أن تهبن رسول الله!..

جوابهنّ يوحي بأنهنّ يعرفن أنّ جلبتهنّ لم تكن «مناسبةً».. فهنّ لم يقلن إنّ فِعْلهنّ صوابٌ، بل قالوا له إنّه أغلظ من الرسول!.. أي إنهنّ كُنّ يعرفن أنّ موقفهنّ غير مناسبٍ، لكنّ سعة صدره عليه الصلاة والسلام احتوت موقفهنّ..

أمّا تعليقه عليه الصلاة والسلام فهو يدلُّ على صحّة موقف عمر في رفض هذه الجلبة النسائيّة التي تؤدّي غالباً إلى التمادي، وعندما نقول نسائيّة فإنّنا لا نقصد جنس النساء، بل القالب الذي توضع فيه النساء في مجتمعاتهنّ..

ولعلّ أكثر ما يفسّر الموقف السابق هو قول عمر نفسه في آية «**فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (القصص: ٢٥) «قال: لم تكن سلفعاً من النساء خرّاجة ولاجة»[٢٥٦] قائلةٌ بيدها على وجهها (إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا).**

المرأة هنا كانت تقوم بدورها في المجتمع.. لم تكن حبيسةً في البيت.. لكنّ خروجها كان محكوماً بضوابط تحيّد أيّ احتمالٍ لاتّخاذها كأداةٍ للمتعة.. ليست سلفعاً خرّاجة ولاجة، والسلفع هي السليطة الجريئة على الرجال، والتي تقود سلاطتها وجرأتها غالباً إلى ما هو أكثر.. والخرّاجة الولاجة هي التي تتّخذ من خروجها وولوجها لهواً ومتعةً وتكثر منه بلا سبب..

بينما كانت المرأة في سياق سورة القصص نموذجاً مغايراً، تقوم بما يقوم به الرجال، تشارك بكلِّ فاعليّة في مجتمعها، لكن دون أن تتحوّل لتكون نهباً لمجتمعٍ قد يراها مجرّد «أداة متعة»..

كلُّ مواقف عمر التي قد يبدو فيها أنّه ضدُّ «المرأة» يمكن فهمها ضمن هذا الإطار، إطار تستخدم فيه المرأة لتروّج مفاهيم المتعة والابتذال...مفاهيم تحول المرأة إلى سلعة لإرضاء الرجل..

---

٢٥٦ تفسير القرطبي ، سورة القصص

@iAbubader

أمَّا فيما عدا ذلك، فإنَّ عمر نفسه سيقول: إنَّ المرأة ستكون أفضل ما يحظى به رجلٌ مؤمنٌ، بعد الإيمان!

(عن يونس بن عبيد عن معاوية عن أبيه أنَّ عمر بن الخطاب قال: لم يُعطَ عبدٌ بعد إيمانٍ بالله شيئاً خيراً من امرأةٍ حسنة الخلق ودود ولود).[٢٥٧]

إنَّها المرأة الأخرى هذه المرَّة..

رفيقة الدرب في رحلة البناء والتغيير..

لا شيء بعد الإيمان بالدرب، يمكن أن يكون كالرفقة الفاعلة الصَّادقة في هذا الدرب.

****

أغلب مواقف عمر مع النساء كانت تتعلَّق بدعمه للمرأة الأخرى.. المرأة التي تساهم في عمليَّة بناء الحضارة وصنعها..

فلنأخذ بعضاً منها:

(ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمَّ قال: أيُّها الناس ما إكثاركم في صداق النساء، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وإنما الصَّدُقات فيما بينهم أربع مائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامةٌ لم تسبقوهم إليها، فلا أعرفنَّ ما زاد رجلٌ في صداق امرأةٍ على أربع مئة درهم، قال: ثم نزل، فاعترضته امرأةٌ من قريشٍ فقالت: يا أمير المؤمنين نهيتَ النَّاس أن يزيدوا في مهر النساء على أربع مائة درهمٍ؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأيُّ ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: « وآتيتُم إحداهنَّ قنطاراً» الآية؟ قال فقال: اللهمَّ غفراً، كلُّ النَّاس أفقه من عمر، ثمَّ رجع فركب المنبر، فقال: أيُّها الناس إنِّي كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهنَّ على أربع مائة درهمٍ، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحبَّ).[٢٥٨]

(أو قال: أصابت امرأة وأخطأ رجل).[٢٥٩]

عمر هنا لم ينم على الأمر.. لم يكتفِ بتأييدها عندما واجهته بالدليل، بل رجع ليركب المنبر، ويصحِّح الأمر، ويرجعه إلى أنَّ من صحَّحه له كانت امرأة.. علماً أنَّهما هنا، مع الأدلَّة الشرعيَّة «امرأة» بمواجهة «رجل».. وليست امرأة مقابل عمر، فقد

---

٢٥٧ جامع الأحاديث ٢٨٧٥٦

٢٥٨ رواه أبو يعلى – كما في " تفسير ابن كثير " (١ / ٤٦٨)

٢٥٩ رواه الزبير بن بكار – كما في " تفسير ابن كثير " (١ / ٤٦٨)

كان ما قاله: «أصابت امرأة وأخطأ رجلٌ» وليس كما هو شائع من: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

علماً أنَّ عمر قد صحَّ عنه - في سند أقوى من سابقيه - عموم النهي عن المغالاة في المهور. فالمغالاة فيها يحوِّل المرأة إلى سلعةٍ أيضاً.. **(عن أبي العجفاء السلمي قال: قال عمر بن الخطاب: ألا لا تغالوا صدقة النساء؛ فإنَّها لو كانت مكرمةً في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم، ما علمت رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئاً مِن نسائه ولا أنكح شيئاً مِن بناته على أكثر من ثنتي عشرة أوقية).**[260]

والفرق بين الموقفين هو أنَّه وضع رقماً محدَّداً في الأولى كي لا يتمَّ تجاوزه. بينما كان النهي عامَّاً في الثانية..

(عن عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جدِّه أسلم قال: «بينما أنا مع عمر بن الخطاب وهو يعسُّ المدينة إذ أعيا واتَّكأ على جانب جدارٍ في جوف الليل، وإذا امرأةٌ تقول لابنتها: يا ابنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمتاه وما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنيَّة؟ قالت: إنَّه أمر منادياً فنادى ألا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنيَّة قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبيَّة لأمِّها: يا أمتاه ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كلَّ ذلك، فقال يا أسلم علِّم الباب، واعرف الموضع، ثمَّ مضى في عسسه حتى أصبح، فلمَّا أصبح قال: يا أسلم امضِ إلى الموضع، فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهم من بعلٍ؟ فأتيت الموضع، فنظرت فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها، وإذا تيك أمُّها، وإذ ليس لهم رجلٌ، فأتيت عمر بن الخطاب فأخبرته، فدعا عمر ولده فجمعهم فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأةٍ أزوِّجه، ولو كان بأبيكم حركةٌ إلى النساء ما سبقه منكم أحدٌ إلى هذه المرأة، فقال عبد الله: لي زوجة، وقال عبد الرحمن: لي زوجة، وقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوِّجني، فبعث إلى الجارية فزوَّجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز).[261]

هذا هو نموذج المرأة الأخرى الذي وقف عمر معه، وسانده وكان نصيراً له. يسعى عمر إلى نسبها كما يسعى سواه إلى مصاهرة الملوك والزعماء والأثرياء..

---

٢٦٠ رواه الترمذي (١١٣٩) والنسائي (٣٣٤٩) وأبو داود (٢١٠٦) وابن ماجه (١٨٨٧)
٢٦١ أبو نعيم - الحلية

وقد نتج عن هذا لاحقاً، ذلك الراشديّ الآخر، لم يكن ذلك بالصدفة، بل بتربيةٍ متراكمةٍ، ساهمت فيها هذه المرأة «الأخرى».. فأنتجت «خليفةً آخر»..

كلُّ مواقف عمر الفقهيَّة كانت تسند المرأة وتساهم في مساعدتها على التحوُّل من نموذج المتعة إلى نموذج المرأة الأخرى، المرأة الفاعلة.. يشعرها بكيانها ضمن كيانٍ اجتماعيٍّ مختلفٍ عن ذلك الكيان الآخر الذي انسلخ الإسلام عنه..

(أن عمر بن الخطاب سمع امرأة وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني إذ لا حبيب ألاعبه

فلولا الذي فوق السماوات عرشه لزعزع من هذا السرير جوانبه

فأصبح عمر، فأرسل إليها، فقال: أنت القائلة كذا وكذا؟ قالت: نعم، قال: ولم؟ قالت: أجهزت زوجي في هذه البعوث (= الجهاد)، قال: فسأل عمر حفصة كم تصبر المرأة من زوجها؟ فقالت: ستة أشهر، فكان عمر بعد ذلك يقفل بعوثه لستة أشهر).[٢٦٢]

(جاءت امرأة إلى عمر فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار، قال: أفتأمريني أن أمنعه قيام الليل وصيام النهار؟ فانطلقت، ثم عاودته بعد ذلك، فقالت له مثل ذلك، ورد عليها مثل قوله الاول.

فقال له كعب بن سور: يا أمير المؤمنين! إن لها حقا، قال: وما حقها؟ قال: أحل الله له أربعا، فاجعل لها واحدة من الاربع، لها في كل أربع ليال ليلة).[٢٦٣]

لم تعد المرأة هنا أداة متعةٍ تنتظر الرجل، بل صارت فاعلاً برغباتٍ مشروعةٍ، تؤثِّر رغباتها في القرارات العليا لرئيس الدولة بحبس الجيوش أو تسريحها.. لم تعد كائناً هامشيَّاً مكبوتاً لا حقَّ له بالتعبير عن حقوقه الطبيعيَّة.. بل صارت جزءاً فاعلاً بحقوقٍ مساويةٍ بقدر ما تكون طبيعتها.

****

وعنه أنه قال: (إذا أرادت النساء الخلع فلا تكفروهنَّ!).[٢٦٤]

كان أصل مبدأ الخلع قد وجد في حادثةٍ ثابتةٍ في السُّنَّة النبويَّة، لكنَّ عمر قام بالاستناد عليها ليحوِّلها إلى مبدأٍ فقهيٍّ ثابتٍ يتيح للزوجة أن تخرج من زواجٍ لا تشعر أنَّه يناسبها..

---

٢٦٢ مصنف عبد الرزاق ١٢٤٩٥

٢٦٣ مصنف عبد الرزاق ١٢٥٨٨

٢٦٤ سنن البيهقي ١٥٢٥٢

(عن ابن سيرين قال: بعث عمر بن الخطاب رجلاً على السعاية فأتاه فقال: تزوجت امرأة!!.. قال: أخبرتها أنَّك عقيم لا يولد لك؟

قال: لا.

قال: فأخبرها وخيِّرها).[٢٦٥]

ورَّث عمر العمَّة والخالة والجدَّتين[٢٦٦].. وهذه الفئة من النساء كفَّت غالباً عن إمكانية أداء أيِّ دورٍ في مهمَّة المتعة – التي خلقت النسوة لها!- لكنَّ التوريث لهنَّ يجعلهنَّ قادراتٍ على الاستمرار في أداء دورٍ في مجتمعٍ لم يعد يهمِّشهنَّ كما السابق..

كما أنَّه ساوى في توزيع الغنائم والأعطيات بين الرجال والنسوة. بينما لم يساوِ بينهما في الجزية[٢٦٧](الجزية على الرجل فقط. بينما الغنائم للرجال والنساء!).. كما أنَّه ساوى بينهما في العقوبات. فقد اقتصَّ من رجلٍ بالقتل لقتله امرأة[٢٦٨].. وأقام الحدَّ على من يقذف نساء أهلِّ الذِّمَّة![٢٦٩]

(كما أُتيَ بامرأةٍ شابَّةٍ زوَّجوها شيخاً كبيراً فقتلته. فقال: يا أيُّها الناس اتقوا الله، ولينكح الرجل لمته من النساء، ولتنكح المرأة لمتها من الرجال يعنى شبهها).[٢٧٠]

(عن هشام بن عروة عن رجل: أنَّ امرأةً سألت ابنها أن يزوِّجها، فكره ذلك، وذهب إلى عمر، فذكر ذلك له، فقال عمر: اذهب فإذا كان غداً أتيتكم، فجاء عمر، فكلَّمها، ولم يكثر، ثمَّ أخذ بيد ابنها فقال له: زوِّجها فو الذي نفس عمر بيده لو أنَّ حنتمة بنت هشام يعني عمر أمَّ نفسه سألتني أن أزوِّجها لزوَّجتها، فزوج الرجل أمَّه).[٢٧١]

(وحدث أنَّ رجلاً تزوَّج امرأةً سرَّاً، فكان يختلف إليها، فرآه جارٌ له فقذفه بها، فاستعدى عليه عمر ابن الخطاب، فقال له: بيِّنتك على تزويجها، فقال: يا أمير المؤمنين كان أمرٌ دون ما شهدت عليها أهلها، فدرأ عمر الحدَّ عن قاذفه، وقال : حصِّنوا فروج هذه النساء، وأعلنوا هذا النكاح).[٢٧٢]

(عن سعيد بن عبيد بن السباق: أن رجلا تزوَّج امرأةً على عهد عمر بن الخطاب وشرط لها أن لا يخرجها (أي أن يبقيها وحدها) فوضع عمر بن الخطاب عنه الشرط وقال المرأة مع زوجها).[٢٧٣]

---

٢٦٥ مصنف عبد الرزاق ١٠٣٦٤
٢٦٦ مصنف ابن أبي شيبة ٣١١١٦
٢٦٧ مصنف ابن أبي شيبة ٣٢٦٤٠
٢٦٨ جامع الأحاديث ٢٨٧٧٥
٢٦٩ سنن البيهقي ١٧٦١٢
٢٧٠ مصنف عبد الرزاق ١٠٣٤٦
٢٧١ مصنف ابن ابي شيبة ١٧٦٥٠
٢٧٢ سنن البيهقي الكبرى ١٤٤٧٣
٢٧٣ كنز العمال ٤٥٦٤٧ البيهقي رقم ١٤٢١٥

بل إنه هو، المعروف بقوته وشدته قد قال..

(وقال عمرُ لرجلٍ هَمَّ بطلاق امرأته، لِمَ تطلِّقها؟ قال: لا أحبُّها، فقال عمر: أو كلُّ البيوت بُنِيت على الحبِّ؟ فأين الرعاية والتذمم !).[٢٧٤]

كلُّ هذا، كلُّ هذا الدعم والحماية، في مختلف المجالات.. في التفاصيل الدقيقة..

ألا يستحقُّ عمر لقب نصير المرأة «الأخرى» إذاً؟!..

لا.. الألقاب غير مهمَّةٍ.. فعمر لا يبحث عن انتصارٍ انتخابيٍّ..

وفهم عمر، الذي كان فيه بالفعل عدوّاً لنموذجٍ معيَّنٍ من المرأة، ونصيراً لنموذجٍ آخر هذا الفهم، لم يكن عمريا خالصاً.. بل كان مستنداً على القرآن، وعلى السُّنَّة..

كلُّ ما في الأمر أنَّه فهمهما على النحو الصحيح.

****

وكان عمر، الذي وافقه القرآن في أمر الحجاب - كما مرَّ سابقاً - يرى في الالتزام بالحجاب علامةً على الحريَّة.. على كون المرأة حرَّةً وصاحبة قرارها وإرادتها..

لهذا كان ينهى الإماء عن لبس الجلباب..

الجلباب للحرَّة فقط..

ومن تعتق من الإماء.. يمكنها أن ترتدي ثياب الحريَّة..

بالضبط عكس ما يفهم اليوم.

****

ولأنَّ عمر كان يعي دور المرأة في تشكيل وتربية أبنائها.. فقد كان لا يحبِّذ الزواج من الكتابيَّات رغم عدم وجود تحريمٍ أو نصٍّ قاطعٍ يمنع ذلك..

عن قتادة أنَّ حذيفة نكح يهوديَّة زمن عمر، فقال عمر: طلِّقها، فإنَّها جمرةٌ، قال: أحرام؟ قال: لا، قال: فلم يطلقها حذيفة لقوله، حتى إذا كان بعد ذلك طلَّقها.[٢٧٥]

هذا الأمر يوضِّح كيف كان عمر يُكبِر دور المرأة في تشكيل الجيل الجديد.. لا يريد أن

٢٧٤ البيان والتبيين ص ١٤٧
٢٧٥ مصنف عبد الرزاق ١٠٠٥٧

تؤثِّر الأمُّ الكتابيَّة على تربية أولادها.. الرجل مهما كان صاحب دينٍ (مثل حذيفة) لن يقوى على مواجهة تأثير الأمِّ الكاسح في تربية أولادها..

لم تعد المرأة مجرَّد وسيلة إنجابٍ وحوضٍ للحمل وصدرٍ للرضاعة.. كما كان عمر نفسه يظنُّ سابقاً..

لقد صارت شريكاً في نقل القيم الحضاريَّة إلى الجيل الثاني..

بل صارت الشريك الأكثر أهميَّةً.. صاحب الدور الأكبر من دور الرجل في هذا تحديداً.

****

لا يمنع ذلك من أنَّ عمر كان شديد الغيرة على نسائه!.

لكنَّها غيرةٌ محكومةٌ بينه وبينهنَّ بالنصِّ الشرعيّ..

(عَنِ ابْنِ عُمرَ قَالَ كَانَتِ امرَأَةٌ لِعُمرَ تَشْهَدُ صَلاَةَ الصُّبْحِ وَالْعِشَاءِ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقِيلَ لَهَا: لِمَ تَخْرُجِينَ وَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّ عُمرَ يَكْرَهُ ذَلِكَ وَيَغَارُ؟، قَالَتْ وَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِي؟ قَالَ: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - لاَ تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ).[٢٧٦]

(عَنْ عَاتِكَةَ بِنْتِ زَيْدِ بْنِ عَمرِو بْنِ نُفَيْلٍ امرَأَةِ عُمرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهَا كَانَتْ تَسْتَأْذِنُ عُمرَ بْنَ الْخَطَّابِ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَسْكُتُ فَتَقُولُ: وَاللَّهِ لأَخْرُجَنَّ إِلاَّ أَنْ تَمْنَعَنِي، فَلاَ يَمْنَعُهَا...).[٢٧٧]

لا يمنعها..

ببساطة: **لا يمكنه ذلك!..**

****

وهل من فخرٍ أكبر، من أن يرتبط اسمه رضي لله عنه بالنهي عن زواج المتعة؟!

زواج المتعة هو أحد أنواع النكاح في الجاهليَّة، ولأنَّ الجواب واضحٌ من عنوانه، فإنَّه نكاحٌ لا يقوم إلا على المتعة، **المرأة فيه هي أداة المتعة الأساسيَّة**، دون أيَّة حقوقٍ، دون أيَّة مقوماتٍ لعلاقة حقيقيَّةٍ غير المتعة العابرة، غير الزنا الذي قبِله مجتمع الجاهليَّة

---

٢٧٦ صحيح البخاري ٩٠٠
٢٧٧ موطأ مالك رواية يحيى بن الليثي ٤٧١

بمجرَّد أن يُسمِّيه باسمٍ آخر..

ولأنَّ الإسلام قام على التدرُّج. ولأنَّ المسلمين في الفترة الأولى كانوا في وضع لا يفكِّرون فيه في هذا النِّكاح. فإنَّ تحريمه لم يحدث إلا عند غزوة خيبر[٢٧٨]. ولأنَّ الأمر ظَلَّ نادراً فإنَّ مَن يعلم بأمر التحريم بقي محدوداً بمن شهد الواقعة. لم يكن هناك ضرورةٌ لأن يعلم ذلك بالنسبة لمن لا يفكِّر فيه.. علماً أنَّ شروط الزَّواج الشرعيِّ تتعارض منطقيَّاً مع أن يكون هناك نكاحٌ كهذا.

لاحقاً. ومع تدفُّق الثروات والفتوحات صار هناك من يقوم بهذا النَّوع من النِّكاح المخالف لمنطق الإسلام ونصوصه وفطرته.. منطق أنَّ الزواج مودَّةٌ ورحمةٌ. وليس شهوةً عابرةً تُقضى بوقتٍ محددٍ..

ولهذا تصدَّى عمر لحرامٍ حرَّمه الرسول وأحيا مجدَّداً نهيه.

يتَّهمونه اليوم بها.

ويكفيه فخراً لو كانت التُّهمة حقيقةٌ..

لكنَّه لم يكن أكثر من محيٍ لسنَّته عليه الصلاة والسلام..

سنَّته في رفض فكرة أن تكون المرأة مجرد «أداةٍ للمتعة»..

وأن يكون هذا هو المعيار للعلاقة الزوجيَّة.

****

كان من نتاج الدعم للمرأة الأخرى. أنَّ عمر بن الخطاب قد ولَّى نموذجاً من هذه المرأة الفاعلة القويَّة. ولاها منصباً يمكن أن يكون بمثابة منصب الوزير في مسمَّياتنا اليوم..

إنَّها الشِّفاء.. أوَّل وزيرةٍ في الإسلام..

ولاها عمر!

(الشِّفاء بنت عبد الله بن عبد شمس بن عبد شمس بن خلف بن شداد بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشيَّة العدويَّة، أسلمت الشِّفاء قبل الهجرة وهي من المهاجرات الأُول، وبايعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وكانت من عقلاء النساء

٢٧٨ صحيح البخاري ٥١١٥

وفضلائهنّ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها، وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: علّمي حفصة رقية النملة كما علّمتِها الكتابة. أقطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم دارها عند الحكاكين بالمدينة، فنزلتها مع ابنها سليمان، وكان عمر يقدّمها في الرأي، ويرعاها، ويفضلها، وربّما ولاها أمر السوق).[٢٧٩]

كانت وزيرة اقتصاد!..

ثمّ يأتي من يقول إنّه كان عدوّاً للمرأة!

****

لكنّ هَمّ عمر الأكبر لم يكن «المرأة الأخرى»..

بل كان يريد، كما كان الإسلام يريد، الإنسان الآخر..

فقضايا المرأة لا يمكن حقاً أن تُفصَل عن قضايا الرجل..

في النهاية القضيّة هي قضيّة الإنسان الآخر.. بمعزلٍ عن كونه ذكراً أو أنثى..

الإنسان الآخر الذي يكون حقاً ما خلقه الله لأجل أن يكونه..

فمن نحن حقاً؟

بمعزلٍ عمّا ندّعيه؟

هل نحن من الفئة التي نصرها الإسلام ودعمها وسهّل ولادتها؟!..

أم إنّنا لا نزال جاهليّين، تحت قشرةٍ معاصرةٍ نتشدّق بحقوق المرأة وحقوق الإنسان، ونهدرها لنطبّق جاهليّة الحضارة المعاصرة..

أو حتى تحت قشرةٍ إسلاميّة، بينما الجوهر جاهليٌّ..

السؤال صعبٌ.. ولكنّ الإجابة عنه ضروريّةٌ.

---

٢٧٩ ابن حجر الإصابة ج ٧ ص ٧٢٨

الصلاة يا أمير المؤمنين!

ليس الدين بالصلاة والصيام!.

إذا قال لنا أحدٌ ذلك اليوم، سنقول لأنفسنا، وربّما له أيضاً: إنه من أولئك الذين لا يصلُّون.. ولا يؤدُّون الشعائر.. أو لا يولونها الأهميَّة..

وغالباً ما يكون ذلك صحيحاً..

فهناك اليوم، من يقول ذلك، وهو أبعد ما يكون عن كلِّ الدين، شعائره وأخلاقه، لكنَّه يقول ذلك فقط لكي يبرِّر عدم أدائه لها.. ويتحجَّج بأخطاء بعض المصلِّين كي يبرِّر خطيئته الأكبر.. عدم الالتزام بالشعائر..

غالباً سيكون هذا هو واقع من يقول ذلك..

لكنَّ عمر بن الخطاب سيصدمنا بواقعٍ آخر تماماً..

(عن عمر قال: إنَّ الدِّين ليس بالطنطنة من آخر الليل، ولكنَّ الدِّين الورع!).[280]

مَن يقول ذلك هو عمر.

لم يكن يفوِّت ليلةً واحدةً دون أن يقومها..

قيامه للَّيل كان مليئاً بالأسرار، حتى إنَّ عثمان بن أبي العاص، قد تزوَّج إحدى زوجاته بعد وفاته، لا لشيءٍ، إلا فقط ليعرف «السِّرَّ» في ليل عمر..

(قال الحسين تزوَّج عثمان بن أبي العاص امرأةً من نساء عمر بن الخطاب، فقال: والله ما نكحتها رغبةً في مالٍ ولا ولدٍ، ولكنِّي أحببت أن تخبرني عن ليل عمر..

---

٢٨٠ الزهد لأحمد بن حنبل ٦٧٠ . كنز العمال ٨٧٨٨

فسألتها ، فقال : كيف كانت صلاة عمر بالليل؟ قالت: كان يصلي صلاة العشاء، ثم يأمرنا أن نضع عند رأسه تورا (وعاء) فيه ماء فيتعار (فيستيقظ) من الليل فيضع يده في الماء فيمسح وجهه ويديه ثم يذكر الله عز وجل حتى يغفي ثم يتعار (فيستيقظ) حتى تأتي الساعة التي يقوم فيها...).[٢٨١]

(كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله إلى الصلاة، ثمَّ يقول لهم: الصلاة الصلاة، ويتلو هذه الآية: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى») (طه: ١٣٢).[٢٨٢]

«يصلي ما شاء الله».. مفتوحة..

تركها لمشيئة الله..

ثمَّ عند المنتصف، يوقظ أهله.. «الصلاة، الصلاة!»..

ثمَّ يتلو من سورة «طه»..

سورة «طه»!..

إنَّها تلك السورة التي أسلم عندما اصطدم بها، السورة التي اصطدمت به فكان مثل حجر ينير بالاحتكاك، أنارت له الدرب.. قبل أكثر من عقدين..

لا يزال يستلهمها.. لا يزال يقتبس منها النور في الليل.. فيجمع أهله عليها..

في كبد الليل، لم يكن يفوِّت تلك الصلاة..

صلاة الليل!

كان يتهجَّد في الليل كلِّه بفاتحة الكتاب أحياناً، يتأمَّل فيها، وكان مرَّةً يقوم بآيتين فقط: (سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ* للكافرين ليس له دافع*) فسقط مغشيّاً عليه من هول تفكيره فيهما، حتى صار الناس يعودونه شهراً..

بالتأكيد كان يرى أنَّ الجمع بين صلاتين من دون عذرٍ من الكبائر[٢٨٣]وكان يوصي بذلك عمَّاله في كتب تعيينهم، وكلمة عذرٍ بالنسبة له ليست كما قد نفهمها أيضاً!!..

(عن سليمان بن سحيم قال: أخبرني من رأى عمر يصلِّي وهو يترجَّح، ويتمايل، ويتأوَّه حتى لو رآه غيرنا ممَّن يجهله لقال: أُصيب الرجل، وذلك لذكر النار إذا مرَّ بقوله: « وإذا أُلقوا منها مكاناً ضيِّقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً»).[٢٨٤]

تطعنه آيةٌ.. تحييه آيةٌ... ترفعه أخرى.. تجعله يرتبط بالأرض آيةٌ أخرى..

هكذا كان مع الصلاة، مع كلِّ آيةٍ يمرُّ عليها في الصلاة..

هذا هو عمر والصلاة، وهذا هو عمر وقيام الليل.

---

٢٨١ الزهد لأحمد بن حنبل ٦٢٨

٢٨٢ موطأ مالك رواية يحيى الليثي ٢٥٩

٢٨٣ مصنف عبد الرزاق ٢٠٣٥

٢٨٤ فضائل القرآن للقاسم بن سلام ١٤٤

فما الذي جعله يقول: «ليس الدين بالطنطنة من آخر الليل؟»
أليس هذا ما يقوله - غالباً - المفرِّطون؟
لكنَّ عمر على ما يبدو قد رأى من بعض من يقومون بالصلاة وبالشعائر ما لم يجعله يقلِّل من شأنها ومن شأن الالتزام بها، ولكن جعلته ينظر إليها من منظورٍ أوسع، منظور فاعليَّتها وتأثيرها، منظور صدقها ومصداقيَّتها، منظور أنَّها تمتدُّ لتكون موجودةً وفاعلةً طيلة الوقت، وليس فقط في وقت الصلاة.. بل في الوقت بين الأوقات..
صار ينتبه، أنَّ بعض من يقوم للصلاة، لا يجعلها مستمرَّةً في فاعليَّتها في أداء مهمَّتها خارج أوقات الصلاة.
ما هي وظيفتها!
هل صار للصلاة وظيفة؟
نعم..
الصلاة بالنصِّ القرآنيِّ، تنهى عن الفحشاء والمنكر..
وقد تعوَّدنا أن نَعُدَّ أنَّ الفحشاء والمنكر ينتميان لمنطقةٍ متعلِّقةٍ بالزنا ومقترباته..
ولكن مَن قال إنَّ الجيل الأول وعلى رأسهم عمر، قد فهم هذا الفهم الذي يقصر الفحشاء والمنكر بهذه الزاوية فقط..
الفحش هو كلُّ ما قبح من القول والفعل، والمنكر هو كلُّ ما قبَّحه الشرع وحرَّمه..
وعلى هذا، فما تنهى الصلاة عنه من الفحشاء والمنكر هو أوسع بكثيرٍ مما نعتقده تقليديَّاً.
مثل ماذا؟!..
مثل أن تمضي حياتك دون أن تفعل شيئاً!..
(عن سعيد بن جبير قال كان النبي صلى الله عليه و سلم يصلي فمر رجل من المسلمين على رجل من المنافقين فقال النبي صلى الله عليه و سلم يصلي وأنت جالس فقال أمض لعملك ان كان لك عمل فقال ما أظن إلا سيمر عليك من ينكر عليك فمر عليه عمر بن الخطاب فقال له يا فلان ان النبي صلى الله عليه و سلم يصلي وأنت جالس فقال له مثلها (أي امض إلى عملك) **فقال عمر هذا من عملي !).**[٢٨٥]
هذا عملي!..
أن أنكر منكراً كهذا، منكر أن تكون جالساً بلا عمل، أن تتسلَّل حياتك من بين أصابعك، وأنت تقضيها في اللاشيء..
هذا هو عمل عمر وهذا ما فهمه من صلاته، أنَّها تساعده على النهي عن الفحشاء والمنكر..

٢٨٥ حلية الأولياء ج ٤ ص ٢٧٧ تاريخ دمشق ج ٣٧ ص ١٨٧

وإذا كنَّا فهمنا أنَّ الفحشاء والمنكر هي أفعالٌ قبيحةٌ، فإنَّ اللافعل، هو أيضاً فعلٌ قبيحٌ.. إنَّه تخلُّفٌ عن الوظيفة الأولى التي خلقنا الله من أجلها.. إنَّه تخلُّفٌ عن كلِّ فعل أمرٍ في القرآن الكريم..
إنَّه مخالفٌ لقوله عزَّ وجلَّ: «وقل اعملوا»...

(عن أبي سعيدٍ مولى أبي أسيد قال: كان عمر بن الخطاب يعسُّ المسجد بعد العشاء، فلا يرى فيه أحداً إلا أخرجه إلا رجلاً قائما يصلِّي).[٢٨٦]
انتهت الصلاة!..
فما جلوسكم في المسجد؟!
الصلاة تشحنك بطاقةٍ على العمل، تصوِّب بوصلتك واتجاهك على العمل، إن أدَّيتها وتصوَّرت أنَّك قد فعلت ما يجب، قد «عملت»، وذهبت لتسترخي وقد أدَّيت قسطك للعلى! فقد فوَّتَّ أهمَّ ما في الصلاة، ربَّما لم تفوِّت وقتها وصلاتها جماعةً.. لكنَّك «فوَّتَّ» مقصدها.. **أن تمدَّك بهذه القدرة والطاقة على العمل، أن تمدَّك بضميرٍ يحاسبك في كلِّ عملٍ تعمله..**
فإذا كنت لا تعمل شيئاً، فماذا فعلتْ لك صلاتُك؟!
ولو كنت قد «طنطنت» آخر الليل.. أي صلَّيت آخره!..
المهمُّ أن يؤدِّي ذلك إلى «الورع»..
فلننتبه..
خيار «الورع» من دون الصلاة غير واردٍ أصلاً..
ها هو يتحدَّث مع عمَّاله (ولاته) فيقول لهم بكلِّ وضوحٍ:
(إنَّ أهمَّ أمركم عندي الصلاة فمن حفظها أو حافَظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع، ثم كتب: إنَّ صلاة الظهر إذا كان الفيء ذراعاً إلى أن يكون ظلُّ أحدكم مثله، والعصر والشمس بيضاء نقيَّة قدر ما يسير الراكب فرسخين أو ثلاثة، والمغرب إذا غربت الشمس، والعشاء إذا غاب الشفق إلى ثلث الليل، فمن نام فلا نامت عينه، فمن نام فلا نامت عينه، فمن نام فلا نامت عينه، والصبح، والنجوم باديةٌ مشتبكةٌ، فمن نام فلا نامت عينه!).[٢٨٧]
إنَّها الصلاة، أوَّل ما أراقبكم عليه..
من كان منكم مضيِّعاً لها، فهو سيضيِّع كلَّ ما سواها..
ومن لم يضيِّعها، فقد يضيِّع ما سواها، وقد يحافظ عليه..
عدَّة مراحل في «الغربال»..
الغربال الأوَّل، هو الصلاة..

---
٢٨٦ الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٢٩٤
٢٨٧ سنن البيهقي الكبرى ١٩٣٥

من لم يؤدِّها، لا يمكن أصلاً أن يُكمل مراحل التنقية..
يخرج منها فوراً..
الغربال الثاني، يعتمد على ما ستقوم به الصلاة من وظيفةٍ لها، من «النَّهي» الذاتيِّ عن الفحشاء والمنكر..
الصلاة هنا، مثل بطاقةٍ لا بدَّ منها لكي تدخل قاعة الاختبار..
لكنَّها لا تكفي قطّ لكي تجتاز الاختبار.. لا بدَّ أن يكون هناك «عملٌ».. وأن يكون صواباً، أن تؤدِّي الصلاة دورها في أن تمدَّك بالطاقة على العمل، وتعطيك الديمومة للرقابة والنهي عن المنكر والفحشاء، ضمن العمل الصالح نفسه؟
هل هناك فحشاء ومنكرٌ حتى ضمن العمل الصالح؟!
بالتأكيد..
هناك الغرور.. هناك العجب.. هناك الرياء.. هناك عدم الإتقان.. هناك تضييع الوقت..
كلُّ هذه يمكن أن **تخالط** «العمل الصالح» وتفسده بدرجةٍ أو بأخرى..
وهنا يأتي دور الصلاة، خمس مرَّاتٍ كلَّ يومٍ..
تجدِّد طاقتك على العمل، ترشدك له، وتوجِّهك نحو تنقيته من أخطائه.

****

لذا كان من الطبيعيِّ أن يقول عمر لموظَّفيه، وهو يبعثهم في أمصارٍ بعيدةٍ ما قاله: إنَّها الصلاة!.. فمعايير الجودة الوظيفيَّة التي عيَّنهم فيها تمرُّ بالصلاة وإقامتها!..
وكان من الطبيعيِّ، أن نراه في **خطاب تعيينهم الرسميِّ يؤكِّد على مواقيت الصلاة وطرق تعيينها.. أليس من المفروض أن يكون هذا من البديهيَّات!..**
نعم.. لكنَّه يضعهم في خطابه هذا أمام البديهيَّات وتفاصيلها!..
ليست مسؤوليَّة إمام المسجد، أو مؤذِّنٍ فيه أو قائمٍ عليه..
كلُّ هذه التفاصيل ستكون من مسؤوليَّته..
إنَّه ينبِّههم **لأهميَّة الوقت**، مواقيت الصَّلاة وهيمنتها على ما سواها، تمنح الشعور بأهميَّة الوقت في كلِّ عملٍ
وتبدو جملته: «فمن نام فلا نامت عينه».. **كما لو كانت جملةً تخصُّ كلَّ عملٍ نقوم به.. كلَّ عملٍ نقوم به دون اهتمامٍ به وبتفاصيله وإتقانه..**
فمن نام فلا نامت عينه.

****

فلنتذكر أنَّ عمر استخدم كلمة الورع عندما وصف الدِّين، بدلاً عن الطنطنة في آخر الليل..

@iAbubader

فما هو الورع؟

الورع لغة: هو التحرُّج، وهو في الأَصل الكَفُّ عن المَحَارِم والتحَرُّجُ منه، وتَوَرَّعَ من كذا، ثمَّ استُعير للكفِّ عن المباح والحلال..

فلننتبه هنا أنَّه عند عمر ليس «الكفّ» عن المباح والحرام، عبر الكفِّ عن العمل والامتناع عنه «تجنُّباً» للوقوع في الخطأ..

على العكس!

بل **هو النجاح في امتحان العمل، عبر الورع فيه..!**

كيف ميَّزنا أنَّ هذا هو الورع عند عمر؟

(عن خرشة بن الحر قال: شهد رجلٌ عند عمر بن الخطاب شهادةً فقال له: لست أعرفك ولا يضرُّك أن لا أعرفك، ائت بمن يعرفك، فقال رجلٌ من القوم: أنا أعرفه، قال: بأيِّ شيءٍ تعرفه؟ قال: بالعدالة والفضل، قال: فهو جارك الأدنى الذي تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه؟ قال: لا، قال: فعاملك بالدينار والدرهم اللذين بهما يستدَلُّ على الورع؟ قال: لا، قال: فرفيقك في السفر الذي يستدَلُّ به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال: لست تعرفه، ثمَّ قال للرجل: ائت بمن يعرفك).[288]

الدرهم والدينار إذاً...

العمل إذاً.. العمل والمعاملة، بكلِّ آفاق الكلمة، بكلِّ مدياتها الواسعة..

كلُّ عملٍ منتِجٍ، في أيِّ مجالٍ سيتطلَّب تعاملاً بالدرهم والدينار، وهنا هو المحكُّ الحقيقيُّ.. هنا يبدو الورع..

هنا ستبدو للصلاة "فاعليَّتها" الحقيقيَّة..

هل هي مجرَّد طنطنة؟ مجرَّد هيئاتٍ وحركاتٍ تؤدَّى وانتهى الأمر أم أنَّها تتجاوز ذلك لتؤثِّر بالإيجاب على معايير جودة أدائك..؟

هل ستقف صامداً أمام الدرهم والدينار والدولار؟!.. أم أنَّك ستبحث عن عذرٍ هنا وعذرٍ هناك لتبرِّر بهما تحايلك..

صمودك بلا صلاةٍ لا معنى له بحسب المنظومة الإسلاميَّة..

وصمودك أمامهما مع الصلاة، سيعني أنَّ الصلاة قد حقَّقت - على الأقلِّ - واحداً من وظائفها.

****

وكان فهمه للعبادة ولدورها مرتبطاً بتأثيرها على حياة العابد ومَن حوله من الناس..

لم يفهم العبادة على أنَّها عمليةٌ فرديَّةٌ تؤدِّي دور قارب النجاة الصغير الذي لا يسع أكثر من شخصٍ واحدٍ..

---

٢٨٨ سنن البيهقي ٢٠٩٠١

قال عمر في ذلك: (لموت ألف عابدٍ قائم الليل صائم النهار أهون من موت عاقلٍ عقل عن الله أمره فعلم ما أحلَّ الله له وما حرَّم عليه، فانتفع بعلمه، وانتفع الناس به، وان كان لا يزيد على الفرائض التي فرض الله عزَّ وجلَّ عليه كثير زيادة).[289]
العاقل هو من عقل عن الله ما يريده منه.
الباقي مجرّد تفاصيل.

****

أعمق وأروع ما يمكن أن يصلنا عن فهم عمر للصلاة ومعناها عنده، هو أنَّه أمر لاحقاً بعتق كلٍّ من يصلي من السبي!
(أخبرني نافع عن عبد الله أنَّ عمر بن الخطاب أعتق كلَّ من صلَّى من سبي العرب، فبتَّ عتقهم، وشرط عليهم: أنَّكم تخدمون الخليفة بعدي ثلاث سنواتٍ، وشرط لهم: أنَّه يصحبكم بمثل ما كنت أصحبكم به).[290]
(.. أن عمر بن الخطاب أعتق في وصيَّته كلَّ من صلَّى ركعتين من رقيق بيت المال).[291]
الصلاة، كما فهمها عمر، كانت باب هؤلاء للحريّة، للعتق..
أيُّ معنىً عظيم..!
أليست هذه هي الصَّلاة حقاً؟
أليست هي بابنا جميعاً إلى الحريَّة الحقيقيَّة؟! ألسنا جميعاً عبيداً لشهواتنا ولعاداتنا ولأنماط حياتنا وللرتابة فيها إلى أن نصلِّي، فتكون الصلاة بابنا إلى حريَّتنا الحقيقيَّة التي هي في انعتاقنا من كلِّ شيءٍ يشغلنا عن تمام عبوديَّتنا له وحده؟!
تخيَّل أنَّك أُسِرْتَ وصرت سبياً بحسب قواعد الحرب المعمول بها في ذلك الوقت، والتي خفَّف الإسلام أصلاً منها، لكن تخيَّل أن يقال لك أنك ستُعتق فقط لو صلَّيت..
ربَّما ستصلّي أولاً فقط لغرض أن تُعتَق..
لكن ستتسلَّل الصلاة إليك شيئاً فشيئاً.. ستصير جزءاً منك.. ستتغيَّر أنت.. حتى لو كانت نيَّتك أولاً ليست خالصةً.. ستنقِّيها الصَّلاة..
وستبقى في ذهنك دوماً أنَّها كانت مفتاحك إلى الحريَّة.

****

وكما كانت الصَّلاة باباً للحريَّة، فقد كانت أيضاً مسطِّرةً للمساواة بين الكلِّ!..
(خرج عمر بن الخطاب إلى الصلاة فاستقبل الناس، فأمر المؤذِّن فأقام وقال: لا

---
289 مسند الحارث ٨٤٢
290 مصنف عبد الرزاق ١٥٦١٩
291 مصنف عبد الرزاق ١٦٧٨٠

ننتظر لصلاتنا أحداً، فلمَّا قضى صلاته أقبل على الناس، ثم قال: ما بال أقوامٍ يتخلَّف بتخلُّفهم آخرون، والله لقد هممت أن أرسل إليهم، فيجاء في أعناقهم ثمَّ يقال: اشهدوا الصلاة).[292]

لا ننتظر لصلاتنا أحداً..

مهما كانت مكانته ومرتبته.. مهما كان له سبقٌ وفضلٌ..

أمام الصلاة..

الكلُّ سواسيةٌ..

لأنَّهم سواسيةٌ حقاً في المجتمع..

ولو جاملناهم في الصلاة، فسنجاملهم في أيِّ شيءٍ آخر من باب أولى!

****

بهذا الفهم فإنَّ عمر كانت حياته كلُّها صلاة!

تصبح الأوقات بين الأوقات الخمسة كلُّها صلاةً بأشكالٍ مختلفةٍ ومتنوعةٍ، لكنَّها كلَّها تستحضر الأوقات الخمسة، وتستمدُّ منها طاقتها..

(أن أبا موسى أتى عمر بن الخطاب بعد العشاء قال فقال له عمر بن الخطاب ما جاء بك قال جئت أتحدث إليك قال هذه الساعة قال أنه فقه فجلس عمر فتحدثا ليلا طويلا حسبته قال ثم ان أبا موسى قال الصلاة يا أمير المؤمنين.. قال إنا في صلاة !).[293]

الصلاة يا أمير المؤمنين!.. (وكان يقصد نافلةً، فقد جاءه بعد العشاء)

ولكنَّ عمر يردُّ بحسمٍ: أنا في صلاة!..

هذا الحسم، هو الفهم الذي يلغي الفهم الذي يفصل الدين عن الدنيا، والشعائر عن الحياة، هذه العلمانيَّة الخفيَّة الموجودة عند بعض المتديِّنين.. التي تفصل بين دينهم وحياتهم، فتكون شكلاً ممهداً لفصل الدين عن الحكم..

عمر لم يكن يرى فصلاً حتى بين الصلاة والحياة عندما تكون تطبيقاً لأوامره عزَّ وجلَّ..

كان يرى الحياة صلاةً مستمرةً..

وكان يرى الصلاة حياةً مستمرةً..

حتى إنَّه كان يجيِّش الجيوش فيها!

---

٢٩٢ مصنف عبد الرزاق ١٩٨٨

٢٩٣ مصنف ابن أبي شيبة ٦٦٣٩

ثبت عن عمر بن الخطاب أنَّه قال:
(إِنِّي لأُجَهِّزُ جَيْشِي وأَنَا فِي الصَّلاَةِ!). [294]
يجهِّز الجيش أثناء وقوفه بين يدي ربه..!
قالها دون أن يقول له أحدٌ: «هل تسهو في صلاتك يا أمير المؤمنين؟».. ودون أن يتحرَّج هو من احتماليَّة ذلك كما سيحدث عندنا..
لكنَّ الجيل الذي فتح العالم، فهم الأمر على نحوٍ مختلفٍ.. لم يفهم الأمر على أنَّه سهوٌ في الصلاة.
لقد أخذته الصلاة لما يجب أن تأخذنا جميعاً له، للفتح.
لم يفهم الصلاة والخشوع بمعنى أن يبكي فيها فحسب، رغم أنَّه لم يكن يبكي أحيانا فحسب، بل كان يبدو كما لو أنه قد أصيب!.. وكان هناك خطَّان من الدمع في خدَّيه.. لكنَّ ذلك لم يكن كلَّ الخشوع، كان جزءاً منه فحسب..
الخشوع أيضا هو أن تتغيَّر فتثمر، الخشوع هو الاستعداد للتغيُّر، الخشوع هو ذلك الذي ذُكِر في القرآن: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (فصلت: ٣٩).
خشوع عمر كان من هذا النوع.. كان من النوع الذي لا ينتهي عند الدموع ومسحها بمنديل، **بل يسعى إلى تحقيق البناء المرجوّ من الصلاة..** أن تكون إقامة الصلاة طريقاً إلى إقامة الحضارة المبنيَّة على هذا الدِّين وقيمه ومبادئه..
وكان «تجييش الجيوش» جزءاً من ذلك.. جزءاً من بناء الدولة، الوعاء الحتميّ لنهوض أيَّة حضارةٍ..
لكنَّ عمر كان أحيانا «يدخل» في هذا، على نحوٍ يجعله يعيد الصلاة!..
(عن عكرمة بن خالد عن الثقة: أنَّ عمر بن الخطاب صلَّى العشاء الآخرة للناس بالجابية، فلم يقرأ فيها حتى فرغ، فلمَّا فرغ دخل فأطاف به عبد الرحمن بن عوف، وتنحنح له حتى سمع عبد الرحمن حسَّه وعلم أنَّه ذو حاجةٍ، فقال: من هذا؟ قال: عبد الرحمن بن عوف، قال: ألك حاجةٌ؟ قال: نعم، قال: ادخل، فدخل، فقال: أرأيت ما صنعت آنفا؟ عهده إليك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم رأيته؟ قال: وما هو؟ قال: لم تقرأ في العشاء، قال: أو فعلت؟ قال: نعم، قال: فإنِّي سهوت جهَّزت عيراً من الشام حتى قدمت المدينة، فأمر المؤذِّن فأقام الصلاة، ثم عاد فصلَّى العشاء للناس، فلما فرغ خطب قال: لا صلاة لمن لم يقرأ فيه، إنَّ الذي صنعت آنفا أنِّي سهوت، جهزت عيراً من الشام حتى قدمت المدينة فقسَّمتها)[295].
أبو العيال، يحمل همَّ الأمَّة.. يجهِّز القافلة من الشام، ويرسلها إلى المدينة، ثم يقسِّمها على أهل المدينة.. واحداً واحداً..

---
٢٩٤ صحيح البخاري ٥٣٨
٢٩٥ مصنف عبد الرزاق ٢٧٥٢

كلُّ هذا في الصلاة..

ولم يقرأ..

ثم أعادها..

(وقال مرَّة: إني لأحسب جزية البحرين وأنا قائم في الصلاة!).[296]

حتى وهو في الصلاة، دماغه يعمل بأرقام الجزية، بواردات الدولة التي ستصبُّ في خدمتها وترقية بنائها الحضاريِّ.

حتى عندما يسهو، صانع الحضارة، يكون سهوه من أجل مجتمعه وقيمه وحضارته..

حتى ما نعتقد أنه «سهو» فهو عبادة!

ثم حدث أن رُويت عنه تلك الجملة الشهيرة التي تلخِّص نظرته للتوكُّل وللرزق وللمسجد في وقفةٍ واحدةٍ..

أنَّ عمر رأى بعد الصلاة قوماً قابعين في المسجد بدعوى التوكل على الله فعلاهم بدرّته وقال: لايقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهمَّ ارزقني، وقد علم أنَّ السماء لاتمطر ذهباً ولا فضَّةً، وإن الله يقول: «وإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله».[297]

المسجد للصلاة.. والصلاة تقوِّيك.. تزوِّدك بالطاقة اللازمة لطلب الرزق..

إن أخذت الطاقة، ولم تستخدمها فأنت لم تفعل سوى الهدر..

الصلاة يمكنها أن تجعلك قويًّا بما فيه الكفاية لجعل نتائج أعمالك تمطرك سيوفاً وذهباً أو فضَّةً..

لكن ليس بأن تنتظر أن يحدث ذلك بمجرَّد الصلاة.

الصلاة في المسجد..

والصلاة أيضاً خارج المسجد..

كانت صلاته حياةً..

وكانت حياته صلاةً..

بطريقةٍ ما، لم يفرِّق ابن الخطاب بينهما..

وجد في الصلاة حياته، ووجد في الحياة صلاته، لم يكن ممكناً لمن فهم فهمه أن يفصل بين الاثنين..

---

296 سنن البيهقي ٤٠٣٦

297 المستطرف في كل فن مستظرف ص ٢٩٣ وسكت عنه الألباني

كانت الصلاة هي ما تمنح الطاقة لحياته، ترفع معايير جودتها..

وكانت حياته.. مصداقاً لذلك.

****

موقفٌ واحدٌ، في آخر يومٍ في حياته رضي الله عنه قد يلخِّص العلاقة بين «الصلاة والحياة» عنده أعمق تلخيصٍ..

عندما طُعِنَ تلك الطعنات الحاقدة، أُغشِي عليه ، وأراد مَنْ حوله أن يوقظوه من تلك الإغماءة، فما فلحوا..

ثم قال لهم رجلٌ: **إنَّكم لن تفزعوه بشيءٍ إلاَّ بالصلاة**[٢٩٨]، **أي لن تتمكَّنوا من إيقاظه إلاَّ بأن تهمسوا له بالصلاة..**

فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين..

همسوا في أذنه..

الصلاة يا أمير المؤمنين..

فانتفض..

كلمة الصلاة، كانت مثل كلمة السرِّ التي جعلته يستجمع كلَّ ذرَّات الحياة في جسده النازف دماً..

الصلاة يا أمير المؤمنين..

وقام ليصلي!..

هل من موقفٍ أعمق وأدلّ على الطاقة التي كانت تمدُّه الصلاة بها؟..

هل من موقفٍ أعمق يدلُّ على أنَّ الصلاة كانت مصدراً لا ينضب لكلَّ تلك الحيويّة التي جعلت عمر يفعل كلَّ ما فعله، ينجز كلَّ ما أنجزه في حياته؟

ونحن!

لو أنَّنا يوماً تعرَّضنا لحادثٍ ما..

---

٢٩٨ مصنف عبد الرزاق ٥٨١

ورحنا في غيبوبةٍ..

فأيُّ شيءٍ يمكن أن يجعلنا نصحو منها؟

أموالنا؟..

أولادنا؟..

مهنتنا ونجاحنا الوظيفيّ؟

أسرارٌ لنا؟..

أم أنّنا لم نجد في حياتنا ما يستحقُّ الحياة؟!..

نحن نعرف الجواب عن هذا..

وحياتنا شاهدةٌ عليه..

وعلينا..

كما شهدت حياة عمر عليه..

الصلاة، يا أمير المؤمنين..

وانتفض!

آمنت، فعدلت، فسهرت!

إذا ذكر عمر، ذكر العدل!

هذه هي الصفة الأساسيَّة التي عرفت عن عمر، وارتبطت به في ذاكرة الأجيال عبر العصور..

مواقف عمر العادلة التي تملأ الكتب والمجلَّدات، كما ذاكرتنا ووعينا التي امتدت طيلة فترة خلافته، هي من جعلته يدخل التاريخ من هذا الباب..

كلُّ أبواب التاريخ كانت مفتوحةً له.. بالأحرى كلُّ أبواب التاريخ فتحها هو بنفسه، هذا باب الفتوحات..

وذاك باب الدولة.. وذلك باب الحضارة والقيم الإنسانيَّة..

لكنَّ التاريخ اختار له باب العدل..

ربما ليس التاريخ..

لكنَّ الشعوب المحتاجة إلى العدل، المتعطشة إلى نُظُمٍ مختلفةٍ وحكَّامٍ مغايرين، أخذت عمر من يده وأدخلته ذاكرتها من باب العدل تحديداً..

ربَّما لأنَّ القادة كُثُر..

أو لأنَّ ما أنجزه عمر في مواقفه الأخرى كان أصعب على الفهم بالنسبة لعموم الجماهير..

أمَّا العدل، فهو ما تحتاجه في حياتها اليومية، ولذلك كان لا بدَّ أن تذكر عمر به!

@iAbubader

الشعوب عموماً، تقيّم العدل بشكلٍ رئيسيٍّ من منظورٍ واحدٍ..

منظور أنَّ من يطبِّق القانون يطبِّقه على نفسه أولاً.. على نفسه وأهله وأقربائه أولاً..

قد يطبِّق قانوناً تتذمر منه الجماهير، قد ترى فيه إجحافاً بحقِّها، وزيادةً في التشدُّد..

لكنَّها عندما ترى أنَّ التطبيق قد شمل الحاكم ذاته، وأهل بيته وأقرباءه.. وقد أصابهم ما أصاب الناس، فإنَّ هذا التذمُّر يخفُّ..

العدل العمريُّ المستند إلى القرآن والسنَّة أعمق وأشمل من أن يرتبط فقط بهذا..

ولأنَّه كذلك، فقد كان هذا مجرَّد جزءٍ من العدل العمريِّ!

لكنَّه جزءٌ مهمٌّ على أيَّة حالٍ.

****

(كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهل بيته فقال إني نهيت الناس كذا وكذا أو أن الناس لينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم وأيم الله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت له العقوبة ضعفين).[٢٩٩]

هكذا إذاً!..

أوّل ما ينهى عن شيءٍ يجمعهم.. أهله وكلّ من يمكن أن يُحسَب عليه!..

ليس من باب أنَّهم قدوةٌ!.

بل من باب أنَّ الناس تراقبهم..

وهو، سيضاعف لهم العقوبة التي أقرَّها على الناس إن هم أتوا ما نهى عنه..

الضِّعف!

****

حسناً، قد يقولها بعض القادة..

لكنَّ الفرق أنَّ عمر يفعلها..!

---

٢٩٩ مصنف ابن أبي شيبة ٢٠٧١٣

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما..

(شرب أخي عبد الرحمن بن عمر، وشرب معه أبو سروعة عقبة بن الحارث، ونحن بمصر في خلافة عمر بن الخطاب فسكرا، فلما صحا انطلقا إلى عمرو بن العاص.. وهو أمير مصر، فقالا: طهِّرنا، فإنَّا قد سكرنا من شرابٍ شربناه.

قال عبد الله بن عمر: فلم أشعر أنَّهما أتيا عمرو بن العاص، قال: فذكر لي أخي أنَّه قد سكر فقلت له: ادخل الدار أُطهرك، قال: إنَّه قد حدث الأمير.

قال عبد الله: فقلت: والله لا تحلق اليوم على رؤوس الناس، ادخل أحلقك وكانوا إذا ذاك يحلقون مع الحدِّ، فدخل معي الدار، قال عبد الله: فحلقت أخي بيدي، ثم جلدهما عمرو بن العاص، فسمع بذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو: أن ابعث إليّ عبد الرحمن بن عمر على قتب.

ففعل ذلك عمرو، فلمَّا قدم عبد الرحمن المدينة على أبيه الفاروق عمر جلده وعاقبه من أجل ما كان منه، ثم أرسله فلبث أشهراً صحيحاً، ثم أصابه قدره، فيحسب عامَّة الناس أنَّه مات من جلد عمر، ولم يمت من جلده...).[300]

وفي تفصيلٍ آخر، أنَّ عمرو بن العاص أقام الحدَّ، ولكن في باحة داره وليس علناً..

(كتب إلى عمرو بن العاص: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص: عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك عليّ، وخلاف عهدي، أما إنّي قد خالفت فيك أصحاب بدر ممَّن هو خيرٌ منك، واخترتك لجدالك عني، وإنفاذ عهدي، فأراك تلوثت بما قد تلوثت، فما أراني إلا عازلك فمسيء عزلك، تضرب عبد الرحمن في بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفني؟ إنَّما عبد الرحمن رجلٌ من رعيَّتك، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين وقد عرفت أن لا هوادة لأحدٍ من الناس عندي في حقٍّ يجب لله عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءةٍ على قتب حتى يعرف سوء ما صنع).[301]

قال لهم: إنَّه سيعاقبهم الضِّعف..

وعبد الرحمن كان يعلم ذلك، وكان يمكن أن يتجنَّب العقوبة بسهولةٍ لأنَّ الله ستره وبقي الأمر بينه وبين ربِّه..

---

٣٠٠ سنن البيهقي ١٧٩٥٣

٣٠١ جامع الأحاديث ٣٠٢٣٢

لكنَّ التربية التي غرسها فيه عمر، لم تجعل ذلك ممكناً..

فذهب إلى عمرو بن العاص طالباً أن يطهِّره..

فجلده عمرو، كما هو المعمول به..

لكنَّ عمر لم يمرر المسألة بعقوبةٍ لم يُشرف بنفسه عليها، ولم تكن على مستوى الوعد بالمضاعفة، وكان فيها المجاملة بالحلاقة سرّاً، وبالجلد سرّاً..

لذا ها هو يستقدمه إلى المدينة، ويقيم عليه الحدَّ علناً، على رؤوس الأشهاد..

علينا أن نبحث في التاريخ، عن حادثةٍ مماثلةٍ..

عن حاكمٍ قام بمعاقبة ابنه أصلاً!

وليس بمعاقبته مرَّتين!

شخصيَّاً بحثت.. ولم أجد.. إلاّ واحداً فقط..

عمر بن الخطاب.

****

أمثلة المساواة بين الناس في عهد عمر عصيَّةٌ على الحصر..

(قال أبو محذورة: كنت جالسا عند عمر رضي الله عنه إذ جاء صفوان بن أمية بجفنه يحملها نفر في عباءة فوضعوها بين يدي عمر فدعا عمر ناسا مساكين وأرقاء من أرقاء الناس حوله فأكلوا معه ثم قال عند ذلك فعل الله بقوم أو قال لحا الله قوما يرغبون عن أرقائهم أن يأكلوا معهم فقال صفوان أما والله ما نرغب عنهم ولكنا نستأثر عليهم لا نجد والله من الطعام الطيب ما نأكل ونطعمهم)![٣٠٢]

كما جاء أنَّ عمر.. (عندما جاءه مالٌ، فجعل يقسمه بين الناس، فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس، حتى خلص إليه، فعلاه بالدرّة وقال: إنَّك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض، فأحببت أن أعلِّمك أنَّ سلطان الله لن يهابك...).[٣٠٣]

٣٠٢ الأدب المفرد للبخاري ٢٠١ وصححه الألباني
٣٠٣ طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٢٨٧

المساواة، ليست فقط بين أهل عمر وولده، بل بين الناس جميعاً.. أشرافهم و مشاهيرهم، غنيّهم وفقيرهم، سيِّدهم وخادمهم..

أن يكون مهاجراً وله السَّبق مع الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يجعله فوق هذا، لم يجعله فوق سيادة القانون وتطبيقه..

لم يجعل له مكانةً أو أولويَّةً تسمح له أن يخرق الصفَّ..

ودرَّة عمر بالمرصاد!

إنَّها المساواة أمام القانون..

عندما تكون حقيقةً واقعةً، يطبِّقها الحاكم على نفسه قبل غيره، وليست مجرَّد حبرٍ على ورقٍ في قانونٍ لا يلتفت له أحدٌ..

وكان لا يكتفي بالمساواة، حتى مع أهل الذِّمَّة، بل كان يرفض أن يُثنَى عليه من قِبَلِ مَنْ كان الحكم لصالحه، فهذا بالذات سيكون موقفه مختلفاً لو كان الحكم ليس لصالحه!

(أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ اخْتَصَمَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ وَيَهُودِيٌّ، فَرَأَى عُمَرُ أَنَّ الْحَقَّ لِلْيَهُودِيِّ، فَقَضَى لَهُ، فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: وَاللَّهِ لَقَدْ قَضَيْتَ بِالْحَقِّ. فَضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالدِّرَّةِ، ثُمَّ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ؟)[٣٠٤]

****

بالنسبة لعمر، كان العدل تحصيلاً حاصلاً.. لم يكن عملاً متعمَّداً، كان جزءاً من التزامه بما آمن به، جزءاً من بديهيَّات إسلامه، لم يكن متكلَّفا فيه، بل كان نابعاً من حقائق الإيمان..

العدل بالنسبة له كان تطبيق القرآن والسنَّة.

نقطة. انتهى.

في كلِّ ما كان يفعله، وكلِّ ما أدخله التاريخ، **كان هناك دوماً «الإيمان» بالقرآن والسنَّة دافعاً، ضابطاً، منظِّماً لهذا العدل العمريِّ..**

٣٠٤ موطأ مالك رواية يحيى الليثي ١٤٠٠

في كلِّ موقفٍ أو قصَّةٍ من قصص العدل التي أدخلته ذاكرة الناس، ستجد نصّاً قرآنيّاً، أو تعليما نبويّاً، نقله عمر إلى أرض الواقع وطبَّقه فكان نموذجاً يُحتذى..

قال عليه الصلاة والسلام: لو أنَّ فاطمة سرقت، لقطعتُ يدها.. ولو أنَّها فعلت، لفعل..

لكنَّها لم تفعل!

لكنَّ حكمة الله شاءت أن تبيِّن لنا أنَّ ذلك قد يحدث، وأنَّه يجب أن يُعاقب..

لذلك فقد شرب ابن الخليفة الخمر، وعاقبه الخليفة بتطبيق الحدِّ عليه مرَّتين!..

كذلك فقد كان القرآن حاسماً تماماً في « أن لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى»... وأهل التقوى لا يمكن لهم، ولا يحقُّ لهم أن يستغلُّوا ما سبق من تقواهم، لتفضلهم على آخرين لاحقاً..

لذلك، لن يقبل عمر أن يستأثر بالطعام عن الخدم (الذين حملوه!) أو أن يقوم أحدُ الصحابة بتجاوز «النظام»..

الأمر محسومٌ.. بالالتزام بالقرآن والسنَّة..

صحيح أنَّ عمر كان يواجه مستجدَّاتٍ جديدةً، **إلا أنَّه كان يواجهها بعقلٍ يعمل «بنظام تشغيلٍ قرآنيٍّ» كما سبق وقلنا.. وهذا يجعل النصوص حاضرةً معه في كلِّ موقفٍ..**

عدله كان النتيجة لهذا.. نتيجة حرصه على تطبيق القرآن والسنَّة دون انتقائيَّةٍ لنصٍّ معيَّنٍ، حرصه على استدعاء القرآن في كلِّ موقفٍ، وتساوي الجميع، الجميع حرفيّاً، أمام ما يطبَّق من قوانين..

وهو عدلٌ لم يبدأ لحظة خلافته، أو لحظة تولِّيه القضاء في عهد أبي بكر، بل بدأ مبكِّراً جداً، منذ لحظة اعتناقه الإسلام... **كان العدل جزءاً من رؤيته للعالم التي تشكَّلت بنصوص القرآن..**

ولكنَّ «شيئاً» ما استجدَّ عندما صار الخليفة..

شيئاً ما، ثقيلاً جداً.

@iAbubader

الشعور بالمسؤوليَّة، بأقصى ما يمكن، وأشدَّ ما يمكن تخيُّلها، هو ما استجدَّ في لحظة صعوده إلى المنبر، ليكون الخليفة..

كان عمر يعدُّ نفسه مسؤولاً عن كلِّ ما يراه حوله من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

لكنَّ ما حدث هو أنَّ هذه المسؤوليَّة اتَّسعت فجأةً من النطاق الضيق من المحيط المباشر لتصبح بحجم الدولة التي كانت تتَّسع باستمرارٍ..

كان مفهوم محاسبة الذات المستمدُّ من القرآن والسنة، **قد جعل من عمر يتحوَّل شخصيّاً إلى ديوان محاسبةٍ» متحرِّك.. حاسب نفسه كما لو كان يعرض كلَّ يومٍ العرض الأكبر..**

(يُروى عَن عُمرَ بْنِ الخَطَّابِ قَالَ حَاسِبُوا أَنْفُسَكُم قَبْلَ أَن تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يوم القِيامةِ عَلى مَن حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنيا).[٣٠٥]

وحوَّل ديوان المحاسبة هذا إلى ديوانٍ عامٍّ.. صار يعلِّم الجميع كيف يفعلون ذلك.. كانت فترة خلافة عمر بمثابة دورةٍ تدريبيَّةٍ للمجتمع على كيفيَّة محاسبة النفس..

تحوَّل الشعور بالمسؤوليَّة إلى ما يشبه الوسواس، الهاجس المؤرِّق المثقل لضمير عمر.. إنَّه الوسواس الذي جعلنا نصل إلى أقوالٍ مذهلةٍ كهذه:

(حدَّثني داود بن علي، قال عمر بن الخطاب : لو ماتت شاةٌ على شطِّ الفرات ضائعة لظننت أنَّ الله تعالى سائلي عنها يوم القيامة).[٣٠٦]

شاةٌ ضائعةٌ على شطِّ الفرات يا أمير المؤمنين.. ضميرك مثقَلٌ بموت شاةٍ ضائعةٍ، افتراضيَّة، على شطِّ الفرات!

(عن ابن طاووس عن أبيه أنَّ عمر بن الخطاب قال: أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم، وأمرته بالعدل، أقضيت ما عليّ؟ قالوا: نعم، قال: لا، حتى أنظر في عمله، أعَمِلَ ما أمرته أم لا؟).[٣٠٧]

يوضِّح عمر حدود المسؤوليَّة ليس بتعيين الأكفأ وأمره بالعدل.. بل بمراقبته أيضاً بينما هو يفعل ذلك..

---

٣٠٥ سنن الترمذي ٢٦٤٧
٣٠٦ حلية الأولياء ص ٥٣
٣٠٧ مصنف عبد الرزاق ٢٠٦٦٥

أو أنَّه ذلك الشعور بالمسؤوليَّة الذي جعله ينطق بشيء خارق كهذا..

(لو هلك حَمَلٌ من ولد الضأن ضياعاً بشاطئ الفرات خشيت أن يسألني الله عنه).[٣٠٨]

حمل في العراق، يا أمير المؤمنين!..

كم نحسد حملان العراق في عهدك يا أمير المؤمنين!

هذا الشعور بالمسؤوليَّة، الذي أثقل كاهل عمر جعله يتَّخذ الخطوة الأهمَّ في عدله..

أن يتحوَّل هذا العدل من قرارٍ وخيارٍ شخصيٍّ للحاكم - الفرد، إلى مؤسَّسةٍ للعدل تتعالى عن أمزجة الحكَّام.. وتبقى وتستمرُّ، حتى بعد ذهاب الحاكم العادل..

مؤسَّسة العدل، كانت أعدل منجزات عمر، على كثرتها..

وكانت قائمةً بالنسبة لعمر، كما هي في الإسلام، وكما رأينا فيما فعله في «عام الرمادة»، على تجفيف منابع الجريمة أولاً.. إسقاط دوافع الناس في سلوكهم سبيل الحرام، ومن ثمَّ محاسبتهم بشدة إن سلكوا ذلك..

لذا فقد كان عمر حريصاً على سدِّ الحاجات الأساسيَّة أولاً.. قبل أن يقوم بتنفيذ الحدود وتطبيقها..

(عن حارثة بن مضرب أنَّ عمر أمر بجريب من طعامٍ، فعجن ثم خبز ثم ثرد، ثم دعا عليه ثلاثين رجلاً فأكلوا منه، ثم فعل في العشاء مثل ذلك، ثم قال: يكفي الرجل جريبان كلَّ شهرٍ فرزق الناس جريبين كلَّ شهرٍ، المرأة والرجل والمملوك جريبين جريبين كلَّ شهرٍ).[٣٠٩]

كانت تلك تجربةً عمريَّةً، حسب فيها ما يكفي من التموين لرجلٍ لشهرٍ كاملٍ، ثم أمر أن تكون الحصَّة لكل رجلٍ وامرأةٍ وعبدٍ شهريًا..

ولكنَّ عمر كان أعمق من أن يتصوَّر أنَّ الحاجة مجرَّد جوع بطنٍ يُسدُّ بلقيماتٍ..

(عن حنظلة عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: ليس الرجل أميناً على نفسه إذا أجعته، أو أوثقته، أو ضربته).[٣١٠]

---

٣٠٨ مصنف ابن أبي شيبة ٣٤٤٨٦
٣٠٩ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣٠٥ ذكر استخلاف عمر
٣١٠ مصنف عبد الرزاق ١٨٧٩٢

لقد حرص على توفير الحريّة والكرامة والشبع للجميع..

ومن ثمَّ، بعدها، صاروا مؤهَّلين للمحاسبة..

هذا هو عدل الإسلام.. بحسب رؤية عمر.

****

عمر باختصار هو من بنى «المؤسَّسة القضائيَّة» في الدولة الإسلاميَّة..

كان هناك «قضاة» قبله بالتأكيد، ومنذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانت هناك قواعد واضحةٌ وضعها عليه الصلاة والسلام كما في حديث معاذ بن جبل..

لكنَّ القضاء كمؤسَّسة بأذرعٍ مختلفة وممتدَّة إلى مختلف الأمصار لم يحدث إلا في عهد عمر..

صار لكلِّ ولايةٍ قاضٍ مستقلٌّ، يُعيَّن من قِبَل الخليفة مباشرةً، أو يعيِّنه الوالي بعد أخذ موافقة الخليفة، ويمكن أن يكون الوالي هو القاضي نفسه في غير الولايات الكبيرة.. كما وضع شروطاً لشخص القاضي وطبيعته، من حيث علمه بالأحكام وترفُّعه عمَّا في أيدي الناس، وقوَّة شخصيته..كما اشترط فيه ما يلي: (**لا ينبغي أن يلي هذا الامر - يعني أمر الناس - إلا رجل فيه أربع خلال: اللين في غير ضعف، والشدة في غير عنف، والامساك في غير بخل، والسماحة في غير سرف، فإن سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث**).[٣١١]

كما قال (**لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع، ولا يضارع، ولا يتبع المطامع ، ولا يقيم أمر الله إلا رجل يتكلم بلسانه كلمة، لا ينقص غربة، ولا يطمع في الحق على حدته، يقول: لا يطمع فيضعف**).[٣١٢]

وكتب إلى قاضيه أبي موسى الاشعري يحدد له ما لايجب على القاضي مزاولته كي يبقى مستقلاً في حكمه :(**لا تبيعن، ولا تبتاعن، ولا تشارن، ولا تضارن، ولا ترتش في الحكم، ولا تحكم بين اثنين وأنت غضبان**).[٣١٣]

كما أنَّه، ولكي يتحرَّج القضاة من التساهل في القصاص، لم يجعل من اختصاصهم الحكم في قضيَّة قتل، أو تكون عقوبتها القتل، بل تُرفَع إلى الخليفة نفسه، فكان

٣١١ مصنف عبد الرزاق ١٥٢٨٨
٣١٢ مصنف عبد الرزاق :١٥٢٨٩
٣١٣ مصنف عبد الرزاق ١٥٢٩٠

ينظر فيها، وفي كلِّ ملابساتها بنفسه، ويستشير أهل الرأي والفقه قبل أن يبتَّ بحكمه فيها..

تشدَّد عمر أيضاً مع شاهد الزور، فشهادته تودِّي إلى حكمٍ خاطئٍ يمسُّ هيبة القضاء ومنظومة العدل، لذا فقد كانت «شهادة الزور» جريمةً تستحقُّ التعزير والفضح والنبذ الاجتماعيَّ..

(عن الأحوص بن حكيمٍ عن أبيه أنَّ عمر بن الخطاب أمر بشاهد الزور أن يُسخم وجهه، ويلقى في عنقه عمامته، ويطاف به في القبائل ويقال: إنَّ هذا شاهد الزور فلا تقبلوا له شهادةً).[314]

****

لم يكن القضاء سارياً على أولاد عمر وأهله والناس فحسب، بل كان سارياً عليه أيضاً، حتى لو أدانه، حتى لو كان يعلم في قرارة نفسه أنه لم يخطئ..

(عن الشعبي قال: ساوم عمر بن الخطاب بفرس فركبه ليشوره فعطب، فقال للرجل: خذ فرسك، فقال الرجل: لا، فقال: أجعل بيني وبينك حكماً، قال الرجل: شريح، فتحاكما إليه، فقال شريح: يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو ردَّ كما أخذت، قال عمر: وهل القضاء إلا هكذا سر إلى الكوفة، فبعثه إليها قاضياً عليها، وإنه لأول يومٍ عرفه فيه).[315]

أول يوم تعرف فيه على شريح كان يوم أدانه!

وكافأه لأنه أدانه في الحكم، بأن عيَّنه قاضياً على واحدٍ من أكبر الأمصار وقتها.. الكوفة!.

****

رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري، هي وثيقةٌ لا تقلُّ أهميَّةً عن العهدة العمريَّة التي كتبها إلى أهل القدس، لكن لأنَّ العهدة ارتبطت بموضوع أهل الديانات الأخرى، ومدى تسامح الإسلام معهم، فقد نالت شهرةً واسعةً..

لكنَّ رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعريِّ عندما ولاه القضاء أهمُّ بكثير..لأنَّ العدل مع الآخر (كما في العهدة العمريَّة) لا يمكن إلا أن ينتج عن العدل في التعامل مع النفس.. ولا يمكن لأحدٍ أن يتسامح ويكون عادلاً مع أهل الديانات الأخرى، ما لم يكن

314 مصنف عبد الرزاق ١٥٣٩٤

315 الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ٦ ص ١٣٢، كنز العمال ٣٧٨٤٢

عادلاً مع أبناء دينه أولاً..

(بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس (وهو أبو موسى الأشعري):

سلام عليك.

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ وَانْفُذِ الْحَقَّ إِذَا وَضَحَ فَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لاَ نَفَاذَ لَهُ وَآسِ بَيْنَ النَّاسِ فِى وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لاَ يَأْيَسَ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِكَ وَلاَ يَطْمَعَ الشَّرِيفُ فِى حَيْفِكَ الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلاَلاً لاَ يَمْنَعْكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ رَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْحَقَّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِى فِى الْبَاطِلِ الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا تَخَلَّجَ فِى صَدْرِكَ مِمَّا لَمْ يَبْلُغْكَ فِى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اعْرِفِ الأَمْثَالَ وَالأَشْبَاهَ ثُمَّ قِسِ الأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ فَاعْمِدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللَّهِ وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى وَاجْعَلْ لِلْمُدَّعِى أَمَدًا يَنْتَهِى إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً أَخَذَ بِحَقِّهِ وَإِلاَّ وَجَّهْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْلَى لِلْعَمَى وَأَبْلَغُ فِى الْعُذْرِ الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ مَجْلُودٍ فِى حَدٍّ أَوْ مُجَرَّبٍ فِى شَهَادَةِ زُورٍ أَوْ ظَنِينٍ فِى وَلاَءٍ أَوْ قَرَابَةٍ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ وَإِيَّاكَ وَالْقَلَقَ وَالضَّجَرَ وَالتَّأَذِّىَ بِالنَّاسِ وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِى مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِى يُوجِبُ اللَّهُ بِهَا الأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهَا الذُّخْرَ فَإِنَّهُ مَنْ يُصْلِحْ نِيَّتَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ يَكْفِهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ يَشِنْهُ اللَّهُ فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِى عَاجِلِ رِزْقِهِ وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ!).[٣١٦]

****

هذه الرسالة، تستحقُّ أن تكون "مدونةً قضائيةً" كاملةً.

وثيقة شرفٍ لو وقّع عليها القضاة، والعاملون في السلك القضائيِّ، وتشرَّبوا معانيها في دراستهم، لكان وضع القضاء، والعدل في مجتمعاتنا أفضل بكثير..

بل لتغيَّر كلُّ شيءٍ في مجتمعاتنا تماماً..

كلُّ فقرةٍ من هذه الرسالة، كلُّ كلمةٍ فيها تجعل أفواهنا تسقط من الدهشة..

عمر يأمر قاضيه أن يساوي بين الناس حتى في وجهه!.. لا يبتسم لأحدٍ ويهشّ به مرحِّباً ويكون عاديّاً مع آخر.. يمكن لوجهه أن يكون مغلقاً مع الجميع!.. مقطِّباً مع الجميع.. ويمكن أن يبتسم للجميع.. المهمُّ أن يساوي بينهم جميعاً، فلا يطمع فيه

---

٣١٦ سنن الدارقطني ٤٥٢٤

أحدٌ ممّن يبتسم لهم، ولا يصيب اليأس منه أحدٌ ممّن لقي "وجهاً" مختلفاً..
يحدِّد له القضاء: فريضة وسنَّة.. لو فهم حقاً، فسيجد كلَّ ما يمكن أن يستجدَّ أمامه فيهما..
يقول له: إنَّ الحقَّ قديمٌ، فلا ضير في التراجع عن حكمٍ صدر منك..
كلُّ المسلمين عدولٌ.. كلُّهم متساوون في شهاداتهم.. ابن الخليفة وابن الفلاح والخادم.. إلاَّ من سبق عليه الحدُّ، أو جرِّبت له شهادة زورٍ، أو متحيِّزاً بولاءٍ أو نسبٍ لأحد طرفي القضيَّة!..
البيِّنة على من ادَّعى نعم، ولكن امنحه الوقت ليجلبها..
ويبقى الصلح خيراً!

****

لا يكتفي عمر بالنصائح ويترك التطبيق لضمائر عُمَّاله..
بل يهيمن عليهم برقابته التي تجعلهم أكثر حزماً في الالتزام بوصاياه..
(وكان رضي الله عنه يأمر عُمَّاله أن يوافوه بالمواسم، فإذا اجتمعوا قال: أيُّها الناس إنِّي لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم، إنَّما بعثتهم ليحجزوا بينكم، وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فُعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحدٌ إلا رجلٌ واحدٌ قام فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ عاملك ضربني مائة سوط. قال: فيم ضربته؟ قم فاقتصَّ منه. فقام عمرو بن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنَّةً يأخذ بها من بعدك. فقال: أنا لا أقيِّد، وقد رأيت رسول الله يقيِّد من نفسه قال: فدعنا فلنرضه، قال: دونكم فأرضوه. فاقتدى منه بمائتي دينارٍ كلُّ سوطٍ بدينارين ولو لم يرضوه لأقاده رضي الله عنه).[317]
وكان يقول أيضاً:
(أيما عامل لي ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أغيِّرها فأنا ظلمته).[318]

السلطة التنفيذيَّة هنا، مسلَّطةٌ على السلطة القضائيَّة فعلاً..
لكن ليس بالمعنى السلبيِّ الذي نفهمه اليوم..
إنَّما بمعنى إيجابيٍّ جداً، من أجل تسهيل الرقابة عليها والتأكد من نزاهتها..
إنَّها «السلطة» في خدمة الشعب..

---

٣١٧ جامع الأحاديث ٣٠٧٨٢
٣١٨ الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٣٠٥ ذكر استخلاف عمر

وكان من تمام العدل العمريّ أنّه لا يتردّد في ايقاف العقوبة أو تحجيمها إن تبيّن له وجود «شبهة» أو خطأ في التحقيق أو في ملابسات القضيّة في العموم.
عمر هو صاحب القول الأشهر الذي تحوّل ليكون قاعدةً فقهيّةً، في درء الحدود.
(لئن أعطّل الحدود بالشبهات أحبُّ إليّ من أن أقيمها بالشبهات).[319]
وعنه قال:
(ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإنّ الإمام لأن يخطئ في العفو خيرٌ له من أن يخطئ في العقوبة، فإذا وجدتم للمسلم مخرجاً فادرؤوا عنه).[320]
للوهلة الأولى قد يعتقد المتعجّل أنّ هذا تضعيفٌ للحدود مقابل الشبهات.
لكنّ الحقيقة أنّ هذا الأمر يقوّي تطبيقيّاً الحدود وتنفيذها.
الحدود إنّما أُنزلت وحُدّدت لتنفيذ العدل.. لإحقاق الحقّ.
عندما تنفَّذ، وثمّة شبهة ما، فإنّ هيبة الحدود ستسقط في أعين الناس.
وعندما يسقط الحدُّ، فإنّ اختراقه يصبح أسهل..
لذا كان عمر حريصاً على تأصيل فكرة أن لا يُطبَّق حدٌّ إلا بعد أن يتمّ التأكّد من عدم وجود شبهاتٍ تعكّر هيبته وتدرأ تنفيذه..
يمكن لهذه الشبهة أن تكون: أنّ من اقترف الجرم كان مكرهاً..
مثل المرأة التي زنت مكرهةً كي لا تموت عطشاً.[321]
أو مثل الغلمان الذين سرقوا وسيّدهم يسيء معاملتهم ويُجوّعهم.[322]
أو يمكن أن يكون: أنّ المعترف بالحدّ قد اعترف مكرهاً.
(عن عكرمة بن خالد أنّ عمر بن الخطاب أتي بسارقٍ، فاعترف، قال: أرى يد رجلٍ ما هي بيد سارقٍ، فقال الرجل: والله ما أنا بسارقٍ، ولكنهم تهددوني، فخلى سبيله، ولم يقطعه).[323]

أو أن يكون العامل قد تمادى في تنفيذ العقوبة على نحوٍ يُخرجها عن وظيفتها التأديبيّة الإصلاحيّة إلى سلوكٍ انتقاميٍّ لا يسهل على من نُفّذت عليه العقوبة العودة إلى الطريق الصواب.. (ويقوم عمر هنا بتهديد العامل بتنفيذ ذات العقوبة عليه!!!).
(عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : كُنْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ فَإِذَا نَحْنُ بِرَاكِبٍ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرَى هَذَا يَطْلُبُنَا قَالَ فَجَاءَ الرَّجُلُ فَبَكَى قَالَ:

---
319 مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٤٩٣
320 كنز العمال ١٣٤١٧
321 سنن البيهقي ١٧٥٠٦
322 مصنف عبد الرزاق ١٨٧٩٩
323 مصنف عبد الرزاق ١٨٧٩٣

شأنك إن كنت غارمًا أعنَّاك، وإن كنت خائفًا أمَّنَّاك إلاَّ أن تكون قتلت نفسًا فتقتل بها، وإن كنت كرهت جوار قومٍ حوَّلناك عنهم؟ قال إنِّي شربت الخمر وأنا أحد بني تيمٍ، وإنَّ أبا موسى جلدني، وحلقني، وسوَّد وجهي، وطاف بي في النَّاس وقال: لا تجالسوه ولا تؤاكلوه، فحدَّثت نفسي بإحدى ثلاثٍ إمَّا أن أتَّخذ سيفًا فأضرب به أبا موسى، وإمَّا أن آتيك فتحوِّلني إلى الشَّام فإنَّهم لا يعرفونني وإمَّا أن ألحق بالعدوِّ وآكل معهم وأشرب. قال فبكى عمر رضي الله عنه، وقال: ما يسرُّني أنَّك فعلت، وإنَّ لعمر كذا وكذا وإنِّي كنت لأشرب النَّاس لها في الجاهليَّة، وإنَّها ليست كالزِّنا، وكتب إلى أبي موسى: سلامٌ عليك أمَّا بعد فإنَّ فلان بن فلان التَّيميَّ أخبرني بكذا وكذا وايم الله لئن عدت لأسوِّدنَّ وجهك ولأطوفنَّ بك في النَّاس، فإن أردت أن تعلم حقَّ ما أقول لك فعد فأمر النَّاس أن يجالسوه ويؤاكلوه، وإن تاب فاقبلوا شهادته وحمله وأعطاه مائتي درهمٍ).[324]

****

كما أنَّ عدله وحرصه على تطبيق العدل لم ينفصل عن فهمه لطبيعة النفس البشريَّة وتعرُّجاتها والتواءاتها..

لذلك فقد كان حريصاً على عدم جعل تطبيق العقوبة أو تنفيذ الحدِّ دافعاً للمعاقب للالتحاق بالعدوِّ..

(عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب ألا يجلد أمير جيشٍ ولا سريَّة أحداً الحدَّ حتى يطلع على الدرب لئلا تحمله حميَّة الشيطان أن يلحق بالكفَّار).[325]

****

شعور عمر بالمسؤوليَّة تجاه كلِّ ما يحدث، والذي دفعه إلى جعل العدل مؤسَّسةً قضائيَّةً وليس رأياً شخصيّاً.. هذا الشعور كان يقوده أحياناً لمواقف عجيبةٍ في مدى شعورها بالمسؤوليَّة تجاه كلِّ ما وصله ولم يصله..

بل حتى ما لم يحدث في عهده..

مرَّ علينا سابقاً موقفه عندما قتلت شابةٌ شيخاً كبيراً زوجوه لها دون رضاها.. فاتَّهم أهلها بالظلم وأسقط عنها الحدَّ..

هذا كان قد وصله..

---

٣٢٤ سنن البيهقي ٢١٤٧٦

٣٢٥ مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٨٦١

لكنَّه أحياناً، كان يستشعر الظلم من قصصٍ معروفةٍ حصلت قبل عهده..
فيقول: «لو أدركت كذا.. لفعلت كذا».. في إشارةٍ لموقفٍ عادلٍ يجب أن يكون فيما لو تكرَّرت القصَّة..
عن أيِّ شيءٍ نتحدَّث هنا..
عن واحدةٍ من أشهر قصص العشق العذريِّ في الجاهليَّة..
قصة عفراء وعروة..
(عفراء وعروة كانا من قبيلة عذرة، وكان عروة ابن عمٍّ لعفراء، لكنه كان فقيراً، وكانت عفراء جميلةً، ومعروفةً بجمالها بين القبائل، وكان أهلها فقراء أيضا مثل عروة أو أفضل منه قليلاً.. وكانت أمُّها ترى أنَّ جمال عفراء يمكن أن يجلب لها زوجاً ثريَّاً.. وهكذا كان..
فقد خطبها ثريٌّ من بلقاء الشام، وتزوَّجها أثناء سفر عروة بحثاً عن رزقٍ يمكن أن يؤمِّن له مهر عفراء..
أوهم الجميع عروة أنَّ عفراء قد توفِّيت ليتخلَّصوا من لومه لهم على تزويجها لسواه.. ودلُّوه على قبرٍ وهميٍّ لها فظلَّ يرثيها بقصائد سارت باسمها بين القبائل.. ثم علم عروة بما كان، فزاد تأثُّره، وانتهى بأن فقد عقله..
لم تكن القصَّة قديمةً جداً، فقد عاش عروة حتى عهد عثمان، لكنَّه كان قد كبر وفقد عقله).
أمَّا عمر، فقد قال قولاً بسيطاً عميقاً يستحقُّ أن نذرف له الدموع..
قال:
«لو أدركت عفراء وعروة، لجمعت بينهما!»[٣٢٦].
وصلت إلى هنا يا أمير المؤمنين..
إلى قلوب العشاق الذين فرَّقتهم الحاجة والطمع.. وصلت إلى قلب شابٍّ وشابَّةٍ، يحب كلٌّ منهما الآخر، ويريدان الارتباط، لكن يصطدمان بصخرةٍ من صخور الحياة..
نعم.. إلى هنا.. هكذا فهم عمر منصبه.. ألا يسمح لأيِّ ظلمٍ أن يقع.. حتى لو كان ظلماً من هذا النوع..
حتى لو لم يصل إلى القضاء..
لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما..
آه يا أمير المؤمنين..
لو تعلم..

---
٣٢٦ أخبار النساء ص ١٩

كم من عفراء وعروة، زلاًّ على الطريق، وسارا في المعصية، لأنَّهما لم يجدا من يجمع بينهما بالحلال.. لأنَّهما لم يكونا في عهد «سلطةٍ» تعي مسؤوليَّتها تجاه كلِّ شيءٍ..

حتى جَمع القلوب..

آه يا أمير المؤمنين..

لو تعلم..

ليس عروة فقط فقد عقله..

نكاد نفقده جميعاً، منذ أن ابتعدنا (قسراً وطوعاً) عن نموذجك..

عن كلِّ ما مثلته وجسَّدته في حياتك.

****

قصَّةٌ لا بدَّ أن تُذكر كلَّما ذُكِر عدل عمر.. سارت كما تسير الأمثال..

(لما جيء بالهرمزان ملك خوزستان أسيراً إلى عمر لم يزل الموكَّل به يقتفي أثر عمر حتى عثر عليه بالمسجد نائماً متوسِّداً درَّته، فلمَّا رآه الهرمزان قال: هذا والله الملك الهنيّ عدلت فأمنت فنمت، والله إنِّي خدمت أربعةً من ملوكنا الأكاسرة أصحاب التيجان فما هِبتُ أحداً منهم هيبتي لصاحب هذه الدرَّة).[٣٢٧]

عدلت فأمنت فنمت..

حسناً..

المثل صحيح..

لكن ما شاهده الهرمزان هو جزءٌ بسيطٌ من الحقيقة.. لقد شاهده نائماً في المسجد، وربَّما كان مستيقظاً قبلها بدقائق.. ربَّما كانت قيلولةً لم تستمرَّ سوى دقائق.. بل لعلَّه كان قد نام متعمِّداً في المسجد لكي يسهل إيقاظه من قِبَل كل من يحتاجه..

كان عمر قليل النوم، وقد سبق ومرَّ بنا قوله: «إن أنا نمتُ في النهار ضيَّعتُ الرعيَّة، وإن أنا نمتُ في الليل ضيَّعتُ نفسي، فكيف أنام؟»..

... «ولم ينم «أمناً» بالتأكيد، بل كان مرهقاً لا أكثر..

لكن كيف يمكن للهرمزان أن يفهم كلَّ هذا..

لم يرَ سوى سطح الأمر.. ولم يكن مخطئاً فيما رآه..

كيف كان له أن يفهم أنَّ المتتالية الحقيقيَّة ليست: «عدلت، فأمنت فنمت» كما توهَّم، فالعدل لم يكن هو البداية..

---

٣٢٧ ربيع الأبرار ص ٣٠٩ . نهاية الأرب في فنون الأدب ج٢ ص ١٧٠ . التذكرة الحمدونية ج ١ ص ٣٣٦ وأقوى سند لما يشبه هذا القول جاء في طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٢٩٣ (عن أنس بن مالك أن الهرمزان رأى عمر بن الخطاب مضطجعا في مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: هذا والله الملك الهنيء) ونقل الواقدي في فتوح الشام ج ١ ص ٢٤٢ القول نفسه (أمنت فعدلت فنمت) ولكن عن متنصر بعثه ملك الروم ليقتل عمر.

بل كانت «**آمنت، فعدلت، فسهرت**».. ولا يمنع ذلك أن تغفو قليلاً..
العدل نابعٌ من الإيمان بالله، الإيمان بكلِّ ما جاء به كتاب الله وسنَّة رسوله.. العدل هو تطبيقهما..

آمنت، فعدلت..

فالعدل من مستلزمات إيمانك..

فسهرت..

لأنَّ الأمر شاقٌّ.. يتطلَّب كلَّ دقيقةٍ من وقتك.. يتطلَّب أن تصفِّي نيَّتك وعزمك وتشعر بثقل الأمر في كلِّ ما أنت مسؤولٌ عنه..
ولأنَّك سهرت، فستكون مرهقاً جداً، وربَّما تأخذ «قيلولةً» لدقائق..
هذا هو..
آمنتَ.. فعدلتَ.. فسهرت.

****

بالمناسبة..

كان الهرمزان يقصد بالأمن أنَّ عمر كان نائما دون حراسة.
هذا بالذات ما جعل مواطناً آخر من مواطني الهرمزان، يقتل عمر لاحقاً..
وتلك قصَّةٌ أخرى.

@iAbubader

عمر المدير: أن تُعدّ للأمور أقرانها..

النجاح في صنع الحضارة، لا يمكن أن يتحقّق دون أن يكون هناك تفوُّقٌ وتميُّزٌ في مجالات الإدارة!..

لا يمكن للقيم الحضاريّة، للمنطلقات، للأهداف، أن تنجز «حضارةً» بالصدق فقط، أو بالرغبة الصادقة في العمل أو حتى بالتضحية مهما كان الثمن غالياً..

لا يمكن للقيم الحضاريّة أو للسلوكيّات أن تنجح في التحوُّل إلى «حضارةٍ» شامخةٍ، ما لم يكن هناك إدارةٌ بارعةٌ، بل إدارةٌ عبقريّةٌ فذّةٌ لهذه القيم، تساهم في عمليّة التحوُّل الاجتماعي، وصولاً إلى الحضارة..

وكان عمر مديراً عبقريّاً لعمليّة التحوُّل الحضاريِّ، التي أسهم وشارك أصلاً في انطلاقها..

كان عمر، مثل داود، ذي أيدٍ كثيرة..

يد في الفتح، ويد في العدل، ويد في الفقه، ويد في بناء مجتمعٍ جديدٍ، ويد في تقسيم الغنائم... إلخ.

لولا الإدارة، لكان من الممكن لهذه الأيادي أن يصطدم بعضها ببعض.. أن تقيَّد بالفوضى.. أن تكفَّ عن النتاج..

لولا الإدارة، إدارة عمرلما كان من الممكن استثمار كلِّ ما قدَّمه عمر، وكلِّ ما غرسه الإسلام فيه..

لقد كانت فترة خلافة عمر فترةً ازدحمت فيها المنجزات والأحداث على نحوٍ غير مسبوقٍ وغير ملحوقٍ..

كان يمكن لهذه الفترة أن تتحوّل إلى «عنق زجاجةٍ» تاريخيّةٍ، لولا قدرات عمر الفذّة في الإدارة..

الذي أخرج المرحلة كلّها من عنق زجاجة محتمل، إلى أفقٍ مفتوحٍ.. حققّت فيه الحضارة نفسها..

ما معنى عنق الزجاجة هنا؟

وكيف خرج عمر منها؟!

عنق الزجاجة هي المرحلة التي تشهد «كثافةً» غير عاديةٍ في المرور، وقد تسبّب هذه الكثافة في توقّف المرور كلّه.. وهذا يحدث في الاختناقات المرورية..

ما فعله عمر هو أنّه «أدار» المرور..

أدار المرحلة، فجعل منها باباً لفتحٍ حضاريٍّ كبيرٍ..

هل كان لديه شهادةُ إم بي أي MBA؟ (ماجستير في إدارة الأعمال)..

لا..

لكنه فهم الشهادتين.. حقّ فهمها..

وكان ذلك أكبر من أيّة شهادةٍ في الإدارة، من أكبر جامعات العالم..

لو فهمنا الشهادتين حقاً.. لكان ذلك أهمّ وأكثر فاعليّةٍ من أيّة شهادةٍ جامعيّةٍ..

لو فهمنا الشهادتين حقاً، لكانت جامعاتنا نحن، هي التي تمنح أرقى الشهادات في العالم..

أعني شهادتّي أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله!

****

عبقريّة عمر بن الخطاب الإداريّة، تميّزت بالمرونة في الاقتباس من النظم والأساليب التي تتبعها المدنيّات الأخرى، ولكن بتطويعها وتسخيرها تماماً لصالح القيم الإسلاميّة، وصبّها داخل المنظومة الحضاريّة الإسلاميّة..

النظم هنا تكفُّ تماماً عن الارتباط بأصلها الذي وُلِدت فيه. يأخذها عمر منزوعة القيم. ثم يستخدمها لصالح القيم الجديدة. فإذا بها إسلاميَّة الطراز والمضمون..

ما فعله عمر في تلك المرحلة. يجب أن يعلمنا كيف يكون التفاعل مع الحضارات الأخرى. لقد أخذ الأساليب والنظم الإداريَّة المستخدمة لا من موقع **المهزوم المنبهر حضاريّاً. لأنَّ المنبهر لن يتمكن من فصل الأسلوب عن القيم المحتواة فيه. لن يتمكن من نزع القيم**. لكنَّه تفاعلٌ من موقع المنتصر المعتزِّ بقيمه. فتصبح مسخَّرةً له ولقيمه. وتكون مثل "السماد" الذي يُضاف إلى تربةٍ ليزيدها خصوبةً..

أمَّا عندما تتفاعل وأنت مهزوم. فإنَّ ما تستورده يكون هو التربة ذاتها. هو البذرة. وكلُّ محاولات التوفيق لن تُنتج إلا ثمرةً هجينةً..

الفرق مثل أن تستورد سيارةً لتقودها..

وبين أن تستوردها، لتقودك..

ألا نلاحظ اليوم مثلاً. من حوَّل السيارة من وسيلةٍ لخدمته..

إلى أن صار هو وسيلةً لخدمتها!..

****

عبقريَّة عمر في الإدارة. انتبهت لذلك. فلم تخلط الأمور..

لا معنى في رفض الوسائل لمجرَّد أنَّها كانت نتاجاً لأمَّةٍ أخرى..

ولكن. يجب ألا نقبلها إلاَّ من خلال كونها وسائل فقط. بعد عزلها عن قيمها. وتسخيرها لتكون في خدمة القيم الإسلاميَّة..

****

تركت لنا الآثار عن عمر بن الخطاب موقفاً اكتشف من خلاله أنَّه سيواجه عنق زجاجة. وأنَّ عليه أن يتَّخذ إجراءاتٍ إداريَّةً حاسمةً تُخرج الأمَّة من عنق الزجاجة..

(قال سمعت أبا هريرة يقول: قدمت على عمر بن الخطاب من عند أبي موسى الأشعري بثمانمائة ألف درهم.
فقال (عمر): بماذا قدمت؟؟

قلت: قدمت بثمانمائة ألف درهم.

فقال: إنَّما قدمت بثمانين ألف درهم..!

قلت: بل قدمت بثمانمائة ألف درهم.

قال: ألم أقل لك إنَّك أحمق -!- إنَّما قدمت بثمانين ألف درهم..! فكم ثمانمائة ألف؟ فعددتُ مائة ألف ومائة ألف حتى عددت ثمانمائة ألف.

قال أطيب ويلك؟ (=أحلال؟)

قلت: نعم.

فبات عمر ليلته أرقاً حتى إذا نودي بصلاة الصبح قالت له امرأته: يا أمير المؤمنين ما نمت الليلة، قال: كيف ينام عمر بن الخطاب وقد جاء الناس ما لم يكن يأتيهم مثله منذ كان الإسلام؟.. ممَّا يؤمن عمر لو هلك وذلك المال عنده فلم يضعه في حقِّه؟).[328]

واجه عمر هنا مبلغاً لم يكن العرب يتخيَّلون وجوده أصلاً..

ثمانمائة ألف!..

لم يصدِّق عمر المبلغ.. لعلَّك تقصد ثمانين ألفاً؟!

كم الثمانمائة ألف؟ عُدَّها لي.لم يكن يصدِّق.

لم يكن يريد أن يصدِّق، فقد كانت هذه الثروة الهائلة مسؤوليَّةً جديدةً تلقى على عاتقيه..

كانت تلك الأموال امتحاناً هائلاً تمرُّ به الأمَّة في عهد عمر، وكان عمر يعي تماماً أنَّ هلاك الأمم السابقة وضعفها قد جاء من سقوطها في هذا الامتحان..

(عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: لما أُتي عمر رضي الله عنه بكنوز كسرى قال له عبد الله بن أرقم الزهري: ألا تجعلها في بيت المال؟ فقال عمر: لا نجعلها في بيت المال كي نقسمها، وبكي عمر، فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إنَّ هذا ليوم شكرٍ ويوم سرورٍ ويوم فرحٍ، فقال عمر: إن هذا لم يعطِه الله قوماً قط إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء).[329]

(ثُمَّ قَالَ: أَيْنَ سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ فَأُتِىَ بِهِ أَشْعَرَ الذِّرَاعَيْنِ دَقِيقَهُمَا فَأَعْطَاهُ سِوَارَىْ كِسْرَى فَقَالَ: الْبَسْهُمَا فَفَعَلَ فَقَالَ: قُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ قَالَ: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى سَلَبَهُمَا كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَأَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ أَعْرَابِيًّا مِنْ بَنِى مُدْلِجٍ).[330]

نعود إلى تلك الليلة التي لم ينم فيها عمر.. ما الذي حدث بعدها؟

---

٣٢٨ سنن البيهقي ١٣٤٥١

٣٢٩ سنن البيهقي ١٣٤١٦

٣٣٠ سنن البيهقي ١٣٤١٤

(... فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناس، إنَّه قد جاءنا مالٌ كثيرٌ، فإن شئتم أن نكيلكم كيلاً، وإن شئتم أن نعدَّكم عدّاً).[٣٣١]

المكيال!..

عمر يريد أن يستعمل المكيال.

ففي المكيال مقياسٌ دقيقٌ واضحٌ.. في المكيال قدرةٌ فذَّة على العدل والمساواة!

(... فقام إليه رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّي قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدوِّنون ديواناً لهم. فاشتهى عمر ذلك..).[٣٣٢]

(عن جبير بن الحويرث بن نقيد أن عمر بن الخطاب استشار المسلمين في تدوين الديوان فقال له علي بن أبي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئا، وقال عثمان بن عفان: أرى مالا كثيرا يسع الناس وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر. فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جنودا فدون ديوانا وجند جنودا، فأخذ بقوله).[٣٣٣]

إذاً هي الدواوين.. اقتباساً من ملوك الشام..

إنَّه أسلوبٌ تابعٌ لحضارةٍ أخرى.. لكنَّ عمر لم يتحرَّج منه لحظةً واحدةً.. لم يجد في نفسه حرجاً من أن يأخذ به..

ليس كما حدث مع شيءٍ مستوردٍ آخر.. شيءٍ تابعٍ لحضارةٍ أخرى..

(عن الأحنف بن قيس: أخرجنا عمر بن الخطاب في سريَّةٍ إلى العراق ففتح الله علينا العراق وبلد فارس فأصبنا فيها من بياض فارس وخراسان، فجعلناه معنا واكتسينا منها، فلما قدمنا على عمر أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلِّمنا، فاشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأتينا ابنه عبد الله بن عمر وهو جالسٌ في المسجد، فشكونا إليه ما نزل بنا من الجفاء من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فقال عبد الله: إنَّ أمير المؤمنين رأى عليكم لباساً لم ير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يلبسه ولا الخليفة من بعده أبا بكر الصديق، فأتينا منازلنا فنزعنا ما كان علينا وأتيناه في البزَّة التي كان يعهدنا فيها، فقام يسلِّم علينا على رجلٍ رجلٍ ويعانق منا رجلاً رجلاً حتى كأنه لم يرنا قبل ذلك).[٣٣٤]

---

٣٣١ سنن البيهقي ١٣٤٥١

٣٣٢ الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ٣ ص ٣٠٠

٣٣٣ الطبقات الكبرى لأبن سعد ج ٣ ص ٢٩٥

٣٣٤ جامع الأحاديث ٢٨٠٢٣ كنز العمال ٣٥٩٥٩

أعرض عنهم.. ولم يكلِّمهم..
عندما رأى عليهم ملابس تنتمي لحضارةٍ أخرى.. ملابس تمثِّل هويَّةً حضاريَّةً مغايرةً..
عندما رآهم يستخدمون ما لا يلزم، وما يحتوي على «قيمٍ» مغايرةٍ للإسلام، كتكبُّر الفرس وعنصريَّتهم، وما يعكس إعجابهم بهذا.. رفض الأمر على نحوٍ جذريٍّ.
الأسلوب هنا لم يكن لخدمة القيم الإسلاميَّة، بل كان تعبيراً عن قيمٍ مغايرةٍ.. ما فائدة انتصار المسلمين على الفرس عسكريّاً إذا اختاروا أن يأخذوا هويَّتهم حضاريّاً؟
المعركة ها هنا.. في قلب الحضارة.
لذا كان عمر حازماً.. متشدِّداً.. في هذا الشأن.

****

لكنَّ «الدواوين».. شيءٌ آخر..
الدواوين ستكون وسيلةً منزوعة القيم، تنصهر مع القيم الإسلاميَّة، تذوب فيها لتظهر بقالبٍ جديدٍ..
وهكذا فإنَّ الدواوين، وهي سجلاَّتٌ إحصائيَّةٌ، كانت تُستخدم من قبل الروم لجمع الضرائب من الناس..
وصارت في عهد عمر، لتوزيعها على الناس!.. بالضبط لإعادة تدويرها!
لكن ما كان أولاً لتوزيع الأموال على الناس فقط، تحوَّل ليكون وسيلةً لإعادة بناء المجتمع وتوزيع الثروة فيه على نمطٍ يجعله أقرب للنموذج المدنيِّ «المعاصر» منه لأيِّ نموذجٍ آخر، لكنَّ هذا مجرَّد تشبيهٍ تقريبيٍّ، فهو نموذجٌ إسلاميٌّ قائمٌ على قيمٍ مستمدَّةٍ من القرآن والسنَّة، ويمكن لنا أن نشبه المجتمع المدنيَّ المعاصر فيه من بعض الجوانب.. لا العكس..

****

تحوُّل الديوان على يد عمر إلى وسيلةٍ لإدارة التحوُّل الحضاريَّة كان انعكاساً لعبقريَّته وإبداعه، مهما حاولنا أن نرصد حجم هذا الإبداع تأثيره على تحوُّلات المجتمع . فإنَّنا سنجد أنفسنا عاجزين عن الإحاطة بحقيقة أن يكون هذا العمل المؤسَّسيُّ الشامخ، بكلِّ هذه الإدارة التنظيميَّة الدقيقة هو نتاج لعمل رجلٍ واحدٍ بالمعنى المعاصر، ومهما قارنَّا مع شخصياتٍ قياديَّةٍ فذَّةٍ ساهمت في نهضة مجتمعاتها وبناء حضاراتها، فإنَّ الأمر سيكون لصالح عمر وعلى نحوٍ ساحقٍ.. كلُّ القيادات المعاصرة الفذَّة كانت تراكم منجزاتها على حجر أساسٍ بناه وساهم في إرسائه غيرهم.

@iAbubader

الإدارة العمريَّة كانت مختلفةً.
حجر الأساس كان مِن وضْعِ محمَّدٌ عليه الصلاة والسلام دون أدنى شكٍّ..
لكنَّ ما وضعه عمر عليه، كان أكثر من مجرَّد حجرٍ.
كان بناءً كاملاً..
بناءً عمريّاً، مادَّته الأوليَّة هي ذاتها نظام التشغيل القرآنيِّ الذي يعمل عليه «عقل عمر».

****

لم يكتمل هذا البناء بين ليلةٍ وضحاها، لم يدخل عمر إلى داره ويسهر على إنتاج نظريةٍ إداريَّةٍ يتصدَّى فيها لمستجدَّات الوضع..
كان البناء أقرب إلى الواقع من عزلة المنظِّرين.. كان لهذا البناء ثوابته النظريَّة حتماً (ثوابت القرآن والسنَّة).. لكنذَ البناء لم يكتمل، إلا باكتمال التحديَّات والمستجدَّات الواقعيَّة..
كانت النتيجة بناءً شامخاً..
كنزاً إداريّاً يمكن للدارسين الحصول على شهادات إدارة الأعمال منه..
ويمكن لغيرهم.. ممَّن يريدون أن يجسروا الهوَّة بين النظريَّة والتطبيق، أن يسيروا على خطاه.

****

مفتاح عمر في إدارة الأعمال أو (بالأحرى الأموال) التي تدفَّقت على المسلمين كان مفتاحاً قرآنيَّاً خالصاً، كما كلُّ مفاتيحه.. لقد قرأ القرآن بالقرآن، بعينٍ تشكَّلت بالقرآن، وقرأ الواقع ومستجدَّاته من خلال هذه العين القرآنيَّة، ثم عرض هذا الواقع على القرآن، يسأله الحلول..
أدرك عمر أنَّ الواقع المتغيِّر بسرعةٍ سيجعل من موارد الدولة تتَّسع بحيث لا تشمل فقط «الغنيمة» بالمعنى العسكريِّ البحت (أي كما في أنفال بدرٍ والآية التي تتحدَّث عن توزيع الغنيمة في سورة الأنفال).. بل إنَّ الموارد أيضاً ستشمل على ما ستجنيه الدولة دون «جهدٍ عسكريٍّ»..
هكذا ربط عمر بين آيتي الأنفال (تخميس الغنيمة) وآية سورة الحشر (الفيء من غير قتال.. دون تحديدٍ للتخميس)..
أي أنَّ عمر أدخل مبدأ الخُمس (الذي كان أصلاً للغنيمة) في الفيء.. صرف خُمس الفيء في مصارف الغنيمة (لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن

السبيل) وهي المصارف التي ذُكرت في آية الفيء أيضاً دون أن تحدِّد الخُمس..
وكلُّ ذلك مرتبطٌ بالمقصد الشامل الذي حدَّدته آية سورة الحشر (كي لا يكون دُولةً بين الأغنياء منكم) (الحشر: ٧).. أي لتحقيق العدالة الاجتماعيَّة وردم الهوَّة بين الطبقات..

(قال عمر «وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولاركاب» قال لزهري قال عمر هذه لرسول الله صلى الله عليه و سلم خاصة قرى عرينة فدك وكذا وكذا «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» و « للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم « « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم « « والذين جاءوا من بعدهم « فاستوعبت هذه الآية الناس فلم يبق أحدٌ من المسلمين إلا له فيها حقٌّ قال أيوب أو قال حظ إلا بعض من تملكون من أرقائكم). [٣٣٥]

استوعبت هذه الآية الناس جميعاً!..
هكذا فهم الأمر..
وهكذا كان عمله..
أن يدير هذا الاستيعاب!

****

مصارف الفيء كما قسَّمها عمر، وكما وزَّعها، تعبِّر تماماً عن هذه العبقريَّة العمريَّة في إدارة أعمال الدولة الجديدة..
قسَّم الفيء كما يلي:
خمس الفيء أورده موارد الغنيمة:
(واعْلَموا أنَّمَا غنِمتُم مِنْ شيْءٍ فَأنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ ولِذِي القُربَى واليَتَامَى والمسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ)
أي أنَّ الموارد الضخمة من الفيء صارت تصبُّ لهذه الموارد، وهي في معظمها واضحةٌ في توجُّهها لمساعدة الفقراء وذوي الدخل المحدود بتعبيرنا المعاصر.
ماذا فعل عمر بسهم الرسول عليه الصلاة والسلام؟
لم يورثه، متفقاً في ذلك مع أبي بكر، التزاماً بحديثه عليه الصلاة والسلام: «نحن الأنبياء لا نورث.. ما تركناه صدقة». [٣٣٦]
لكنَّه جعل سهم الرسول كما كان عليه الصلاة والسلام ينفقه غالباً في **«الكراع والسلاح»**، أي في الميزانيَّة العسكريَّة للدولة. [٣٣٧]

---

٣٣٥ أبو داود ٢٩٦٦ وصححه الألباني
٣٣٦ متفق عليه البخاري ٢٩٢٦ مسلم ٤٦٧٦
٣٣٧ صحيح مسلم ٤٦٧٤

هل أبطل سهم «ذوي القربى»؟..

سيبدو ذلك للوهلة الأولى.

لكنَّ الحقيقة أنَّه أعاد ترتيب العطاء كاملاً (مع الفيء وليس فقط الغنيمة) بحيث جعل من ذوي قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المرتبة الأولى من العطاء، بل إنَّه اعتمد على «القرابة» لتكون معياراً أوليّاً في التوزيع.

إنَّه قسَّم العطاء على أساس القرب من الرسول عليه الصلاة والسلام في أهل بيته..

ومن ثمَّ على أساس السبق والمشاركة في الإسلام..

قد تمَّ تدريج الطبقات التي يخرج لها الخليفة عطاءها (بحسب تدقيق روايات الطبري و البلاذري واليعقوبي والمقريزي).

١ـ العباس وعائشة رضوان الله عليهما لكل منهما ١٢ ألف درهم.

٢ـ أمَّهات المؤمنين لكلِّ واحدةٍ منهنَّ ١٠ آلاف درهم.

٣ـ من شهد بدراً من المهاجرين والأنصار (سنويّاً) ٥ آلاف درهم، وقد ألحق بهم أربعةً ليسوا ممَّن شهد بدراً، وهم: الحسن والحسين وأبو ذر وسلمان الفارسي رضوان الله عليهم جميعاً.

٤ـ أربعة آلافٍ لمن بين بدر والحديبية ولمهاجرة الحبشة ولأسامة بن زيد.

٥ ـ ثلاثة آلاف لمن بعد الحديبية، ولمن هاجر قبل الفتح وأضيف إليهم عبد الله بن عمر.

٦ـ ألفان لأهل القادسية وأصحاب اليرموك.

٧ـ ألف درهمٍ لمن بعد القادسية واليرموك.

كما فرض لكلِّ مولودٍ ١٠٠ درهم وإذا ترعرع أصبح ٢٠٠ درهمٍ، ولم يترك حتى اللقيط إذ فرض له مائة درهمٍ ووصَّى به خيراً! [٣٣٨]

كما أنَّه وضع معياراً خاصَّاً سمَّاه الكفاية، ارتبط ذلك بعدد من يعول من الذراري، وبالموضع الذي فيه الشخص من الغلاء والرخص، أي وضع مخصَّصات لغلاء معيشة!..

ما الذي كان يحدث من خلال هذا التوزيع الجديد للثروة؟..

أولا – التوزيع الأكبر الذي كان لعائشة وأمهات المؤمنين كان يؤدِّي فوراً إلى توزيعها إلى فقراء المسلمين، فقد كنَّ - أمهات المؤمنين - أكثر الناس تصدُّقاً، وكان العطاء الممنوح لهنَّ يختفي في ليلةٍ واحدةٍ أحياناً حيث يوزَّع على الفقراء، **أي أنَّ هذا المبلغ الكبير كان عمليّاً يمنح "للجمعيّات الخيريّة" بعبارةٍ معاصرةٍ..**

٣٣٨ معرفة السنن والآثار للبيهقي ٣٩٤٢

ثانيا - إنَّ المعيار الأساسيَّ في التوزيع كان الإنجازَ الشخصيَّ في الانضمام للإسلام والدفاع عنه ونشره. وليس أيَّ وضعٍ عشائريٍّ أو قبليٍّ كما كان سائداً من قبل.. أو كما عبَّر عمر نفسه عن «الإنجاز الشخصيّ» بقوله: «مناخ راحلته».

(فمن أسرعت به الهجرة أسرع به العطاء ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ به العطاء فلا يلومنَّ أحدكم إلا مناخ راحلته).[٣٣٩]

هذا الوضع الاقتصاديّ الجديد. كان يستأصل جذور القبيلة التي نسف بنيانها الإسلام فعلاً. لكن بقيت جذورها قائمةً..

ثالثا - إنَّ فكرة **الإنجاز الفرديّ في بناء المجتمع** (أي دور الأنا في النحن) كانت ستبقى مسيطرةً على ذهن الجميع. وستبقى دافعاً قويّاً لمن فاته السبق للمشاركة في فتوحاتٍ أخرى من أنواع مختلفةٍ.. فالمبدأ هو أن يكون وضعك قد تحدَّد بمنجزاتك الشخصيَّة في بناء المجتمع والدولة. وبعد فترةٍ كان لا بدَّ أن تنشأ تقسيماتٌ جديدةٌ لأنَّ أصحاب التقسيمات القديمة كانوا سيتوفَّون إلى رحمته تعالى.. لكنَّ المبدأ سيبقى واحداً: **إنجازك (لصالح المجتمع) هو ما يحدِّد وضعك.. لا نسبك ولا قرابتك لأحدٍ ولا أيِّ شيءٍ غير ما تنجزه بنفسك للمجتمع.**

مناخ الراحلة كان سيكون دوماً هناك..

في كلِّ مرحلةٍ يقطعها البناء الجديد.

****

وكان عدم تقسيم الأراضي المفتوحة على الفاتحين - كما مرَّ سابقاً - خطوةً إداريَّةً مهمَّةً.. على المدى البعيد والقريب..

على المدى القريب. أنَّه حمى المسلمين من أن يتحوَّلوا إلى «أصحاب إقطاعيَّات».. وحمى الفلاحين من سكَّان الأراضي من أن يتحوَّلوا إلى عبيدٍ في أرضهم. بل أخذها من أصحاب الإقطاعيَّات ووزَّعها على الفلاحين. فكان ذلك واحداً من أهمِّ منجزات العدالة الاجتماعيَّة عبر التاريخ. والتي لم يسبق أبداً أن حصلت مع أيَّة دولةٍ منتصرةٍ أخرى..

---

٣٣٩ مصنف ابن أبي شيبة ٣٢٨٩٦

وعلى المدى البعيد: لقد حمى أجيال المسلمين الجديدة من أن تسترخي على هذا الترف القاتل، عندما تجد كلَّ تلك الأراضي قد صارت «إرثاً شخصيّاً» لها.

****

وكان من منجزات عمر الإداريّة تكوينه لمنصب الحسبة الذي يقوم في جوهره على حماية محارم الله تعالى أن تنتهك، وصيانة أعراض الناس، والمحافظة على المرافق العامَّة والأمن العامِّ للمجتمع، إضافةً إلى الإشراف العامِّ على الأسواق وأصحاب الحرف.. وقدكان عمر هو أوّل من عيَّن مراقباً عامّاً في عهده (استعمل عبد الله بن عتبة على السوق)[340] فيما عدَّه العلماء أصل ولاية الحسبة[341]، وتأسيسه لهذا المنصب يمثِّل إدراكه ضرورة تحويل مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مؤسَّسةٍ قانونيَّةٍ واضحة المعالم والضوابط والمعايير..

وكان من عبقريَّاته الإداريَّة أنَّه يقاسم مال كلِّ عاملٍ بعد عزله، فيقسم كلَّ ما زاد من مالٍ بعد توليه المنصب ليكون بين العامل وبين بيت مال المسلمين.[342]

مراجعة أحداث عزل عمر لعمَّاله تدلُّنا إلى أنَّه لا يطيل إبقاء عاملٍ في منصبه أكثر من عامين، كي لا تتكوَّن له حاشيةٌ من الأصحاب والأخدان تزيِّن له عمل السوء، بينما البقاء في مظنَّة العزل القريب تشكِّل وازعاً إضافيَّاً للأمانة في العمل.. كما تدلُّنا على أنَّ عمر في قرارات العزل الإداريِّ لم يكن يكترث لمكانة المعزول كصحابيٍّ، فالصحابيُّ قد يكون تقيَّاً مؤمناً نقيَّاً لكن هذا لا يكفي للكفاءة الإداريَّة التي لا تتعارض مع ما سبق ولكن تتطلَّب أيضاً المزيد: **(وفيها عزل عمر بن الخطاب عمار بن ياسر عن الكوفة واستعمل أبا موسى، وسبب ذلك أنَّ أهل الكوفة شكوه وقالوا له: إنَّه لا يحتمل ما هو فيه وإنَّه ليس بأمين، ونزا به أهل الكوفة، فدعاه عمر، فخرج معه وفدٌ يريد أنَّهم معه، فكانوا أشدَّ عليه ممَّن تخلَّف عنه، وقالوا: إنَّه غير كافٍ وعالم بالسياسة، ولا يدري على ما استعملته. وكان منهم سعد بن مسعود الثقفي، عم المختار، وجرير بن عبد الله، فسعيا به، فعزله عمر. وقال عمر لعمار: أساءك العزل؟ قال: ما سرَّني حين استُعملت ولقد ساءني حين عُزلت. فقال له: قد علمت ما أنت بصاحب عملٍ ولكنِّي تأولت: (ونريد أن نمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) (القصص: ٥).**[343]

وكان عمر الإداريّ لا يتحرج من عن استخدام من هو ليس بصاحب دينٍ قويٍّ ما دام قد

---

٣٤٠ كنز العمال ١٤٤٦٧
٣٤١ جامع الأحاديث ٢٨٦١٤
٣٤٢ أخبار مكة للازرقي ج٣ ص ١٤٥الإصابة في معرفة الصحابة ج٣ ص ٢٧٢
٣٤٣ الكامل في التاريخ ج١ ص ٤٦٣ باب فتح خراسان

التزم بما هو ظاهرٌ من الشعائر اللازمة - التي كانت شرطاً أساسيَّاً في الاستعمال بالنسبة له - وكان الصحابة يراجعونه في ذلك: (**عن الحسن أنَّ حذيفة قال لعمر: إنَّك تستعين بالرجل الفاجر فقال عمر: إني لأستعمله لأستعين بقوَّته ثمَّ أكون على قفائه**). [٣٤٤]

أستعمله لأستعمل قوَّته، ولكنِّي أراقبه بدقَّةٍ فلا أسمح له بأن يحيد عن النظام الإداريِّ الصارم قيد أنملةٍ..

القالب غالب؟

نعم.. القالب الإداريُّ خاصَّةً، يكون غالباً..

ولهذا كان عمر يدعو: «**اللهمَّ أشكو إليك جلد الخائن وعجز الثقة**».[٣٤٥]

في نظامه الإداريِّ الدقيق الصارم، وجد الجواب للمعضلة: ليكن الخائن جلداً، نحن نراقبه..

ليكن الثقة عاجزاً.. نعزله إن لم يتغيَّر.

****

أوجزت السيدة عائشة في عبارةٍ عبقريَّةٍ واحدةٍ إدارة عمر..

(ومن رأى عمر بن الخطاب عرف أنَّه خُلِق غناءً للإسلام، كان والله أحوذياً[٣٤٦] نسج وحده، قد أعدَّ للأمور أقرانها).[٣٤٧]

أعدَّ للأمور أقرانها: أي أعد لكلِ أمرٍ ما يلزمه.. ما يكفيه.. على نحوٍ مسبقٍ.. قبل أن يأتي.. إنَّه التعريف الأشمل للإدارة.. إسلاميَّاً.. المستقاة من الشهادة الأهمِّ من شهادة هارفرد!

****

وكان لعمر معايير إداريَّةٌ خاصَّةٌ في تعييناته للولاة والعمَّال..

(أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عمَّاله شرط عليهم: ألا تركبوا برذوناً[٣٤٨]**، ولا**

---

٣٤٤ كنز العمال ١٤٣٣٨

٣٤٥ مناقب عمر بان الخطاب .ابن الجوزي ص ١١٧ دار ابن خلدون الاسكندرية

٣٤٦ الأحْوَذِيُّ: المشمِّر في الأمور القاهِرُ لها لا يندّ عنه منها شيءٌ.

٣٤٧ مصنف ابن أبي شيبة ٣٧٠٥٥

٣٤٨ يطلق على غير العربي من الخيل والبغال وهو عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوي الأرجل عظيم الحوافر وكان يعتبر وسيلة رفاهية وخيلاء

تأكلوا نقياً، ولا تلبسوا رقيقاً، ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس، فإن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلَّت بكم العقوبة، قال: ثمَّ شيعهم، فإذا أراد أن يرجع قال: إنِّي لم أسلِّطكم على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم، ولا على أموالهم، ولكنِّي بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة، وتقسموا فيئهم، وتحكموا بينهم بالعدل، إذا أشكل عليكم شيٌ فارفعوه إليَّ، ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها، ولا تجمروها (= تطيلوا بقاءها في الثغور) فتفتنوها، ولا تعتلوا عليها فتحرموها، جرِّدوا القرآن، وأقلُّوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انطلقوا وأنا شريككم).[٣٤٩]

حدَّد بدقَّةٍ كيف عليهم أن يبدون أمام الناس..

لم يترك الأمور معمَّاةً أمامهم، بل حدَّد بدقَّةٍ.. لا تركبوا الفاره المترف، ولا تلبسوا الفاره والمترف، ولا تغلقوا الأبواب.

وهدَّدهم بالعقوبة لو أخلُّوا بهذا المظهر حتى لو لم يرتكبوا خرقاً في مهامِّهم الأخرى.

وحدَّد لهم مهامَّهم بوضوحٍ.

إقامة الصلاة.. الصلاة ليست اكسسواراً زائداً تكفِّر ما بينها من الذنوب.. بل هي أساسٌ يقوم عليه المجتمع، ووظيفتهم كـ "**عمال**" لا يمكن أن تنفصل عن إقامة الصلاة.. لأنَّ "العمل" و "الصلاة" صنوانٌ لا يمكن فصلهما..

من هذا الباب: سيبدو الحكم بالعدل، وقسمة الفيء، والتفاصيل التي حدَّدها عمر، منطقيَّةً جدَّاً.. وفي سياقها..

إنَّها معايير "إسلاميَّة الإدارة".

****

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر بن الخطاب يقول لشيءٍ قط إنِّي لأظنُّ كذا وكذا إلا كان كما يظنُّ[٣٥٠]

لم يكن لدى عمر كرةً بلوريَّةً سحريَّةً.

ولم يكن منجِّماً.

ولم يكن يسترق السمع.

لكنَّها الإدارة الدقيقة التي تُعِدُّ لكلِّ الأمور أقرانها.. تجعل كلَّ شيءٍ يبدو متوقَّعاً حتى لو كان طارئاً.. تجعل ما يظنُّه عمر بعد نظرٍ دقيقٍ.

كان تأسيس عمر للتاريخ الهجريِّ حدثاً تمتزج فيه العبقريَّة الإداريَّة بكلِّ المعاني العميقة للنهوض والحضارة.

---

٣٤٩ مصنف عبد الرزاق ٢٠٦٦٢

٣٥٠ المستدرك على الصحيحين ٤٥٠٣

للوهلة الأولى سيبدو الأمر، كما لو كان تنظيميًّاً بحتاً..

لكنَّ قليلاً من التأمُّل سيجعلنا ندرك أيَّ عمقٍ حضاريٍّ يمكن أن يحتوى ما قد يبدو مجرد قرار إداري..

(عن الشعبي قال كتب أبو موسى إلى عمر أنه يأتينا كتب ما نعرف تأريخها فأرخ فاستشار أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم فقال بعضهم أرخ لمبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم وقال بعضهم أرخ لموت رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال عمر أرخ لمهاجر رسول الله صلى الله عليه و سلم فان مهاجر رسول الله صلى الله عليه و سلم فرق بين الحق والباطل فأرخ).[٣٥١]
القرار في أساسه كان لتنظيم شؤون المراسلات والمكاتبات الرسميَّة.

لكنَّ عمر حوَّله، جعل منه علامةً فارقةً لولادة عصرٍ جديدٍ.

حضارةٍ جديدةٍ.

حضارةٍ جديدةٍ فارقةٍ بين الحقّ والباطل.

لم يختر ولادة الرسول الكريم، فتاريخنا لم يبدأ بولادته عليه الصلاة والسلام، ولو أنَّه اختار تاريخ ميلاده - أو وفاته - عليه الصلاة والسلام لكان ذلك خطوةً مشابهة للغلوّ الذي وقع فيه النصارى..

لم يختر حتى تأريخ البعثة..

فبالنسبة لعمر، لحظة الشروع الحقيقيَّة، التي مهَّد لها ما سبق، كانت لحظة نزول العقيدة إلى مجال التطبيق، انتقالها من القلوب والرؤوس إلى ميدان العمل.. المحكّ الأصليّ.. وهوما لم يحدث إلا في الهجرة.. ما لم يحدث إلا عند نشوء الدولة التي احتضنت الفكرة ومنحتها التمكين "لتكون".

اختار الهجرة إذن..

صار التاريخ الهجريُّ من يومها رمزاً لكلِّ من هاجر إلى الحقّ، مفارقاً الباطل.. ماشياً على الدرب الموحش الملغم المليء بالفخاخ بينهما..

كم يبدو الأمر للوهلة الأولى مجرَّد تنظيمٍ إداريٍّ كي يتمَّ فيه ترتيب استلام الكتب وتوثيقها..

---

٣٥١ مصنف ابن أبي شيبة ٣٣٩٥٢

لكن بين يدي عبقريٍّ مثل عمر، للأمر أبعادٌ أخرى.

****

واحدةُ من أهمِّ منجزات عمر بن الخطاب الإداريّة كانت في مجالٍ تعبُّديٍّ جداً.. مجالٍ نعتقد أنَّ الإدارة لا يمكن أن تتدخَّل فيه..

ليس عندما تكون الإدارة ممّا يصنع الحضارة..

ليس عندما تستند إلى الشهادة الأهمِّ من شهادة جامعة هارفرد..

شهادة لا إله إلا اللّه.

****

أكثر ما يلمُّ المسلمين بعضهم إلى بعض، ويشدُّهم بعضهم إلى بعض، ويجعلهم يشعرون أنهم "واحدٌ".. وأن لا فوارق بينهم..

هو الصلاة..

صلاة الجماعة تحديداً..

وأكثر ما تكون هذه الصلاة "جامعةً" للناس، محقِّقةً لغرض التجمُّع وتوحيد الناس، في رمضان..

في صلاة التراويح تحديداً..

الصلاة، التي أدارها "عمر".

****

... كانت صلاة التراويح قد صُلِّيت جماعةً في عهده عليه الصلاة والسلام..

(أَنَّ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - خَرَجَ لَيْلَةً مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ، وَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلاَتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَصَلَّوْا مَعَهُ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَصَلَّى، فَصَلَّوْا بِصَلاَتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ، حَتَّى خَرَجَ

لِصَلاَةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ « أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا». فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَالأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ).[٣٥٢]

(عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِىِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضى الله عنه - لَيْلَةً فِى رَمَضَانَ ، إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّى الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّى الرَّجُلُ فَيُصَلِّى بِصَلاَتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ إِنِّى أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلاَءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ. ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَىِّ بْنِ كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ قَارِئِهِمْ، قَالَ عُمَرُ نِعْمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ، وَالَّتِى يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنَ الَّتِى يَقُومُونَ. يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ).[٣٥٣]

****

صحيحٌ تماماً!

نعمّت البدعة!

جمعنا من يومها عمر..

كلُّ تلك الدموع، كلُّ تلك الشهقات، كلُّ تلك الدعوات..

كلُّ أولئك الذين دخلوا المسجد في رمضان من أجل صلاة التراويح فحسب، كعادةٍ، كتقليدٍ اجتماعيٍّ..

ثم وجدوا أنفسهم بالتدريج في الصلاة.. وجدوا قلوبهم تتعلّق بالمساجد، تتعلّق بثريات المساجد..

كلُّ أولئك يدينون بالتزامهم لبدعة عمر، لعبقريّته الإداريّة.. لعقله الذي «يعمل» بنظام تشغيلٍ قرآنيٍّ..

وليس هذا فقط..

فقد كان إداريّاً لدرجة أنّه جعل ثلاث قرّاء بحسب سرعة قراءة كلٍّ منهم، بحيث يمكن لك أن تختار ما يناسبك منهم..

٣٥٢ صحيح البخاري ١٩٠٨
٣٥٣ صحيح البخاري ٢٠١٠

(...عَنْ أَبِي عُثْمانَ النَّهدِيِّ قالَ: دعَا عُمرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ بِثلاثةِ قُرَّاءٍ فَاسْتَقرأَهُم، فَأمرَ أَسْرَعَهُم قِرَاءةً أنْ يَقْرأَ لِلنَّاسِ ثلاثِينَ آيةً، وأَمرَ أوْسَطَهُم أنْ يَقرَأَ خمسًا وعِشْرِينَ آيةً، وأَمرَ أَبْطَأَهُم أنْ يَقرَأَ عِشْرِينَ آيةً).

وجعل قارئاً خاصّاً للنساء..

(عن هشام بن عروة أن عمر بن الخطاب أمر سليمان بن أبي حثمة أن يؤمّ النساء في مؤخّر المسجد في شهر رمضان).[٣٥٤]

لهذه الدرجة كان التنظيم.. كانت الإدارة..

ومنتهى الإدارة، أدّت إلى منتهى الخشوع..

****

لو لم يكن في سجلّه الإداريّ، غير أنّه يجمعنا كلّ سنةٍ، في تلك التراويح.. فنشعر بأخوّتنا، ونشعر بقوّتنا، ونشعر بكلّ ما يمكن أن يكون لو أنّ هذا العدد جاء طيلة السنة..

لو لم يكن في سجلّه الإداريّ غير هذا..

لكفى..

ولما وفّيناه حقّه من الشكر..

٣٥٤ مصنف عبد الرزاق ٥١٢٤

أن تكون الأوّل..

عندما تختار عبارةً، أو صورةً، أو رمزاً ما ليمثّلك، فإنَّ ذلك على الأغلب يمثّل جزءاً مهمّاً منك..

من دوافعك، من شخصيّتك، من أهدافك وطموحاتك..

يحدث ذلك كثيراً، أن نختار رمزاً يعبّر عنّا في وسائل الاتّصال الاجتماعيّة المختلفة.. أو جملةً أو قولاً مأثوراً نحبُّه لسببٍ أو لآخر..

قد يتغيّر ذلك بحسب الصرعات السائدة أو الحالة المزاجيّة..

لكن عندما تختار رمزاً ثابتاً، فهذا يعني دوماً أنّك مرتبطٌ بهذا الرمز.. وبهذا الشعار..

وأنّه جزءٌ من مكوّنات شخصيّتك.

****

«كفى بالموت واعظاً يا عمر».. [٣٥٥]

هذه هي العبارة التي اختارها عمر لتُنقش على خاتمه..

وهي حتماً تفسّر الكثير..

تفسّر ماذا يعني الموت بالنسبة له، وماذا تعني موعظة الموت.. وماذا تعني الحياة، كلُّ الحياة.. بالنسبة له..

---

٣٥٥ جامع الأحاديث ٢٩٦٥٥ كنز العمال ٣٥٨١٨

لو أنَّنا وجدنا هذا النقش على خاتم أحد مشاهير الزهّاد العابدين، لقلنا إنَّ موعظة الموت كانت في المزيد من التعبُّد، المزيد من الانقطاع للشعائر.. المزيد من الخشوع فيها..

لكنَّ هذا النقش كان على خاتم رجلٍ احتار التاريخ من أيِّ بابٍ يُدخِله.. وكلُّ أبواب المجد مشرَّعةٌ له..

وبعضها أبوابٌ لم تُفتح إلا للقلَّة عبر التاريخ..

فأيَّة موعظةٍ هذه للموت، جعلت حياته تفتح كلَّ تلك الأبواب..

ما الذي قاله له الموت، ولم يقله لنا، وجعل حياته مثمرةً كبستانٍ في الجنّة، بينما أفضل حياةٍ لنا لا تكون أكثر من شجرةٍ فيها بعض الثمار..

لعلَّ الموت قال لنا وله الشيء ذاته..

لكنَّ عمر فهمه على نحوٍ مختلف..

فهمه أنَّ الحياة تمضي مسرعةً، مثل غفوةٍ في يومٍ قائظٍ، وأنَّ عليه أن يغتنم كلَّ لحظةٍ منها للعمل..

فهمه أنَّ موعظة الموت ليست في زيادة العبادة ما لم تؤدِ هذه الزيادة إلى زيادة طاقته على العمل وتصويبه..

إنَّه هو القائل: لموت ألف عابدٍ قائم الليل صائم النهار أهون من موت عاقلٍ عقل عن الله أمره فعلم ما أحلَّ الله له وما حرَّم عليه، فانتفع بعلمه، وانتفع الناس به، وإن كان لا يزيد على الفرائض التي فرض الله عزَّ وجلَّ عليه كثير زيادة. [٣٥٦]

لم يكن لديه مشكلةٌ في علاقة الدنيا بالآخرة.. لم يكن لديه هذا الفصل المزمن الذي نعاني منه نحن..

إنَّه الموت الذي موعظته أنَّ الحياة سريعةٌ كالبرق، كلمح البصر، فليكن عملك منيراً كالبرق، فليكن عملك مما يخطف البصر.. يكون مختلفاً مبدعاً بحيث يخطف البصر..

إنَّه الموت الذي موعظته أن لا مفرَّ من العمل.. لا مفرَّ من الانهماك في العمل.. لا يمكن لأيِّ شيٍ أيَّة عبادةٍ، أيَّة شعيرةٍ تؤدَّى أن تكون بديلاً عن ذلك..

إنَّه الموت الذي موعظته أن تعمل حتى اللحظة الأخيرة في حياتك.

---

٣٥٦ مسند الحارث ٨٤٢

تلك الأبواب التي فتحها عمر.. كانت قفلاً لباب جهنّم.

وهكذا كان بعض معاصريه يرونه.. قفلاً لجهنّم..

(مرَّ عبد الله بن سلام بعبد الله بن عمر وهو راقدٌ فقال له: قم يا ابن قفل جهنم! فقام عبد الله وقد تغيَّر لونه حتى أتى عمر فقال: أما سمعت ما قاله ابن سلام لي؟ قال: وما قال لك؟ قال لي: قم يا ابن قفل جهنم، فقال عمر: الويل لعمر إن كان بعد عبادة أربعين سنةً ومصاهرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاياه بين المسلمين بالاقتصاد أن يكون مصيره إلى جهنّم حتى يكون قفلاً لجهنم! ثم قام وتقنّع بطيلسان له وألقى الدرَّة على عاتقه فاستقبله عبد الله بن سلام..
فقال له عمر: يا ابن سلام! بلغني أنك قلت لابني: قم يا ابن قفل جهنم! قال: نعم ، قال: وكيف؟ قال: أخبرني أبي عن آبائه عن موسى بن عمران عن جبريل أنَّه قال: يكون في أمَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم رجلٌ يقال عمر بن الخطاب أحسن الناس ديناً وأحسنهم يقيناً، ما دام بينهم الدين عال والدين فاش فجهنّم مقفلةٌ، فإذا مات عمر يرقُّ الدين ويقلُّ اليقين، وافترق الناس على فرقٍ من الاهواء، وفتحت أقفال جهنّم، فيدخل في جهنّم من الآدميين كثير).[357]

كلّما فتحت باباً للدين الحقّ.. للدنيا كما أرادها الله أن تكون.. أقفلتَ باباَ لجهنم يدخل منه الناس إليها..

وعمر.. لم يكتفِ بفتح الأبواب.. وغلق الأبواب..

لقد صار قفلاً لجهنّم.. ومفتاحاً للجنَّة.. من كثرة ما أنجز من فتوحاتٍ!..

****

(عن حنش بن الحارث النخعي عن أبيه، وكان شهد القادسية قال: رجعنا من القادسية، فكان أحدنا ينتج فرسه، فينحرها فيقول: أنا أعيش حتى أركب هذا؟ فجاءنا كتاب عمر: أن أصلحوا ما رزقكم الله، فإن في الأمر تنفساً).[358]
تلد الفرس مُهرها..

فينحر.. ليأكل.. وهو يقول: أنا أعيش حتى تكبر هذه لأركبها؟!

فيبلغ ذلك عمر..

---

٣٥٧ كنز العمال ٣٥٨٢٠
٣٥٨ الأدب المفرد للبخاري ٤٧٨ وصححه الالباني

فيعدُّ ذلك إفساداً للرزق..

أصلحوا ما رزقكم الله، الأمر أكبر من أن تركبها أنت، المهمُّ أن تعمل، أن تؤدِّي ما عليك، قد تركبها أنت، وقد يركبها غيرك ليفتح روما..

فإنَّ في الأمر تنفساً..

فتمسَّك بالعمل تمسُّكك بنفسك..

حتى رمقك الأخير.. حتى نفسك الأخير!

****

(وروى ابن جرير عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس أرضك؟

فقال له أبي: أنا شيخٌ كبيرٌ أموت غداً..

فقال له عمر: أعزم عليك؛ لتغرسنها!..

فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي). [٣٥٩]

عمر يقول لشيخٍ كبيرٍ في السنِّ..

لِمَ لا تزرع أرضك..

فيردُّ الرجل إنَّ الأمر لا يستحقُّ، فهو سيموت قريباً قبل أن يرى ثمار غرسه، فيُقسم عليه أمير المؤمنين أن يغرس..

بل ويغرس معه!..

إنَّها تلك الفسيلة، التي قال عنها الرسول عليه الصلاة والسلام: **(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها).** [٣٦٠]

لقد غرس عليه الصلاة والسلام تلك الفسيلة في قلب عمر..

فسيلة العمل والأمل..

فكان أن أنتجت أشجاراً لا تنقطع ثمارها.

---

٣٥٩ كنز العمال ٩١٣٦

٣٦٠ السلسلة الصحيحة ٩

كفى بالموت واعظاً يا عمر. **كانت تعني أن اصنع الحياة.. اصنعها على نحوٍ يجعل حياتك مختلفةً عن حياة الآخرين.. على نحوٍ يجعل موتك لا ينهي حياتك، بل تبقى مستمرةً رغم موتك بأثرٍ يبقى.**

كفى بالموت واعظاً يا عمر.. كانت تعني أن **أجعل حياتك صدقةً جاريةً**.. لا تنقطع حتى لو انقطعت أنفاسك..

كفى بالموت واعظاً يا عمر. كانت تعني **أنَّ حياتك بأسرها ليست سوى حلبة سباق**، مع نفسك أولاً.. لكي تجعل الحياة لحظة مغادرتك إيَّاها أفضل من لحظة دخولك لها..

تلك المعادلة الحاسمة، الحياة قبلك، والحياة بعدك، هي ما يحدِّد موقعك بعد الحياة.. **هل كانت محصلة وجودك أفضل؟ هل كانت أسوأ؟**

أم أنَّك كنت صفراً على الشمال؟

مررت دون أن تترك أيَّ أثرٍ.

****

في يده كان ذلك الخاتم.. الذي نُقِشت عليه تلك المقولة: كفى بالموت واعظاً يا عمر..

ويداه، كلُّ أعضائه، كانت تعمل بحسب تلك الموعظة..

لتجعل الحياة أفضل.

****

كان من نتائج ذلك الفهم العمريِّ أنَّ الرجل صار مثل «الداينمو» للعمل.. عملٌ لا يكلُّ ولا يملُّ.. طيلة اليوم والليل..

بل كان من نتائجه، وقد فهم ما فهم، ووعى ما وعى أنَّ عمر في عمله قد جمع أكبر كميَّةٍ ممكنةٍ من «الأوائل»..

لا يمكن لقائدٍ مسلمٍ أو غير مسلمٍ، أن يكون قد حاز لقب «أول من فعل كذا..» كما حصَّل عمر.. وبفارقٍ كبيرٍ جداً عن كلِّ مَن سواه..

قائمة الأوائل تلك، التي يكاد يكون عمر قد احتكرها لنفسه، والتي من الصعب ختمها لأنّنا كلّما بحثنا في فترة خلافته نجد فيها منجزاً إضافيّاً كان هو فيه «الأول».. **تلك القائمة تكاد تغني عن أيّة مناقب أخرى..**

لكنّك عندما تقرؤها ستفهم لِمَ قال صلى الله عليه وسلم ما قال في حقّه..

لِمَ قال: لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر..

ولِمَ قال: لم أرَ عبقريّاً يفري فريه..

ولِمَ قال: لو رآك الشيطان لسلك سبيلاً غير سبيلك..

..وستفهم أيضاً، كيف تحقّق دعاؤه عليه الصلاة والسلام..

اللهمَّ أعزَّ الإسلام بأحبِّ العمرين.

نظرةٌ واحدةٌ في القائمة – غير النهائيّة !..لأنها تتمدد كلما بحثنا في سيرة عمر - لِمَا كان عمرُ الأولَ فيه ستجعلنا نفهم ذلك..

وستقول مع نفسك: ليس هناك من عبقريٍّ مثله..

ثمَّ تتذكّر.. أن هذا ما قاله أصدق الخلق. [٣٦١]

****

*** أوّل من وضع تأريخاً للمسلمين واتّخذ التاريخ من هجرة رسول الله صلى الله عليه و سلم.** [٣٦٢]

هو الأوّل، وقد كان ذلك يعني بداية عصرٍ جديدٍ للإنسانيّة، ندّعي هنا أنّها لم تشهد مثله عدلاً أو رحمة..

*** هو أوّل من عسّ في الليل بنفسه، ولم يفعلها حاكم قبل عمر، ولا تعلّم أحدٌ عملها بانتظامٍ بعد عمر.** [٣٦٣]

لم يشهد التاريخ، قبل أو بعد، حاكماً لدولةٍ مترامية الأطراف، وهو يقوم بمهمّة الحارس الليليّ..

---

٣٦١ صحيح البخاري ٣٦٨٢
٣٦٢ جامع الأحاديث ٢٩٥٦٠ كنز العمال ٢٩٥٥٢
٣٦٣ كنز العمال ٢٨٨٣٧

سهر الليالي (بالنسبة لعمر، كان هذا، أن يدور في الشوارع كالحرّاس الليليين.. لا، ليس كالحرّاس الليليين، فقد كان يعدُّ نفسه حارساً ليليّاً حقاً.. كان يعدُّ أنَّ كونه «الخليفة» يحتِّم أن يكون حارساً ليليّاً.. لم يحدث هذا قبله، ولا بعده).

*** أوّل من عقد مؤتمراتٍ سنويّةً للقادة والولاة ومحاسبتهم، وذلك في موسم الحجّ**[٣٦٤]، وكان يدعو كلَّ مَن يريد أن يشكو هؤلاء العمّال من الناس ليحضروا أيضاً، لتكون الشكوى والتحقيق، ومن ثمّ عقوبة العامل مباشرةً!

كان مؤتمراً ميدانيّاً لا لإلقاء الخطابات وتبادل التبريكات أو تقبيل اللّحى، بل للمواجهة بين الراعي والرعيّة، مواجهة ميدانيّة بين من يريد أن يشكو العمّال والولاة إلى «أبي العيال»..

*** أوّل من اتّخذ الدرّة (عصا صغيرة) وأدّب بها**[٣٦٥]**.. حتى قال البعض: كانت درة عمر أهيب في الصدور من سوطكم هذا**[٣٦٦]**وقال الشعبي: كانت درة عمر أهيب من سيف الحجاج.** [٣٦٧]

ودرّة عمر كانت رمزاً مهيباً ارتبط بحسم عمر، وحزمه، وعدم تساهله مباشرةً مع أيِّ تقصيرٍ دون أن يدخل في بيروقراطيّة السين والجيم.. الدرّة كانت عصاً صغيرةً لا تؤذي، لكنَّ معناها كان واضحاً للجميع، قد لا يُعجب ذلك البعض ويحاول أن يُخفيه، فنحن نعيش عصر التمييع الذي يحاول أن يُخفي أيَّ مظهرٍ للقوّة مما قد يفسّر بالعنف..

لكنَّ الدرّة لم تكن عنفاً، فأذاها المادّيّ كان محدوداً للغاية، لكنَّ معناها ارتبط بضرورة أن يكون للقانون والسلوكيات العامّة ما يحميها من «قوّة»، على الأقلِّ في أول فترة تكريس هذه السلوكيّات، إلى أن تصبح أعرافاً اجتماعيّةً تستهجن أيَّ سلوكٍ خاطئٍ، وتلعب دور «الدرّة» بطريقةٍ أو بأخرى.

*** أوّل من مصّر الأمصار.** [٣٦٨]

كان بناء المدن الجديدة في الأمصار المفتوحة خطوةً جديدةً في درب التحوُّل الحضاريِّ، شعر المسلمون بانتمائهم للأرض التي فتحوها عندما بنوا المدن، وبذلوا الجهد في التخطيط والبناء، ما لبثت أن صارت هذه المدن مصادر إشعاعٍ ثقافيٍّ وحضاريٍّ على المنطقة بأسرها..

---

٣٦٤ الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٢٩٣
٣٦٥ أسد الغابة ج ١ ص ٨٣٢
٣٦٦ أنساب الأشراف ج ٣ ص ٤٠٩
٣٦٧ ربيع الأبرار ج ١ ص ٣٠٩
٣٦٨ الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص ٢٨٢

*** أوّل من مهّد الطرق[٣٦٩] ومنها كلمته الشهيرة (لو عثرت بغلة للعراق لسألني الله تعالى عنها لِمَ لَمْ تمهّد لها الطريق يا عمر؟).**

وكان تعبيد الطرق وتسهيل المواصلات يعبّر عن فهم عمر بن الخطاب لأهميّتها في التطوّر المدنيّ الحضاريّ، فربط المدن بعضها ببعض، وربطها بالعاصمة – المركز، يسهّل كلَّ الأعمال الاقتصاديّة والعسكريّة ويسهّل تنقُّل الناس ونشر العلم والقرآن.

*** أوّل من اتّخذ المراقب العامّ فيما يعدُّ نواةً للحسبة.**[٣٧٠]

*** أوّل من جمع الناس على صلاه التراويح.**[٣٧١]

وكان ذلك بعد أن كان الناس يصلُّون في جماعاتٍ متفرّقةٍ أو فرادى، فلمّا جعلها جامعةً واحدةً زاد من قوّة حسّ الجماعة والانتماء لها عبر العصور.

*** هو أوّل من جعل الخلافة شورى بين عددٍ محدَّدٍ.**[٣٧٢]

اختار ستّةً من خيار الناس، يعرف مكانتهم وسمعتهم، وجعل الأمر بينهم وفق آليةٍ محدَّدةٍ ألزمهم بها..

*** أوّل من وسَّع المسجد النبويَّ والمكي وفرشه بالحصى.**[٣٧٣]

*** أوّل من أسقط الجزية عن الفقراء والعجزة من أهل الكتاب، وأعطى فقراء أهل الكتاب من بيت مال المسلمين.**

ومرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. قال: قال أبو بكرة: أنا شهدت ذلك من عمر ورأيت ذلك الشيخ.[٣٧٤]

*** أول من جعل الجزية بحسب المستوى المعاشيّ.**[٣٧٥]

---

٣٦٩ كنز العمال ١٤٢٠٥
٣٧٠ كنز العمال ١٤٣٣٨
٣٧١ مصنف ابن أبي شيبة ٩٢
٣٧٢ صحيح البخاري ٣٧٠٠
٣٧٣ مصنف ابن أبي شيبة ج٢ ص ٤١٥ أخبار مكة للفاكهي ١٢٩٤
٣٧٤ الخراج لأبي يوسف ص ١٥٣
٣٧٥ سنن البيهقي الكبرى ١٨٤٦٥

*** أوّل من أقام المعسكرات الحربيّة الدائمة.[376]**

*** أوّل من أمر بالتجنيد الإجباريِّ للشباب والقادرين.[377]**

*** أوّل من حرس الحدود بالجند.[378]**

*** أوّل من حدَّد مدَّة غياب الجنود عن زوجاتهم بستة أشهر حرصا على تماسك العلاقات الأسرية. [379]**

*** أوّل من أقام قواتٍ احتياطيَّةٌ نظاميَّةٌ. [380]**

*** أوّل من أمر قوّاده بموافاته بتقارير مفصَّلةٍ مكتوبةٍ بأحوال الرعيَّة من الجيش.[381]**

*** أوّل من دوَّن ديواناً للجند لتسجيل أسمائهم ورواتبهم.[382]**

*** أوّل من أنشأ مخازن لأغذية للجيش (الأهراء).[383]**

*** أوّل من دوَّن الدواوين (أي وضع الدوائر والسجلاَّت الرسميَّة).**

*** أوّل من اتَّخذ دار التموين.[384]**

***أوّل من أقام محطات استراحةٍ في الطريق بين المدن الرئيسيَّة. [385]**

*أوّل من أذن برواية القصص، فيما يُعرف بالقصَّاص أو الحكواتيِّ.[386]

*** أوّل من أوقف في الإسلام (الأوقاف).[387]**

***أوّل من جعل حصَّةٌ تموينيَّةٌ لكلِّ فردٍ شهريّاً، ساوى فيها بين الرجل والمرأة والحرِّ والعبد، وحدَّدها بعد أن قام بتجربةٍ جمع فيها ثلاثين رجلاً وحدَّد ما يكفي لشبعهم في اليوم والليلة.[388]**

---

٣٧٦ فتوح مصر وأخبارها ج ١ ص ١٤٥
٣٧٧ إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء ص ٧٠
٣٧٨ فتوح البلدان ج ١ ص ١٥٢ رقم ٣٤٩
٣٧٩ مصنف عبد الرزاق ١٢٥٩٤
٣٨٠ تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٣٣٦
٣٨١ البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٥
٣٨٢ سنن البيهقي ١٦٨٢٠
٣٨٣ الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٥٠
٣٨٤ فتوح البلدان للبلاذري ٦٣٤
٣٨٥ سنن البيهقي ٢٠١٦٢
٣٨٦ المعجم الكبير للطبراني ٦٥١٦
٣٨٧ التحجيل في تخريج ما لم يخرج في إرواء الغليل ج١ ص ١١٨
٣٨٨ الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٣٠٥ ذكر استخلاف عمر

*** أوّل من أحصى أموال عمّاله وقاداته وولاته، وطالبهم بكشف حساب أموالهم (من أين لك هذا؟)**

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص، وكان عامله على مصر:

(من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سلام عليك، أما بعد، فإنه بلغني أنك فشت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد. وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك، فاكتب إلي من أين أصل هذا المال ولا تكتمه.

فكتب إليه: من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي. وإني اعلم أمير المؤمنين أني ببلد السعر به رخيص، وأني من الحرفة والزراعة ما يعالجه أهله، وليس في رزق أمير المؤمنين سعة. وبالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك، فأقصر أيها الرجل، فإن لنا أحساباً هي خير من العمل لك، إن رجعنا إليها عشنا بها. ولعمري إن عندك من لا يذم معيشته ولا تذم له. وذكرت أن عنك من المهاجرين الأولين من هو خير مني، فأنى كان ذلك ولم نفتح قفلك، ولم نشركك في عملك.

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطر، ونسقك الكلام في غير مرجع! وما يغني عنك أن تزكي نفسك، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك. فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ثم لم يعوزكم عذر، تجمعون لأبنائكم، وتمهدون لأنفسكم. أما تجمعون العار، وتورثون النار، والسلام).[٣٨٩]

*** أول رئيس دولة عظمى يقوم بتنظيف الشوارع بنفسه.**

(كان عمر وهو خليفة يلبس جبة من صوف مرقوعة بعضها بأدم ويطوف بالاسواق على عاتقه الدرة يؤدب الناس ويمر بالنكث والنوى فليقطه ويلقيه في منازل الناس لينتفعوا به).[٣٩٠]

*** أوّل من حفر الأنهار والقنوات.**

مثل نهر (الأجانة أو الأبلة)، الذي أمر عمر أبي موسى الأشعري بحفره عن دجلة ليسهل لأهل البصرة شربهم وسقيهم[٣٩١]، وحفر في دجلة أيضاً نهر معقل الذي يُضرب به المثل (إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل) **أن عمر بن الخطاب أمر أبا موسى**

---

٣٨٩ العقد الفريد ج ص ١٢

٣٩٠ كنز العمال ٣٥٩٤١

٣٩١ معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٣

بحفر النهر الآخر، وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني، فنسب إليه[392]، ولكنَّ أعظم الأنهار وأكبرها فائدةً ذاك الذي أمر به عمر أيضاً، والذي اشتهر باسم خليج أمير المؤمنين، وهو قناة تصل ما بين نهر النيل والبحر الأحمر، وقد رأي عمر أن يحفره عندما لاحظ تأخر الامدادات في عام الرمادة فكتب إلى عمرو بن العاص».. **أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم»**[393]فحفر في أقل من سنة ولم يمض الحول حتى جرت فيه السفن ومن ثم قل الاهتمام به بعد القرن الأول الهجري حتى اندثر.[394]

* **أوّل من ضرب الدراهم، وقدّر وزنها.**[395]

* **أوّل من أخذ زكاة الخيل.**[396]

وكان هذا يعني أنّه استوعب أنَّ الخيل تحوّلت في استخدامها من الاستخدام الشخصيِّ إلى التجارة المحضة والزينة، فكانت الزكاة بمثابة عتلة تصحيحيَّةٍ تعطي لبيت المال حقَّه..

* **أوّل من جعل نفقة اللقيط من بيت المال.**[397]

* **أوّل من مسح الأراضي، وحدَّد مساحاتها.**[398]

* **أوّل من وضع قانونا للضيافة، حيث اشترط الضيافة ليوم وليلة على أهل السواد والجزية. وكان ذلك نواة لدور الضيافة المجانية.**[399]

* **أوّل من أقرض الفائض من بيت المال للتجارة.**[400]

وكان ذلك بمثابة تشجيعٍ للشباب على العمل والسعي في الرزق بمنحهم رأس مالٍ يمكِّنهم من البدء بمشاريع مناسبة لطموحاتهم

* **أوّل من وضع الحميّات الطبيعيّة.**[401]

---

٣٩٢ فتوح البلدان ٨٨٦
٣٩٣ فتوح مصر وأخبارها ص ١٧٨
٣٩٤ فتوح مصر وأخبارها ص ١٧٩
٣٩٥ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١١ ص ٢٢٧
٣٩٦ صحيح ابن خزيمة ٢٢٩٠
٣٩٧ معرفة السنن والآثار للبيهقي ٣٩٤٢
٣٩٨ السنن الكبرى للبيهقي ١٨١٦٤
٣٩٩ معرفة السنن والبيهقي ٥٧٤٥
٤٠٠ سنن البيهقي ١١٩٣٩
٤٠١ سنن البيهقي ١٢١٥٦

(عن عبد الله بن الزبير قال: أتى أعرابيٌّ عمر فقال: يا أمير المؤمنين بلادنا قاتلنا عليها في الجاهليَّة، وأسلمنا عليها في الإسلام، علام تحميها؟ فأطرق عمر وجعل ينفخ ويفتل شاربه، وكان إذا كربه أمر فتل شاربه ونفخ . فلما رأى الاعرابي ما به جعل يردِّد ذلك، فقال عمر: المال مال الله، والعباد عباد الله، والله لو لا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت من الأرض شبراً في شبرٍ).[٤٠٢]

* **أوّل من قونن علاج الحيوانات المصابة بأمراض (كان يعالج إبل الصدقة بيديه).[٤٠٣]**

* **أوّل من عيَّن امرأةً في منصب المحاسب أو الوزير.[٤٠٤]**

وهي الشفاء بنت عبد الله وقد مرَّ ذكرها.

* **أوّل من أمر بالتعليم الإلزاميّ.**

(عن زيد بن حارثة: أنَّ عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الشام أن يتعلَّموا الرمي ويمشوا بين الغرضين حفاة وعلِّموا صبيانكم الكتابة والسباحة).[٤٠٥]

* **أوّل من جعل التعليم مجانيّاً.**

(حدَّثنا أبو بكر قال: حدَّثنا وكيع عن صدقة بن موسى الدمشقيِّ عن الوضين بن عطاء قال: كان بالمدينة ثلاثة معلمين يعلمون الصبيان، فكان عمر بن الخطاب يرزق كلَّ واحدٍ منهم خمسة عشر كلَّ شهر).[٤٠٦]

* **أوّل من أصدر قانوناً يحارب الدجل والشعوذة حيث أمر بقتل كلِّ ساحرٍ أو ساحرةٍ.[٤٠٧]**

* **أوّل من وفَّر المساعدة مجّاناً لذوي الاحتياجات الخاصَّة.**

(عن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة قال: جاء عمر بن الخطاب سعيد بن يربوع إلى منزله فعزَّاه بذهاب بصره وقال: لا تدع الجمعة ولا الصلاة في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ليس لي قائدٌ، قال: فنحن نبعث إليك بقائدٍ، فبعث إليه بغلامٍ من السبي).[٤٠٨]

---

٤٠٢ كنز العمال ٩١٧٠
٤٠٣ جامع الأحاديث ٢٩٢٠٤ . كنز العمال ١٤٣٠٧
٤٠٤ ابن حجر - الإصابة ج ٧ ص ٧٢٨
٤٠٥ مصنف عبد الرزاق ١٦١٩٨ كنز العمال ١١٣٨٦
٤٠٦ مصنف ابن أبي شيبة ج٥ ص ٩٧
٤٠٧ سنن البيهقي الكبرى ١٦٨٩٩
٤٠٨ كنز العمال ٢٣٠٥١

*** أوّل من سمح باستخلاف الموالي على المدن وفيها أشراف القوم[409] (وليس أي مدينة: بل مكة!).**

(أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكّة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى قال: ومن ابن أبزى؟ قال: رجلٌ من موالينا، فقال عمر رضي الله عنه: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: إنّه قارئٌ لكتاب الله، عالمٌ بالفرائض، قاضٍ. قال عمر: أما إنّ نبيّكم صلى الله عليه وسلم قد قال: « إنّ الله سبحانه يرفع بهذا القرآن أقواماً، ويضع به آخرين»).

*** أوّل من جعل الدولة تقدّم الضمان لأصحاب الحرف والأعمال.**

(عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي مليح بن أسامة أنّ عمر بن الخطاب ضمن رجلا كان يختن الصبيان، فقطع من ذكر الصبي فضمنه).[410]

(عن بكير بن عبد الله بن الأشج أنّ عمر بن الخطاب ضمن الصبّاغ الذي يعمل بيده).[411]
هذا «الضمان» كان تشجيعاً للمسلمين على الخوض في مجالات غير مطروقة بالنسبة لهم.. بعض هذه الحرف لم تكن «محترمة» عند العرب، لأن العرب كانوا أصلا يعتبرونها «مهانة» ولا تزال كلمة «مهنة» حتى الآن تحمل الجذر البعيد لهذا الاحتقار.. وكان من السهل على هذه النظرة أن تجد استمرار لها متخفياً خلف «تجنب المخاطرة» التي يمكن أن تنتج من أي عمل جديد لا يزال في بواكيره الأولى..
ها هو عمر يضمن لهم مخاطراتهم في خوض آفاق جديدة.. يشجعهم على المضي فيما لم يمض فيه آباؤهم قبلهم.. يشجعهم على العمل الجديد البنّاء للمجتمع.. ويضمن لهم أي خسائر ناجمة عن ذلك!
ليس هذا فقط، بل جعل «الضمان» وسيلةً لجذب التجّار والباعة إلى منظومةٍ اقتصاديّةٍ بأخلاقيّاتٍ وقوانين موحّدة: من ناحية عدم الاحتكار، وعدم رفع السعر، أو عدم المضاربة، وكانت الدولة الضامنة لهؤلاء من أيّة خسارةٍ يُمكن أن تنالهم جرّاء الالتزام بهذه الأخلاقيّات..
(عن عمرو بن دينار قال: قال عمر بن الخطاب: من باع في سوقنا فنحن له ضامنون، ولا يبيع في سوقنا محتكر).[412]

---
٤٠٩ أخبار مكة للأزرقي ٨٤٧
٤١٠ مصنف عبد الرزاق ١٨٠٤٥
٤١١ مصنف عبد الرزاق ١٤٩٤٩
٤١٢ مصنف عبد الرزاق ١٤٩٠٣

*** أوَّل من منع المسؤولين في الدولة من ركوب السيارات الفارهة التي تميّزهم عن الناس.**

(عن عاصم بن أبي النجود أنَّ عمر بن الخطاب كان إذا بعث عمَّاله شرط عليهم ألا تركبوا برذوناً). [٤١٣]
والبرذون حيوانٌ هجينٌ أبوه حمار وأمُّه فرس، ومَن يركبه يبدو كما لو كان يتبختر في مشيته، لذا كان من عادة المسؤولين والعمَّال والأثرياء في الأمصار المفتوحة أن يركبوه (قبل الفتح) لتميُّزهم عن الناس. ولكنَّ عمر منع هذا لكي يقطع دابر كلِّ شعورٍ بالتميُّز يشعر به هؤلاء العمال على الناس.

*** أوَّل من منع الفاتحين من شراء العقارات من أهل الذِّمة في الأمصار المفتوحة.**

(عن الحسن قال: كتب عمر بن الخطاب: أن لا تشتروا من عقار أهل الذِّمة ولا من بلادهم شيئاً). [٤١٤]

الفتح ليس استيطانا يطرد سكَّان البلد الأصليين، قد يستوطن الفاتحون ويختلطون، لكنَّ يجب ألا يكون على حساب ممتلكات أهل البلد، ولو رغبوا ببيعها على نحوٍ طبيعيٍّ ومن غير إكراهٍ!

*** أوَّل من أمر بصرف عطاء الجند كاملاً لكلِّ جنديٍّ من العدوِّ يلتحق ضمن المدَّة التي حُدِّدت قبل القتال.**
(كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص، إني قد كنت كتبت إليك أن تدعو الناس إلى الإسلام ثلاثة أيامٍ، فمن استجاب لك قبل القتال فهو رجلٌ من المسلمين، له ما للمسلمين، وله سهمٌ في الإسلام، ومن استجاب لك بعد القتال أو بعد الهزيمة فماله فيء للمسلمين، لأنَّهم كانوا قد أحرزوه قبل إسلامه فهذا أمري وكتابي إليك). [٤١٥]

*** أوَّل من جعل من إحياء الأرض واستصلاحها سبباً لدوام ملكيَّتها.**
(عن الحارث بن بلال بن الحارث المزنيِّ، عن أبيه أنَّ رسول الله أقطعه «العقيق» أجمع، فلمَّا كان زمان عمر قال لبلالٍ: إنَّ رسول الله لم يقطعك لتحتجره عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل: فخذ منها ما قدرت على عمارته، ورُدّ الباقي). [٤١٦]

٤١٣ مصنف عبد الرزاق ٢٠٦٦٢
٤١٤ مصنف عبد الرزاق ٩٩٦٠
٤١٥ جامع الأحاديث ٣٠٩٦٣ كنز العمال ١١٤٢٧
٤١٦ الأموال لقاسم بن سلام ج ٢ ص ١٦٨ رقم ٦١٢

كما أنَّه قال: (من أحيا أرضاً ميتةً فهي له، وليس لمحتجرٍ حقٌّ بعد ثلاث سنين).[417]

كلُّ هذا.. وربَّما المزيد..

قال محمود عباس العقاد، المفكِّر الكبير، الذي كتب العبقريَّات، ومن ضمنها «عبقرية عمر»:
إنَّ كتابة سيرة عمر أشبه ما تكون بعمليَّة بحثٍ في مَن أوَّل من فعل هذا ومن أوَّل من أنجز ذاك..

لسنا بحاجةٍ لدليلٍ على عبقريَّة عمر..

لكن هذا القول دليلٌ على عبقريَّة العقاد!

هل يمكن أن نستغرب حقّاً كلَّ هذه القائمة من عمر، الذي كان الموت خير واعظٍ له؟
أليست الحياة هي **عكس الموت؟**
ألم يعلِّمه القرآن أنَّ «صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله ربِّ العالمين لا شريك له»..
ألم يقض حياته وهو يثبت هذه الآية ويطبِّقها عمليَّاً على أرض الواقع..
لذا كان من الطبيعيِّ جداً أن تتحقَّق تتمَّة الآية..
«.. وبذلك أُمرت وأنا أوَّل المسلمين»..
أوَّل المسلمين..
كم واحدةً من هذه حاز عمر؟
لقد سبق الجميع، بمسافةٍ شاسعةٍ - ! - حتى إنَّ عليّاً قال له: لقد أذللتَ الخلفاء من بعدك!.

وهل نستغرب ذلك ممَّن قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام: «لم أرَ عبقريّاً يفري فريه». [418]
هل نستغرب ذلك من أوَّل مَن جهر بالإسلام؟
أن تكون حياته سلسلةً متَّصلةً متواصلةً من منجزاتٍ كان فيها هو الرائد والأوَّل على مستوى الإنسانيَّة كلِّها؟

---

٤١٧ نصب الراية ج ٤ ص ٣٤٨
٤١٨ صحيح البخاري ٣٦٨٢

****

وكم واحدةً حزتَ أنتَ؟..
لا يزال في العالم متّسعٌ لكي تكون أولاً في هذا المجال وذاك..
لا يزال الموت خير واعظٍ من أجل حياةٍ أفضل..
حياة تترك فرقاً، بين لحظتي دخولك وخروجك منها..

****

لا داعي لنقش تلك الكلمات على خاتمك..
انقشها على قلبك وعقلك..
وأثبت ذلك في الحياة الفاصلة بين نقطتين.

@iAbubader

الحضارة، صُنِع في الإسلام..

لكن ما هي الحضارة؟

ما معنى كلمة حضارة التي نقول إنَّ عمر صنعها؟

ما هي الحضارة؟

كلُّنا نستخدم المفردة.. نرى عمارةً شاهقةً، ناطحة سحابٍ، فنقول: «حضارة».. أو نرى متحفاً فنيّاً فنقول: «حضارة»..

نرى مصانع ضخمةً، ومنتجاتٍ متقنةً مشتهاةً، حتى لو كانت غير ضروريّةٍ.. فنقول: «حضارة»..

نرى شارعاً نظيفاً معبّداً على نحوٍ جيدٍ، فنقول: «حضارة»..

نرى سلوكاً معيّناً، طفلاً يعبر الشارع ليلقي بورقةٍ في المكان المخصَّص لها، فنقول: «حضارة».. أو «تحضُّر»..

كلُّ هذا أمرٌ متداولٌ ومفهومٌ..

لكن ما هي الحضارة؟

****

الحضارة، في تعريف ول ديورانت[٤١٩]، صاحب قصَّة الحضارة هي:

٤١٩ ول ديورانت ١٨٨٥-١٩٨١: فيلسوف وكاتبٌ ومؤرِّخٌ أمريكيٌّ، عرف بمؤلفه الضخم "قصة الحضارة" في أحد عشر مجلداً . Will Durant

مجموعةٌ من الشروط التي تتوفَّر في مجتمعٍ ما، وتؤدِّي إلى تمكين هذا المجتمع من الإنتاج والتمايز على كافة الأصعدة: ثقافيَّة، ماديَّة، إنسانيَّة..

هذه الشروط التي تكوِّن الحضارة هي وبحسب ديورانت مجدَّداً:

أولاً - وجود ما يوحِّد هذا المجتمع، من "إيمانٍ" بقيمٍ مشتركةٍ، لا يُشترط أبداً أن تكون قيماً دينيَّةً، وقد تكون قيماً "وضعيَّةً"، لكنَّ القيم الدينيَّة خاصَّةً الإيمان بغيبٍ ما، يكون موحِّداً أكثر، ويقدِّم طاقةً دافعةً لهذا المجتمع، ويكون هناك على نحوٍ موازٍ قيمٌ سلوكيَّةٌ ترتبط بمرجعيَّة هذا الإيمان الموحِّد، وتكون بمثابة "الكود" الأخلاقيِّ - السلوكيِّ المتَّفق عليه عند أفراد هذا المجتمع.

ثانياً - وجود نظام "حكمٍ" يوفِّر حدّاً معيَّناً من الأمن والعدل، بحيث لا يكون "الفرد" مضطرّاً للتفكير بلقمة عيشه أو بضريبةٍ في كلِّ حركةٍ يقوم بها.

ثالثاً - وجود نظامٍ تعليميٍّ "متميِّز" يساهم في نقل القيم والتعاليم إلى أجيالٍ جديدةٍ وتطويرها، وإلى المزيد من الناس بالتدريج.

هذه الشروط، وخصوصاً "المشترك الإيمانيّ"، لا بدَّ منه للحضارة..

ولا بدَّ أن يكون هذا المشترك الإيمانيُّ الذي يوحِّد المجتمع يحمل في طيَّاته إيماناً بوجود "هدفٍ"، إيماناً بوجود غايةٍ من هذا الوجود، للفرد والمجتمع، وللفرد داخل هذا المجتمع.

****

كلُّ ما تابعناه من سيرة عمر، كان تمثيلاً مفصَّلاً لهذه الشروط..

كان العامل المشترك الإيمانيّ موجوداً منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، بل كان هذا المشترك هو النقطة الفاصلة في تكوين المجتمع الجديد..

لكنَّ عمر بن الخطاب بسياسة الفتوحات وتوسعتها، وضمِّ قبائل الردَّة إليها، وكذلك بالتجنيد الإجباريِّ والنفير العامِّ الذي انتهجه إبَّان مواجهته مع الفرس، قد زاد من هذا المشترك وتعميقه وتعميمه داخل المجتمع..

أتاحت الفتوحات، التي ربَّما انضمَّت لها بعض القبائل رغبةً وطمعاً في الغنائم فحسب، أتاحت الفرصة لعمر **لتعميق "إسلام" هؤلاء**، فوجود القرَّاء المختصِّين بقراءة

القرآن، والشعائر، والقرب من الموت، كلُّ هذا أتاح لهؤلاء أن يقتربوا أكثر من الإسلام.

(كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد: تفقَّهوا في الدين فإنَّه لا يعذر أحدٌ باتِّباع باطلٍ وهو يرى أنَّه حقٌّ ولا يترك حق وهو يرى أنَّه باطلٌ).[٤٢٠]
وكان هذا وسيلةً لنشر العلم وتعميق الدين عند قبائل حديثة عهدٍ بالإسلام.

****

من ناحيةٍ أخرى، كان النظام السياسي، الذي يوفِّر الأمن والعدل يشهد مع عمر بن الخطاب أولى مراحل تبلوره وظهوره الواضح..

صار من الواضح الآن لأفراد المجتمع أنَّهم يعيشون في ظلِّ مجتمعٍ يوفِّر لهم حياةً كريمةً، وعدالةً اجتماعيَّةً لا تزال تُعَدُّ قريبةً من «المثاليَّة» بمقاييسنا المعاصرة، بل وحتى بمقاييس أكثر الدول تقدُّماً في هذا المجال..

وكان النظام التعليميُّ متعدِّد الأذرع، فمن قراءة القرآن وحفظه (الذي هو مصدر الثقافة الأول) ومن الفقه والتفقُّه فيه، إلى نُظُم التعليم الإلزاميِّ والمجانيِّ التي قام عمر بن الخطاب بتأسيسها، كلُّ هذا سهَّل انتشار التعليم، وسهَّل بالتالي **نشوء الحضارة.**

كلُّ شروط الحضارة بحسب ول ديورانت، كانت متوفِّرةً في البيئة التي ساهم ابن الخطاب في تهيئتها..

خلطة الحضارة تلك، جمع عمر بن الخطاب مكوِّناتها، كما لو كان يتلصَّص على ما سيكتبه ول ديورانت بعد أكثر من ألف سنةٍ..

في الحقيقة، كان الأمر بالعكس، تلصَّص ديورانت على ما فعل عمر، وما فعل سواه في حضاراتٍ أخرى – ليصل إلى تلك الخلطة..

فالحضارات تقوم بسننٍ وضعها الله..

ربَّما ما أنجزه عمر مع الحضارة الإسلاميَّة كان يحتاج إلى عشرة أشخاصٍ أو زعماء في حضاراتٍ أخرى..

لكنَّ عمر، الذي ولد عبر القرآن، اختصر الكثير..

اختصر قصَّة الحضارة!

---

٤٢٠ كنز العمال ٢٩٣٤٩

فلنلاحظ هنا أنَّ صعود عمر في هذه المرحلة المفصليَّة، والتي اختصرت الكثير من درب نشوء الحضارة الإسلاميَّة وتطورها، كان مهمّاً حتى على صعيد «المشترك الإيمانيِّ» الذي وحَّد الأمَّة في تلك الفترة..

لماذا؟

يختلف» **المشترك الإيمانيُّ» الذي وحَّد الأمَّة الإسلاميَّة**، والذي نزل به القرآن، عن كلِّ المشتركات التي وحَّدت الأمم الأخرى في انطلاقها الحضاريِّ بأنَّه كان **مشتركاً يرتكز على الإيمان بالله وتوحيده على نحوٍ مطلقٍ جداً، دون وجود أيِّ تشبيهٍ أو ترميزٍ أو تمثُّلٍ ماديٍّ..**

وكان هذا جزءاً من قوَّة هذا المشترك، **فهو يربط الجماهير بالمطلق بشيءٍ غير قابلٍ للتجسيم**، فيلهب خيالها وروحها، ويجعلها عملاقةً بحجم المطلق... يمدُّها بقوةٍ أكبر من قدرة أيِّ رمزٍ تجسيميٍّ.. هذا الإيمان المجرَّد من أيِّ شكلٍ من أشكال التجسيم يطلق الروح في فضاءٍ رحبٍ من الإبداع والتضحية.

لكن بالمقابل، فإنَّ هذا الإيمان المجرَّد، التوحيد المطلق، كان صعباً على البعض ممَّن لم يتمكَّن على الأقلِّ في البداية من الوصول إلى هذا الأفق.. خاصَّةً أن حديثي العهد بالإسلام، كانوا عريقي عهدٍ بالوثنية، والإنسان يميل بطبعه إلى إسقاط معتقداته القديمة على ما يعتنقه من دينٍ جديدٍ، كما حدث في الديانة المسيحيَّة التي أخذت - عندما انتشرت - الكثيرَ من المعتقدات الوثنيَّة السابقة في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، فكثيرٌ من «الرموز الدينيَّة المسيحيَّة» لا تمتُّ لدعوة عيسى بصلةٍ، بل كانت تنتمي لأوثانٍ تمّ تحويل شخوصها إلى «قساوسةٍ» ورموزٍ دينيَّةٍ مسيحيَّةٍ رغم أنهم لم يكونوا مسيحيين أصلاً، هذا في حال كونهم أشخاصاً حقيقيِّين بالأساس..

الشيء ذاته حدث في مجاهل أفريقيا عندما تمّ تنصيرها، الأوثان التي كان القوم يعبدونها، صارت أيقوناتٍ كنسيَّةً، قساوسةً لهم تماثيل وصور، وقد كانوا أوثاناً تُعبد!..

مع الإسلام، باعتباره الدين الخاتم ذا التوحيد الذي لا تشوبه شائبةٌ، كان ذلك يجب أن يواجه بحسمٍ... وإلا سارت الأمور على نحوٍ «يمزج» بين الإسلام وبعض مظاهر الشرك والوثنيَّة، ولو تسلُّلاً خفيفاً،على أطراف أصابع الشرك في البداية..

كان الأمر يحتاج حسماً عمريّاً..

وقد كان.

ثلاثة مواقف عمريَّةٌ حاسمةٌ، منعت وبشدَّةٍ أن تتسرَّب للإسلام تلك الظواهر التجسيميَّة..

صحيحٌ أنَّ بعضها تسرَّب لاحقاً، لكنَّ حسم عمر في تلك الفترة المبكِّرة كان له أثره على أن يكون هناك دوماً إسلامٌ نقيٌّ صافٍ يمكن العودة له..

أربعة مواقف، فلنتأمَّلها.. فالحضارة التي صنعها عمر وجدتْ في هذه المواقف ما يشدُّها ويسندها..

****

(عن نافع قال: بلغ عمر بن الخطاب أنَّ أناساً يأتون الشجرة التي بويع تحتها قال: فأمر بها فقُطعت).[421]

(عن ابن عون قال: بلغ عمر رضي الله عنه أنَّ الشجرة التي بويع عندها تؤتى، فأوعد في ذلك وأمر بها فقُطعت).[422]

إنَّه الحسم.

الناس ذهبت لموضع الشجرة الذي تمَّت فيه البيعة..

سنجد من يبرِّر الحدث..

لم يقصدوا شيئاً.

مجرَّد استذكار.

إنَّما من حبِّهم له عليه الصلاة والسلام

من هنا تؤتى العقائد..

حتى لو لم يقرِّوا بهذا..

حتى لو لم يقصدوا «التبرُّك»..

لقد تعلَّقوا بالشجرة..

وتركوا البيعة..

بدلاً من أن يتعلَّقوا بالبيعة..

تعلَّقوا بالشجرة!..

هذه طلائع الوثنيَّة.. تتسلَّل على رؤوس أصابعها..

كان عمر بن الخطاب يهدِّد بسيفه المنافقين.. أأضرب عنقه يا رسول الله؟

---

٤٢١ مصنف ابن أبي شيبة ٧٥٤٥

٤٢٢ أخبار مكة للازرقي ٢٨١٧

أمّا مع تلك الشجرة، فإنّه يأمر بقطعها بحسمٍ..

الشجرة عندما تتحوّل لتكون متّكأً لتسلُّل الشرك وتشويه عقيدة التوحيد، التي هي «**الموحِّد العقديّ**» لهذه الأمّة.. فإنَّ هذه الشجرة لن تكون إلا كالشجرة الأخرى في القرآن، الشجرة الملعونة..

ولكنَّ عمر، قطعها..!

بحسمٍ ليس إلا لعمر..!

****

(عن زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - قَالَ لِلرُّكْنِ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّى رَأَيْتُ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - اسْتَلَمَكَ مَا اسْتَلَمْتُكَ. فَاسْتَلَمَهُ، ثُمَّ قَالَ فَمَا لَنَا وَلِلرَّمَلِ إِنَّمَا كُنَّا رَاءَيْنَا بِهِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: شَيْءٌ صَنَعَهُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - فَلاَ نُحِبُّ أَنْ نَتْرُكَهُ).[٤٢٣]

أيُّها الحجر..

أنت لا تنفع ولا تضرُّ..

نقبِّلك ونحن نعرف أنّك لا تنفع ولا تضرُّ..

نقبِّلك فقط لأنّه عليه الصلاة والسلام قام بذلك.

لست أكثر من حجر أساسٍ للبناء الكبير الذي بدأه سيِّدنا إبراهيم.. قبَّلك الرسول عليه الصلاة والسلام كي يجعلنا نشعر بأهميَّة البناء الذي علينا أن نستمرَّ في إعلائه وترقيته..

لا شيء غير هذا فيك، لن نتعلّق بك، كحجرٍ..

بل بقيمة أن نبني.. بقيمة أنّه عليه الصلاة والسلام معلِّمنا وقدوتنا، قد مسّك بشفتيه، ليقول لنا أن نواصل البناء بحبٍّ..

توحيدنا، أعمق وأنقى من أن نعدّك أكثر من ذلك.

****

قويّةٌ جداً هي كلمة عمر مع الحجر الأسود.

ولولا أنّه قالها بهذا الوضوح، لتسلّلت الكثير من المفاهيم «التجسيميّة» بحجّة الحجر الأسود وتقبيل الرسول عليه الصلاة والسلام له..

---

٤٢٣ صحيح البخاري ١٦٠٥

لكنَّ عمر، كالحدِّ القاطع، حسم الأمر.

بالمناسبة: لم يكن يحدِّث الحجر الأسود، فهو لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يسمع ولا يتكلم أيضاً.

كان يُسمع من حوله.

ويُسمعنا.

****

ولا بدَّ أنَّه عليه الصلاة والسلام قد أدرك أنَّ عمر قد وصل إلى الأفق الأبعد في تحرُّره من أيِّ معنى تجسيميٍّ مشوِّش..

لذلك فقد طلب من عمر تحديداً، دوناً عن كلِّ الصحابة.. بمحو كلِّ الصور في الكعبة..

أن النبي صلى الله عليه و سلم أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه زمن الفتح وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحو كلَّ صورةٍ فيها ولم يدخل البيت حتى مُحِيت كلُّ صورةٍ فيه. (سنن أبي داود ٦٥١٤ وصححه الألباني)

لا يمكن أن يكون ذلك محض صدفةٍ..

حاشا لله.

****

في السياق نفسه، نرى تفرُّد عمر بلغةٍ صادمةٍ مع كفَّار قريشٍ الذين يوشكون أن يغادروا كفرهم إلى الإسلام.. كما لو أنَّ لغته الصادمة تلك ستجهز على آخر شكوكهم وهواجسهم تجاه ما يفعلون..

«... فدخل (أبو سفيان) إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في قبَّةٍ من أدم، وعمر بن الخطاب خلف القبَّة، فجعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعرض عليه الإسلام، فقال أبو سفيان: كيف أصنع بالعزى؟ فقال عمر من خلف القبَّة: تخرأ عليها، فقال: وأبيك إنَّك لفاحشٌ، إني لم آتِك يا ابن الخطاب! إنما جئت لابن عمّي، وإيَّاه أكلِّم».[٤٢٤]

بهذه البساطة..

تخرأ عليها..

ليس لدى عمر بن الخطاب ما يتحفَّظ من استخدامه.. ما دام لا يتناقض مع نصٍّ شرعيٍّ..

تخرأ على العزى يا أبا سفيان..

---

٤٢٤ مصنف عبد الرزاق ج٥ ص ٣٧٦

بالحرف.. تخرأ على العزى.. لعلّه تذكّر يوم أحد.. يوم وقف أبو سفيان نفسه أسفل الجبل.. وهو يتشفّى بالمسلمين، ويقول لمن فرَّ منهم إلى قمّة الجبل: **أفي القوم محمّد؟ أفي القوم محمّد؟ أفي القوم محمّد؟ ثلاثاً فنهاهم رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يجيبوه ثمَّ قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أمَّا هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدوَّ الله إنَّ الذين عددت لأحياء كلُّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك.**[٤٢٥]

... ثم قال أبو سفيان: «العزَّى لنا.. ولا عزَّى لكم» (يبدو أنَّها كانت الأثيرة لديه)..

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ألا تجيبونه؟ قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: قولوا الله مولانا ولا مولى لكم..

بضع سنواتٍ فقط.

أبو سفيان يسأل بلوعةٍ: والعزَّى ما أصنع بها!

وعمر يردُّ..

الردَّ المثاليَّ الصادم.. القاتل لأيِّ تردُّدٍ.

****

وجاء أيضاً في السياق التحرريّ من أيّة شائبةٍ تشوب التوحيد المطلق..

(وقد ثبت عنه أنَّه كان في سفرٍ فرأى قومًا ينتابون بقعةً يصلُّون فيها، فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا مكانٌ صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ومكانٌ صلى أم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم !.. أتريدون أن تتَّخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟! إنَّما هلك بنو إسرائيل بهذا. من أدركته فيه الصلاة فليصلِ وإلا فليمض).[٤٢٦]

****

التوحيد الحقيقيّ، المتعالي عن أيِّ تجسيمٍ، المنزَّه عن أيِّ مظهرٍ شركيٍّ، هو قوّةٌ لأيّة حضارةٍ ترتكز عليه لتقوم..

عندما يكون «العامل العقائديُّ الموحِّد» لأمّةٍ ما، هو هذا التوحيد الذي لا يرتبط إلا

٤٢٥ مسند أحمد ١٨٦١٦

٤٢٦ مجموع الفتاوى ابن تيمية ج ٢٧ ص ١٧٨

بالله، وبالتوجُّه إليه كما علَّمنا رجلٌ واحدٌ فقط هو الرسول الخاتم، كلُّ هذا، سيكون عاملاً موحِّداً أقوى، لأمَّةٍ أقوى، ويمدُّها بقوةٍ مطلقةٍ، مستمدَّةٍ من هذا الإيمان بالمطلق..

إيمانٌ يطلق الروح في سديميَّةٍ لا يشوبها شائبٌ، يجعلها أقدر على الإبداع والعطاء والإعمار..
وهكذا كان.

****

منجزات عمر السياسيَّة، الإداريَّة، التعليميَّة، أسهمت في تكملة كلِّ الشروط الأساسيَّة لقيام الحضارة..
العدالة الاجتماعيَّة، التي كانت وسطاً بين الفقر والترف، وفَّرت «شرطاً» ضروريّاً للإبداع والتقدُّم الاجتماعيِّ..
الفقر الشديد، الجوع الذي يثقل كاهل الناس، لن يكون مناسباً لقيام حضارة..
ولا الترف الشديد..
كلٌّ منهما يقتل بذرة الحضارة..
عمر قتل الفقر.. وطارد الترف!..
وفَّر تلك المنطقة الوسطى الضروريَّة لقيام الحضارة.

****

ليس سرّاً أنَّ هذا التوحيد المجرَّد النقيَّ الذي يعطي الإنسان طاقةً وقوَّةً إضافيَّةً تحرِّره من كلِّ ما يعكِّره، والذي هو جوهر عقيدة الإسلام، ليس سرّاً أنَّ هذا التوحيد قد تعرَّض إلى تشويهٍ كبيرٍ ليس على صعيد الممارسات التطبيقيَّة والشعائريَّة فحسب، بل على صعيد الفهم النظريِّ، وإنَّ الوثنيَّة التي استأصلها الإسلام من جذورها، لم تلبث أن وجدت ما يسمح لها بالتسلُّل على أطراف أصابعها.. ولأنَّ التوحيد امتحانٌ مستمِرٌّ، ولأنَّ جزءاً من هذا الامتحان كان في طبيعة النفس البشريَّة التي تستسهل التجسيم والتجسيد، فقد كان من الطبيعيِّ أن تحدث بعض الثغرات مع اتِّساع الدولة، وزيادة عدد المسلمين، ووجود بقايا عقائد وثنيَّةٍ عند الكثير من حديثي العهد بالإسلام الذين لم يجدوا عمر ما في زمانهم لم يجدوا مَن هو حاسمٌ قاطعٌ مثل عمر.. ليقطع لهم الشجرة.. ويجعلهم يتَّجهون إلى شجرة البيعة الحقيقيَّة في داخلهم..

@iAbubader

ساهم هذا التسلُّل في إضعاف التوحيد.. خاصَّةً أنَّه بدأ يجد أمامه مَن يتهاون معه..

وساهم إضعافُ التوحيد في سلب الطاقة المحرِّكة من نفوس المؤمنين.. في إفراغها من الكثير من محرِّكاتها وقوَّتها..

وأدَّى هذا إلى ضعف بنية المجتمع.. تدريجيَّاً..

وأدَّى الضعف إلى المزيد من الضعف.. استدعى الضعفُ مع الترف مع الفرقة السياسيَّة والاستبداد مجيءَ التدهور والتعجيل به..

وكانت هذه البيئة هي البيئة المناسبة الخصبة لنموِّ معاني التجسيم والشرك التي تراكمت بالتأكيد في أذهان الكثير من المسلمين..

لم يكن من الممكن مسُّ النصوص القرآنيَّة بالتأكيد وتحريفُها لتنسجم مع هذه المعاني المضادَّة لكلِّ ما جاء الإسلام به..

لكنَّهم كانوا يحاولون البحث عن «حوادث» صغيرةٍ، وتغيير مسارها ومعانيها ليبرِّروا ويشرعنوا خروج مسارهم عن جوهر الإسلام..

ولأنَّ هؤلاء كانوا حافلين بتناقضاتهم، فقد وجدوا موقفاً واحداً لعمر بن الخطاب تحديداً، وحاولوا عبره شرعنة فتح بابٍ نحو سلوكهم المفارِق لجوهر التوحيد..

رغم أنَّ هذا الموقف العمريَّ ككلِّ مواقفه الأخرى، كان يغلق الأبواب أمام هذه السلوكيَّات..

لكنَّهم، تمكَّنوا من قراءة نصف الموقف، على نحوٍ يقرِّب مِن: «لا تقربوا الصلاة» فقط كي يبرِّروا لأنفسهم ما انحطُّوا إليه..

حدث الموقف أثناء أزمة الرمادة.. عندما حلَّ الجفاف والقحط...

(عن أنس رضي الله عنه: أنَّ عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهمَّ إنَّا كنَّا نتوسَّل إليك بنبيِّنا صلى الله عليه وسلَّم فتسقينا، وإنا نتوسَّل إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقنا قال: فيسقون).[٤٢٧]

عمر يتوسل بالعبَّاس!!

---

٤٢٧ صحيح البخاري ٣٥٠٧

وفي صحيح البخاري؟!

أيَّة حجةٍ أكبر لهؤلاء إذاً.

عمر يتوسَّل بالعباس!..

يشبه موقفهم مَن يشرب النبيذ، لأنَّه وجد في الحديث الصحيح أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام أباحه..

الأمر تشابه أسماء لا أكثر.

نبيذ الأمس كان يُطلَق على ما نسمِّيه اليوم بـ «العصير».

ونبيذ اليوم هو «خمرة» محرَّمة بلا شكٍّ.

مَن يحلِّل نبيذ اليوم، بالاستناد على نبيذ الأمس.. هو بالتأكيد مخادعٌ لنفسه.

وكذلك مع مَن يستند على لفظة التوسُّل التي قالها عمر، والتي لا نعرف أيَّ استخدامٍ لها بهذه الصيغ سابقٍ على ما قاله عمر..

عمر كان «يتوسَّل» بالعبَّاس تعني أنَّه كان يقول له: ادع لنا ربَّك!.. أي كما يقول أيٌّ منَّا لمَن نثق به: ادعُ لنا!..

والتوسُّل في المصطلح الشائع اليوم أمرٌ مختلِفٌ تماماً، يتراوح بين البدعة التي لم تأت بدليل (مثل التوسُّل بالجاه، أي الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى بجاه أحد الصالحين) وبين التوسُّل الذي يتجاوز خطورة البدعة إلى الشرك المحض، عبر التقرُّب بالنذور إلى الأولياء كي يقوم هؤلاء (في موتهم) بتلبية طلباتٍ معيَّنةٍ قام بها هؤلاء!..

كلُّ هذا تحت دليلٍ واحدٍ، يستند إلى واقعةٍ عمر مع العبَّاس!..

إنَّها مجرَّد حجَّةٍ واهيةٍ يتحجَّج بها هؤلاء.

توسُّل عمر كان كما يلي: دعاءٌ جماعيٌّ طلباً للمطر بقيادة العبَّاس.. كما كان عليه الصلاة والسلام يستسقي للناس.. يقود دعاءهم الجماعيّ..

في الحقيقة إنَّ تمام الموقف كان يصبُّ في غير صالح هؤلاء..

لو أنَّ «توسُّلهم» كان مشروعاً، لكان من الأولى بعمر بن الخطاب أن يتوسّل بجاه النبيِّ.. أو أن يسأل العبَّاس أو أيّاً كان، أن يتوسّل بجاه نبيِّه في طلب السقاية..

بعبارةٍ أخرى: لو أنَّ التوسُّل بجاه الأموات.. أو بأيِّ شيءٍ يتعلَّق بهم كان مشروعاً لفعله عمر هنا.. في هذه اللحظات العصيبة..

لكنَّه لم يفعل.. وقبر نبيِّ الله عليه الصلاة والسلام على مرمى خطواتٍ منه..

كلُّ ما فعله، وبعد أن قام بما قام به من إجراءاتٍ تجاه الأزمة ممّا سبق وفصَّلناه، أنَّه قام بهذا الدعاء الجماعيِّ الذي ينصهر فيه المجتمع، وهو يقول: «آمين» بصوتٍ واحدٍ من عمق القلب الملتاع..

لكن لِمَ اختار عمرُ العبَّاسَ تحديداً؟!..

لعلَّه السبب ذاتُه الذي جعل عمر يختاره ليكون الأعلى عطاءً.. مع السيدة عائشة..

ليس فقط للقرابة المجرَّدة، بل لأنّه كان بحسب ما وصفه عليه الصلاة والسلام **«أجود قريش كفّاً وأوصلها».** [428]

ويقول عنه عليه الصلاة والسلام: **«من آذى العبَّاس فقد آذاني إنّما عمُّ الرجل صنو أبيه».** [429]

وكان هذا الجود والكرم العباسيّ قد جعل الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يطلب منه زكاته مقدَّماً عن سنةٍ أو سنتين.. ويقول ذلك لعمر تحديداً..

«أما علمت يا عمر أنَّ عمَّ الرجل صنو أبيه إنَّا كنَّا احتجنا فاستسلفنا العبَّاس صدقة عامين». [430]

وقبل كلِّ هذا..

لقد كانت صلاة الاستسقاء..

وكانت السقاية - سقاية الحجيج - للعبّاس في مكّة منذ ما قبل الإسلام، بل لقد قيل إنَّه كان قد أسلم سرّاً، ولم يهاجر كي يبقى على السقاية في مكّة[431]، وكان قد سقى الرسولَ الكريم عليه الصلاة والسلام من زمزم بيديه.[432]

---

428 السلسلة الصحيحة ٣٣٢٦
429 الجامع الصغير ١٠٨٦٦
430 سنن البيهقي الكبرى ٧١٥٩
431 المستدرك على الصحيحين ٥٤١٢
432 صحيح البخاري ٢٦٦٢

كما كان قد استأذن في أن يبيت بمكّة أيام التشريق، وأذن له عليه الصلاة والسلام.[٤٣٣]

كلُّ هذا يجعل من اختيار عمر للعبّاس ليدعو الله، وليؤمّن الناس خلفه.. أمراً أعمق وأبعد من مجرَّد القرابة للرسول عليه الصلاة والسلام على أهميَّتها في محبَّة الرسول له.. لقد كان العبّاس بمثابة الأب للرسول، وكان في الوقت نفسه رمزاً للجود والكرم، وهذا له دلالته في الأوقات العصيبة التي كانت الأمّة تمرُّ بها.. الناس كانت تقف لتقول: «آمين» خلف شخصٍ لم يقصِّر في العطاء.. بل كان أكثرهم عطاءً في الأزمات..

كما أنَّ لدور العبّاس في سقاية الحجيج على مرِّ الأعوام.. تأثيرا في نفوس المسلمين وهم يرونه يطلب منه عزَّ وجلَّ أن يسقيهم..

ستكون الـ «آمين» مختلفةً حتماً..

إذاً كان لاختيار عمر للعبَّاس ليدعو لهم أسبابٌ وأبعادٌ عميقةٌ أكثر بكثيرٍ من مجرَّد قرابة الدم..

ثم يأتي من يقرأ نصف موقفٍ، وبِبُعدٍ واحدٍ ويقول: توسُّل!

****

في ذات الوقت، قام عمر بالعمل على تكريس سلوكيّاتٍ معيَّنةٍ، هي في حقيقتها الناتج التطبيقيّ لقيم الحضارة..
بعض هذه السلوكيّات اليوميَّة، هي من سنَّته عليه الصلاة والسلام، وقد عاملها عمر على **أنَّها مّمَا يجب أن يكون « سلوكاً شعبيّاً» يمارس بتلقائيَّةٍ..**
لقد أدرك رضي الله عنه أنَّ هذا السلوك يجب أن يكون سلوكاً للجميع، ليس فقط لأتباعه عليه الصلاة والسلام، ولكون سنَّته حتماً هي الأطهر والأزكى، بل لأنَّه وعى أنَّ لكلِّ حضارةٍ هناك «سلوكيّاتٍ معيَّنةً» تميِّزها.. **سلوكيّاتٍ تكون مثل «الشفرة» والهويَّة التي يمكن تمييز أيَّة أمَّةٍ من خلالها..**
حتَّى اليوم، لكلِّ شعبٍ وأمَّةٍ سلوكيّاتٌ تميِّزها، يمكن تمييز بعضها بمجرَّد مشاهدة هذا السلوك..
اليابانيُّون يميِّزهم شيءٌ، الهنود شيءٌ آخر، الأمريكيُّون شيءٌ ثالثٌ..
كلُّ الأمم لديها سلوكيّاتٌ نابعةٌ من قيمها تمثِّلها وتميِّزها.

---

٤٣٣ صحيح البخاري ١٦٨٥

رأى عمر أنَّ السلوك الشعبيَّ للأمَّة الناشئة يجب أن يكون «سنَّة الرسول» عليه الصلاة والسلام.. وكان عمر يستخدم الدرَّة أحياناً في تكريس هذا السلوك وجعله عرفاً لا يُناقش.

(عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال عمر بن الخطاب: لا يدخل رجل على مغيبة، قال: فقام رجل فقال: إنَّ أخاً لي أو ابن عمٍّ لي خارج غازياً، وأوصاني بأهله، فأدخل عليهم، قال فضربه بالدرَّة، ثمَّ قال ادن كذا ادن دونك، وقم على الباب لا تدخل، فقل ألكم حاجةٌ أتريدون شيئاً).[٤٣٤]

(عن سليمان بن حنظلة قال: أتينا أبي بن كعب لنحدث إليه، فلمَّا قام قمنا ونحن نمشي خلفه فرهقنا عمر فتبعه فضربه عمر بالدرَّة قال فاتَّقاه بذراعيه، فقال: يا أمير المؤمنين ما نصنع؟ قال: أو ما ترى فتنة للمتبوع مذلَّة للتابع).[٤٣٥]

(عن المسيب بن دار قال: رأيت عمر بن الخطاب ضرب جمَّالاً وقال: لِم تحمل على بعيرك ما لا يطيق؟).[٤٣٦]

(عن عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب: أنَّ رجلاً حدَّ شفرة وأخذ شاةً ليذبحها فضربه عمر بالدرَّة وقال: أتعذِّب الروح؟! ألا فعلت هذا قبل أن تأخذها؟!).[٤٣٧]

(وعن محمد بن سيرين: أنَّ عمر رضي الله عنه رأى رجلاً يجرُّ شاةً ليذبحها فضربه بالدرَّة وقال: سقها لا أمَّ لك إلى الموت سوقاً جميلاً).[٤٣٨]

(استعمل عمر بن الخطاب رجلاً على عملٍ فرأى عمر يقبِّل صبيّاً له فقال: تقبِّله وأنت أمير المؤمنين لو كنت أنا ما فعلته، فقال عمر: فما ذنبي إن كان نزع من قلبك الرحمة، وإنَّ الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء، ونزعه عن عمله، وقال: أنت لا ترحم ولدك فكيف ترحم الناس).[٤٣٩]

---

٤٣٤ مصنف عبد الرزاق ١٢٥٤١
٤٣٥ سنن الدارمي ٥٣٢
٤٣٦ كنز العمال ٢٥٦٢٩ السلسلة الصحيحة ٣٠
٤٣٧ سنن البيهقي ١٩٦١٦ السلسلة الصحيحة ٣٠
٤٣٨ كنز العمال ١٥٦٤٩ السلسلة الصحيحة ٣٠
٤٣٩ كنز العمال ٤٥٩٤٩

(... أنَّ عمر بن الخطاب قدم مكة فجعل يجتاز في سككها فيقول لأهل المنازل: قمُّوا أفنيتكم، فمر بأبي سفيان فقال له: يا أبا سفيان قمُّوا فناءكم، فقال: نعم يا أمير المؤمنين حتى يجيء مهَّاننا، ثمَّ إنَّ عمر اجتاز بعد ذلك فرأى الفناء كما كان فقال: يا أبا سفيان ألم آمرك أن تقمُّوا فناءكم قال: بلى يا أمير المؤمنين، ونحن نفعل إذا جاء مهَّاننا، فعلاه بالدرَّة فضربه بين أذنيه، فسمعت هند، فقالت: أبصر به، أما والله لرُبَّ يومٍ لو ضربته لاقشعرَّ بك بطن مكة، فقال عمر: صدقتِ، ولكنَّ الله رفع بالإسلام أقواماً ووضع به آخرين).[٤٤٠]

(عن قتادة: أنَّ عمر بن الخطاب كتب لا يدخل أحدٌ الحمَّام إلا بمئزرٍ ولا يذكر الله فيه حتى يخرج، ولا يغتسل اثنان من حوض).[٤٤١]
(وعن طلق بن حبيب قال: رأى عمر بن الخطاب رجلاً حكَّ إبطه أو مسَّه فقال: قم فاغسل يديك أو تطهَّر).[٤٤٢]
(عن سلمة بن كلثوم: أنَّ أبا الدرداء ابتنى بدمشق قنطرةً، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب وهو بالمدينة، فكتب إليه: يا عويمر ابن أم عويمر ما كان لك في بنيان فارس والروم؟! ما يكفيك حتى تبنى البنيانات وإنما أنتم يا أصحاب محمَّد قدوةٌ).[٤٤٣]

(تعلَّموا القرآن تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، فإنَّه لم يبلغ منزلة ذي حقٍّ أن يطاع في معصية الله، واعلموا أنَّه لا يقرِّب من أجلٍ ولا يبعد من رزق الله قولٌ بحقٍّ وتذكير عظيم، واعلموا أنَّ بين العبد وبين رزقه حجاباً، فان صبر أتاه رزقه، وإن اقتحم هُتِك الحجاب، ولم يدرك فوق رزقه، وأدنوا الخيل، وانتضلوا، وانتعلوا، وتسوَّكوا، وتمعددوا (تشبَّهوا بمعدّ أبي العرب)، وإيَّاكم وأخلاق العجم، ومجاورة الجبَّارين، وأن يرفع بين ظهرانيكم صليبٌ، وأن تجلسوا على مائدةٍ يشرب عليها الخمر، وتدخلوا الحمام بغير إزارٍ، وتدعوا نساءكم يدخلن الحمامات ، فإنَّ ذلك لا يحلُّ، وإيَّاكم أن تكسبوا من عقد الأعاجم بعد نزولكم في بلادهم ما يحبسكم في أرضهم! فإنَّكم توشكون أن ترجعوا إلى بلادكم).[٤٤٤]

(عن أبي موسى قال: إنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعثني إليكم أعلِّمكم كتاب ربِّكم وسنَّة نبيِّكم وأنظِّف طرقكم).[٤٤٥]

---
٤٤٠ كنز العمال ٣٦٠١٨
٤٤١ مصنف عبد الرزاق ١١٢٠
٤٤٢ مصنف ابن أبي شيبة ١٤٥٠
٤٤٣ كنز العمال ٤١٩٤٥
٤٤٤ كنز العمال ٤٤١٨٧
٤٤٥ حلية الأولياء ج ١ ص ٢٥٧ . كنز العمال ١٤٢٠٥

(عن مجاهد قال: كان عمر بن الخطاب إذا سمع الحادي قال: لا تعرِّض بذكر النساء).[٤٤٦]

(عن أبي عكرمة قال: كان عمر بن الخطاب إذا سمع رجلاً يخطئ فتح عليه، وإذا أصابه بلحن ضربه بالدرَّة).[٤٤٧]

(عن أبى عثمان النهدي قال: أتانا كتاب عمر بن الخطاب ونحن بأذربيجان مع عتبة بن فرقد
أمَّا بعد، فاتَّزروا وانتعلوا وارموا بالخفاف، وألقوا السراويلات، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل، وإيَّاكم والتنعُّم وزيّ العجم، وعليكم بالشمس فإنَّها حمام العرب، وتمعددوا واخشوشنوا واخلولقوا واقطعوا الركب، وارموا الأغراض، وانزوا، وإنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عن لبس الحرير إلا هكذا وأشار بأصبعه الوسطى والسبابة).[٤٤٨]

سلوكيَّاتٌ عامَّةٌ، حرص عليها عمر بن الخطاب، تارةً بالتذكير.. وتارةً بالوعظ.. وأحياناً بالدرَّة.. سلوكيَّاتٌ عامَّةٌ، بين النظافة الشخصيَّة.. ونظافة الشوارع.. وآداب الطريق.. التعامل مع الأولاد.. الاعتزاز بالملبس والهويَّة، ودخول الحمَّام، وآداب الاغتسال، والرفق بالحيوان.. وعدم التعالي بالبنيان.. وعدم لبس ما تلبسه الأمم الهالكة.. وسلوكيَّات الاختلاط بين الجنسين..
كلُّها أمورٌ قد تبدو بسيطةً للوهلة الأولى، لكنَّها عميقةٌ جداً..
إنَّه أمير المؤمنين، رأى رجلاً يحكُّ إبطه فقال له أن يذهب ليغتسل..!
ليس أمراً شخصيّاً.. إنَّها الحضارة تتمثَّل في قيمٍ وتصرُّفاتٍ صغيرةٍ..
الحضارة تكون في هذه التصرُّفات الصغيرة قبل أن تكون في ناطحات السحاب الكبيرة.. بل إنَّها هي التي تؤدِّي إلى البناء المتطاول العالي الذي ستكون قواعده أقوى وأرسخ بوجود هذه القيم الصغيرة التي تعطي القوَّة للمجتمع..
هذه السلوكيَّات الصغيرة، هي جزءٌ أساسيٌّ من الحضارة، إنَّها ليست «الحضارة»، لكنَّها قيمٌ نابعةٌ من الجوهر..

---

٤٤٦ سنن البيهقي ٩٤٤٢ كنز العمال ٤٠٦٩٤
٤٤٧ كنز العمال ٢٩٥١١
٤٤٨ كنز العمال ٤١٨٧٠

قيمٌ لا بدَّ أن تكرَّس، أن تصير سلوكَ الناس «اليوميّ» ،الذي يفعلونه دون تفكيرٍ، لأنّه جزءٌ من حياتهم وشخصيَّاتهم.. إنَّه السلوك الذي يقود الحضارة..
الحضارة، صُنع في الإسلام.

****

وكان عمر مدركاً أنَّ الحضارة التي كان يصنعها، تحتاج دوماً لدماءٍ جديدةٍ لشبابٍ يضخُّون فيها من روحهم، من نظرتهم الجديدة للأشياء..

(عن ابن شهاب: لاَ تَحَقِّرُوا أَنْفُسَكُم لِحَدَاثَةِ أَسْنَانِكُم فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا نَزَلَ بِهِ الأَمْرُ الْمُعْضِلُ دَعَا الْفِتْيَانَ فَاسْتَشَارَهُم يَبْتَغِى حِدَّةَ عُقُولِهِم).[449]

يبتغي حدَّة عقولهم!

يريد أن يطمئنَّ أنَّ المسيرة ستجد من يكملها، ستجد عقولاً ترفدها..

الأمر المعضل، يأخذه عمر للفتيان.. يستشيرهم!

وهل يفعل هذا غير عمر!

لم يكن مجرَّد حاكمٍ عادلٍ..

كان صانع الحضارة..

والحضارة لا تُصنع بجيلٍ أو بجيلين.. بل بأجيالٍ متعاقبةٍ، تسلِّم واحدةٌ شعلة البناء للأخرى..

لذلك كان يريد أن يقف ليرى «الجيل القادم» وهو يواجه معضلات الأمور.. كيف سيتصرَّف؟

وكان يقدِّم ابن عباس، الذي لا يزال صغير السنِّ، ليُجلسه في مجلس أشياخ بدر، فلمَّا سئل عن ذلك قال **(هذا فتى الكهول، له لسانٌ سؤولٌ وقلبٌ عقولٌ)**.[450]

---

449 سنن البيهقي ٢٠٨٢٨
450 مصنف عبد الرزاق ٢٠٨٢٤

لم يقل: لأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام دعا له.. بل لأنَّ نتيجة دعاء الرسول كان أنَّ ابن عباس بدمه الشابِّ وعقله المتجدِّد، جعلت منه، كثير الأسئلة، شديد الربط.. كان بالضبط ذلك النموذج الشبابيَّ متوقِّد الذهن الذي يمكِّنه من أن يُكمل درب البناء.

****

لكن ليس كلَّ شابٍّ!..

عنه قال: (إني لارى الرجل فيعجبني، فأقول: له حرفة؟ فان قالوا: لا، سقط من عيني).[451]
قد يكون عابداً.. فصيحاً.. نظيف الهيئة..

هل له حرفةٌ؟..

لا..

سقط من عين عمر..!

سقط من معايير الحضارة..

فعين عمر ترى بمعيار الحضارة..!

(وأورد الزمخشري في سورة الانشراح عن عمر بلفظ: إني لأكره أن أرى أحدكم سَبَهْللا (بطَّالا) لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة).[452]

أن يرى أحدهم عاطلاً.. بلا عملٍ.. كان ذلك يعني وجود خلل..

الحضارة لا يمكن أن تتوافق مع وجود أشخاصٍ عاطلين عن العمل.. يجب أن يكون هناك فرصٌ للعمل تسمح للكلِّ أن يُثبتوا أنفسهم وذواتهم وقدرتهم على الإضافة والإسهام في البناء الحضاريِّ..

ليس هذا فقط، فقد كان يرى أن "القوَّة في العمل"..

(كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى: أمَّا بعد فإنَّ القوَّة في العمل أن لا تؤخِّروا عمل اليوم لغدٍ فإنَّكم إذا فعلتم ذلك تداركت عليكم الأعمال، فلم تدروا أيَّها

٤٥١ كنز العمال ٩٨٥٨
٤٥٢ تفسير الزمخشري - سورة الانشراح

تأخذون فأضعتم، فإذا خُيِّرتم بين أمرين أحدهما للدنيا والآخر للآخرة، فاختاروا أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإنَّ الدنيا تفنى وإنَّ الآخرة تبقى، كونوا من الله على وجلٍ، وتعلَّموا كتاب الله فإنه ينابيع العلم وربيع القلوب).[٤٥٣]

القوَّة في العمل!..

العمل ليس متعباً إذاً!..

لا..هو يزوِّدنا بالقوَّة... كلَّما عملنا أكثر..

ولا تؤخِّروا عمل اليوم إلى الغد؟!

لماذا توهَّمنا أنَّ هذه مبادئ حديثةٌ، من صنع الحضارة الغربيَّة..

ها هو عمر يوصي عامله باحترام الوقت بهذا الوضوح، في جدول أعمالٍ مزدحمٍ بين أعمالٍ للدنيا وأعمالٍ للأخرى، وهو الجدول الذي سينشئ دنيا تقود إلى آخرةٍ نشتهيها..

جدولٌ اجتمعت فيه الدنيا والآخرة، دون تناقضٍ..

هو الجدول الذي يجب أن يكون عندنا جميعاً.

****

حضارة الإسلام، تلك التي شيَّدها عمر، كانت حضارة عزٍّ.. عزٍّ ليس بالمعايير القادمة من حضاراتٍ أخرى.. ليس بعزِّ التطاول في البنيان بينما القواعد منخورةٌ بالظلم الاجتماعيِّ والحكم بغير ما أنزل الله..

بل بعزٍّ يبتدئ من القواعد، بمعايير إسلاميَّةٍ.. بمعايير لا تستعير من التجارب الأخرى، غير الأساليب والوسائل، ما دامت لا تتعارض مع القيم الأساسيَّة في الإسلام..

عزُّ الإسلام، يبدأ من شخصٍ يؤمن بأنَّه خُلِق ليكون الخليفة، ليحكم بما أمره الله.. شخصٍ يعتزُّ بمكانته.. ويعتزُّ بإيمانه.. بإسلامه.. يؤمن بأنَّه أفضل ما يمكن أن ينال.. وبأن عزَّته لا يمكن أن تأتي من سواه..

كما قال ابن الخطاب، وهو على مشارف بيت المقدس، ورجلاه غائرتان في الوحل يُخرج

---

٤٥٣ مصنف ابن أبي شيبة ٣٥٢٩٥

بعيره من المخاضة.. عندما قال له أبو عبيدة أنه يخشى أن يراه البطارقة بهذا الوضع..

"إنَّا قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام.. فلن نبتغي العزَّ بغيره.."

جملةٌ بسيطةٌ، تلخِّص كلَّ شيءٍ..

العزُّ ليس في أن تلبس الفخم الأنيق المترف..

بل أن تعمل!.. أن تنتج.. أن تبني..

حسب معايير الإسلام.. حصراً.

****

تلك الحضارة، القوَّة والعزَّة والمنعة والخشوع والتعبُّد تتلخَّص في عمر..

(عن سليمان بن أبي حثمة قال: قالت الشفاء بنت عبد الله ورأت فتياناً يقصدون في المشي ويتكلَّمون رويداً فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نُسَّاكٌ قالت: كان والله عمر إذا تكلَّم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقاً!).[٤٥٤]

هل كانت الشفاء تصف عمر، أم تصف الإسلام الحقيقيَّ؟! الإسلام الذي يقدِّم حضارةً «قارئة» إذا تكلَّمت أسمعت..

وإذا ضربت أوجعت..

وإذا مشت أسرعت..!

(ويروى أنَّ عمر رضي الله عنه رأى رجلاً مظهِراً للنسك متماوتاً، فخفقه بالدرَّة، وقال: لا تمِت علينا ديننا أماتك الله).[٤٥٥]

النسك ليس أن تتماوت..

ليس أن تكون ضعيفاً..

الدين قوَّةٌ.. الإسلام بالذات قوَّةٌ.. يمدُّك بالحياة.. بالايجابيَّة.. يجعلك تقف منتصباً.. شامخاً..

---

٤٥٤ ٤٤٣ كنز العمال ٨٨٢١

٤٥٥ الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة ص ٢٥٣

لذا لم يتحمَّل عمر أن يرى مظهراً سلبيّاً متنكِّراً خلف الدين..

لا تُمت علينا ديننا.. أماتك الله!

(عن الحارث بن عمر النهدي قال: مرَّ رجلٌ على عمر بن الخطاب وقد تخشَّع وتذلَّل فقال: ألست مسلماً؟ قال: بلى، قال: فارفع رأسك، وامدد عنقك، فإنَّ الإسلام عزيزٌ منيعٌ).[٤٥٦]

وفي قولٍ آخر (**فإن الإسلام ليس بمريضٍ**).[٤٥٧]

أنت مسلمٌ؟!..

إذاً ارفع رأسك.. وامدد عنقك!

ارفع رأسك، فأنت مسلمٌ..

ليس تكبُّراً أو تعالياً.. بل عزَّةً وشموخاً.

****

ذلك المتماوت، كان يعيش في عصر عمر!..

لذا انتهره عمر، أنت مسلم؟.. إذاً ارفع رأسك..

لو رآنا..

لقال لنا.. دون أن يسألنا.

أسلموا حقَّاً.. كي ترفعوا رؤوسكم..

٤٥٦ كنز العمال ٨٨٢٢

٤٥٧ النهاية في غريب الأثر ج٤ ص ٨٠٩

بالنِّسبة للمفكِّرين والمحلِّلين، يمكن تحليل أسباب أزمةٍ ما عند نشوبها، واقتراح حلولٍ لهذه الأزمة..

المفكِّر الفذُّ منهم قد ينتبه لبوادر وعلاماتٍ مبكِّرةٍ لهذه الأزمة.. وقد يقول ما يعدُّه الآخرون هراءً سطحيًّا لا صلة له بالواقع.

وبعد عقودٍ، يصدق كلامه ويسعى أصحاب الشأن في تحليل الأمر وتوصيفه وتصنيفه.

العبقريُّ، هو مَن يرى عن بُعدٍ، وعندما يكون الطور الحضاريُّ طور صعودٍ لا طور ترفٍ ولا طور انهيارٍ..

العبقريُّ هو مَن يرى أساليب الوقاية من المرض قبل حدوث أوَّل حالةٍ مرضيَّةٍ.. قبل اكتشاف هذا النوع من المرض أصلاً..

العبقريُّ هو مَن يُقدِّم اللّقاح قبل أن يبدأ المرض أصلاً، ويُعِدُّه ليكون مكوِّناً أصيلاً في وجبة الغذاء الأساسيَّة.. بحيث يكون مصدراً للقوَّة والمنعة قبل أن يكون هناك أيَّة احتماليَّةٍ للإصابة.

لأنَّ عمر، هو العبقريُّ الذي ليس هناك من «يفري فريه».. فقد كان من هؤلاء وأكثر..

وأكثر.

العهد الذي وُجِد، فيه عمر، هو عهد الصعود الحضاريّ الإسلاميّ بلا منازعٍ.

مشاكل هذا العهد وتحدِّيَاته، هي تحدِّيَات الصعود..

الجهد الذي يبذله أبناء الأمَّة، حثُّهم على المزيد، الحرص على أن تكون بوصلة قيمهم المحرِّكة لهم في الاتّجاه الصحيح..

كلُّ هذه «تحديَّات» الصعود، وقد رأينا كيف تعامل عمر معها..

كما أنَّه تعامل مع أولى بوادر الترف.. عندما تدفَّقت الأموال إلى المجتمع المدنيِّ.. ورأى ببصيرته التي تركَّبت عبر القرآن أنَّ ذلك قد يكون اختباراً تمرُّ به كلُّ الحضارات وقلَّما تنجو واحدةٌ منه..

لكنَّه أيضاً، وبالبصيرة نفسها.. تحدَّث عن مشاكل الـ «ما بعد».. المشاكل التي تحدث في أطوار الانهيار..

لم تكن تلك نبوءةً..

بل كانت بصيرةً..

كان ينظر لمستقبل الأمَّة ويقول..

ولعلَّه كان يتحدَّث معنا.

****

مشكلة الهويَّة عموماً، واللغة — كجزءٍ من مكوِّنات الهويَّة - خصوصاً، لا تحدث في فترات العزَّة.. فترات الصعود.. الأمَّة تكون في حالة إشعاعٍ.. والشعور بالقوَّة والمنعة يكون جزءاً من التفاعل المتبادل والمشترك بين الفرد والمجتمع، الذي يعدُّ المحافظة على هويَّة الأمَّة جزءاً من التحصيل الحاصل.. جزءاً من بديهيَّاتٍ لا يفكِّر المجتمع في الخروج منها أو عنها لأنَّ متطلَّبات الخروج غير موجودةٍ أصلاً.. «الخروج عن الهويَّة» هو من الأمور غير المفكَّر فيها في هذه المرحلة... يمكن أن يحدث حيادٌ عن «القيم المحرِّكة».. يمكن لهوى نفسٍ أو سيطرة شهوةٍ أن يجعل فرداً ما في غير مستوى المجتمع عموماً..

لكنَّ الخروج عن الهويَّة الاجتماعيَّة أمرٌ مختلفٌ.

وهو أمرٌ نادر الحدوث في هذه المرحلة تحديداً.

بعبارةٍ أخرى: عندما تكون منتصراً، فإنَّ الغالب هو أن يقوم المغلوب بتقليد هويَّتك ومحاولة تقليدك ونسخك في كلِّ ما يظهر على سطحك.. أنت المنتصر، والمنتصر - غالباً - يأخذ كلَّ شيءٍ.. خصوصاً لمن كانت هزيمته أكثر وأعمق من مجرَّد «هزيمةٍ عسكريَّةٍ».

انتصار القيم (حتى لو كانت سلبيَّةً) في مواجهة أصحاب قيمٍ (حتى لو كانت إيجابيَّةً نُكِبت بحامليها) يؤدِّي غالباً إلى زعزعة الهويَّة عند الطرف المهزوم، وتبنِّيهم بعضاً من مظاهر هذه الهويَّة.. مثل الملابس.. العادات..

واللغة.. من باب أولى..

في عهد عمر، كان ما يحدث، وما هو طبيعيٌّ أن يحدث بحسب قوانين السنن الاجتماعيَّة، أن تقوم الشعوب التي فتحت بلدانها، بتبنِّي بعضاً من الهويَّة الإسلاميَّة المنتصرة، ولأنَّ هذه الهويَّة كانت قائمةً على «الإسلام» فقد كان هذا التبنِّي أو اتِّباع المغلوب للغالب في هذه الحالة، يتضمَّن دخول هذه الشعوب تدريجيَّاً في الإسلام..

لكن أن يحدث العكس!..

نادرٌ جدَّاً.. وإن حدث فهو يعني وجود خللٍ في فهم مَن حدث عنده هذا للقيم التي انتصرت..

وربَّما يدخل الأمر جزئيَّاً في تجريب الترف الذي كانت تعيشه نخب هذه الأمم (وربَّما السبب الأهمّ في هلاكها..) كما مع ملابس الأعاجم التي ارتداها بعض الصحابة، ولم يحدِّثهم عمر، ولم يسلِّم عليهم حتى خلعوها..

لكنَّ القاعدة العامَّة.. المنتصِر لا يقلِّد المغلوب.

****

فَهِمَ عمر بعبقريَّته الحادَّة أنَّ اللغة واحدةٌ من أهمِّ مقوِّمات الحفاظ على القيم الحضاريَّة وتماسكها.. فَهِم بعبقريَّته أنَّ اللغة التي حملت «القرآن الكريم» وقيمه وتعليمات نبيِّه، هي بمثابة الوعاء الحامل للقرآن ولقيمه.. وأنَّ أيَّ ثلمٍ أو كسرٍ في هذا الوعاء سيؤدِّي حتماً إلى حدوث خللٍ في عمليَّة نقل هذه القيم.. في توصيلها..

وبالتالي في عمليَّة التفاعل كلِّها!

ربَّما لم يكن هناك بوادر واضحةٌ،لأنَّ المرحلة لا تستلزم وجود انحرافٍ في الهويَّة..

لكنَّ عمر كان بالمرصاد لما سيحدث لاحقاً..

كما لو أنَّه يترك لنا علامةً أو بصمةً.. علينا أن نعمل عليها الآن.

قال عمر: (تعلَّموا العربيَّة فإنَّها تثبِّت العقل، وتزيد في المروءة).[458]

من السهل جداً على مسلمي اليوم أن يقولوا: المهمُّ ما هو في القلب.. المهمُّ التطبيق.. المهمُّ أن نؤدِّي ما علينا حتى لو كنَّا نتحدَّث بلغةٍ هجينةٍ لا نعرف الغالب من المغلوب فيها..

لكنَّ عمر.. يقول عن العربيَّة: تثبِّت العقل وتزيد المروءة!..

العقل والمروءة!..

بالنسبة لعمر، فإنَّ عقله كان يعمل بنظام تشغيلٍ مستمدٍّ من القرآن.. نظام تشغيلٍ قرآنيٍّ..

لو كان في عربيَّته خللٌ.. لأدَّى هذا إلى إحداث خللٍ في تشكُّل عقله..

والمروءة هنا هي التحلِّي بخلقٍ جوهريٍّ بسيطٍ: أن لا تفعل في السرِّ ما تستحي أن تفعله في العلن..

ما علاقة هذا بالعربيَّة؟

علاقته هو أن يكون قلبك وظاهرك على لسان قومٍ واحد.. لا أن تفكِّر وتتحدَّث بلسان قومٍ ليسوا قومك.. قيمُك ليست قيمَهم.. وأرضُك ليست أرضَهم..

فقدان المروءة ازدواجيَّةٌ في السلوك.. انفصامٌ في الشخصيَّة.. بدرجةٍ ما..

أن تفقد لغة قومك.. وتبدِّلها بلغة غيرهم .. ترطن بها.. فهذا أيضا انفصامٌ بدرجةٍ أعمق..

****

(إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلاً يتكلَّم بالفارسيَّة في الطواف فأخذ بعضده وقال: ابتغِ إلى العربيَّة سبيلاً).[459]

عن عبد الرزاق عن يحيى بن العلاء عن طلحة عن عطاء قال: بينما عمر بن الخطاب يطوف بالكعبة إذ سمع رجلين خلفه يرطنان، فالتفت إليهما، فقال لهما: ابتغيا إلى العربيَّة سبيلاً.[460]

---

٤٥٨ كنز العمال ٩٠٣٧ شعب الإيمان - البيهقي ١٦٢٥
٤٥٩ شعب الإيمان للبيهقي ١٦٢٦
٤٦٠ مصنف عبد الرزاق ٩٧٩٣

ربّما لم يكن الرجل عربيّاً.. ربّما كان فارسيّاً أصلاً.. وربّما أخذ بعضده بحنانٍ، لا بقوّةٍ.. لكنّه مع هذا، طلب منه أن يتعلّم العربيّة..

لو أنّ الرجل كان عربيّاً.. وسمعه عمر يتحدّث بالفارسيّة لربّما لم ينتهِ الأمر بأقل من تعزيرٍ بضربٍ بالدرة..

لكنّ الرجل لم يكن عربيّاً..

ولهذا أخذ بعضده.. ربّما بحنانٍ قويٍّ يليق بعمر.. وقال له: "ابتغِ إلى العربيّة سبيلاً".

تعلّمها..

فلننتبه أنّه قال له: ابتغِ السبيل، وهو في الطواف، في توازٍ يذكّر بأنّ الرجل ابتغى إلى البيت سبيلاً..

كما لو كان يقول له:

لو استطعت سبيلاً إلى العربيّة، فابتغِه.

****

(مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم يرمون نبلا فعاب عليهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا قوم متعلمين، فقال : لحنكم علينا أشد من سوء رميكم).[461]

ها هو يرى نموذجاً مما سنراه كثيراً في أيامنا.. ولعلّه كان نادراً جدّاً أيّامهم.

كانوا يرمون على نحوٍ سيئٍ

لم يجاملهم.. "بئس ما رميتم" قد تحفّزهم على العمل أكثر ممّا تفعل كلمات المجاملة..

لكنّهم اعتذروا عن سوء رميهم بكونهم "متعلّمين".. عنوا أنّهم لم يتقنوا الرمي، لانشغالهم بالتعلُّم، لكنّهم خلال ذلك "لحنوا" وقالوا "إنا قوم متعلمين" بدلا عن "إنا قوم متعلمون"..

اعتذروا ، عن عدم إجادتهم الرماية بكونهم متعلمين.. انشغلوا عن الرماية بالتعلُّم، فلم يفلحوا لا في هذه ولا في تلك..

---

461 مسند الشهاب القضاعي 549

جواب عمر: "والله لذنبكم في لحنكم أشدُّ من ذنبكم في رميكم" يعكس رؤيته العميقة لطبيعة المواجهة: الرمي مهمٌّ، لكنَّ اللغة أهمُّ.

الرمي واللغة معاً في خندقٍ واحدٍ.

لكنَّ اللغة أهمُّ عند عمر.. اللغة تعبِّر عن الانتماء الحضاريِّ أكثر.. تعبِّر عن ارتباط الفرد بهويَّته ومجتمعه وسياقه أكثر..

الرمي مهمٌّ.. لكنَّه هنا مجرَّد تقنيَّةٍ.. مجرَّد وسيلةٍ..

أمَّا اللغة فهي وسيلةٌ أيضاً، لكنَّها تضمُّ في خلال ذلك "رسالةً" أعمق وأدقَّ من أدقِّ سهمٍ يُرمى..

****

تجاوز عمر أمر المقولات والمواقف الآنيَّة في هذا الشأن إلى الجانب القانونيِّ – الإداريِّ.. أي إلى الجانب المؤسَّسيِّ الذي يُكتَب له الاستمرار، ويكون جزءاً من الدولة حتى بعد رحيل شخوصها..

(... أنَّ عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري أنْ مُر من قبلك يتعلَّم العربيَّة فإنَّها تدلُّ على صواب الكلام، ومُرهم برواية الشعر فإنَّه يدلُّ على معالي الأخلاق).[462]

(عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب: عليكم بالتفقُّه في الدين والتفقُّه في العربيَّة، وحسن العربية).[463]

(عن مورق العجلي قال: قال عمر بن الخطاب: تعلَّموا الفرائض واللَّحن والسُّنن كما تُعلَّمون القرآن).[464]

(عن أبي عكرمة قال: كان عمر بن الخطاب إذا سمع رجلاً يخطئ فتح عليه، وإذا أصابه بلحنٍ ضربه بالدرَّة).[465]

(... ويروى أنَّ كاتباً لأبي موسى كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من أبي موسى» فكتب إليه عمر: «إذا أتاك كتابي هذا فاضرب كاتبك سوطاً، واعزله عن عملك»).[466]

٤٦٢ جامع الأحاديث ٢٨٨٦٤ كنز العمال ٢٩٥١٠
٤٦٣ جامع الأحاديث ٣٠٣٣٧ كنز العمال ٢٩٣٥٧
٤٦٤ سنن الدارمي ٢٨٥٠
٤٦٥ كنز العمال ٢٩٥١١
٤٦٦ أنساب الأشراف ج ٣ ص ٣٩٧

ها هو عمر يحوِّل الأمر إلى قانونٍ.

يحوِّله إلى عقوبةٍ وتعزيرٍ تنال مَن يجرؤ على ثلم الوعاء الحضاريِّ.

لا يتركه دون ضبطٍ.. رغم أنَّ الأمر لم يكن قد وصل في وقته إلى أن يكون ظاهرةً..

لكنَّ ذلك العبقريَّ الذي ليس هناك من يفري فريه كان يعلم أنَّ الدورة الحضاريَّة ستتغيَّر..

وسيأتي وقت الانهيار..

وسيؤثِّر ذلك حتماً على الوعاء الحامل!..

****

ثم جاء الانهيار..

جاء مراتٍ عديدة.. كان هناك في البداية لا يزال ثمَّة عزَّة.. ثمَّة رفعة..

لكن توالت الانهيارات..

وزاد التدهور..

وبالتدريج.. قلَّ ما في الوعاء من قيمٍ..

وكان من الطبيعيِّ أن يأتي وعاءٌ آخر.. كما سيفعل أيُّ مهزومٍ.. مهزومٍ في الداخل كما في الخارج.. أن يبدِّل وعاءه بوعاء المنتصر..

أن يعامل الوعاءَ الآخر.. بكلِّ ما فيه من القيم كما لو كان قد هبط من السماء..

قيم المنتصر..

ملابسه.. هيئته..

وبالتأكيد، من باب أولى، لغته.

في أدنى دركٍ يمكن تخيُّله من دركات هزيمتنا.. يبدو موقف عمر، المبكِّر، العبقريّ.. كما لو كان موجَّهاً لنا.. هل سيُمسك بنا من عضدنا؟

لا.. نحن عرب.

@iAbubader

أمسك بعضد مَن هو ليس عربيّاً.. وقال له: ابتغِ إلى العربيّة سبيلاً..

أمّا نحن..

فنستحقُّ ما استحقَّه مَن كان يلحن أمامه.. الدرَّة..

أو ربّما مثل كاتب أبي موسى الأشعري.. الجلد..

بل إنَّنا نشبه أكثر أولئك الذين رآهم يرمون، وقال لهم: بئس ما رميتم.

فلمّا تعلَّلوا بالعلم أثبتوا فشلهم فيه أيضاً.

لو رأى منجزاتنا.. أو بالأحرى لو رأى فشلنا.. لقال: «بئس ما صنعتم»...

ولو سمعنا نتحدث بعدها.. لقال: خطأكم هنا أشدُّ من سوء إنجازكم..

بل ربّما ربط بين الاثنين، وقال لنا إنَّنا تخلَّينا عن لغتنا، عن حضارتنا، فكان أن فشلنا في كلِّ شيءٍ.. فكان أن لم نُنجز..

فَشَلُنا في الإنجاز يرتبط بتَركِنا للغتنا التي هي وعاء قيمنا..

لو كنَّا حريصين عليها لكان الفشل عابراً.. لكان محطَّةً لا بدَّ أن نمرَّ بها في دربٍ يكون الفشل جزءاً من عمليَّة شقِّه وتعبيده.

لكن فشلنا كان مُقيماً دائماً.. لم يكن ضيفاً عابراً..

فشلنا كان حتميّاً لأنَّنا خرجنا من ذواتنا.. أضعناها.. هزيمتنا كانت في داخلنا قبل أن تكون في خارجها..

دربنا إلى استرداد ذواتنا.. يمرُّ حتماً باسترداد عمر.. استرداد ما فهمه، ووعاه من وعاء الحضارة.. استرداده من أن يكون مجرَّد أيقونةٍ نتحسَّر على ضياعها إلى أن يكون عنصراً فاعلاً في حياتنا اليوميَّة..

لا يمكن لقيمنا الحضاريَّة أن تكون أثيريَّةً هائمةً..

لا بدَّ لها من وعاءٍ حاضنٍ..

ولغة القرآن هي وعاءٌ يلمُّ تلك القيم، ويحتضنها..

وإن ضيَّعنا الوعاء، فلا أمل في الإمساك بالقيم!

@iAbubader

مدرسة تجفيف المنابع!

كان الإسلام ثورةً جذريَّةً على الجاهليَّة.

على بُناها الفكريَّة، العقديَّة..

على علاقاتها الاجتماعيَّة كما علاقاتها الإنتاجيَّة.

وعلى طرق معيشتها.. ونمط التفكير فيها..

لكنَّ الإسلام لم يقتصر على ذلك فقط.

الإسلام يقدِّم مشروعاً متكاملاً.. الهدم يليه بناءٌ.. والاستئصال يليه غرسٌ.

بل إنَّ الهدم هو من أجل البناء.

والاستئصال هو من أجل الغرس.

وبين الاثنين: الهدم والبناء، الاستئصال والغرس كانت هناك مسافةٌ لا بدَّ أن تأخذ وقتها الطبيعيَّ.

بعض ما هُدِم، كان كافياً لهدمه أن تُهدم أركانه كي يتداعى.

ولكنَّ البعض الآخر، كان قائماً على سواه، شديد التشعُّب، بحيث أنَّ انهياره كان سيتطلَّب بعض الوقت، لأنَّ هدمه يجب أن يقوم على تجفيف المنابع، لا على هدم الأركان..

مدرسة تجفيف المنابع مدرسةٌ إسلاميَّةٌ قرآنيَّةٌ أصيلةٌ.. موجودةٌ في عمق المنهج

القرآنيِّ في كلِّ ما سوى التوحيد ونبذ الأوثان.. حيث كان الأمر في هذا قاطعاً وحاسماً، علماً أنَّ كلَّ تدرُّجٍ، وكلَّ تجفيفٍ للمنابع، كان قائماً على هذا التوحيد الحاسم بطريقةٍ أو بأخرى.. كلُّ شيءٍ قدَّمه الإسلام كان قائماً على: «لا إله إلا الله».. وكان من توابع «لا إله إلا الله» أن تقضي أولاً على المستنقع بتجفيفه، لكي تقضي على البعوض.. لكي تمنع المرض!..

لا أن تبقى تطارد البعوض، والمستنقع لا يزال يضخُّ المزيد منه..

بكلِّ الأحوال: عمليَّة تجفيف المستنقع هي الأكثر جدوى.

لكنَّها تستغرق وقتاً بالتأكيد.

****

في المرحلة الوسطى بين تجفيف المستنقع، والقضاء على أعراض المرض، كان عهد عمر..

كلُّ الأسس الأولى لتجفيف المنابع والمستنقعات بدأت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، مع نزول القرآن الكريم وآياته..

ولكن لأنَّ التجفيف يتطلَّب وقتاً، ولأنَّ آثار هذا التجفيف تتطلَّب وقتاً أكثر في الظهور، ولأنَّ التحوُّلات الاجتماعيَّة تتطلَّب وقتاً إلى أن تثمر نتائجها، فقد كان من الطبيعيِّ جداً أن لا يحدث ذلك كلُّه خلال حياة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وإنَّما خلال حياة مَن خلفه من الصحابة.. بل أن لا يُنجَز ذلك كلُّه حتى في عهد الصحابة، بل يُنجَز خلال خطواتٍ مهمَّةٍ وفارقةٍ وواضحةٍ بالتدريج خلال المسيرة التراكميَّة لكلِّ من اتَّبع الرسول عليه الصلاة والسلام بإحسانٍ.

ولا يعني هذا قطّ أنَّ الدين لم يكتمل، فقد اكتمل حقَّاً وحتماً مع انقطاع الوحي.. ولكنَّ التطبيق كان لابدَّ أن يأخذ مداه ووقته.

****

فلنفرِّق هنا بين ما قام الإسلام بنسفه فوراً ومن الجذر.. ويشمل الشرك، وكلَّ كبائر الإثم التي حرَّمها الإسلام بوضوحٍ.

وبين ما تدرَّج القرآن في تحريمه.. مثل الخمر.. الحكم النهائيّ كان تحريماً قاطعاً مثل أيَّة

كبيرةٍ حُرِّمت فوراً.. لكنَّ الحكمة القرآنيَّة اختارت التدرُّج في التحريم لأنَّ البدائل كان يجب أن توفَّر، وبالنسبة للخمر، التي كانت بمثابة وسيلة لهوٍ وتخديرٍ جاهليَّةٍ، فقد كان على حياة الإنسان المسلم أن تكون مليئةً بما يشغله، أن يعرف – بالواقع اليوميِّ المعاش- أهميَّة أن يكون واعياً متيقظاً طيلة الوقت.. أن يكون عقلك في حالة انتباهٍ دائمٍ.. ولذا تنسحب الخمر بالتدريج حتى يصير من الواضح تماماً «تناقضها» مع كلِّ ما أمر به الإسلام.. ويكون تحريمها - في وقت التحريم - أمراً جاء في الوقت المناسب بالضبط، لا قبل ذلك، ولا بعده.

لكنَّ تجفيف المنابع ليس مثل التدرُّج في الحكم، بل هو نوعٌ آخر..

تجفيف المنابع هو القضاء على الأسباب الرئيسيَّة لظاهرةٍ سلبيَّةٍ ما.

وترك أعراضها ومظاهرها تموت ببطءٍ..

دون ضجَّةٍ..

والأهمُّ: دون مقاومةٍ.

****

عمَّ نتحدَّث بالضبط؟

وأين كان دور عمر في ذلك؟

نتحدَّث عن أمرين في غاية الأهميَّة.

الرِّق.

والقبليَّة.

في الحالتين، ورغم التباين الموجود في كلٍّ منهما مع كلِّ ما يمثِّله الإسلام، فإنَّ الإسلام لم يحرِّمهما قطعاً..

لم يُطلق الإسلام حريَّة العبيد والإماء، كذلك لم يقض على النظام القبليِّ تماماً.

لكنَّه في الحالتين، ضيَّق الروافد الأساسيَّة التي تصبُّ فيهما، وقدَّم الكثير ممَّا يجفِّف المستنقع تدريجيَّاً..

بالنسبة للرِّقِّ، ورغم عدم وجود نصٍّ قطعيٍّ الدلالة يحرِّمه أو يلغيه مرةً واحدةً، إلاَّ أنَّه في الوقت نفسه، لم يكن هناك نصٌّ يحثُّ عليه أو حتى يشرعنه.

بالمقابل كانت هناك نصوصٌ كثيرةٌ جداًّ، قرآنيَّةٌ ونبويَّةٌ، تشجِّع على تحرير العبيد، وتجعل ذلك عملاً يُتقرَّب به إلى الله عزَّ وجلَّ.

من الناحية العمليَّة، كلُّ مصادر الرِّقِّ التي كانت سائدةً قبل الإسلام عُطِّلت إلا واحدة (دون أن يكون هناك نصٌّ يجعل بقاءها مؤبَّداً).. فقد كانت مصادر الرِّقِّ سابقاً تشمل استرقاق الحرِّ نتيجة قطع الطرق، أو السقوط في دَين، أو كان يُسمح عُرفاً لأبٍ أن يبيع أيَّاً من أولاده أو بناته أو حتى نفسه تحت ظرف الفقر والعوز، كما أنَّ ولادة الجارية لولدٍ كان يجعله عبداً مملوكاً لمالكها أيضاً.

كلُّ هذه الطرق والروافد قام الإسلام بإلغائها بنصوصٍ صريحةٍ وقاطعةٍ مثل:

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ »).[٤٦٧]

عمليَّاً لم يبق إلا مصدرٌ واحدٌ للرِّقِّ مرتبطٌ بالحروب التي يخوضها المسلمون في سبيل دينهم، ودون وجود نصٍّ يلزمهم باتِّخاذ الرِّقِّ خلال ذلك، ودون وجود نصٍّ يحرِّم عليهم ذلك أيضاً..

مقابل ذلك، كان هناك عشرات النصوص التي تحثُّ على عتق الرقيق وتعدُّها جزءاً من الإيمان.. **(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ) (البلد: ١٢ - ١٣)** وتجعل ذلك من أبواب التكفير عن الذنوب أو المخالفات الشرعيَّة أحياناً، وأحياناً من أبواب التقرُّب إلى الله عزَّ وجلَّ وأحيانا إلى العتق من النار..

بل إنَّ جزءاً من ركنٍ من أركان الإسلام الخمسة (الزكاة) قد خُصِّص لغرض تحرير الرقاب: «**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** « **(التوبة: ٦٠)**، أي أنَّ عمليَّة «تحرير العبيد» كانت عمليَّةً مستمرَّةً وجزءاً أساسيَّاً من أركان الدين، كما جعل الإسلام العتق كفَّارةً لأمورٍ يوميَّةٍ تحدث في حياة المسلمين، فالعتق كفَّارةٌ لليمين والظِّهار والإفطار في رمضان عمداً وفي القتل إضافةً إلى ما ورد

---

٤٦٧ صحيح البخاري٢٢٢٧

من الترغيب في العتق تطوعاً، ويكفي فيه أنَّ من أعتق شخصاً أُعتق بكلِّ عضوٍ منه عضوٌ من النار. «**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً، أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ**».[٤١٨]

لكن لِمَ لَمْ يخطُ الإسلام خطوةً حاسمةً أخرى في اتّجاه تحريم الرِّقِّ؟ علماً أنَّ كلَّ المؤشِّرات تشير إلى ذلك.

لهذا سببان..

أولاً - أنَّ الرِّقَّ كان يمثِّل علاقةً من علاقات الإنتاج السائدة في المجتمع، والإسلامُ لم يُلغِ أيَّة علاقةٍ من هذا النوع إلا عبر توفير بديلٍ لها.. عندها سيكون تهاويها وسقوطها تحصيلاً حاصلاً.. علماً أنَّ الإسلام قد ضيَّق فعلاً مصادرها على نحوٍ تحريميٍّ.

وللمزيد من التوضيح، فإنَّ كلَّ ما يقال عن منجزات الحضارة الغربيَّة في إلغاء الرِّقِّ، لم يكن بدوافع الحريَّة والمساواة والإنسانيَّة كما هو شائعٌ.. بل كان بسبب تغيُّراتٍ حادَّةٍ في علاقات الإنتاج بعد صعود الرأسماليَّة والثورة الصناعيَّة، علماً أنَّ تجارة العبيد قد أسهمت أولاً في دفع عجلة الثورة الصناعيَّة وأنَّ تجارة العبيد (خاصَّة في المستعمرات البريطانيَّة في جزر الهند الغربيَّة) درَّت ربحاً فاحشاً على الرأسماليِّين الأوائل، إلا أنَّ ذلك سرعان ما اصطدم بانهيار أسعار العبيد، وبمنافسة البضائع القادمة من أوروبا، وبعدم قدرة العبيد على العمل في المصانع، وبتزايد كلفة إعالتهم بالنسبة إلى ما يقدِّمونه من ربحٍ في ظلِّ انهيار الأسعار، بالإضافة إلى زيادة عددهم على نحوٍ يصعب السيطرة عليه.. كلُّ هذا مهَّد الطريق لصدور تشريعاتٍ قانونيَّةٍ تلغي الرِّقَّ.[٤١٩]

بل واستُخدم لتبرير الحرب بين الشمال الأمريكيِّ (المعتمد على الصناعة، غير المحتاج للعبيد) وبين الجنوب (المعتمد على الزراعة المعتمدة على العبيد)، وكان قرار "لنكولن" بتحرير العبيد (بعد سنتين من اندلاع الحرب عمليّاً) ضربةً قاصمةً للجنوب، حيث فرَّ الآلاف من السود من الجنوب إمَّا ليكونوا أحراراً في الشمال أو ليحاربوا إلى جانب الشماليِّين..

وهذا كلُّه يقود إلى حقيقة أنَّ إلغاء الرِّقِّ لا يمكن أن يكون بمعزلٍ عن تغيُّر علاقات الإنتاج، بالنسبة للرأسماليَّة فقد كان البديل هو علاقات إنتاجٍ جديدةٍ يكون فيها

---

٤١٨ صحيح مسلم ١٥٠٩

٤١٩ Slavery and Capitalism By Eric Williams,1944 The University of North Carolina Press.

الجميع (بغضِّ النظر عن لون البشرة) عبيداً لأصحاب رأس المال دون أن يدركوا ذلك.

وبالنسبة للإسلام كان البديل هو تقديم علاقاتٍ جديدةٍ بين الإنسان والإنسان مبنيةٍ على علاقة هذا الإنسان بربِّه..

ثانياً - من المهمِّ أن نتنبَّه هنا إلى أنَّ أيَّ نسفٍ مبكِّرٍ وجذريٍّ للعبوديَّة يقوم به الإسلام كان سيشوِّش على القيم الجوهريَّة للإسلام.. كان سيختزل ويختصر الأمر كما لو كان صراعاً حول هذا الأمر تحديداً.. وكان سيجلب العبيد إلى صفِّ الدعوة الإسلاميَّة حتى لو كانوا غير مؤمنين بها حقّاً..

بينما كان الأمر مختلفاً عندما كان الأمر يتعلَّق بالإيمان بقيمٍ جوهريَّةٍ عامَّةٍ، كانت ستؤدِّي إلى تجفيف المنابع، وتقوم بتقديم بدائل للبناء.. لا بالهدم فقط.

****

ما الذي فعله عمر في عهده ممَّا يمكن أن يكون استمراراً في مسيرة تجفيف المنابع في شأن العبوديَّة تحديداً؟

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «بِعْنَا أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ نَهَانَا فَانْتَهَيْنَا».[470]

(عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُنَادِي عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ بَيْعَ أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ حَرَامٌ، إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ لِسَيِّدِهَا فَلَيْسَ عَلَيْهَا رِقٌّ بَعْدَهُ).[471]

(عن أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيِّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يَبِيعُ أُمَّهَات أَوْلَادٍ فِي إِمَارَتِهِ، وَعُمَرُ فِي نِصْفِ إِمَارَتِهِ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ قَالَ: «كَيْفَ تُبَاعُ وَوَلَدُهَا حُرٌّ»، فَحَرَّمَ بَيْعَهَا حَتَّى إِذَا كَانَ عُثْمَانُ شَكُّوا - أَوْ رَكِبُوا - فِي ذَلِكَ).[472]

(عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «قَضَى عُمَرُ فِي أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ أَن لَا يُبَعْنَ، وَلَا يُوهَبْنَ، وَلَا يُورَثْنَ، يَسْتَمْتِعُ بِهَا صَاحِبُهَا مَا كَانَ حَيًّا، فَإِذَا مَاتَ عُتِقَتْ»).[473]

(عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ عُمَرَ «أَعْتَقَ أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ، إِذَا مَاتَ سَادَاتُهُنَّ»).[474]

---

٤٧٠ سنن أبي داود ٣٩٥٤ وصححه الألباني
٤٧١ الآثار لأبي يوسف ٨٧٢
٤٧٢ مصنف عبد الرزاق ١٣٢١٠
٤٧٣ مصنف عبد الرزاق ١٣٢٢٥
٤٧٤ مصنف عبد الرزاق ١٣٢٢٦

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذْ سَمِعَ صَائِحَةً فَقَالَ: «يَا يَرْفَأُ، انْظُرْ مَا هَذَا الصَّوْتُ؟» فَانْطَلَقَ فَنَظَرَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: جَارِيَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ تُبَاعُ أُمُّهَا، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: "ادْعُ لِي أَوْ قَالَ: عَلَيَّ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ"، قَالَ: فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا سَاعَةً حَتَّى امْتَلَأَتِ الدَّارُ وَالْحُجْرَةُ، قَالَ: "فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ فَهَلْ تَعْلَمُونَهُ كَانَ مِمَّا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَطِيعَةُ» قَالُوا: لَا، قَالَ: "فَإِنَّهَا قَدْ أَصْبَحَتْ فِيكُمْ فَاشِيَةً، ثُمَّ قَرَأَ {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [محمد: ٢٢]، ثُمَّ قَالَ: وَأَيُّ قَطِيعَةٍ أَقْطَعُ مِنْ أَنْ تُبَاعَ أُمُّ امْرِئٍ فِيكُمْ، وَقَدْ أَوْسَعَ اللَّهُ لَكُمْ؟ "قَالُوا: فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ. قَالَ: «فَكَتَبَ فِي الْآفَاقِ أَنْ لَا تُبَاعَ أُمُّ حُرٍّ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةٌ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ»).[475]

(عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: أَعْتَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ وَأُمَّهَاتِ الْأَسْقَاطِ).[476]

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُ بَيْعَ أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ، فَقَالَ: لَكِنَّ عُمَرَ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ أَعْتَقَهُنَّ).[477]

(عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ , أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَعْتَقَ أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ , وَقَالَ عُمَرُ: أَعْتَقَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).[478]

فلنقف عند هذه الشواهد.

تحديداً عند الشاهدين الأخيرين.

كلام عكرمة، عن عمر(القويّ الأمين) الذي أعتق أمّهات الأولاد.

وكلام عمر نفسه عمّا فعله: لقد أعتقهنّ رسول الله عليه الصلاة والسلام..

ورسول الله لم يفعل ذلك في حياته.

لكنّ السير على درب سنّته عليه الصلاة والسلام كان سيؤدّي حتماً إلى ذلك..

يشبه الأمر مجموعة نقاطٍ تصلها بعضها ببعض، ليتبيّن لك شكلاً واضحاً ما

---

٤٧٥ المستدرك على الصحيحين ٣٧٠٨
٤٧٦ سعيد بن منصور ٢٠٥٠ سنن
٤٧٧ مصنف ابن أبي شيبة ٢١٥٩٧
٤٧٨ سنن الدارقطني ٤٢٥٤ السنن الكبرى للبيهقي ٢٠٠٦٤

كان كذلك لولا أنَّك وصلت تلك النقاط...

أو أنَّه يشبه الأحجية - التركيب، التي تستطيع أن تعرف المفقود من أجزائها بمجرَّد رؤية شكل المساحة الفارغة..

الرسول عليه الصلاة والسلام جعل كلَّ ابن جاريةٍ حرّاً..لا يباع ولا يشترى حتى لو كان أبواه عبدين..

عمر مضى على فهم الرسول الكريم، بعقله الذي يعمل بنظام التشغيل القرآنيِّ، عرف أنَّه سيأتي وقت ولا بدَّ أن يعدُّ الاستمرار بذلك، أي أن يكون الولد حرّاً، وأمُّه تباع وتشترى، بمثابة "القطيعة" المنهيِّ عنها...

عمر سيفهم ذلك..

لكنَّ السير على هذا الدرب لا يحتاج إلى فهمٍ عمريٍّ فقط، منطلقاً من مدرسة تجفيف المنابع..

بل يحتاج أيضاً إلى أن تكون قويّاً أميناً..

كما قال عكرمة!

****

هكذا فإنَّ عمر قد أمسك نقطة أمَّهات الأولاد من حيث تركها عليه الصلاة والسلام، وسار بها على درب "سُنَّته" – السُّنَّة التي هي المنهج، وليس مجموع الأقوال والأفعال فحسب- وأوصلها، ابتداءً من منتصف ولايته إلى حيث تُعتق كلّ جاريةٍ ولدت، بل حتى لم تلد، بل حملت وأسقطت!

ولعلَّ الجمع بين الشواهد قد يؤدِّي إلى أنَّ عمر كان أولاً يأمر بعتقها فور وفاة سيِّدها.

ولاحقاً صار يعتقها فور ولادتها..

خطوةٌ على دربٍ انطلق من ردم المستنقع.. بفهمٍ وعقلٍ يعمل بالقرآن.. ولا يقوى ولا يملك الجرأة على تنفيذه إلا القويُّ الأمين..

(عن ابن جريج قال: أخبرني مخبر أنَّ موسى بن أنس بن مالك أخبره أنَّ سيرين

سأل أنس بن مالك الكتاب، وكان كثير المال، فأبى، فانطلق إلى عمر بن الخطاب فاستأداه عليه، فقال عمر لأنس: كاتِبْهُ! فأبى، فضربه بالدرّة وقال: كاتِبْهُ! فقال أنس: لا أكاتبه، فضربه بالدرّة وتلا: "فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً" (النور: ٣٣) فكاتبه أنس).[١]

والمكاتبة وردت في نصٍّ قرآنيٍّ كما أشار إلى ذلك عمر، وهي بمثابة عقدٍ أو اتفاقٍ مكتوبٍ، بين العبد وسيّده، يدفع فيه بحسب الاتفاق الأول للثاني مبلغاً على أقساطٍ، ويكون عند دفع الأقساط حرّاً.

المكاتبة كمبدأ لا يمكن لأحدٍ أن يجادل فيها لوجودها في نصٍّ قرآنيٍّ صريحٍ.

لكنَّ هذا النص كان يمكن ألاَّ يُطبَّق في حالة عدم وجود «القويّ الأمين» الذي يمكن له أن يرفع الدرَّة على أحد كبار الصحابة ليحقَّ حقّاً ثبته القرآن الكريم لعبدٍ من العبيد.. وما لبث أن صار هذا العبد حرّاً وأنجب علماً من أعلام عصره في الفقه وهو المعروف بابن سيرين.. هل يمكن لنا أن نتخيَّل لو أنَّ عمر لم يفعل ذلك؟ هل كان سيظهر ابن سيرين؟.. هل كان سيظهر سعيد بن جبير؟ والحسن البصري؟ وزيد بن أسلم؟ وعطاء بن أبي رباح؟ وكلّ أولئك الموالي الذين أبدعوا وقدَّموا خلاصة فكرهم وجهدهم للإسلام؟

ألم يكن شعورهم بالعدالة التي قدَّمها الإسلام لهم، خاصَّةً في عهد عمر حيث حدثت معظم الفتوحات في عهده، ألم يساعد هذا في جعل انتمائهم إلى الإسلام حقيقةً؟....ألم يجعلهم التطبيق الحقيقيّ للإسلام، وما كرَّسه عمر من خطواتٍ على درب السُّنَّة أحرارا ينصهرون في الأمّ بدلاً من أن يكونوا خناجر في ظهرها؟ (وهو المتوقّع عادةً من الشعوب المغلوبة في الأحوال العاديّة).

ليس هذا فقط..

(عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُعْدِي الْمَمْلُوكَ عَلَى سَيِّدِهِ إِذَا اسْتَعْدَى عَلَيْهِ، وَاسْتَعْدَى أَبِي عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ»).[٤٧٩]

كان لا يسمح لمالك أن يعتدي على مملوكه، بل يجعله يعتدي كما اعتدى عليه..

(عَنْ فُضَيْلِ بْنِ زَيْدٍ الرَّقَاشِيِّ، وَقَدْ كَانَ غَزَا عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ سَبْعَ غَزَوَاتٍ قَالَ: بَعَثَ عُمَرُ جَيْشًا فَكُنْتُ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ، فَحَاصَرْنَا أَهْلَ سِيرَافَ فَلَمَّا رَأَيْنَا أَنَّا سَنَفْتَحُهَا مِنْ يَوْمِنَا ذَلِكَ قُلْنَا: نَرْجِعُ فَنَقِيلُ، ثُمَّ نَخْرُجُ فَنَفْتَحُهَا، فَلَمَّا رَجَعْنَا تَخَلَّفَ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ الْمُسْلِمِينَ فَرَاطَنَهُمْ فَرَاطَنُوهُ، فَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا فِي صَحِيفَةٍ ثُمَّ شَدَّهُ فِي سَهْمٍ فَرَمَى بِهِ إِلَيْهِمْ فَخَرَجُوا، فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنَ الْعَشِيِّ وَجَدْنَاهُمْ قَدْ

٤٧٩ مصنف عبد الرزاق ١٥٥٧٨ صحيح البخاري باب المكاتب ج ٣ ص ١٥١

خَرَجُوا قُلْنَا لَهُم: مَا لَكُم؟ قَالَ: « أَمَّنْتُمُونَا قُلْنَا: مَا فَعَلْنَا، إِنَّمَا الَّذِي أَمَّنَكُم عَبْدٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ «فَارْجِعُوا حَتَّى نَكْتُبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالُوا: مَا نَعْرِفُ عَبْدَكُم مِنْ حُرِّكُم، مَا نَحْنُ بِرَاجِعِينَ، إِنْ شِئْتُم فَاقْتُلُونَا وَإِنْ شِئْتُم فِفُوا لَنَا قَالَ: فَكَتَبْنَا إِلَى عُمَرَ فَكَتَبَ عُمَرُ أَنَّ عَبْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ذِمَّتُهُ ذِمَّتُهُم قَالَ: فَأَجَازَ عُمَرُ أَمَانَهُ»).[481]

العبد الذي كان مع المسلمين في الحرب قدَّم أماناً إلى جيش العدو!

كتب ورقةً فيها عهده وسلَّمها لهم!!

ليس قائدا ولا مقرَّباً من القائد. ولا أحد قوَّاد الميمنة والميسرة أو أيِّ شيءٍ..

فقط عبد..

لكنَّ عمر بن الخطاب يلتزم بعهده.

عهد العبد..

أيُّ معنى عميق في ذلك رسب في عقول جميع من حضر الواقعة أو علم بها.. في عقول الأعداء.. ربَّما فهموا وقتها سرَّ قوة المسلمين وانتصارهم..

(عن عمرو بن شعيب وعطاء أنَّ عمر بن الخطاب قال في اليهودي والنصراني والعبد: فشهادتهم جائزة).[482]

أوَّل من قبِل شهادة العبد.

أنزلهم منازل أهل الكتاب في هذه الحالة.

أيُّ فارقٍ كبيرٍ أحدثه هذا.

أن تُقبل شهادة العبد: لم يعد نكرةً.. صار إنساناً يخشى منه سيِّده أو أيُّ شخصٍ آخر ويحسِب له حساباً.

لم يبقَ الكثير على العتق!

(عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «جَاءَتْ جَارِيَةٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدِي اتَّهَمَنِي،

---

481 مصنف ابن أبي شيبة ٣٣٣٩٣
482 مصنف ابن أبي شيبة ٢١٨٤١

فَأَقْعَدَنِي عَلَى النَّارِ، حَتَّى احْتَرَقَ فَرْجِي، فَقَالَ لَهَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « هَلْ رَأَى ذَلِكَ عَلَيْكِ؟ «، قَالَتْ: لاَ، قَالَ: فَاعْتَرَفْتِ لَهُ بِشَيْءٍ؟، قَالَتْ: لاَ، فَقَالَ عُمَرُ: عَلَيَّ بِهِ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ الرَّجُلَ قَالَ لَهُ: « تُعَذِّبُ بِعَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ « قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اتَّهَمْتُهَا فِي نَفْسِهَا، قَالَ: رَأَيْتَ ذَلِكَ عَلَيْهَا؟ قَالَ الرَّجُلُ: لاَ، قَالَ: فَاعْتَرَفَتْ لَكَ بِهِ؟، قَالَ: لاَ، قَالَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ أَسْمَعْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « لاَ يُقَادُ مَمْلُوكٌ مِنْ مَالِكِهِ، وَلاَ وَلَدٌ مِنْ وَالِدِهِ «، لأَقَدْتُهَا مِنْكَ، فَجَرَّدَهُ، فَضَرَبَهُ مِائَةَ سَوْطٍ، وَقَالَ: اذْهَبِي، فَأَنْتِ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتِ مَوْلاَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « مَنْ حُرِّقَ مَمْلُوكُهُ بِالنَّارِ، أَوْ مُثِّلَ بِهِ مُثْلَةً، فَهُوَ حُرٌّ، وَهُوَ مَوْلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »).[483]

بعبارةٍ أخرى.. أيَّة إساءةٍ جسديَّةٍ من السَّيِّد تترك أثراً على العبد، تؤدِّي إلى عتقه مباشرةً.

سيكون ذلك دافعاً إلى حسن المعاملة.

أو إلى العتق!...

(عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: «أَعْتَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كُلَّ مُسْلِمٍ مِنْ رَقِيقِ الإِمَارَةِ، وَشَرَطَ أَنَّكُمْ تَخْدِمُونَ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِثَلاَثِ سِنِينَ، وَأَنَّهُ يَصْحَبُكُمْ بِمَا كُنْتُ أَصْحَبُكُمْ بِهِ» قَالَ: فَابْتَاعَ الْخِيَارُ خِدْمَتَهُ مِنْ عُثْمَانَ الثَّلاَثَ سِنِينَ بِغُلاَمِهِ أَبِي فَرْوَةَ).[484]

(وَأَنَّهُ مَنْ أَدْرَكَ وَفَاتِي مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَهُوَ حُرٌّ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ).[485]

(عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، «أَعْتَقَ فِي وَصِيَّتِهِ كُلَّ مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ مِنْ رَقِيقِ الْمَالِ، وَأَعْتَقَ رَقِيقًا مِنْ رَقِيقِ الْمَالِ كَانُوا يَحْفِرُونَ لِلنَّاسِ الْقُبُورَ، وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنَّكُمْ تَخْدِمُونَ الْخَلِيفَةَ بَعْدِي ثَلاَثَ سِنِينَ، وَأَنَّهُ يَصْحَبُكُمْ بِمَا كُنْتُ أَصْحَبُكُمْ بِهِ).[486]

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، أَعْتَقَ كُلَّ مَنْ صَلَّى مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ فَبَتَّ عِتْقَهُمْ، وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنَّكُمْ تَخْدِمُونَ الْخَلِيفَةَ بَعْدِي ثَلاَثَ سَنَوَاتٍ، وَشَرَطَ لَهُمْ أَنَّهُ يَصْحَبُكُمْ بِمِثْلِ مَا كُنْتُ أَصْحَبُكُمْ بِهِ فَابْتَاعَ الْخِيَارُ خِدْمَتَهُ تِلْكَ الثَّلاَثَ سَنَوَاتٍ مِنْ عُثْمَانَ بَأَبِي فَرْوَةَ وَخَلَّى عُثْمَانُ سَبِيلَ الْخِيَارِ فَانْطَلَقَ وَقَبَضَ عُثْمَانُ أَبَا فَرْوَةَ).[487]

---

٤٨٣ شرح مشكل الآثار ٥٣٢٩
٤٨٤ مصنف عبد الرزاق ١٦٧٧٩
٤٨٥ مسند الإمام أحمد ١٢٩
٤٨٦ مصنف عبد الرزاق ١٦٧٨٠
٤٨٧ مصنف عبد الرزاق ١٦٧٨١

(عن نَافِعٍ، أَنَّهُ كَانَ فِي وَصِيَّةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: «أَنْ يُعْتَقَ كُلُّ عَرَبِيٍّ فِي مَالِ اللَّهِ وَلِلْأَمِيرِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِمْ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ يَلُونَهُمْ نَحْوَ مَا كَانَ يَلِيهِمْ عُمَرُ» قَالَ نَافِعٌ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ:بَلْ أَعْتَقَ كُلَّ مُسْلِمٍ مِنْ رَقِيقِ الْمَالِ).[488]

كان ذلك تتويجاً لقسطه من درب تجفيف المنابع.. جعلها في وصيّته.. أن يُعتَق «رقيق المال».. الذين صلّوا.. أو الذين أسلموا (لا فرق كبير فكلُّ من أسلم لا بدَّ أن تكون صلاته علامةً على هذا)..

أيُّ ربطٍ بين العتق، بين الحرية، بين أن تحوز على إنسانيّتك كاملةً..

وبين الصلاة؟!

عمر بن الخطاب، القويُّ الأمين، أكمل النقاط الفاصلة بين المفاهيم، وقدَّم هذه الوصيَّة التي حرَّر فيها كلَّ من أسلم.. علَّمهم - وعلَّمنا - أنَّ الإسلام يعني الحرية والكرامة، وأنَّ عبوديَّتك لله تتطلَّب أن تتحرَّر من كلِّ عبوديةٍ أخرى لسواه..

ليس ذلك لرقيق المال، أو لسبي العرب فقط، أو لأيٍّ من السبي..

بل لنا جميعا أيضاً..

أن تكون صلاتنا هي مفتاح حريّتنا وكرامتنا وإنسانيَّتنا..

أن تكون الصلاة بطاقةً للتحرُّر من العبوديَّة..

ثم يأتي من يحدِّثك عن لنكولن!

****

الأمر الثاني الذي احتاج إلى تجفيف منابع وهدمٍ **تدريجيٍّ أكثر مما احتاج إلى نسفٍ فوريٍّ كان «القبلية»..** ذلك النظام الذي ساد في جزيرة العرب، وكان العمود الفقريَّ للنظام الاجتماعيِّ في العهد الجاهليِّ.. لم يكن من المفكَّر فيه الخروج عن هذا النظام، لأنَّه لم يكن هناك ببساطةٍ نظامٌ آخر.. لم يكن من الممكن أن تعيش خارج هذا النظام في الصحراء.. لم يكن ممكناً أن تعيش كفردٍ في الصحراء القاسية، دون أن تكون ضمن «مجموعةٍ» – ضمن قبيلةٍ ينتمي لها ليحافظ على حياته وحياة أسرته الصغيرة.

---

[488] مصنف عبد الرزاق ١٥٦١٣

النظام القبليُّ كان يوفِّر الحماية للفرد، ولم يكن هناك فردٌ خارج هذا النظام، كانت القبيلة هي الشعب والدولة، وكان ارتباط أفرادها يعتمد على قرابة الدم والانتماء لجدٍّ مباشرٍ واحدٍ يمكن أن تنتسب له عدَّة أفخاذٍ أو عشائر، وغالبا كانت القبيلة لا ترتبط بأرضٍ محدَّدةٍ بل تبقى منتقلةً من مكانٍ إلى آخر، إلا في حالات الاستقرار المحدودة في مكّة والطائف ويثرب، والتي عرفت فيها القبائل الاستقرار ولكنَّها بقيت تُغلِّب الولاء لفرع القبيلة الأقرب.

قانون القبيلة كان قانون القوّة والتعايش بين قبيلةٍ وأخرى مرَّ بنزاعاتٍ مريرةٍ امتدَّت لعقودٍ وثاراتٍ متبادلةٍ صبغت جزيرة العرب بالدم لفتراتٍ طويلةٍ، وجاءت الأحلاف والمعاهدات لتقنِّن الدم، وتنظِّم هذا التعايش دون أن تمسَّ عالم القبيلة المنفردة المكتفية بنفسها..

العقبة الأخطر التي كان يمثِّلها النظام القبليُّ أمام الإسلام هو كونه يعتمد أساساً على الولاء والعصبيَّة للدم، للقبيلة - مهما كان موقفها على الباطل -..

كفردٍ تعيش في إطار النظام القبليِّ كنت ملزماً بأن تقف مع قبيلتك في حربها أو غاراتها أو حصارها حتى لو لم تكن مقتنعاً بذلك.

لم يكن هناك أصلاً إمكانيَّةٌ لأن تكون «لست مقتنعاً بذلك».. لأنَّ القناعات في الجاهليَّة كانت تبنى داخل هذا النظام..

لكنَّ هذه العصبيَّة لرابطة الدم.. العصبيَّة للقبيلة ولقرابتك فيها كانت تتعارض تماماً مع فكرة الإيمان بالإسلام - كعقيدةٍ عالميَّةٍ خارج إطار القبيلة وسقفها الضيِّق- واتِّباع الرسول الكريم الذي ينتمي لقبيلةٍ محدَّدةٍ قد لا تكون قبيلتك!

الولاء في الإسلام للفكرة.. للعقيدة.. للمبدأ.

وهو ولاءٌ يتناقض مبدئيّاً مع فكرة العصبيَّة القبلية التي هي عماد المجتمع الجاهليّ..

الإيمان بالإسلام كان يمثِّل انسحاباً من الولاء للقبيلة.. كلُّ فردٍ كان يؤمن بالدين الجديد، كان يسجِّل انسحابه هذا حتى لو لم يكن واعياً الأمر بحذافيره..

لكن ما لم يقدِّم البديل الذي يمكن للفرد أن يعيش فيه، ما لم تقم الأمَّة، وتخرج من إطار الفكرة إلى حيِّز الوجود، فإنَّ القبيلة ستبقى موجودةً، وتمارس تأثيراتها بتفاوتٍ يمدُّ ويجزر بحسب حالات الأمَّة والدولة الوليدة..

علاقة المسلمين، المنسحبين من عالم القبيلة، بهذا الدين الجديد كانت عبر رسالة رسول الإسلام، الذي لم يكن «**أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**». **(الأحزاب: ٤٠).**

لقد انتهت علاقة الدم وقرابة العشيرة في هذا الأمر.

هل يعني هذا أنَّ القبيلة والعشيرة وتفرُّعاتها من ناحية النَّسب والانتساب قد انتهت؟

بالتأكيد لا.. لم تنتهِ.. لكن صارت رابطةً تنظيميَّةً لا أكثر.. صار الولاء للفكرة.. للنَّصِّ الشرعيِّ.. صار الحقُّ مبنيَّاً على قيمٍ منضبطةٍ تسع العالم كلَّه.. السماء سقفها..لا القبيلة الضيِّقة.

لم يترك هؤلاء آباءهم وإخوانهم.. لكن أولويَّاتهم تغيَّرت..

صارت الأولويَّة للإسلام.

لقد جفَّف الإسلام منبع القبليَّة الأول.

لكن لا يزال هناك خطواتٌ على الدرب.

****

كان لعمر مقابل ذلك، مشروعاً يمكن تسميته **مشروع «تذويب القبيلة».**

لم يكن مشروعه الشخصي.. بل كان تتمَّةً على خطواتٍ عقائديَّةٍ بناها الإسلام أوَّلاً.

لكنَّ مشروع «تذويب القبيلة» العمريّ، كان يعكس على نحوٍ عميقٍ، الفقه الثاقب الذي امتلكه عمر، والخطوات التي اتَّخذها في ذلك المشروع، كانت تعكس إمكانيَّة مواصلة الدرب من مرحلة تجفيف المنابع..

أوَّل ركنٍ من أركان هذا المشروع كان مع «الدية».

كان من أهمِّ مقوِّمات الانتماء القبليِّ وروافده موضوع الدية التي كانت القبيلة كلُّها تشارك فيها عندما يتورَّط «فردٌ» واحدٌ منها في دم..

كان ذلك واحداً من أهمِّ الروابط التي تشدُّ أزر القبيلة وتصهرها، كانت تُشعِر الفرد أنَّه ليس وحده فيما لو تورَّط في «شيءٍ» ما.. وكانت «أشياء» الصحراء كثيرةً..

ساهم عمر في تذويب هذه الرابطة، وبالتالي في تذويب القبيلة في الأمَّة عبر تغييرٍ جوهريٍّ قام به على «من يدفع المعقل».. أي من يدفع الدية.. وقد سُمِّيت معقلاً لأنَّها تعقل الدية.. والدية معروفةٌ، **وكانت تؤخذ قبل عمر، وحتى في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام من عشيرة الرجل الذي يتوجَّب عليه دفع الدية..**

لكنَّ عمر العبقريَّ الذي لا يوجد من يفري فريه، وجد أنَّ استمرار القبيلة أو العشيرة في دفع الدية ستكرِّس كونها هي من يحمي الفرد وبالتالي فإنَّه سيبقى على انتمائه لها على نحوٍ قد يتعارض مع انتمائه للأمَّة.. انتمائه للحضارة التي تتَّجه لها بوصلة عمر..

لذا فقد قام عمر بخطوةٍ في غاية الخطورة والدقّة، بجعل المعاقل - أي الدية - ليس في العشيرة، بل في «**أهل الديوان**»[489]، أي في ديوان الرجل نفسه، إن كان قد سُجِّل في سِجلِّ المقاتلين، فإن دفع الدية يكون من قِبَل المقاتلين، وإن كان في سجلِّ الكتَّاب، كانت الدية فيهم.. كلُّ شخصٍ كان لا بدَّ أن يكون قد سُجِّل في سِجلٍّ ما، ودفع الدية سيكون على أهل ديوانه..

لم يعد ضمانك مقدَّماً من أقرباء الدم..

أيَّة عبقريةٍ هذه؟!

أيَّة ضربةٍ للعشائريَّة..؟! أن يسحب منها هذا الشعور بأنَّها هي من تنصر الفرد..

الآن لا..

لم تعد النصرة من قبل العشيرة، رابطة الدم..

بل صارت من قبل رابطة إنجازك الشخصيِّ التي تنظَّم عبر الدين..

إنَّ ما يسمُّونه المجتمع المدنيَّ، وما يتشدَّقون به من منجزاته، لا يزال أقلَّ حسماً في هذا الأمر من قرار عمر الحاسم النهائيِّ..

يشبه الأمر أن تقوم النقابة التي تنتمي لها، بدفع غراماتك وعقوباتك..

يشبه، لكنَّه أشدُّ حسماً..

---

٤٨٩ رد المحتار ج ٢٨ ص ٤١٣

@iAbubader

إنَّه يفصلك عن الانتماء لكلِّ شيءٍ غير ما اخترت أن تنتمي له بنفسك..

إنَّه يجعلك تنتمي للحضارة..

الحضارة التي تساهم في بنائها.

****

ومن منطق نسف الروابط العشائريَّة نفسها كان عمر متشدِّداً جداً مع الفخر بالعشائر والتنادي بها، أي أن ينادي أحدٌ قومَه أو عشيرته بـــــ «يا لَبني فلان».. متشدِّداً إلى درجة أنَّه قال قولاً قد نستغربه من أيِّ صحابيٍّ، ونحن نعرف حرص الرسول عليه الصلاة والسلام (وبالتالي صحابته الذين تخرجوا من مدرسته) على عفَّة اللسان وعدم التفحُّش بالقول..

قال عمر في مواجهة من يعتز بالقبائل:

(من اعتزَّ بالقبائل فأعضوه أو فأمصوه).[٤٩٠]

والمعنى فيه سبابٌ غليظ وهو يتعلق بالعضو الذكريّ!

لكن لا يزاود أحدٌ على ابن الخطاب، ليس لأنَّه لا يخطئ أو لأنَّه معصومٌ، فديننا لا عصمة فيه إلا للرسول عليه الصلاة والسلام.. لكن عمر هنا كان ينفِّذ ما أوصى به الرسول عليه الصلاة والسلام تحديداً

« من تعزَّى بعزى الجاهلية، فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا».[٤٩١]

والمعنى في حديثه عليه الصلاة والسلام أوضح، فلفظ «الهِن» يعني الفرج، وقد طلب الرسول عليه الصلاة والسلام من أصحابه أن يقولوا لمن «تعزَّى بعزاء الجاهلية» (أي قال يا لبني تميم يا لبني أسد..إلخ) أن يقال له: اعضض بهِن أبيك، (أي اعضض بفرج أبيك).. وطلب منهم بوضوحٍ أن يقولوا ذلك صراحةً ولا يكنوا بقوله «ولا تكنوا».

هل هناك من صدمة؟!

ربَّما نصدم لأنَّنا غالبا ما نرسم صوراً ذهنيَّةً مسبقةً مبنيَّةً على اجتزاءاتٍ من النصوص وليس على النصوص بمجموعها.. العبرة في حديثه عليه الصلاة والسلام، وفي موقف

---
٤٩٠ ٤٧٩ السلسلة الصحيحة ٢٦٩ مصنف ابن ابي شيبة ٣٧١٨٤
٤٩١ السلسلة الصحيحة ٢٦٩

عمر اللاحق المبنيِّ على ذلك، هو أنَّ من يتعزَّى ويتفاخر ويتداعي بالنسب لقبيلته، إنَّما «يختزل» وجوده إلى علاقةٍ لم تحدث أصلاً إلا بناءً على العضو الذكريِّ للأب! [٤٩٢]

لذا بدلاً من «عضُّوا عليها بالنواجذ» سنَّة المصطفى عليه الصلاة والسلام التي هي خارج عالم القبيلة الضيِّق، هناك، لمن يتعزَّى ويتفاخر بالقبائل إذن «اعضض بهن أبيك».

ولا تكنوا!

لا بدَّ من أن تُقال الحقيقة مهما بدت سافرةً.. مهما كسرت رؤيتنا التقليديَّة.

هذه العبارة هنا ليست فحشاً عاديًّا لتبادل السباب المبتذل..

إنَّها لتذكير من يتفاخر بالنسب وبالقبيلة أنَّ هذا الأمر الذي يفخر به لا فضل له به، وأنَّ ارتباطه به لم يكن إلا عبر عضوٍ تناسليٍّ..

****

ليس هذا فقط..

(عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال كتب عمر إلى أمراء الأجناد إذا تداعت القبائل فاضربوهم بالسيف حتى يصيروا إلى دعوة الإسلام). [٤٩٣]

إذا استخدمت القبائل نسبها، لإثارة الحماسة واستنهاض الهمم في مقاتلة العدوِّ، فتعامل معهم كما يعامل العدو.. واضربهم بالسيف!!

أيحاربون من أجل الإسلام أم من أجل القبيلة؟!

إذا كانوا لم ينصهروا في الأمَّة في لحظات المواجهة مع العدوِّ.. فمتى إذاً؟

---

٤٩٢ وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ومعني قوله (من تعزَّى بعزاء الجاهلية) يعنى يعتزى بعزواتهم وهي الانتساب إليهم في الدعوة مثل قوله يالقيس يااليمن ويالهلال ويالأسد فمن تعصَّب لأهل بلدته أو مذهبه أو طريقته أو قرابته أو لأصدقائه دون غيرهم كانت فيه شعبة من الجاهلية حتى يكون المؤمنون كما أمرهم الله تعالى معتصمين بحبله وكتابه وسنَّة رسوله فإنَّ كتابهم واحدٌ، ودينهم واحدٌ، ونبيُّهم واحدٌ، وربُّهم إلهٌ واحدٌ لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم واليه ترجعون». انتهى. وذكر ابن القيِّم الحكمة من ذكر هن الأب، فقال في زاد المعاد: ذكر هن الأب لمن تعزَّى بعزاء الجاهلية فيقال له: اعضض هن أبيك، وكان ذكر هن الأب ها هنا أحسن تذكيرا لهذا المتكبر بدعوى الجاهليَّة بالعضو الذي خرج منه، وهو هن أبيه، فلا ينبغي له أن يتعدَّى طوره. انتهى. قال الشنقيطي في أضواء البيان: فانظر كيف سمَّى النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك النداء « عزاء الجاهليَّة » وأمر أن يُقال للداعي به «اعضض على هن أبيك» أي فرجه، وأن يصرِّح له بذلك ولا يعبِّر عنه بالكناية، فهذا يدلُّ على شدَّة قبح هذا النداء، وشدَّة بغض النبيِّ صلى الله عليه وسلم له.... واعلم أنَّ رؤساء الدعاة إلى نحو هذه القوميَّة العربيَّة: أبو جهل، وأبو لهب، والوليد بن المغيرة، ونظراؤهم من رؤساء الكفرة وقد بيَّن تعالى تعصُّبهم لقوميَّتهم في آياتٍ كثيرة، كقوله: «قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» {المائدة: ١٠٤}، وقوله: «قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» {البقرة: ١٧٠}، وأمثال ذلك من الآيات.

٤٩٣ مصنف ابن أبي شيبة ٣٧١٨٥

لم ينم عمر على الأمر.. لم يقل فليستغلَّ الأمر، وربَّما كان ليستغلَّه لو لم يكن بدعوةٍ صريحةٍ، وقد مرَّ بنا كيف استغلَّ التنافس بين ثقيف وقريش لصالح تجييش الجيوش إلى العراق.. لكن لم يكن الأمر بدعوةٍ صريحةٍ قط.. والدعوة الصريحة تكرِّس الأمر.. بينما تنافسهم، تحت راية الإسلام ودعوة الإسلام، ستسهِّل من عملية تذويبهم في الأمَّة.. في المجتمع العملاق الوليد..

لم يتساهل عمر مع أن تنادي القبائل بعزِّها الجاهليِّ.. **الجاهليَّة عبوةٌ واحدةٌ لا تتجزَّأ.. كلٌّ متكاملٌ.. يذوب تدريجيّاً..**

لكن في لحظة المواجهة التي يجب أن يكون فيها الكلُّ أقرب ما يمكن إلى ما يحاربون لأجله، لا مفرَّ من أن تعرف أنَّ تلك القيم الجاهليَّة الكامنة ليست أقلَّ خطراً من كسرى أو قيصر..

فاضربوهم بالسيف..

بحسمٍ..

لا عجب إذاً من الانتصارات..

(.. وجاء أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن عبد بن فقيم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الركن الأسود، فلمَّا رأى الناس يزدحمون عليه قال: أيُّها الناس أنا له جارٌ (متفاخراً بقبيلته) فأخّروا عنه، فخفقه عمر بالدرَّة ثمَّ قال: أيُّها الجلف الجافي قد أذهب الله عزَّك بالإسلام!). [٤٩٤]

لقد أذهب الله عزَّكم – عزَّ الجاهليَّة - بالإسلام..

أما عرفتم ذلك؟

خذ هذه الدرَّة إذاً..

وسيلة إيضاحٍ عمليَّة تذكِّرك بهذا.. وأنت في الحرم!

وتتذكَّرها في كلِّ مرَّةٍ اتَّجهت فيها إلى الكعبة.. لصلاتك..

---

٤٩٤ أخبار مكة للأزرقي ص ٢٣٢

(أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة وعلي بن زيد بن جدعان قالا: كان بين سعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي شيء، فقال سعد وهم في مجلس: انتسب يا فلان! فانتسب، ثمَّ قال للآخر، ثمَّ للآخر، حتى بلغ سلمان فقال: انتسب يا سلمان ! قال: ما أعرف لي أباً في الإسلام، ولكني سلمان ابن الإسلام، فنمي ذلك إلى عمر، فقال عمر لسعد ولقيه : انتسب يا سعد! فقال: أشهدك الله يا أمير المؤمنين! قال: وكأنَّه عرف، فأبى أن يدعه حتى انتسب، [ثمَّ] قال للآخر، حتى بلغ سلمان، فقال: انتسب يا سلمان! فقال: أنعم الله عليَّ بالإسلام، فأنا سلمان ابن الإسلام، قال عمر: قد علمت قريش أنَّ الخطَّاب كان أعزَّهم في الجاهليَّة، وأنا عمر ابن الإسلام، أخو سلمان في الإسلام، أما والله لولا لعاقبتك عقوبةً يسمع بها أهل الأمصار، أما علمت - أو ما سمعت - أنَّ رجلا انتمى إلى تسعة آباء في الجاهليَّة، فكان عاشره في النار، وانتمى رجلٌ إلى رجلٍ في الإسلام وترك ما فوق ذلك، فكان معه في الجنَّة). [495]

سعد بن أبي وقّاص..!

من أخوال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام..

نسبه نسب أمِّ الرسول الكريم..

ورغم ذلك يضعه عمر في الزاوية الحرجة... يضعه ونسبه في الزاوية الحرجة.. ويهدِّده..

إنَّه نسب الإسلام.. ولا نسب سواه.. لا تفاخر بشيء غير الإسلام..

****

(عن الحسن قال: كان عمر قاعداً ومعه الدرَّة والناس حوله، إذ أقبل الجارود، فقال رجل: هذا سيِّد ربيعة، فسمعه عمر ومن حوله وسمعه الجارود، فلمَّا دنا منه خفقه بالدرَّة، فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين فقال: ما لي ولك أما لقد سمعتها قال: سمعتها فمه قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء، فأحببت أن أطأطئ منك). [496]

خذ يا سيِّد ربيعة.. ربَّما لم تكن أنت من قلت ذلك عن نفسك.. لكن قيل عنك وسمعته.. خذ إذن يا سيِّد ربيعة..

لقد أزال الإسلام ذلك..

---

٤٩٥ مصنف عبد الرزاق ٢٠٩٤٢

٤٩٦ جامع الأحاديث ٣٠٨٠٩

(عن فضلة الغفاري قال: خرج عمر بن الخطاب فسمع رجلا يقول: أنا ابن بطحاء مكَّة. فوقف عليه عمر فقال: إن يكن لك دينٌ فلك كرمٌ، وإن يكن لك عقلٌ فلك مروءةٌ، وإن يكن لك مالٌ فلك شرفٌ، وإلا فأنت والحمار سواء).[497]
تسلسلٌ منطقيٌّ.

إن كنت تفخر ببطحاء مكَّة وأنت بلا دينٍ ولا عقلٍ ولا كرمٍ ولا مروءةٍ..

فأنت والحمار- ببطحاء مكَّة - سواء!

****

(عن مجاهد، قال: جاء رجلٌ من بني مخزومٍ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستعدي على أبي سفيان فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ أبا سفيان ظلمني حدي في مهبط كذا وكذا، فقال له عمر رضي الله عنه: إني لأعلم الناس بذلك الموضع ولربَّما لعبت أنا وأنت ونحن غلمان، فإذا قدمت مكَّة فأتني بأبي سفيان. فلمَّا قدم أتاه المخزوميُّ بأبي سفيان، فقال له عمر رضي الله عنه: « يا أبا سفيان خذ هذا الحجر من ها هنا فضعه هاهنا »، فقال: والله لا أفعل فقال: « والله لتفعلن » فقال: لا أفعل، فعلاه عمر بالدرة وقال: خذه لا أمَّ لك من ها هنا فضعه ها هنا).[498]

لا يفرِّق في ذلك بين أشراف قريشٍ أو سواها.

الدرَّة لكلِّ من يعتلي مجداً جاهليَّاً، يعتقد أنَّه حمله معه من عصرٍ آخر إلى الإسلام..

لا.

لقد أرَّخ عمر مستفتحاً بالهجرة..

وكانت الهجرة تحمل معاني تَرْكِ ذلك العصر كلِّه، إلى عصرٍ آخر بقيمٍ ومفاهيم مبنيَّةٍ على القرآن..

كلُّ من يعتقد أنَّه يمكن له أن «يهرِّب» بعضاً من متاع الجاهليَّة في الرحلة تلك..

درَّة عمر له بالمرصاد.

---

497 كنز العمال ١٧٢٠

498 أخبار مكة للازرقي رقم ٢٠٠٠

لكنَّ ذلك لم يكن دون أفعالٍ إداريَّةٍ قام بها عمر، تسهِّل انضمام القبائل - خاصَّةً قبائل البدو- إلى المجتمع الجديد الذي سيتيح لأفراد القبيلة أن يقدِّموا ما يمكن أن يفخروا به من غير قبائلهم وأنسابهم..

(عن سعيد بن عبد العزيز، تسخَّرَ عمرُ بن الخطاب أنباطَ أهل فلسطين في كنس بيت المقدس، وكانت فيه مزبلةٌ عظيمةٌ..).[٤٩٩]

لقد جعل الأنباط - وهم من البدو الرحَّل - يساهمون في تنظيف المدينة..

المساهمة في أيِّ عملٍ مدنيٍّ، تجعل الشخص يشعر تدريجيّاً بالانتماء للمدينة.. يُشعره، ولو دون وعيٍ واضحٍ بتحوُّلاته، يشعر أنَّه صار جزءاً منها، صار يحبُّها.. صار «مسؤولاً» عنها ومنها..

وهكذا فقد جعلهم ينخرطون في عملٍ مدنيٍّ، كخطوةٍ أولى في تركهم للبداوة، وانضمامهم للمدينة..

إلى ركب الحضارة.. ركب الأمَّة الوليدة.

****

(وقال عمر: وإنَّ كَرَمَ الرجل دينُه، وحَسَبَهُ خُلُقُه، وإن كان فارسيّاً أو نبطيّاً).[٥٠٠]

هنا النبطيُّ يتساوى مع الفارسيِّ، الذي كان يعدُّ نفسه قبلها أرفع من الجميع، والاثنان مقياسهما هو الدين والأخلاق.. وليس كونه من فارس أو من الأنباط..

أيُّ تشجيعٍ هذا للجميع، لترك أساطير النسب جانباً..

والتركيز في المقياس الذي يبقى...

الدين والأخلاق!!

ولا يخرج «تمصير الأمصار» الذي فعله عمر عن هذا كثيراً... وتمصير الأمصار هو بناء المدن الجديدة في الأمصار التي فُتِحت على يد الجيوش الإسلاميَّة، وعمر هو أوَّل من أمر بذلك، وقد بُنيت في عهده ثلاث مدنٍ لعبت دوراً مهمّاً في التاريخ الحضاريِّ الإسلاميِّ... وهي البصرة، والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر، وهي القاهرة الحاليَّة..

---

٤٩٩ الأموال للقاسم بن سلام ٣٦٧
٥٠٠ ٤٨٩ سنن الدارقطني ٣٨٥١

وبناء المدن لم يكن عملاً اعتباطيّاً، أو لمجرّد حاجةٍ سكّانيّةٍ، بل كان جزءاً أساسيّاً من خطّة من يريد - ضمن أشياء عديدة - تكريس عمليّة تذويب القبيلة..

كان بناء المدن خبرةً عمليّةً عظيمةً أضيفت للمسلمين، تخطيطاً وبناءً وتنفيذاً، وكلّ ما رافق ذلك من خبراتٍ..

لم يكونوا قد بنوا «مدينةً» من قبل..

وكان ذلك فتحاً عظيماً بلا شكٍّ.. خاصّةً أن يكون في الأمصار المفتوحة..

أن تبني مدينتك بيديك، لا أن تسكن مدائن من سبقك، يجعلك تنتمي أكثر.. تحبُّ أكثر.. عرقك سيكون قد دخل في موادِّ بنائها.. وجهدك صار جزءاً من ترابها..

عندما تبني مدينةً على قواعد الحقّ والعدل التي انطلقتَ فيها في عملية الفتح

فإنّك، تصبح رسميّاً..

الخليفةَ في الأرض.

****

(عن جعفر قلت للزهري: من أوّل من ورّث العربَ من الموالي؟ قال: عمر بن الخطاب).[٥٠١]

شبكة العلاقات الاجتماعيّة تتغيّر، الموالي، الذين كانوا عبيداً ينتقلون عبر الميراث سابقاً، صاروا اليوم ليسوا أحراراً فحسب.. بل صاروا أحراراً، ويملكون من الثروة ما يمكن أن يستحقّ أن يكون مجالاً للنزاع عليه..

وعندما يكون هؤلاء - لأيِّ سببٍ - دون ذريّةٍ أو زوجةٍ، فإنّ إرثهم سيعود إلى مواليهم ممّن أعتقهم أوّلاً..

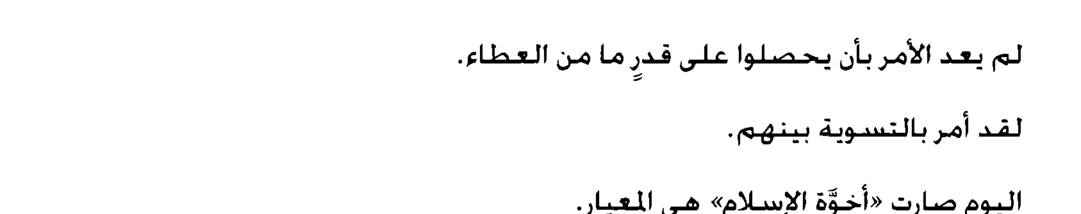
إنّها شبكةٌ جديدةٌ من العلاقات.. تولد من مفهومٍ جديدٍ للعتق.. والحريّة.

****

(عن الحسن أنّ قوماً قدموا على أبي موسى فأعطى العرب وترك الموالي، فكتب إليه عمر: ألا سوّيت بينهم؟ بحسب المرء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم).[٥٠٢]

---

٥٠١ مصنف ابن أبي شيبة ٣٥٧٨١
٥٠٢ كنز العمال ١١٦٩١



لم يعد الأمر بأن يحصلوا على قدرٍ ما من العطاء.

لقد أمر بالتسوية بينهم.

اليوم صارت «أخوَّة الإسلام» هي المعيار.

وليس الدم والنسب، معيار الجاهليَّة السابق.

****

(عن حكيم بن عمير أنَّ عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد: ومن أعتقتم من الحمراء فأسلَمُوا فألحقوهم بمواليهم، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، وإن أحبُّوا أن يكونوا قبيلةً وحدهم فاجعلوهم أسوتكم في العطاء والمعروف).[٥٠٣]

من يسلم إمَّا أن ينضمَّ إلى مولاه ،حيث صار هناك مفهوم جديد للقبيلة القديمة، تنفتح فيها على مَن هو من خارجها لمجرَّد أنَّه أسلم..

أو تتشكَّل قبيلةٌ جديدةٌ، الرابط الأساسيُّ بين أعضائها هو «دخولهم الجديد في الإسلام».. وتفاصيل النسب والدم أمورٌ ثانويَّةٌ...

إنَّه مشروع تذويب القبيلة.. كجزءٍ من تجفيف المنابع.

****

أكبر ما يمكن أن نتخيَّل أنَّ عمر قاله في هذا السياق هو أنَّه كان يريد لمولى أن يتولَّى الخلافة..

("لَوْ أَدْرَكَنِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ جَعَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَيْهِ لَوَثِقْتُ بِهِ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ").[٥٠٤]

سالم المولى.. العبد السابق؟

ليس من قريش.

بل ليس عربيَّاً أصلاً!

---

٥٠٣ كنز العمال ١١٦٩٠
٥٠٤ مسند أحمد ١٢٩

ربَّما كان عمر يدرك أنَّ المرحلة لم تصل لقبول هذا.. لقبول أن يتقلَّد العبد السابق منصباً كهذا.. وربَّما لهذا بالذات، قال هذا.. كي يُفهمنا أنَّ الدرب لا يزال طويلاً..

ضربة الدرَّة هذه المرَّة، بهذا القول.. كانت لنا..

تقول لنا أن استمرُّوا في درب تجفيف المنابع.

****

درب تجفيف المنابع يستمرُّ، يأخذ من النصوص الثابتة نقطة الانطلاق، ويعرف أنَّ دربه يجب ألاَّ يصطدم بمعارضة أيِّ نصٍّ ثابتٍ آخر.. كي لا يتحوَّل إلى وسيلةٍ إلى الأهواء والمصالح.
كان عمر يدرك أنَّ هناك الكثير ممَّا يجب عمله.
ولكن كان يدرك أيضاً أن ليس كلُّ هذا يمكن أن يكون مناسباً في وقتٍ واحدٍ..
هنا نرى نموذجاً لأمرٍ ظلَّ ينازعه، وظلَّ يفكِّر فيه...
وفي اللحظة الأخيرة.. قرَّر أن يتركه لسواه..

(عن عروة أنَّ عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السُّنن، فاستشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق يستخير الله فيها شهراً، ثمَّ أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إنِّي كنت أريد أن أكتب السُّنن، وإنِّي ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبُّوا عليها، وتركوا كتاب الله، وإنِّي والله لا ألبس كتاب الله بشيءٍ أبداً).[٥٠٥]

كان يعرف أنَّ حفظ سنَّته عليه الصلاة والسلام أمرٌ جوهريٌّ للأمَّة.. ولمشروع الأمَّة.. ولهويَّة الأمَّة..

وأيضاً لدرب تجفيف المنابع.. لدرب النهضة..

لكلِّ ما يجعل هذه الأمَّة "قائمةً"، أي ناهضةً بعبارات اليوم..

لكنَّه كان يخشى من "سنن الأمم السابقة" أن تتكرَّر..

نعم.. لقد تكفَّل الله بحفظ القرآن.. ولكنَّ أمر الله يحدث عبر سنن.. وكان عمر جزءاً من هذه السنن.. أليس هو من أقنع أبا بكر بضرورة جمع القرآن؟ ألم يكن ذلك خطوةً مهمَّةً في حفظ القرآن..

---
٥٠٥ مصنف عبد الرزاق ٢٠٤٨٤

ها هو متردِّدٌ مع السنَّة..

يعرف أهمّيتها..

ولكنَّه متردِّدٌ من أجل القرآن..

ثمَّ يقرِّر..

هذا الدرب الطويل، لا يمكن اختصاره..

سيكون هناك غيره مَن يقوم بحفظ السُّنَّة..

هل من القدر أن يكون حفيده وسَميُّه هو مَن يفعل ذلك؟ [٥٠٦]

أيّاً كان..

كانت تلك البداية الرسميَّة فقط..

لكنَّ السُّنَّة النبويَّة قيِّضت لها جيوشٌ من المؤمنين لحفظها..

ويبقى أمامنا دربٌ طويلٌ.. للفهم والتطبيق.. من المنابع..

---

٥٠٦ عمر بن عبد العزيز الذي كَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ: أَنِ انْظُرُوا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَاكْتُبُوهُ. فَإِنِّي قَدْ خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ أَهْلِهِ.سنن الدارمي ٤٨٧. ثمَّ كَتَبَ إِلَى الآفَاقِ وَإِلَى الأَمْصَارِ لِيَفْشُ كُلُّ قوْمٍ بِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فُقَهَاؤُهُمْ سنن الدارمي ٤٨٨

حياة عمر: الدخول فيها ممكنٌ، لكنّ الخروج مستحيلٌ..

حياةٌ حافلةٌ كحياة عمر، كان لا بدَّ أن تنتهي بموتٍ حافلٍ..

بموتٍ مليءٍ بالمعاني..

بموتٍ يستمرُّ في منحنا العبر، والإشارات..

كما استمرَّت حياته في ذلك..

حياةٌ حافلةٌ كحياة عمر..

كان لا بدَّ أن تتوَّج بموتٍ حافلٍ..

لا يكون نهايةً لها.. بل يجعل لها بدايةً جديدةً..

حياةٌ حافلةٌ، ثريَّةٌ، كحياة صانع الحضارة..

كان لا بدَّ أن يكون لها نهايةٌ مفتوحةٌ..

نهايةٌ لا تضع نقطةً نهايةَ السطر..

بل تفتح صفحاتٍ جديدةً.. وفصولاً جديدةً..

حياةٌ، تتوَّج بالاستشهاد.

نحن في العام الأخير لخلافة عمر.

في السنة ٢٣ هجريَّة.

البناء اشتدَّ وعلا، الأهمُّ من ذلك: لقد كان على قواعد ثابتةٍ وقويَّةٍ.

الدولة نموذجيَّةٌ.. ليست جمهوريَّة أفلاطون الفاضلة.. أفضل بكثيرٍ.. لأنَّها حقيقةٌ واقعةٌ، وليست نظريَّةً في كتابٍ.. كانت دولة عدلٍ وحقوقٍ.. دولةً ساهم الإنسان الجديد الذي وُلِد عبر الإسلام في بنائها، ضحَّى بكلِّ شيءٍ من أجل بنائها، وكان يبني هو نفسه من خلال بنائها..

كان الإنسان الجديد لبنةً من لبنات بناء المدينة..

وكان أيضاً اليد التي تبني..

وكان أيضاً، من سيسكن في البناء..

لقد كان هذا الإنسان هو مادَّة البناء، ووسيلته، وهدفه في آنٍ واحدٍ..

إنَّه الإنسان الخليفة..يتم تصنيعه، عبر مجتمع الاستخلاف، في عاصمة دولة الخلافة.

****

هذه المدينة، عام ٢٣ هجرية، **كانت أهمَّ منجزات عمر..**

كلُّ الفتوحات العسكريَّة التي حقَّقها وأُنجِزت في عهده كانت عظيمةً بلا شكٍّ.

كلُّ فتوحاته الإداريَّة ومنجزاته على صعيد العمل المؤسسيِّ كانت في غاية الأهميَّة والإبداع.

العدالة الاجتماعيَّة التي حقَّقها في كلِّ أرجاء الدولة الممتدَّة، كانت بلا شكٍّ أمراً غير مسبوقٍ..

لكن كلُّ ذلك، كان جزءاً من المنجز الأهمِّ..

المدينة المنورة ٢٣ هجريَّة.

كانت ثمرةً لعمليَّة غرسٍ طويلٍ بذر بذرتها الأولى عليه الصلاة والسلام، وسقاها بيديه الكريمتين، ورأى ساقها يشتدُّ.. وحماها أبو بكر، ولكنَّ أغصانها لم تمتدَّ وتتفرَّع إلا في عهد عمر.. والثمرة النهائيَّة لم تظهر إلا على يديه في موسم «خلافته»..

نعم.. كانت المدينة المنورة ٢٣ هجريَّة هي المنجز الأهمّ..

@iAbubader

كان ذلك «المجتمع المدنيّ» – المدنيّ نسبةً إلى المدينة المنورة - هو أهمّ ما يُمكن لأيّ مسلمٍ أن يحقّقه..

مجتمع سيادة القانون كما يريده الله عز وجل.

مجتمع العدل كما يعرفه الله.

مجتمعٌ يحمي الجميع، ويلوذ به الجميع، ما دام مستنداً على «شريعة الله»..

هذا هو «المجتمع المدنيُّ» حقّاً..

الذي تجتمع فيه شروط الحضارة.

****

وربّما لذلك، كانت دعوته رضي الله عنه أن يرزق الشهادة في سبيل الله، في هذا المجتمع بالذات.. في مدينة رسول الله..

عاش حياته الحافلة **في سبيل أن يحقّق لهذه المدينة ما وصلت له.. أن تكون «مدينةً» في سبيل الله، كما كانت «حياته» هو في سبيل الله..**

والحياة في سبيل الله، أصعب حتى من الموت في سبيله، لو كنّا نعي ذلك..

وقد تُوِّجت حياته بتلك المدينة، ثغر المعركة الحضاريّة الأعلى والأكثر أهميّة من كلّ المعارك الأخرى..

كلُّ المعارك الأخرى التي أشرف عليها عمر، وقادها عن بُعد، كانت جزءاً من حربٍ أهمّ وأشمل، هي حرب البناء - والهدم! - من أجل إعلاء حضارة الإسلام..

ربّما المعارك على الجبهات تأخذ اهتمامنا الأكبر لأنّنا تعوّدنا أفلام «الحركة».. ولكن ما يأخذ الجوائز المهمّة هو «الدراما» الجادّة..

كانت حرب الحضارة هي الأهمّ، وكانت معارك الفتوحات العسكريّة جزءاً منها..

وكانت المدينة هي ثمرة النصر في ذلك كلّه..

المدينة، ليست كبنيانٍ، كحجرٍ لا ينفع ولا يضرُّ.. **بل كمجتمع، كحضارة، كحاضنةٍ للبشر تربّيهم وتعلّمهم كما أراد نبيُّهم عليه الصلاة والسلّام أن يتربّوا ويتعلّموا..**

من أجل كلِّ هذا، ولأنَّ «المدينة» هي الهدف الأعلى دنيويَّاً، والذي يكون كلُّ شيءٍ آخر وسيلةً للوصول له، فقد طلب عمر منه عزَّ وجلَّ أن يمنحه «شهادةً في سبيله»..

في مدينة رسولك!..

روى البخاري..

(قال عمر: اللهمَّ ارزقني شهادةً في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك).[507]
(قالت له حفصة: أنى يكون هذا؟..(كيف يمكن أن ينال المرء الشهادة وهو في المدينة، وجيوش الأعداء هُزمت على بُعد شهورٍ من المدينة؟) **فقال: يأتيني به الله إن شاء).**[508]
****

وقرن الشيطان.
كان قد كُسِر على يدي عمر.. في القادسية، عندما تحطَّم ملك كسرى وأنفه المتعالي.. قرن الشيطان، الذي كان قد استقرَّ في العراق، واستعبده واستعبد أهله «جمجمة العرب»، كُسِر..
لكنَّ الشيطان نفسه، لم يُهزم..
كان لا يزال..
مثخناً بجراحه بالتأكيد مليئاً بطعنات الفتوحات بكلِّ أنواعها، بالتوحيد الذي صانه عمر وحماه وسدَّ ذرائع الشرك من أجل الحفاظ عليه..
كان الشيطان يتخبَّط من ضربات الإنجازات العمريَّة.
قرنه المتمثل بعرش كسرى وحضارته وديانته، كُسِر فعلاً..
لكنَّه كان يريد أن يلتقط أنفاسه فقط... ليردَّ الضربة..
لينتقم.
****

هذه المرَّة تسلَّل كالأفعى.. بحذرٍ وخفَّةٍ.. تقريباً بلا صوتٍ..
له أقنعةٌ مختلفةٌ دوماً.. بعضها أقنعةٌ جذَّابةٌ، ومتقنةٌ..
بعضها أقنعةٌ توحي بالعلم والثقافة، ولا تبتغي إلا الفتنة..
وبعضها أقنعةٌ قبيحةٌ قبح الوجه الأصليِّ.. لكنَّها تُخفي هويَّته فقط..
هذه المرَّة، كان القناع يعود لغلامٍ مجوسيٍّ، اسمه فيروز.. ويُكنَّى بأبي لؤلؤة.. كان أصلاً من نهاوند (تذكرون، فتح الفتوح، نهاوند التي كان فتحها إيذاناً بفتح فارس كلِّها دون قتالٍ).
وكان غلاماً للمغيرة بن شعبة.. وكان نجَّاراً وحدَّاداً، صاحب حرفة..

---
٥٠٧ صحيح البخاري ١٨٩٠
٥٠٨ الجمع بين البخاري ومسلم ٦٣

(عن أبي رافع، قال: كان أبو لؤلؤة عبداً للمغيرة بن شعبة، وكان يصنع الأرحاء، وكان المغيرة يستغلُّه كلَّ يومٍ بأربعة دراهم، فلقي أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن المغيرة قد أثقل عليَّ غلتي، فكلِّمه يخفِّف عنِّي، فقال له عمر: «اتقِ الله، وأحسن إلى مولاك»، فغضب العبد وقال: وسع الناس كلهم عدلك غيري، فأضمر على قتله).[٥٠٩]

في الخارج يبدو الأمر مجرَّد رغبةٍ في انتقامٍ شخصيٍّ عابرٍ.. وربَّما كان هناك نسبةٌ من ذلك في الدوافع..

لكن، دوماً هناك وراء الأكمة ما وراءها..

فيروز كان ممثِّلاً لكسرى.. كسرى كان فارّاً هائماً على وجهه..

ممثِّلاً رسميّاً؟

لا بالتأكيد.

لكنَّه ربَّما كان التقى بمن خدم «كسرى» وكان قريباً من ملوك الفرس المتعاقبين... من أربعةٍ منهم تحديداً..

ولقد كان يعيش في المدينة أيضاً..

إنَّه الهرمزان!..

تذكرونه؟.. صاحب المقولة الشهيرة، «عدلت فأمنت فنمت»..

(ولمَّا جيء بالهرمزان ملك خوزستان أسيراً إلى عمر لم يزل الموكل به يقتفي أثر عمر حتى عثر عليه بالمسجد نائماً متوسِّداً درَّته، فلمَّا رآه الهرمزان قال: هذا والله الملك الهنيّ عدلت فأمنت فنمت: والله إنِّي خدمت أربعةً من ملوكنا الأكاسرة أصحاب التيجان فما هبت أحداً منهم هيبتي لصاحب هذه الدرَّة).[٥١٠]

ملك خوزستان!.. جيء به أسيراً إلى عمر، وهو يقول إنَّه خدم أربعةً من الأكاسرة..

كان بمثابة «الوالي» أو الحاكم للإقليم.. ولا بدَّ أنَّ انكسار الإمبراطوريَّة الفارسيَّة قد أشعره بذلٍّ ما بعده ذلّ.. حتى لو كان رأى عدل المسلمين وإنصافهم..

هل من أيِّ أثرٍ يدلُّ على وجود علاقةٍ، أو تحريضٍ من قِبَل الهرمزان لفيروز؟..

نعم..

إنَّها شهادة «عبد الرحمن بن أبي بكر»..

---

٥٠٩ صحيح ابن حبان ٧٠٣١

٥١٠ ربيع الأبرار ج١ ص ٣٠٩

(عن ابن المسَيِّبِ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قالَ: مَرَرْتُ بِالْبَقِيعِ قبْلَ أَنْ يُقْتَلَ عُمرُ، فَوَجَدْتُ أَبَا لُؤْلُؤَةَ، وَالْهُرمُزَانَ وَجُفَيْنَةَ (نصرانيٌّ من الحيرة) يَتَنَاجَوْنَ، فَلَمَّا رَأَوْنِي ثَارُوا، فَسَقَطَ مِنْهُمْ خِنْجَرٌ لَهُ رَأْسَانِ .
وَنِصَابُهُ وَسَطَهُ فَلَمَّا قُتِلَ عُمرُ رَآه عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمرَ، فَإِذَا هُوَ الْخِنْجَرُ الَّذِي وَصَفَهُ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمنِ، فَانْطَلَقَ عُبَيْدُ اللَّهِ، وَمَعَهُ السَّيْفُ، فَقَتَلَ الْهُرمُزَانَ...).[511]

لقاءٌ في البقيع إذاً..!

لقاءٌ بين المقابر.. لمجموعةٍ لا تريد للحياة أن تكون حياةً حقاً.. **لقاءٌ بين المقابر، لجماعةٍ تتربَّص بالإسلام، قد تبدي حُسن إسلامٍ، قد تظهر الرضا بالإسلام..**

لكنَّها ستلتقي بين القبور، وهي تريد أن يُقبر الإسلام كلُّه..

قد لا يكون هذا دليلاً قاطعاً على تورُّط الهرمزان.. وربَّما كان عبيد الله بن عمر قد تسرَّع بالقتل، بل كان لا يحقُّ له أن يقتصَّ منه حتى لو ثبت تورُّطه.. وربَّما كان من الأفضل أن يتمَّ استجوابه لتتوضَّح خيوط المؤامرة..

لكن كلُّ ذلك ذهب بموت الهرمزان..

ويبقى ذلك اللقاء الذي جمعه بفيروز مريباً ومثيراً للشكِّ، والخنجر - سلاح الجريمة - بينهما..

أكثر من هذا..

إنَّ شكوى فيروز أصلاً كانت تبدو مفتعلةً، فعمر قال له إنَّ ما يطلبه منه المغيرة ليس كثيراً، فحرفته نادرةٌ ومهارته - بشهادة عمر - كانت عظيمةً..

(فقال: إن المغيرة قد جعل عليَّ من الخراج ما لا أطيق، قال: كم جعل عليك؟ قال، كذا وكذا، قال: وما عملك؟ قال: أجوب الأرحاء، قال: وما ذاك عليك بكثيرٍ، ليس بأرضنا أحدٌ يعملها غيرك، ألا تصنع لي رحى؟).[512]

هل تعمَّد أبو لؤلؤة افتعال الشكوى.. بإيحاءٍ من محرِّضه المفترض «الهرمزان»؟.. كي يبدو الأمر شخصيَّاً بين عاملٍ اعتقد بوقوع ظلمٍ عليه، وحاكمٍ لم يُنصفه من ظالميه، باعتقاد العامل!..

هذا هو الأمر الأقرب للمنطق.

لم يُعرف عن عمر أنَّه لا ينصف أمراً كهذا، وحتَّى لو حدث وأخطأ، فمن الصعب تصوُّر أنَّ هذا السبب سيكون كافياً لاغتياله، بل المرجَّح أكثر أنَّ هذا العامل سيكرِّر الشكوى بعد فترةٍ، لا أن يحدَّ خنجره ويقتل الخليفة!..

لكن مع ذلك، فإنَّ دافع الانتقام الشخصيِّ للاغتيال يمكن أن يكون مفهوماً أحياناً..

---

٥١١ مصنف عبد الرزاق ٩٧٧٥ نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية ج ١٢ ص ٤٢٢
٥١٢ مصنف ابن أبي شيبة ٣٧٠٧٤

الأشخاص المحبطون.. الذين تحطّم انتماؤهم، وتمرّغ أنفهم المتكبّر في الوحل يمكن أن ينفذّوا أمراً كهذا، بدافع إحباطهم..
لكن..
عندما تكون هناك مؤامرة..
عندما يكون هناك «الهرمزان»..
ولقاءٌ في البقيع..
ومعاينةٌ لسلاح الجريمة..
فالأمر أكبر من ذلك بكثير.

****

كان الهرمزان، رجلاً عمل في الحكم والسياسة، وخدم دولة الأكاسرة، لذا فإنّ تورُّطه في الأمر يُكسبه أبعاداً مختلفةً.
لكن، هذا لا يسهِّل فهم الأمر.. بل قد يعقِّده..
قد نفهم الإحباط دافعاً للاغتيال..
لكن إلام يطمح الهرمزان؟
كان الهرمزان، قد «شخَّص» مبكِّرا، منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها عمر، وجود ثغرةٍ كبيرةٍ في «حمايته» الشخصيَّة، وقد عبَّر عن ذلك فيما فُهِم أنَّه ثناءٌ، لكنَّه كان تحديداً لما يُمكن أن يُستغَلَّ للنيل من عمر..
فهم الهرمزان أنَّ عدل عمر يجنِّبه التفكير في ذلك من قِبَل المسلمين..
لكن لِمَ يكون الأمر ذاته من قِبَل أعدائه؟ ما الذي يمنعهم من قتله؟
ولعلَّه تربَّص بالأمر.. انتظر أن يجد من يؤازره في ذلك، وبالتدريج، ومع زيادة الفتوحات، زاد عدد «العلوج» في المدينة.. من أمثال فيروز وسواه، وهو أمرٌ كان قد حذَّر منه عمر بالذات (**أما إني كنت قد نهيتكم أن تجلبوا إلينا من العلوج أحدا فعصيتموني**)[٥١٣]،
دون أن يحوِّل حذره إلى قانونٍ يمنع دخولهم، لعدم وجود نصٍّ شرعيٍّ يسنده في ذلك..
ولأنَّ «الحذر» وحده لا يكفي..
ووجد الهرمزان في فيروز وسيلةً جيدةً.. ربَّما كان فعلاً لديه حقدٌ شخصيٌّ على ما مضى من تحطُّمٍ من مجد الأكاسرة، وقد رأى كنوزهم غنيمةً، ورأى «تاج» كسرى بين يدي «سراقة».. البدويّ الذي ما كان الفرس يعدُّونه أكثر من «جرذ صحراء»..
واستطاع الهرمزان أن يستثمر في هذا الحقد.. أن يحرِّكه.. أن يجعله يحضر خنجراً لكي ينفِّذ جريمة الحقد الأكبر بكثير من مجرَّد الحقد الشخصيِّ.

٥١٣ المعجم الأوسط للطبراني ٥٧٩

لكن، وماذا بعد؟

ماذا سيستفيد الهرمزان من هذه الجريمة؟

لعلَّ الهرمزان، الذي عاصر أربعة أكاسرة في فترة اضطراباتٍ متعاقبةٍ عاشتها الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، قد تصوَّر أنَّ شخصاً بقوَّة عمر بن الخطاب، سيترك فراغاً في السلطة لو قُتل، **وأنَّ صراعاتٍ حادَّةً قد تنشب بعده، مما يؤدِّي إلى تفكُّك الدولة أو ضعف سيطرتها على الأمصار المفتوحة، وربَّما كان الهرمزان، يعتقد أنَّه قد يتمكَّن من أن يستغلَّ هذا كلَّه، ويستغلَّ موقعه السابق كحاكم لأقليم خوزستان،** وعلاقاتٍ لا بدَّ أن تكون قد جمعته مع بقايا قادة الفرس..

وربَّما كان يطمع بعرش كسرى من جديد.. **وذلك التاج الذي صار بين يدي سراقة!..**

ولعلَّه وعد فيروز، الذي كان يدرك أنَّه ربَّما لن يفلت من الموت، أن يتزوَّج من ابنته «لؤلؤة».. لتجلس معه على عرش كسرى..

نظريَّاً، وبالأحوال الاعتياديَّة للدول، فإنَّ مقتل شخصٍ مثل عمر، بقوَّة عمر وهيبته وحكمته، كان يمكن أن يُحدث صدعاً وانشقاقاً في الدولة، وصراعاً على السلطة يسمح لبعض الأطراف المتضرِّرة من نشوء الدولة أن تستغلَّ الظرف لأكبر غنيمةٍ ممكنةٍ..

نظريَّاً الأمر ممكنٌ... لكن.. ليس مع دولة الإسلام وحضارته.. ليس مع بناءٍ وضع بذرته محمَّدٌ وتعهَّد أمثال أبي بكر وعمر بحمايته وإنمائه..

قد يكون في كلِّ ما سبق فرضيَّاتٌ مبنيَّةٌ على شهادةٍ واحدةٍ.

لكن فلنتذكَّر..

التاريخ لا يتحرَّك عبر أشخاصٍ بدوافع شخصيَّةٍ مهما كانت كبيرةً..

التاريخ يتحرَّك على نحوٍ أكثر تعقيداً.. تُحرِّكه مصالح وعقائد ومشاعر شديدة التداخل..

وفق هذا المنظور، لم يكن اغتيال عمر من قبل أبي لؤلؤة سوى قمَّةٍ صغيرةٍ بارزةٍ لجبل المؤامرة الغاطس في عمق التاريخ..

قد يبدو للوهلة الأولى أنَّ المؤامرة قد أحبطت في سياقها العامِّ، ونجح جزؤها الخاصُّ باغتيال عمر فحسب.

نعم.

للوهلة الأولى لم تتفكَّك الدولة، ولم يصبح الهرمزان ملكاً على فارس.

لكن..

للوهلة الثانية.. على المدى البعيد..

هناك جزءٌ من المؤامرة قد نجح، ولو بعد حين.

@iAbubader

شهادةٌ مفصَّلةٌ جداً، لما حدث في ذلك الفجر الدامي الحزين.. جاءت من الصحابيِّ «عمرو بن ميمون»..

لكن هذه الشهادة يبدؤها عمرو بعبارةٍ لقولٍ سمع عمر يقوله قبل أيام من استشهاده..

هل ربط عمرو القول بما حدث.. أم أنَّه لم يره بعدها، أو لم يسمعه يقول شيئاً مباشرةً، فأحبَّ أن يذكر آخر ما يتذكَّره من أقوال عمر..

(قالَ رَأَيتُ عُمرَ بْنَ الخَطَّابِ - رضي الله عنه - قبلَ أنْ يُصابَ بِأيَّامٍ بِالمدِينَةِ وقفَ عَلَى حُذَيفَةَ بْنِ اليمانِ وعُثمانَ بْنِ حُنَيفٍ، قالَ: كيفَ فَعلتُما أتَخافانِ أنْ تَكُونَا قدْ حَمَّلتُما الأرضَ ما لا تُطِيقُ؟

قالا حَمَّلنَاها أمرًا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ، ما فِيها كَبِيرُ فَضلٍ.

قالَ: انظُرا أنْ تَكُونَا حَمَّلتُما الأرضَ ما لا تُطِيقُ..

قالَ: قالا لا.

فَقالَ عُمرُ: لَئِنْ سَلَّمَنِي اللَّهُ لأدَعَنَّ أرَامِلَ أهلِ العِرَاقِ لا يَحتَجنَ إلَى رَجُلٍ بَعْدِي أبَدًا.

قالَ: فَما أتَتْ عَلَيهِ إلاَّ رَابِعَةٌ حَتَّى أُصِيبَ).[٥١٤]

كان يحاسب عامليه على الخراج.. يخاف أن يكونا قد أثقلا الأرض وفلاحيها بما لا يحتملون.. يؤكِّدان له أن لا.. فيعود ويسألهما حاملاً هَمَّ العدل في كلِّ تفصيلٍ..

ثمَّ يقول هذه الجملة الهائلة: لئن سلمني الله لأدعنَّ أرامل العراق لا يحتجن إلى رجلٍ بعدي أبداً..

ما الذي كان سيفعله؟

لا نعرف..

لكنَّنا نقرأ في كلامه أنَّه بصدد تأسيس «شيءٍ» يبقى.. **عملٍ مؤسَّسيٍّ آخر من أعماله التي حاز فيها لقب أوَّل من فعل كذا.. ودخل بها سجلَّ الأوائل..**

لكنَّ قدَرَ الله شاء أنَّ ذلك الرجل لا يكون عمر.. لكن ربَّما يكون هناك رجلٌ آخر، ربَّما يقرأ هذه الأسطر الآن، هو من يقوم بذلك، بدلاً من عمر.. على خطى عمر..

لا تزال أرامل العراق بانتظار من يفعل ذلك..

الأرامل في كلِّ مكانٍ.

وتسلَّل الشيطان يومها، كما الأفعى، إلى المسجد، عند صلاة الفجر..

---

٥١٤ صحيح البخاري ٣٧٠٠

@iAbubader

اختار حتماً أن يذهب مبكّراً.. كانت خطّته تستلزم أن يكون في الصفّ الأوّل.. خلف عمر.. أمَّا شاهدُنا عمرو بن ميمون فقد كان في الصفّ الثاني، ليس بينه وبين عمر إلا ابن عبّاس.. لم يكن قد تأخّر في المجيء كي لا يكون في الصفّ الأول.. كان يتعمّد أن يكون في الصفّ الثاني من شدّة هيبة عمر!

(قَالَ عمرو: إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ قَالَ اسْتَوُوا!).[515]

(... وما يمنعني أن أكون في الصفّ الأوّل إلا هيبته كان يستقبل الصفّ إذا أقيمت الصلاة، فإذا رأى إنساناً متقدّماً أو متأخّراً أصابه بالدرّة، فذلك الذي منعني أن أكون في الصفّ الأول فكنت في الصفّ الثاني). [516]

إنّه ذلك الفجر الحزين إذاً..

وعمر يتقدّم الصفوف ليسويها، التسوية في صفوف الصلاة كما في صفوف المجتمع، التسوية دوماً.. «هذا هو عمله!»..

(... حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ (الصفوف) خَلَلاً تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ، أَوِ النَّحْلَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ). [517]

يوسف، أو النحل في الركعة الأولى!..

ولماذا؟

لكي يترك المجال للناس لكي يلحقوا بالصلاة في الركعة الثانية!..

عمرو بن ميمون لم يكن واثقاً من أيّة سورةٍ قرأها عمر في صلاته الأخيرة..

لكنّ شاهداً آخر أقسم أنّ عمر قرأ سورة النحل يومها..

(حدثنا إسحاق الرازيّ عن أبي سنان عن عطاء بن السائب عن عامر قال: أحلف بالله : لقد طُعِن عمر، وإنه لفي النحل يقرؤها). [518]

سورة النحل إذاً..

في الصلاة الأخيرة التي أمّ عمر فيها المسلمين..

لم يكن عمر يدري أنّها الصلاة الأخيرة..

لم يتعمّد أن يقرأ سورة النحل في آخر ما سيقرؤه من القرآن..

لكن أحياناً، ما لا نتعمّده يعبّر عنّا أكثر من كلّ ما نتعمّده.

---

٥١٥ صحيح البخاري ٣٧٠٠

٥١٦ بغية الحارث رقم ٥٩٨

٥١٧ صحيح البخاري ٣٧٠٠

٥١٨ مصنف ابن أبي شيبة ٣٧٠٦٥

سورة النحل هي سورةٌ تدور وتجول في أنعُمِ الله على البشر، من أبسط الأشياء إلى أكبرها، من نعمة الحياة والوجود في هذه الأرض إلى نعمة طول العمر مروراً بكلِّ ما يُمكِن تخيُّله ممّا أنعم الله علينا فيه.. من وسائط النقل والثمار والحيوانات وكلِّ ما سخَّره الله لنا لتكون «الحياة « أيسر..

كلُّ ما في السورة يدور حول هذا، والسؤال هو: هل وضعنا هذه النعم في موضعها الصحيح؟ هل تعاملنا معها كما يجب؟.. هل أدَّينا حقَّها؟

هل استثمرناها لتكون الحياة أيسر طريقٍ في الاتِّجاه الصحيح؟ في اتِّجاه أن تستثمر حياتك للسبب الذي خلق الله حياتك لك؟ أو أنَّك جعلت من هذه الأنعُمِ غايةً بحدِّ ذاتها، أو أنَّك وضعتها لتجعل حياتك في الطريق الخطأ؟ جعلتها «تيسر» طريق البُعد عن ما أمر الله به..

في هذه المرحلة من عمر الحضارة الإسلاميَّة، كان السؤال يبدو كما لو كان يطرح على مفترق طرقٍ لا مفرَّ منه..

لقد جاءت كلُّ الدنيا بكلِّ أنعمها للمسلمين في عهد عمر، وكان عمر حريصاً تماماً على أن تكون هذه النعم وسيلةً لا غاية، أن تكون طريقةً للمزيد من التعبُّد لله – بكل أشكاله.. أن تكون ممرّاً للعدل والعدالة.. للمزيد من الفتوحات في المجالات كافَّةً، لبناء مؤسّساتٍ تكرِّس العدل والفتح وتجعله «جارياً مستمرّاً».. وليس مجرَّد خيارٍ لحاكمٍ بفهمٍ متميِّزٍ..

في عام ٢٣ هجريَّة.. في ذلك الفجر الحزين.. وعمر يوشك على المغادرة، كانت الأمَّة على وشك أن تكون في مفترق طريقين..

هل ستتعامل مع الأنعُم، مع «واردات الفتح» كما فعل عمر؟

أو أنَّك ستأخذ منهجاً آخر؟؟

(ولا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ). (النحل: ٩٢).

تحذير، قبل المغادرة..

لا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوَّةٍ!

****

وكان هناك أشياء أخرى في ذلك الفجر الحزين في آيات سورة النحل..

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ). النحل (٣٠-٣٢).

لم يدرِ أحدٌ بينما كان عمر يقرأ تلك الآيات أنَّ الملائكة كانت تستعدُّ لاستقبال واحدٍ ممَّن كان عمله قد أحدث أثراً كبيراً في العالم، **وأنَّه سيغادر الأرض وهي مختلفةٌ تماماً عن الأرض التي جاءها**، لم يكن ذلك محصّلةً لعمله وحده، فهو لم يكن سوى واحدٍ من أتباع محمدٍ عليه الصلاة والسلام، لكن الأرض في السنوات العشر التي استُخلف عمر فيها، قد تغيَّرت كثيراً نحو ما يجب أن تكونه.. وكان ذلك يعود له ولما تعلَّمه وفهمه من رسالته عليه الصلاة والسلام..

لا أعرف إن كانت الملائكة يمكن لها أن تذرف دموعاً بينما هي تؤدِّي عملها، لو كان لها ذاك، لبكت.. لو كان لها حريَّة تأخير الأمر لحاولت!..

لعلَّها تذكَّرت يوماً ما، عند بدء التاريخ، يوم قالت لله عز وجل: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء».. وقال عزَّ وجلَّ: «إنِّي أعلم ما لا تعلمون»..

كان عمر واحداً من ذلك النوع من البشر الذين علمهم الله، ولم تتخيَّل الملائكة إمكانيَّة وجودهم..

كان عمر يقرأ الآيات..

وكانت الملائكة قد حبست أنفاسها.

لم يكن بإمكانها، لم يكن لها الحقُّ أن تفعل شيئاً يمنع ما سيحدث بعد لحظاتٍ.

وكانت هناك أيضاً..

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). (النحل: ١٢٣).

وكان هو أيضاً، على خطى إبراهيم.. أمَّةً وحده.. أنجز وحده ما تعجز عن إنجازه أممٌ كاملةٌ..

وحاز حسنة الدنيا، فآتاها حقَّها ووضعها في موضعها، فأدى ذلك إلى أن يكون في الآخرة من الصالحين..

وكانت هناك آية الخاتمة.. آخر آية في السورة..

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ). (النحل: ١٢٨).

@iAbubader

كما لو أنَّها وداع.. كما لو أنَّ القرآن يقول لعمر.. «أنت على وشك المغادرة.. الله معك»..

****

(... فَما هُوَ إِلاَّ أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ قَتَلَنِي - أَوْ أَكَلَنِي - الْكَلْبُ حِينَ طَعَنَهُ...).[519]

كبّر. شرع في الركوع.. ولعلّه قال سرّاً.. سبحان ربي العظيم..

وجاءته الأفعى. ظنّها عمر كلباً.. لكنها كانت أفعى متعدّدة الوجوه.. مستغلّةً أنّه أصبح هدفاً أسهل لحظة الركوع. مستغلّةً أنَّ الكلَّ صاروا في الوضع ذاته.. وضع الركوع. وأنَّهم لن ينتبهوا لما سيفعله "الكلب"..

طعنتان..

بخنجرٍ مسمومٍ.. صنع خصيصاً لهذه اللحظة..

واحدةٌ في الكتف. والأخرى في الخاصرة..

(... فَطَارَ الْعِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ لاَ يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلاَ شِمَالاً إِلاَّ طَعَنَهُ حَتَّى طَعَنَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً، مَاتَ مِنْهُم سَبْعَةٌ...).[520]

لو أنَّ الأمر كان شخصيّاً. ضدَّ الخليفة الذي يُفترض أنَّه ظلمه. فما شأن هؤلاء الذين "طار فيهم" بسكّين حقده؟..

لكن لا..

كان ذلك جزءاً من خطَّة حقده.. لقد افترض أنَّه سيقتل أشخاصاً من مساعدي عمر أو من مرشَّحيه المحتملين. وأنَّ ذلك سيزيد من الفوضى المحتملة الناجمة عن نجاح خطَّة قتله.. والتي كانوا يريدونها أن تكون ضربةً مفكِّكةً للدولة الإسلاميَّة..

كانت الإضاءة خافتةً حتماً. ولم يكن فيروز يعلم من يطعن حقّاً. كما أنَّ الأمر جرى بسرعةٍ والناس لا تزال تنتظر أن يأتيها صوت عمر ليقول "سمع الله من حمده".. لم يعرف ما كان يجري إلا مَن كان قريباً جداً من عمر..

ولعلَّ فيروز كان يريد أن يهرب.. مستغلاً الفوضى الناجمة لينفذ بجريمته. ويزرع الفرقة والشكَّ في صفوف المسلمين..

(... فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنُسًا، فَلَمَّا ظَنَّ الْعِلْجُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ نَحَرَ نَفْسَهُ...).[521]

---

519 صحيح البخاري ٣٧٠٠

520 صحيح البخاري ٣٧٠٠

521 صحيح البخاري ٣٧٠٠

انتحر!..
انتحر كي يبقى متستِّراً على الخطة!..
كي لا يقول عن شركائه في الجريمة..
كي لا يقول لنا إنَّ الجريمة ستبقى مستمرَّةً، وإنَّ الإسلام سيبقى مستهدفاً، وإنَّ عمر بالذات سيكون مستهدفاً دوماً، لأنَّه رمز عزِّ الإسلام، وأحد أهم مؤسسي حضارة الإسلام، وكلُّ من لا يريد للإسلام أن يعود حقّاً، وأن تعود حضارته- باختلاف شعاراته - سيبقى يهاجمه وينال منه.. ستبقى تلك الطعنات موجودةً ومستمرَّةً، بأشكالٍ مختلفةٍ ومن أيادٍ مختلفةٍ، ولكنَّها ضريبةٌ مقبولةٌ مقابل ما أنجزه عمر.. مقابل ما صنعه.. مقابل تلك الحضارة التي كانت نموذجاً عمليَّاً قابلاً لأن نستعيده ونستلهمه ببذوره ومنهجه..
انتحر فيروز كي لا يفضح شركاءه في الجريمة..
ليس الهرمزان فقط.. بل كلَّ من سيحاول أن يغتال عمر عبر التاريخ..
انتحر كي لا يقول لنا إنَّ الأمر سيبقى مستمراً.. وإنَّ قرن الشيطان عرش كسرى المحتلّ في العراق، الذي كسره عمر سيحاول أن ينتقم دوماً، بوسائل مختلفة..

(فَمَنْ يَلِي عُمَرَ فَقَدْ رَأَى الَّذِي أَرَى، وَأَمَّا نَوَاحِي المَسْجِدِ فَإِنَّهُمْ لاَ يَدْرُونَ غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ وَهُمْ يَقُولُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ).[522]
لم يعرفوا!..
لم يعرفوا الحدث الجلل..
(وَتَنَاوَلَ عُمَرُ يَدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَقَدَّمَهُ فَصَلَّى بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَلاَةً خَفِيفَةً).[523]
(صلى بهم بأقصر سورتين).[524]
(قال قائل الصلاة عباد الله قد طلعت الشمس فتدافع الناس فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم بأقصر سورتين في القرآن إذا جاء نصر الله وانا أعطينك الكوثر).[525]
(... فلما انصرفوا (أي قضيت الصلاة) قَالَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، انْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي، فَجَالَ سَاعَةً، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: غُلاَمُ المُغِيرَةِ.
قَالَ عمر: الصَّنَعُ؟
قَالَ: نَعَمْ.

522 صحيح البخاري ٣٧٠٠
523 صحيح البخاري ٣٧٠٠
524 صحيح ابن حبان ٧٠٣١
525 -بغية الحارث ٥٩٣

قال: قاتَلَهُ اللَّهُ لَقَدْ أمرتُ بِهِ معروفًا، الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي لم يجعل مِنيَّتِي بِيدِ رَجُلٍ يدَّعِي الإسْلامَ، قد كُنتَ أنتَ وأبُوكَ تُحِبَّانِ أن تَكْثُرَ العُلوجُ بِالمدِينَةِ وكانَ "العَبَّاسُ" أكثرهم رَقِيقًا، فقالَ: إنْ شِئتَ فَعلتُ. أيْ إنْ شِئتَ قتلنا. قالَ: كَذَبْتَ، بَعدَ ما تَكَلَّموا بِلِسَانِكُم، وصَلَّوا قِبْلَتَكُم وحَجُّوا حَجَّكُم).[526]

أمر به معروفاً!

إذاً كان قد كلَّم عنه المغيرة!

لكنَّه يحمد الله أنَّ منيَّته لم تكن على يد من ادَّعى الإسلام، ولو يوماً واحداً.. ثم يذكِّر ابن عبَّاس بما سبق وحذرهما منه، أن يكثر العلوج في المدينة.. ولكنَّه، والأمر قد حدث، ودخل منهم في الإسلام مَن دخل، لا يجد أنَّ هناك ما يمكن أن يحدث في هذا! لا يمكن أن يحاكم إلا ظاهر أعمالهم!

(... عن ابن عبَّاس قال: لمَّا طُعن عمر احتملته أنا ونفرٌ من الأنصار، حتى أدخلناه منزله، فلم يزل في غشيةٍ واحدةٍ حتى أسفر، فقال رجل: إنَّكم لن تفزعوه بشيءٍ إلا بالصلاة، قال: فقلنا: الصلاة يا أمير المؤمنين!

قال: ففتح عينيه، ثم قال: أصلى الناس؟ قال: نعم، قال: أما إنَّه لا حظَّ في الإسلام لأحدٍ ترك الصلاة، فصلى وجرحه يثعب دماً...).[527]

لم يجدوا ما يوقظوه به من إغماءته غير الصلاة.

ولم يجد ما يقوله، ما يتفقده، أوَّل ما فتح عينه إلا: "أصلَّى الناس"!

هذا هو عمر ...وبهذا الحرص تمكن من أن يبني كل ما بنى..

ثمَّ صلَّى وجرحه ينزف..

لا.. لم يكن جرحه وحده ينزف..

كلُّنا كنا ننزف..

لكنَّنا لم نكن ندرك ذلك.. لأنَّنا لم نكن قد ولدنا بعد.

ثم جاء الطبيب..

(... فأتاه الطبيب فقال: أيُّ الشراب أحبُّ إليك، فقال: النبيذ، قال: فدُعي بالنبيذ، فشرب منه، فخرج من إحدى طعناته، فقال: إنما هذا الصديد صديد الدم، قال: فدعي بلبنٍ، فشرب، فقال: أوصِ يا أمير المؤمنين بما كنت موصياً به فوالله ما أراك تمسي).[528]

---

٥٢٦ صحيح البخاري ٣٧٠٠

٥٢٧ مصنف عبد الرزاق ٥٨١

٥٢٨ سنن البيهقي ٥٤٦٢

النبيذ هو ليس ما يُسمّى اليوم نبيذاً، بل هو ما نسمّيه اليوم العصير، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشربه[529]. وسمّي نبيذاً لأنّه مما ينبذ من الثمار..

شرب، فخرج النبيذ من موضع الجرح..

ثم خرج اللبن من موضع الجرح، وكان ذلك يعني أنَّ معدته قد تمزّقت بفعل الطعنة، وهي ضربةٌ مميتةٌ في ذلك الوقت..

فقال الطبيب: أوصِ يا أمير المؤمنين..

فما أراك تمسي!

ستموت اليوم يا أمير المؤمنين!

****

(... قال: يا عبد الله بن عبّاس اخرج فنادِ في الناس: أعن ملأٍ منكم كان هذا؟ قالوا: معاذ الله ولا علمنا ولا اطلعنا).[530]

(وكأنَّ النَّاسَ لم تُصِبْهُم مُصِيبَةٌ قبلَ يومئذٍ، فقائلٌ يقولُ لا بأسَ. وقائلٌ يقولُ أخافُ عليهِ).[531]

محاسبته لنفسه، حتى اللحظات الأخيرة جعلته يسأل هذا السؤال: هل قتلني بعلمٍ منكم؟!...

معاذ الله..

كأنّهم لم تصبهم مصيبةٌ قبل..

نعم.. ليست مثل هذه..

وفاته عليه الصلاة والسلام كانت وفاةً طبيعيّةً..

لكن هذه كانت جريمةً..

جريمة لا تهدّد عمر- الشخص.. بل كلّ ما قدّمه هذا الشخص للإسلام..

****

(... وجَاءَ النَّاسُ يُثْنُونَ عَليهِ، وجَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ، فَقالَ: أبْشِرْ يا أمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللَّهِ لَكَ مِن صُحْبَةِ رَسولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وقَدَمٍ في الإسْلَامِ ما قدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ. قالَ: وَدِدْتُ أنَّ ذلكَ كَفَافٌ لا عَلَيَّ ولَا لِي. فَلَمَّا أدْبَرَ، إذَا إزَارُهُ يَمَسُّ الأرْضَ. قالَ: رُدُّوا عَلَيَّ الغُلَامَ، قالَ: ابْنَ أخِي ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فإنَّه أبْقَى لِثَوْبِكَ وأَتْقَى لِرَبِّكَ).[532]

---

٥٢٩ صحيح مسلم ٥٣٤٥

٥٣٠ مسند الحارث ٥٩٤

٥٣١ صحيح البخاري ٣٧٠٠

٥٣٢ صحيح البخاري ٣٧٠٠

ها أنت تموت يا أمير المؤمنين..

لكنَّك تستمرُّ بغرس الفسيلة!

حتى اللحظات الأخيرة.. إنَّه أنت يا عمر، أنت من وعظ بذلك.. وأنت من فعل ذلك.. بينما جرحك ينزف..

(فلننتبه هنا.. إلى أنَّ عمر، أعطى درساً مزدوجاً للفتى ولمن حوله.. الأول في الالتزام بالسنَّة.. والثاني في أن يتنبه الجميع إلى أنَّ الثناء على شخصٍ ما، قد يجعل هذا الشخص يغضُّ النظر عن بعض أخطاء مقدِّم الثناء.. ربَّما مقدِّم الثناء نفسه سيتوهَّم ذلك..

لكن ليس مع عمر!..

حتى أثناء احتضاره).

****

(... انطَلِقْ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ فَقُلْ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلاَمَ، وَلاَ تَقُلْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي لَسْتُ اليَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا، وَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا، فَوَجَدَهَا قَاعِدَةً تَبْكِي، فَقَالَ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ السَّلاَمَ وَيَسْتَأْذِنُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَقَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ اليَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ قِيلَ: هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَدْ جَاءَ، قَالَ: ارْفَعُونِي، فَأَسْنَدَهُ رَجُلٌ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: الَّذِي تُحِبُّ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَذِنَتْ، قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ، مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنَا قَضَيْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمْ، فَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَإِنْ أَذِنَتْ لِي فَأَدْخِلُونِي، وَإِنْ رَدَّتْنِي رُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ المُسْلِمِينَ).[٥٣٣]

لا تقولوا لها أمير المؤمنين.. حتى لا تظنه أمراً لا يمكن ردُّه، بل عمر بن الخطاب يريد أن يُدفن مع صاحبيه..

تأمَّلوا اللفظ..

"صاحبيه"..

---

٥٣٣ صحيح البخاري ٣٧٠٠

لا بدَّ أنَّه افتقدهما في ذلك الدرب الطويل الذي ساره على نهجهما..

لا شيء يعبِّر عن تكامل حياة الشيخين، وتماهيهما مع حياته عليه الصلاة والسلام، مثل طريقة دفنهم جميعاً في مكانٍ واحدٍ.

****

(... وجاءت أمُّ المؤمنين حفصة والنِّساء تسير معها، فلمَّا رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعةً، واستأذن الرِّجال، فولجت داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الدَّاخل).[٥٣٤]

كان أهل المدينة يودِّعونه.. أدركوا أنَّه مفارقهم، جاء الشباب، وجاءت النسوة، تقودهم حفصة.. للوداع..

حفصة لم تكن تبكي الأب فقط، كانت تبكي الأب "الشخصيَّ".. وتبكي أبا العيال كلِّهم.. كما كان الكلُّ يبكونه..

لكنَّ حرارة البكاء لن تكون هنا، في لحظات الفراق الحزينة..

بل لاحقاً، عندما سيُفتَقد عمر..

عندما سنقول: لو أنَّه كان حيّاً!

كلُّنا "عيالٌ" يتامى، عندما يتعلَّق الأمر بعمر!

****

(... قالوا أوصِ يا أمير المؤمنين استخلف. قال ما أجد أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النَّفر أو الرَّهط الَّذين توفِّي رسول اللهِ - صلى الله عليه وسلم - وهو عنهم راضٍ. فسمَّى عليًا وعثمان والزُّبير وطلحة وسعدًا وعبد الرَّحمن، وقال: يشهدكم عبد اللهِ بن عمر، وليس له من الأمر شيء فإن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك، وإلاَّ فليستعن به أيُّكم ما أمِّر، فإنِّي لم أعزله عن عجزٍ ولا خيانةٍ، وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأوَّلين أن يعرف لهم حقَّهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا، الَّذين تبوَّءوا الدَّار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يعفى عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا فإنَّهم ردء الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدوِّ، وأن لا يؤخذ منهم إلاَّ فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيرًا.

---

٥٣٤ صحيح البخاري ٣٧٠٠

فَإِنَّهُم أَصْلُ الْعَرَبِ وَمَادَّةُ الإِسْلاَمِ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ حَوَاشِي أَمْوَالِهِم وَتُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِم، وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ - صلى الله عليه وسلم - أَنْ يُوفَى لَهُم بِعَهْدِهِم، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِم، وَلاَ يُكَلَّفُوا إِلاَّ طَاقَتَهُم).[٥٣٥]

****

كان عمر بوصيَّته تلك، يضع لبنةً أولى لمجلس شورى، كان يريد أن يجعل الشورى مؤسَّسةً، لهذا وصَّى لستةٍ يختارون من بينهم.. لم يكن لمبدأ الشورى أن يكون سائباً مطّاطاً – كما حصل فعليّاً لاحقاً للأسف، كان يريد كما مع كلِّ شيءٍ أن يجعلها ضمن مؤسَّسةٍ واضحة المعالم، تعيِّن الحاكم المنتخب، ولا ينتهي دورها لحظة الانتخاب..

أمرٌ مهمٌّ جداً أيضاً يتوضَّح هنا، بحسمٍ، وببساطة: **لا للتوريث!**

أدرك عمر أنَّ العرب لا يزالون يميلون له لحداثة خروجهم من الجاهليَّة التي تقدِّس النسب والأنساب، ولأنَّ تجاربهم في الفتوحات لم تخرجهم عنه حقّاً حيث أنَّ تجارب المدنيَّات الأخرى كانت لا تزال في إطار التوريث..

لذا كان حاسماً..

لا توريث!

ليس لابن عمر شيءٌ.. حدَّد ذلك.. لم يسكت عنه.. وضع له منصباً "إشرافيّاً" يحرمه من المشاركة.

للأسف، لم يتمَّ الالتزام بهذا لاحقاً!

ولا زلنا ندفع ثمن عدم الالتزام بهذا.. ليس فقط من طرفٍ واحدٍ هو الطرف الأمويّ الذي حوَّل الخلافة فعلاً مِلْكاً وراثيّاً.. بل حتى من الطرف الآخر الذي حارب الأمويين.. لقد التزم أيضاً بالوراثة وجعلها عقيدةً مقدَّسةً..

وحده عمر.. بعقله الذي يشتغل بالنظام القرآنيِّ، ميَّز من بعيد العلَّة التي ستحدث، وقرر أن لا يكون هو جزءاً منها..

وترك لنا أثره هذا، لنصحِّح الأخطاء التي ستتراكم.

---

٥٣٥ صحيح البخاري ٣٧٠٠

وفـي وصيَّته أيضاً شـيءٌ عـن "أهل الأمـصـار"..

يسمِّيهم "غيظ العدو"..

علـى سـرير مـوتـه، وهـو يـنـزف.. يـقـول لـنـا أنَّ "أهـل المدن"، أي الـنـاس الـعـاديـين، بحـيـاتـهـم اليوميَّة، هم غيظ العدو، فبهم النصر الحقيقيّ، وفيهم الهزيمة الحقيقيَّة..

عندما يكون هؤلاء في مجتمعٍ قائمٍ على العدل وعلى حكم الله.. يكون العدوُّ قد هُزم حقّاً..

يكون النصر قد تمّ وأنجز..

إنَّهم غيظ العدو..

وعندما يكونون غير ذلك، تكون الهزيمة في الداخل حتى لو كان النصر العسكريُّ قد تحقَّق.

****

(...عن جارية بن قدامة السعدي قال: حججت العام الذي أصيب فيه عمر، ثم لم تكن إلا جمعة أو نحوها حتى أصيب، قال: فأُذِن لأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ثمَّ أُذِن لأهل المدينة، ثمَّ أُذِن لأهل الشام، ثمَّ أُذِن لأهل العراق، فكنَّا آخر من دخل عليه وبطنه معصوبٌ ببردٍ أسود والدماء تسيل، كلَّما دخل قومٌ بكوا وأثنوا عليه، فقلنا له: أوصِنا - وما سأله الوصيَّة أحدٌ غيرنا - فقال: عليكم بكتاب الله، فإنَّكم لن تضلُّوا ما اتبعتموه، وأوصيكم بالمهاجرين فإنَّ الناس يكثرون ويقلُّون، وأوصيكم بالأنصار، فإنَّهم شعب الإيمان الذي لجأ إليه، وأوصيكم بالأعراب فإنَّها أصلكم ومادَّتكم، وأوصيكم بذمَّتكم فإنَّها ذمَّة نبيِّكم، ورزق عيالكم، قوموا عني، فما زادنا على هؤلاء الكلمات...).[٥٣٦]

قوموا عنِّي....

لعلَّه أدرك أن وعيه سيقلُّ بالتدريج.. ولم يشأ أن يقول إلا ما يكون في تمام الوعي والإدراك.. كما كان دائماً...

أُغلِق الباب عليه..

حتى قُبِض.

٥٣٦ مصنف ابن أبي شيبة ٣٧٠٦٣

لا يزال الباب أمامنا موصداً..
خلفه، بطريقةٍ ما، لا يزال هناك عمر..
لا يزال ما فعله.. لا يزال ما صنعه..
لا يزال هذا الإرث موجوداً خلف بابٍ موصدٍ حاولوا أن يقنعونا بعدم جدوى فتحه..
الأبواب التي فتحت بعد أن أوصد هذا الباب على عمر.. كانت أبواباً من نوعٍ آخر..
تذكرون حديث الباب؟

****

قَالَ حَدَّثَنِي شَقِيقٌ قَالَ سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ - رضي الله عنه - فَقَالَ أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فِى الْفِتْنَةِ؟
قُلْتُ أَنَا، كَمَا قَالَهُ.
قَالَ إِنَّكَ عَلَيْهِ - أَوْ عَلَيْهَا - لَجَرِىءٌ.
قُلْتُ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِى أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالأَمْرُ وَالنَّهْىُ».
قَالَ: لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، وَلَكِنِ الْفِتْنَةُ الَّتِى تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ.
قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا.
قَالَ: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ ؟
قَالَ يُكْسَرُ.
قَالَ إِذًا لاَ يُغْلَقَ أَبَدًا.
قُلْنَا أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ قَالَ نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ .
فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ. [٥٣٧]

الباب عمر..
كُسِر الباب.. وأوصد الباب على عمر..
وبدأ الانحدار..
كلُّ ما حدث من منجزاتٍ لاحقاً كانت بقوّة الزخم الذي حدث قبل أن يُكسرَ الباب..
لكنَّ التباطوء والتراجع والانحدار بدأ..
بالتدريج..
رويداً رويداً..

---

٥٣٧ صحيح البخاري ٥٢٥

إنَّها لحظةٌ مفصليَّةٌ في تاريخنا..

لحظةٌ مستمرَّةٌ..

وهناك، خلف الباب الموصد، إرثٌ يمكنه أن يساهم في إصلاح الباب المكسور الذي قال عنه عمر: «لا يغلق أبداً»..

إصلاحه ولو جزئيًّا..

في يومنا هذا، نحتاج إرث عمر، في الفتن التي تموج بنا كالبحر، نحتاج حسم عمر، نتعلق به.. ليصل بنا إلى برِّ الأما...

أمام حدث وفاته نقف..

نريد استرداد عمر..

استرداد عمر!

لا نتحدَّث عن استرداد عمر بن الخطاب - الشخص.. فهذا أمرٌ لا معنى له.
نتحدَّث عن استرداد عمر – المعاني، القيم، عمر الذي كان عقله يعمل بنظامٍ تشغيل قرآنيٍّ..
عمر الذي فهم القرآن، والسنَّة، والعالم كلَّه، بنظام تشغيلٍ قرآنيٍّ..
عمر العبقريُّ الذي ليس هناك من يفري فريه.. الذي كان الأول.. إنجازاته ومنجزاته في قائمةٍ من الصعب حصرها.. عمر الذي فهم كيف يطبِّق حكم الله ليكون نموذجاً مشعّاً لكلِّ العالم..
نستردُّه ممَّ؟
نستردُّه من أن يتحوَّل لمجرد حكايةٍ.. مجرَّد قصَّةٍ.. مجرَّد تاريخٍ مضى وانتهى يطيب لنا أن نتذكَّره بين الحين والآخر..
نستردُّه من أن يكون وسيلةً لاستدرار الدمع على العدل الذي كان.. الأمَّة التي كانت.
نستردُّ عمر من «كان يا ما كان».. من حيث سيلوح لنا بدرَّته غضباً لما وضعناه فيه..
نستردُّه من أن يكون مجرَّد «أيقونةٍ» - مجرَّد تحفةٍ وضعناها في متحف ذاكرتنا، ووضعنا الشمع الأحمر على الواجهة الزجاجيَّة أمامه..
نحتاج إلى أن نستردَّ عمر.
نحتاج ذلك من أجلنا أولاً.
نحتاجه من أجل أن نكون.

****

لعلَّ عمر لو سمعنا نقول هذا لرفع درَّته علينا وهو يقول: وما عمر؟! حسبكم كتاب الله وسنَّة رسوله!
بالضبط.

@iAbubader

هذا هو ما نريده.

كتاب الله وسنَّة رسوله.

كتاب الله وسنَّة رسوله وهما يصنعاننا.. وهما يعيدان تشكيلنا.. وهما يضعاننا بمواجهة أنفسنا كما يجب أن تكون..

هذا ما فعله الكتاب والسنَّة بعمر.. أعادا تشكيله.. فصار يرى من خلالهما ويتنفَّس من خلالهما ويبني ويهدم ويصول ويجول من خلالهما..

لقد أعادا تشكيل عقله.. نمط تفكيره.. طريقته في رؤية الأشياء.. في حلِّ المعضلات.. في المواجهة..

فكان عمر بن الخطاب، إنساناً صُنِع في القرآن.. بالقرآن..

هذا هو عمر الذي نريد استرداده.

ليس الشخص.

بل حقيقة أنَّ هذا ممكنٌ.

حقيقة أنَّه يمكن أن يحدث مع بشرٍ عاديٍّ.. حقيقة أنَّنا يمكن أن نعيد تشكيل عقولنا وطريقة فهمنا ورؤيتنا بحيث نصبح ولو جزءاً يسيراً ممَّا صار..

أن نفهم القرآن والسنَّة بحيث يكونان وسيلةً للبناء والصناعة..

بناء النهضة وصنع الحضارة..

هل كان عمر – من دون كلِّ الصحابة - وحده من فهمهما على هذا النحو؟

حتماً لا، وإن كنَّا نؤمن أنَّه - وبنصِّ أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - ممَّن تفوَّقوا في ذلك..

لكنَّ عمر، بالاضافة إلى تفوُّقه في الفهم، امتلك فرصة التطبيق..

فرصة أن يثبت أنَّ النظرية قابلةٌ للتطبيق في مدياتٍ رحبةٍ واسعةٍ.. وأنَّ الشريعة يمكنها بالتاكيد إصلاح العالم.. وإعادة بنائه..

كان لعمر فرصة أن يثبت لنا أنَّنا نستحقٌّ تلك المكانة التي منحها إيَّانا عزَّ وجلَّ..

مكانة «الخليفة في الأرض»..

ما كان يمكن لرسولٍ أو نبيٍّ أن يثبت لنا ذلك، حتى لو حقَّق أضعاف ما أنجزه عمر.. لأنَّنا كنَّا سنعزو هذا الإنجاز دوماً إلى كونه نبيَّاً مرسلاً..

مع عمر- الذي كان كافراً مشركاً بل وعدوَّاً للمسلمين - الأمر مختلفٌ..

عمر امتلك ذلك الفهم.. وفرصة التطبيق.

بينما صحابةٌ آخرون، لم يمتلكوا الفرصة نفسها..

عمر توهَّج بمكانته، مكانة الخليفة في الأرض.. كما لو كان يشير لنا أنَّ هذه المكانة هي لنا أيضاً..

@iAbubader

فكان عمر بن الخطاب، إنساناً صُنِع في القرآن.. بالقرآن..

هذا هو عمر الذي نريد استرداده.

ليس الشخص.

بل حقيقة أنَّ هذا ممكنٌ.

حقيقة أنَّه يمكن أن يحدث مع بشرٍ عاديٍّ.. حقيقة أنَّنا يمكن أن نعيد تشكيل عقولنا وطريقة فهمنا ورؤيتنا بحيث نصبح ولو جزءاً يسيراً ممَّا صار..

أن نفهم القرآن والسنَّة بحيث يكونان وسيلةً للبناء والصناعة..

بناء النهضة وصنع الحضارة..

هل كان عمر – من دون كلِّ الصحابة - وحده من فهمهما على هذا النحو؟

حتماً لا، وإن كنَّا نؤمن أنَّه - وبنصِّ أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - ممَّن تفوَّقوا في ذلك..

لكنَّ عمر، بالاضافة إلى تفوُّقه في الفهم، امتلك فرصة التطبيق..

فرصة أن يثبت أنَّ النظرية قابلةٌ للتطبيق في مدياتٍ رحبةٍ واسعةٍ.. وأنَّ الشريعة يمكنها بالتاكيد إصلاح العالم.. وإعادة بنائه..

كان لعمر فرصة أن يثبت لنا أنَّنا نستحقُّ تلك المكانة التي منحها إيَّانا عزَّ وجلَّ..

مكانة «الخليفة في الأرض»..

ما كان يمكن لرسولٍ أو نبيٍّ أن يثبت لنا ذلك، حتى لو حقَّق أضعاف ما أنجزه عمر.. لأنَّنا كنَّا سنعزو هذا الإنجاز دوماً إلى كونه نبيَّاً مرسلاً..

مع عمر- الذي كان كافراً مشركاً بل وعدوّاً للمسلمين - الأمر مختلفٌ..

عمر امتلك ذلك الفهم.. وفرصة التطبيق.

بينما صحابةٌ آخرون، لم يمتلكوا الفرصة نفسها..

عمر توهَّج بمكانته، مكانة الخليفة في الأرض.. كما لو كان يشير لنا أنَّ هذه المكانة هي لنا أيضاً..

هذا هو عمر الذي نتحدَّث عن استرداده.

عمر - الإنسان الذي جمع بين الفهم والتطبيق..

وأعاد تشكيل العالم.

قال حذيفة:

كان الإسلام في زمان عمر كالرجل المقبل لا يزداد إلا قرباً، فلمَّا قتل عمر كان كالرجل المدبِّر لا يزداد إلا بعداً.[٥٣٨]

---

٥٣٨ المستدرك على الصحيحين ٤٤٨٨ وصححه الذهبي

هذا الرجل المدبِّر..
صار علينا أن نوقفه..
صار علينا أن نغيِّر وجهته..
أن نعكسها..
ليكون مقبلاً..
كما كان مع عمر.

****

استرداد عمر..
في عصرنا هذا، حيث الإسلام يكاد يصير مجرَّد شعائر مفرغةٍ منفصلةٍ عن أيَّة وظيفةٍ اجتماعيَّةٍ، نحتاج إلى فهم عمر، الذي كانت حياته صلاةً، وصلاته حياةً..
في عصرنا هذا، حيث كلُّ شيءٍ يجد تبريراً وشرعنةً وتمريراً عبر الفتاوى والآراء الفقهيَّة، حيث التمييع مذهباً، وقبول الآخر ديناً، نحتاج إلى «فصل خطاب» عمر.. إلى حسمه..
في عصرنا الذي يتجاوز فيه الانبهار بالغرب إلى درجة الاستلاب، برفض كلِّ ما عندهم حتى لو كان صواباً، نحتاج إلى العهدة العمريَّة المتوازنة..
في عصرنا، عصر الظلم، وتسمية الظلم بأكثر الأسماء قرباً من العدل، نحتاج عمر، رمز العدل الحقيقيِّ، النابع من شريعة من لا يظلم أحداً..
في عصرنا، عصر التفريط والإفراط، نحتاج عمر الذي لو كان ميزاناً لما كان فيه ميط شعرة..
في عصرنا، حيث يعامل الدين ليكون حبَّة مسكِّنٍ، أو حقنة مخدِّرٍ..
نحتاج عمر..
الذي كان يخطِّط لفتح العالم.. في صلاته.

وعلينا أن نعترف..
بصعوبة الاعتراف بذلك..
علينا أن نعترف، أن الفقه السائد اليوم غريبٌ بكثيرٍ من أدواته عن فهم عمر، وفقه عمر، ونظام التشغيل الذي عمل به رأس عمر، وأنتج من خلاله ما أنتج.
نعم.
ليست هذه دعوةً لهدمٍ دون بناءٍ.
لكن علينا الاعتراف بهذه الحقيقة.
فقه عمر بعيدٌ جدّاً عن كثيرٍ من الأدوات الفقهيَّة المستخدمة اليوم..
ونحن نحتاج إلى استرداد عمر!

@iAbubader

****

وفي عصرنا الذي أنشب فيه كسرى أظافره..

نحتاج إلى عمر.. الذي كسر رأس كسرى من قبل..

****

عن عمر قال: إنَّ الإسلام في بناءٍ، وإنَّ له انهداماً، وإن ممّا يهدمه زلّة عالمٍ، وجدال منافقٍ بالقرآن، وأئمةٌ مضلّين.[٥٣٩]

الإسلام في بناءٍ عندما يكون «إسلاماً» حقّاً.

الإسلام بالتعريف يعني أنّك في حالة بناءٍ..

لكنَّ هذا البناء يمكن أن يتوقّف بل أن يعكس، في حالاتٍ ثلاثٍ بحسب عمر..

زلّة عالمٍ غير مقصودةٍ.. قد تكون قراءةً للكتاب أو للسنّة لكن ليس بحسب نظام التشغيل القرآنيّ..

وقد تتراكم فوقها الزلات..

أو قد تكون زلّةً في موضعٍ مفصليٍّ، في مفترق طريقٍ.. تجعل كلَّ ما بعدها بناءً على اختيارٍ خاطئٍ..

وقد تكون مقصودةً.

«جدال منافقٍ بالقرآن».

يستخدم فيه المنافق بعض القرآن.. (البعض حتماً، فالكلُّ ممتنعٌ عليه) ليمرِّر مشروع هدمه الذي قد يحمل عناوين برّاقةً لمشاريع بناءٍ، ولا يمكن إلا أن يستخدم قراءةً اجتزائيّةً من القرآن لتخدم ذلك..

أو قد يكون الانهدام نتيجةً «لأئمّة مضلّين».. لنظام حكمٍ مستبدٍّ، وإن تغطّى بالقرآن والسنّة، وبرر استبداده بهما.

ونحن نعيش اليوم، بل نعيش منذ قرونٍ طويلةٍ عصر انهدامٍ طويلٍ تخلّله «بعض البناء» . لكنَّ الأساس فيه هو «الهدم».. حتى يكاد الهدم يصل للقواعد..

وكانت وسائل الهدم غالباً ماتندرج ضمن واحدةٍ ممّا حدّدها عمر، وسائل الهدم غالباً داخليّةٌ، وهي التي تسهل دخول الأعداء الخارجيين الذين من الطبيعيِّ جدّاً أن يهدموا..

مهمتهم هي أن يهدموا..

لكنَّ الهدم، جذوره وأسبابه تكون من الداخل.

---

٥٣٩ كنز العمال ٢٩٤٠٠

@iAbubader

من لم يعالج أمر الجاهليَّة..
ومن لم يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم.
هل يقول لنا أنَّنا هلكى فقط لأنَّنا لم نصحب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم ندرك الانتقال من الجاهليَّة إلى الإسلام؟
لا.
بل يقول لنا أن نعود دوماً إلى النبع الأول.. إلى إسلام النصوص المؤسِّسة.. القرآن الكريم وسنَّة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.. ونزيل عنهما الأفهام المتراكمة التي قد تحمل الصواب كما الخطأ..
إنَّه يقول أن نعود دوماً إلى اللحظة الفارقة، لحظة مواجهة الإسلام مع الجاهليَّة، فهي ستتكرَّر كثيراً ، بأشكالٍ مختلفةٍ..
وسيُهلِكنا أن نتجاهل ذلك..
سيُهلِكنا أن نتجاهل أن الجاهليَّة تتربَّص بنا..
وأنَّ معالجة أمرها لن يحدث إلا بالقرآن، وما فعله النبيُّ تجاهها.

****

ليس من المهمِّ هنا أن نقصَّ ما حدث بعد ذلك.. في عام ٢٣ هجرية وما تلاها..
المهمُّ هو ما سيحدث بك أنت، ما سيحدث في داخلك، ما سيحدث في هذه السنة بالذات.. المهمُّ ما ستفعله أنت بعد أن عرفت ما عرفت من سيرة عمر..
لو أنَّك لم تعرف.. لربَّما لا يكون هناك معنى في هذا الكلام..
لكنَّك عرفت.. فلا مفرَّ إذاً..
لا يمكنك أن تدخل في سيرة عمر، وتخرج منها كما دخلت..
ولو حدث ذلك، لكنت تبوء بإثمٍ عظيمٍ..
لقد عرفت ما فعل «رجلٌ واحدٌ» لأمَّته ولدينه ولحضارة الإسلام.. فكيف يمكن أن تخرج من سيرته دون أن تفعل أنت شيئاً لها، وهي في حالها الذي تعرف؟
لا حجَّة لك، فسيرة عمر حجَّةٌ عليك.. سيرته أقامت الحجَّة علينا.. لم يكن نبيَّاً ينزل عليه الوحي.. لقد كان كافراً مشركاً يشرب الخمر في الجاهليَّة.. بل كان ضدَّ المسلمين، ونالهم منه أوَّل الأمر الأذى والعذاب..
ثم انقلبت حياته، فساهم في تغيير العالم، كما لو بانقلابٍ كونيٍّ..
فمتى تنقلب على حياتك؟ متى تنقلب على ذاتك وعلى رضاك بأقلِّ القليل من الأعمال، ممَّا كان سيضربنا عليه عمر بدرَّته بكل الأحوال؟
متى ننقلب على مفاهيمنا، لنخرج ذلك العملاق الرابض في أعماقنا.. الذي يكاد يقتله الانتظار..

@iAbubader

انتظار أن تبدأ حياتك حقاً، حياتك كما أرادها الله أن تكون؟
لا يمكن لأحدٍ أن يكتب عن عمر، أو يبحث عنه، أو يقرأ بشكلٍ مكثفٍ إلا أن يخرج من «التجربة» بأمرٍ من اثنين..
إمَّا أن يصيبه الإحباط والشعور بالضَّعف والوهن، عندما يقارن نفسه به..
أو أن يشعر بالتحفيز.. بالرغبة في أن يعمل المزيد.. يشعر بأنَّ يداً أخرى تنبت هنا، رابعة تنبت هناك..
لو شعرت بالإحباط من عمر، فدعه يتصرَّف معك كما لو كان سيفعل لو كنت أمامه..
كان سيرفع درَّته ليقول: ارفع رأسك، وامدد بعنقك، فالإسلام ليس بمريض.. لا تُمِتْ علينا ديننا.. أماتك الله!
أحيِ دينك.. أحياك الله!

****

عمر مات..
نعم مات..
قتِل طعناً..
لكن أنت لم تمت بعد..
أم أنَّك متَّ حتى لو كنت لا تزال على قيد الحياة؟

هذا هو الفرق..

****

المهمُّ في سيرة عمر أن لا تكون قصَّةٌ للتسلية.. أو قصَّةٌ لمواساتنا عن حاضرنا الخجل.. تستنزف دموعنا لترضي ضمائرنا..
المهمُّ أن تستثمرها في استرداد عمر ليكون جزءاً من مسيرة حياتك، من مسيرة خروجك - خروجنا من هذا الواقع..
المهمُّ في سيرة عمر أن لا تكون مجرَّد سيرةٍ.. كقصص الحكايات والعبر.. بل أن تساهم في جعلها عاملاً أساسيَّاً في مسيرتك الشخصيَّة.. حيث الفرد في داخلك جزءٌ من الكلِّ، وحيث الأنا جزءٌ من الـ «نحن»..
كلُّ ما أضعناه، كلُّ ما ضيَّعناه، كلُّ ما نريد استرداده، سيمرُّ حتما أولاً باسترداد مقوِّمات شخصيَّةٍ بعينها، يلخِّصها عمر..
عندما نستردُّه، نستردُّ فهمه وحسمه وحزمه وفصل خطابه، سنتمكَّن من استرداد كلِّ ما ضاع.. وكلِّ ما ضيَّعناه.

@iAbubader

عمر..
لم يخلق من نورٍ..
ولم ينزل عليه وحيٌّ..
(مثلنا)
لكنّه ساهم في إنارة هذا العالم بالوحي الذي نزل على محمّدٍ عليه الصلاة والسلام.

****

أهمُّ فصلٍ في سيرة عمر، هو الفصل الذي لم يكتب بعد، رغم كونه فصلاً محوريّاً..
إنّه فصلٌ لن أكتبه أنا، ولن يستطيع أيُّ كاتبٍ أن يكتبه أيضاً..
ولكن ستكتبه أنت.
وسيكون الفصل الأهم..
فصل انتقال عمر من السيرة..
إلى مسيرتك الشخصيّة..
بعبارةٍ أخرى: فصل استردادك لعمر.

ابتدأ في ٢٠١٢/٢/١٩

انتهى في ٢٠١٢ /٣/٣٠

تمت كل الملاحظات في ٢٠١٢/١١/٥



د. أحمد خيري العمري

- من مواليد بغداد ١٩٧٠ لأسرة من مدينة الموصل.
- تخرج طبيبا للأسنان من جامعة بغداد عام ١٩٩٣.
- باحث في فكر النهضة المستند على قيم وثوابت قرآنية.

استرداد عمر من السيرة إلى المسيرة

آن لنا أن نخرج عمر بن الخطاب من خانة كتب السيرة على رفوف المكتبة، إلى مسيرتنا اليومية.. إلى حياتنا..
آن لنا أن نخرج فهم عمر بن الخطاب للقرآن وللسنة النبوية من كتب التاريخ إلى التطبيق العملي..

الفهم العمري للقرآن والسنة، في مرحلة دقيقة جدا من التاريخ الإسلامي، هو الذي مد هذا التاريخ أفقيا وعموديا، أفقيا في فتوحات البلدان، عموديا في آفاق العدالة والبناء والنهوض.

لا يمكن أن نزعم أن هذا الفهم العمري هو الفهم الوحيد الصحيح للقرآن والسنة.. لكننا نزعم أن هذا الفهم الذي ساهم في صنع الحضارة الإسلامية، هو ما نحتاجه اليوم تحديدا، من بين كل الأفهام التي قد تكون مناسبة في مراحل تاريخية أخرى.

اليوم، في هذا الدرك الذي وصلنا له، في تطلعنا للخروج منه، نحتاج إلى فهم عمر، إلى رأس عمر، إلى رؤية عمر، للخروج مما نحن فيه نحو مستقبل ناهض.. نحو القيام بما خلقنا من أجله.

نحتاج إلى فهم عمر تحديدا، في هذه المرحلة، كي نكون ما يجب أن نكونه.
هذا ليس كتابا في السيرة أو التاريخ..
إنه كتاب في المسيرة، نحو المستقبل..





المركز الطبي الدولي
International Medical Center